



الندوة العلمية الدولية السادسة
بعنوان:

صُنَاعَةُ التَّمْيِيزِ وَتَمْيِيزُ الْمَهْمَلَاتِ
فِي السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ

عقدت في رحاب
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

١٣-١٥ جماد الآخر ١٤٣٤ هـ

٢٣-٢٥ أبريل ٢٠١٣ م

(الجزء الثاني)

قواعد النشر

حرصاً على تحقيق أهداف الندوة، والسعي نحو إنجاحها ببحوث متميزة تتسم بالأصالة والموضوعية والإضافة المعرفية، التزمت الأمانة العامة في تقييم الأبحاث على القواعد الآتية:

- ١ - أن يتسم البحث بالجددة والأصالة والعمق، والسلامة اللغوية، والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في البحوث العلمية، وتجنب الاستطراد والخروج عن الموضوع.
- ٢ - أن تتضمن مقدمة البحث الجديد الذي أضافه الباحث على الدراسات السابقة، والإشارة إلى بعض النماذج من ذلك.
- ٣ - أن يكون البحث واضح الصلة بالأهداف المعلنة للندوة، ضمن محور من محاورها.
- ٤ - ألا يكون البحث قد نُشر من قبل أو قُدِّم للنشر إلى جهة تحكيمية، أو نال به صاحبه درجة علمية، وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك.
- ٥ - أن تكون الأدلة المذكورة موثقةً بالتخريج من المصادر الأصلية، ومبيّنةً درجة قبولها إذا كانت من غير الصحيحين.
- ٦ - عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة، مع توضيحها في الحاشية عند أول ذكْر لها.
- ٧ - عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به، وتوضيح وجه الدلالة منه.
- ٨ - أن تُثبَّت قائمة المصادر والمراجع مستوفاةً في آخر البحث، مرتبةً على حروف المعجم.
- ٩ - ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في حال اعتماد الباحث أكثر من طبعةٍ للكتاب الواحد.
- ١٠ - ذكر نتائج البحث وتوصياته.
- ١١ - أن يكون حجم الخط في كتابة البحث (١٦)، وأما الحواشي فتكون بحجم (١٤). على نظام ويندوز بخط (Traditional Arabic)، مع ترك مسافة ٢٥ سم في جوانب الصفحة الأربعة، وأن يتراوح البحث ما بين (٢٥) إلى (٣٥) صفحة.
- ١٢ - يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنة التحكيم على بحثه، وإرسالها في الموعد المحدد.

فهرس الجزء الثاني

الجلسة الثانية

- «تنمية المهارات لتكوين الأسرة المتميزة في ضوء السنة النبوية»
د. عبد الله محمد مشبب الغرازي - جامعة صنعاء - اليمن ٧
- «وظيفة المرأة في صناعة التميز في ضوء السنة النبوية»
أ.د. عبدالرحمن العمراني - جامعة القاضي عياض، مراكش - المغرب ٦٥
- «مراعاة الحاجات النفسية للطفل في ضوء السنة النبوية مدخل لصناعة التميز
وتنمية المهارات» - د. عزيز البطيوي - أستاذ باحث - المغرب ١٠٣

الجلسة الثالثة

- «التطبيقات النبوية في صناعة التميز وتنمية المهارات (الدعوة والإعلام)»
د. محمد عبدالرزاق إمام - جامعة طيبة - السعودية ١٤٧
- «التطبيقات النبوية في صناعة التميز وتنمية المهارات: المال والأعمال نموذجاً»
أ.د. سيد حسن عبدالله - جامعة الأزهر - مصر ٢١٩
- «قواعد التميز في النظام الإسلامي للمال والاقتصاد، دراسة تحليلية في ضوء
السنة النبوية» - د. هيثم عبد الحميد علي خزنة - الجامعة الأسمرية - ليبيا ... ٢٨١

الجلسة الرابعة

- «معالم توظيف الذكاء العاطفي في السنة النبوية ومعالم تحصيله»
أ. عبد القادر عثمان إسماعيل - جامعة ملايا - ماليزيا ٣٢٩
- «مهارة صناعة القرار واتخاذها في السنة النبوية الشريفة»
د. محمد امنو الوطيسي - مركز مهن التربية والتكوين - المغرب ٣٧٧
- «صناعة التميّز العسكري للجنّد في السنّة النبوية»
د. عبد الحكيم محمد ثابت العراشي - جامعة عدن - اليمن ٤٤٩
- يوم الخميس ١٥ / جماد الآخر / ١٤٣٤هـ الموافق ٢٥ / أبريل / ٢٠١٣م

الجلسة الختامية

- كلمة الأمانة: أ.د. رفعت فوزي - عضو الأمانة العامة ٥٠٣
- قراءة التوصيات: د. عبدالسلام أبو سمحة - مساعد الأمين العام للندوة ... ٥٠٧

تنمية المهارات لتكوين الأسرة المتميزة

في ضوء السنة النبوية

د. عبد الله محمد مشيب الغرازي

جامعة صنعاء - اليمن

من أبرز فقرات البحث

«إن قيامنا باستعراض سريع لبعض نصوص السنة المطهرة، الواردة في ذكر بعض المهارات الأسرية، التي كانت سائدة على عهد النبي - ﷺ -، يضعنا أمام إشارات جيدة، تكفي لرسم صورة أولية واضحة المعالم، عن وضع تلك المهارات -آنذاك-، وكيف تعاملت معها السنة المباركة تعاملًا إيجابيًا؛ تمثل في تشجيعها، والحث على تنميتها -بالقول والفعل-؛ الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في خلق أسرة فاعلة، نشيطة، منتجة، شكلت أساساً قوياً لبناء مجتمع حرفي مهني من الطراز الأول، استحق -بجدارة- كل ما وصل إليه من رقي وتميز في مختلف المجالات.

لقد كان نساء البيت النبوي الطاهر، ونساء الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- خير قدوة في هذا الشأن؛ فقد سعين -جاهدات- إلى تعلم كثير من المهن والمهارات المنزلية -داخل المنزل وخارجه- فنجحن في ذلك وتميزن فيه، حتى وصل بهن الحال إلى بلوغ درجة من الاكتفاء الذاتي في كثير من السلع والخدمات التي تحتاجها أسرهن، فكنَّ -بحق- نعم الزوجات الصالحات، والعاملات المنتجات المهارات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الراشدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فهذا البحث الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم، موسوماً بـ: «تنمية المهارات لتكوين الأسرة المتميزة» هو من الأبحاث المقدمة للمشاركة في الندوة العلمية الدولية السادسة، في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي.

وبالاطلاع على عنوان البحث، تتضح لنا المشكلة التي سيحاول الباحث طرحها، ومناقشتها، والوصول إلى المعالجات المناسبة لها في هذا البحث، وتتلخص في معرفة مدى إمكانية الوصول بالأسرة المسلمة إلى درجة التميز الأسري، من خلال تنمية مهاراتها، وتطوير مواهب وقدرات أفرادها، في ضوء ما جاء في السنة النبوية المطهرة من النصوص المتعلقة بهذا الموضوع.

يكتسب هذا الموضوع أهميته من أهمية الجهة المستهدفة به وهي الأسرة، تلك الوحدة الاجتماعية الأولى، التي تُعد للمجتمع كالقلب للجسد! يَصْلُحُ بصلاحتها، مثلما يكون فسادها سبباً لفساده.

من هنا كان لكل عمل أو جهد يبذل في تطوير هذه الأسرة، والرقي بها، أهميته الخاصة - وبضمن ذلك موضوع بحثنا هذا - على اعتبار أنه يبحث في كيفية الوصول بهذه الأسرة إلى درجة من النجاح والتميز، تجعل منها أيضاً لا ينقطع من الفاعلية والنشاط، والعطاء والانتاج، والإبداع، الأمر الذي يؤهلها للقيام بدورها الإيجابي الفعال في بناء المجتمعات والأوطان.

ومما يزيد هذا الموضوع أهمية، ربطه بالسنة النبوية المطهرة، والعمل - قدر الإمكان - على تأصيله منها، إسهاماً في إخراج مكنونات السنة المباركة للناس، وربطها بالواقع العملي المعاش.

يُنْتَظَرُ من هذا البحث تحقيق جملة من الأهداف أهمها الآتي:

- تحقيق التميز الأسري بواسطة الاهتمام بتنمية مهارات الأسرة.
- معرفة أهم المهارات اللازمة للوصول إلى التميز الأسري، وطرق اكتسابها، وتنميتها، في ضوء السنة النبوية.
- تسليط الضوء على بعض المهارات الأسرية التي زاولتها الأسرة على عهد النبي - ﷺ - وعملت على تطويرها، وتحسين أدائها فيها، حتى تتمكنت من تحقيق الاكتفاء الذاتي في كثير من السلع والخدمات التي تحتاجها. علّ ذلك يمثل نموذجاً عملياً تحثي به الأسرة المسلمة اليوم، فتسعى لتطوير ذاتها، والخروج من طور الاستهلاك والبيات الشتوي، إلى نمط الفاعلية والانتاج والتميز.
- وبحسب علمي واطلاعي لا توجد دراسة علمية أكاديمية، تناولت موضوع هذا البحث بالتحديد - كما جاء في عنوانه -، وجل ما اطلعت عليه عبارة عن إشارات قصيرة وردت في بعض المقالات المبتوثة على شبكة الانترنت عن موضوع التميز الأسري^(١). فإن تأكد لنا ذلك؛ كان من المتوقع لهذا البحث إضافة شيء جديد في بابه، لاسيما فيما تعلق بموقف السنة النبوية من المهارات الأسرية، وتنميتها بغرض الوصول إلى التميز الأسري.

وبالله الهداية والتوفيق؛؛؛

١- من هذه المقالات: الأسرة المتميزة، موقع معهد الإمارات التعليمي، على الرابط: www.uaev.com / www.saaaid.net/doi/vb/t-brigawi/15.htm. سر تميز البيت المسلم، أمل صبري، موقع: شبكة أنا مسلمة، على الرابط: www.muslmh.com/modules.php

تمهيد

أولاً: المفاهيم والمصطلحات.

١- تعريف المهارات:

أ- في اللغة: جمع مَهارة - بفتح الميم والهاء - وهي: إتقان الشيء وإحكامه والحدق فيه. جاء في المعجم الوسيط: «مَهَرَ الشيء وفيه وبه، مَهارةً: أحكمه وصار به حاذقاً، فهو ماهر»^(١).

ب- في الاصطلاح: المهارة هي: التمكن من إنجاز مهمة بكيفية محددة، وبدقة متناهية، وسرعة في التنفيذ^(٢). وتنمية المهارات تعني: العمل المستمر - بكل الوسائل الممكنة - على تطويرها وتحسين الأداء فيها، ورفع مستوى كفاءتها وفعاليتها.

٢- تعريف الأسرة: هي «تلك الجماعة التي تعيش في محيط مكاني واحد، وترتبطهم صلة قرابة»^(٣).

٣- تعريف التميز:

أ- في اللغة: أتى مصطلح التميز في اللغة على عدة معان منها: التميز بمعنى التفاضل، والرفعة، والتنافس. جاء في تاج العروس^(٤): «... ماز الشيء يميزه مِيزاً: فضل بعضه على بعض... والميِّزُ: التمييز بين الأشياء، والرفعة... وامتاز القوم: تميز بعضهم من بعض، والتمايز: التحزب والتنافس».

١- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون ٢/ ٨٨٩، وانظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٦٦، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ١٥٧، ١٦٠، تهذيب اللغة، الأزهرى ٦/ ١٥٩.

٢- موسوعة ويكيبيديا الحرة، الرابط: مهارة www.ar.wikipedia.org/wiki، /٢٥/١/٢٠١٣م، الساعة ٧:٠٠ مساءً.

٣- مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة، خالد الحازمي، ص ١٣٣.

٤- ص ٣٤٠-٣٤١.

ب- في الاصطلاح: التمييز هو: «تمتع فرد أو جماعة بخصائص عالية أو قدرات إبداعية، لا توجد لدى أقرانهم، تجعلهم أكثر أداءً، وفاعليةً، ومنافسةً في مجال محدد»^(١).

ثانياً: أهمية التمييز الأسري:

تأتي أهمية التمييز الأسري من أهمية الأسرة نفسها، إذ إن الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فإذا كانت هذه اللبنة متميزة - ذات جودة عالية - كان البناء كذلك، والعكس بالعكس.

فتمييز الأسرة المسلمة إذاً، هو الطريق إلى تمييز المجتمع المسلم، وتميز المجتمع يعني نهوض الأمة من كبوتها، وخروجها من دائرة الضعف، والوهن، والغثائية التي تعاني منها اليوم، إلى دائرة القوة، والرقي، والتقدم، والازدهار، الذي كانت عليه بالأمس.

جاء عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمَنْ قَلَّةٌ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ. وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورٍ عِدْوَكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(٢).

١- تراجع المواضيع الآتية على شبكة الانترنت:

التمييز، موقع منهل الثقافة التربوي، الرابط: www.manhal.net/articles.php، ٢٥ / ١ / ٢٠١٣م، ١٠:٣٠ مساءً.

التمييز في منظمات الأعمال، موقع: شبكة المحاسبين العرب، الرابط: www.acc4arab.com، ٢٥ / ١ / ٢٠١٣م، الساعة: ١٠:٤٠ مساءً.

٢- أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ٤ / ١١١، رقم ٤٢٩٧. وأحمد في مسنده ٥ / ٢٧٨، رقم ٢٢٤٥٠، وصححه الألباني في: السلسلة الصحيحة ٢ / ٦٤٧، رقم ٩٥٨.

في الحديث دلالة على أن حالة الضعف والهوان التي تعاني منها الأمة اليوم ليست في الكم «بل أنتم كثير» - أكثر من مليار مسلم - ، وإنما تكمن علتها في الكيف «لكنكم غثاء كغثاء السيل»، وأن العلاج يتمثل في إيجاد الوسائل المناسبة لتفعيل هذا الكم الهائل من الطاقات البشرية المهدرة، وإعادة تأهيل هذا الغثاء، - ابتداءً بتنمية مهارات الأسرة - ليصبح رقماً حقيقياً، يستطيع إحداث دفعة تغييرية كافية لحصول التغيير الإلهي لحال الأمة نحو الأحسن، كما يقتضي قانون التغيير الإلهي الذي عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

من جهة أخرى فإن تميز الأسرة المسلمة المعاصرة في مختلف الجوانب الحياتية، الدينية، والثقافية، والأخلاقية، والاجتماعية، والمهاراتية، من شأنه أن يجعل منها نموذجاً رائعاً، وأسلوباً عملياً ناجحاً، للدعوة إلى الله، وجذب الآخرين إلى الإسلام.

ولا سيما أننا في عصر العولمة وما أدى إليه من تقارب للمسافات، وتزاوج بين الثقافات والحضارات، مما هيأ فرصاً جديدة - ونادرة - لعرض الإسلام على الناس.

ثالثاً: الأسباب الشرعية للتمييز:

هناك أسباب شرعية ضرورية لتحقيق التمييز الأسري، ينبغي على الراغب فيه، وضعها نصب عينيه، وجعلها نقطة للانطلاق إليه، وأهم هذه الأسباب الآتي:

١- الإخلاص: فالتمييز الأسري - كغيره من الأعمال - يحتاج إلى إخلاص للقصود والنية؛ بأن يقصد به صاحبه وجه الله - عز وجل - وخدمة دينه وأمته،

وانتظار الأجر والثواب عليه منه - سبحانه - بعيداً عن الرياء، والسمعة، وانتظار المدح والثناء من الناس، لأن من شأن ذلك إسخاط المولى - عز وجل - عليه وإفقاده التوفيق والنجاح في مسعاه. فقد جاء في حديث عُمرَ ابنِ الخطَّابِ رضي الله عنه على المنبر قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

٢- الاستعانة بالله: وذلك بأن يمد طالب التميز يديه بالدعاء إلى الله - عز وجل -، سائلاً منه العون على هذه المهمة الشاقة. فقد كان النبي ﷺ يحث أهل بيته على دوام الاستعانة بالله، وطلب الغوث والصلاح منه - سبحانه - في جميع أحوالهم؛ حيث أوصى ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله: «... وَإِذَا اسْتَعْنَتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...»^(٢). أي: إذا أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة (فاستعن بالله) فإنه المستعان وعليه التكلان^(٣)، فمن أعانه فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول^(٤).

وكذلك أوصى - ﷺ - بذلك ابنته فاطمة الزهراء - رضي الله عنها -؛ كما جاء عن أنس - رضي الله عنه - قال رسولُ الله ﷺ لفاطمة: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكَ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا صَبَحْتِ وَأَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ اسْتَعِيْثُ

١- أخرجه البخاري في صحيحه باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ٣ / ١، رقم ١، ومسلم كتاب الإمارة، باب قوله: إنما الأعمال بالنية...، ٣ / ٥١٥، رقم ١٩٠٧، واللفظ للبخاري.

٢- أخرجه الترمذي - ضمن حديث طويل - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه؛ ٤ / ٦٦٧، رقم ٢٥١٦ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده ١ / ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩، وصححه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح ٣ / ١٤٩، رقم ٥٣٠٢.

٣- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري ٩ / ٤٩١.

٤- انظر: سبل السلام، الصنعاني ٤ / ١٧٦-١٧٧.

أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(١).

في الحديث دلالة على سبب من أهم أسباب تميز الأسرة النبوية المطهرة - إن لم يكن أهمها على الإطلاق - وهو اللجوء إلى الله - عز وجل - وطلب العون والصلاح، والتميز والنجاح، منه - سبحانه - دون غيره، وهو ما ينبغي على كل راغب في التميز فعله.

المطلب الأول: المهارات الإدارية وأثرها في تميز الأسرة المسلمة.

من الأسباب الرئيسية لنجاح أي شركة أو مؤسسة مالية، أو صناعية، أو تجارية، وجود إدارة كفؤة تسوسها وترعى شؤونها؛ وهذه الإدارة لا يوكل أمرها - عادة - إلا إلى أكفأ المرشحين لها، ممن تخصصوا في هذا الفرع علمياً، ودربوا عليه عملياً، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة.

إذا كان هذا هو الشأن في هذه المؤسسات الأقل شأنًا من مؤسسة الأسرة، فأولى أن تتبع هذه القاعدة مع هذه المؤسسة الخطيرة، التي تنشئ أئمن عناصر الكون، وهو العنصر الإنساني^(٢).

بناءً على ذلك فقد أسند الشارع الحكيم قيادة الأسرة إلى أكفأ عضو فيها وهو الزوج، نظراً لما يتميز به من خصائص وصفات تؤهله لتحمل تبعات هذه القوامة، كقوة الجسم، وكمال العقل، والشدة، والخشونة، وقوة التحمل... ونحو ذلك من الصفات التي لا تتوفر - غالباً - لدى المرأة، ناهيك عن قيامه بالإنفاق على الأسرة، مما يجعله أولى بالقوامة عليها من المرأة.

١ - أخرجه النسائي في: السنن الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أمسى، ٦ / ١٤٧، رقم ١٠٤٠٥، والحاكم في: المستدرک کتاب الإيمان، ١ / ٧٣٠، رقم ٢٠٠٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في: مجمع الزوائد ١٠ / ١١٧: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير عثمان بن موهب، وهو ثقة». وصححه الألباني في: السلسلة الصحيحة ١ / ٤٤٩، رقم ٢٢٧.

٢ - انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٦٤٨-٦٥٢.

وقد أشار المولى عز وجل إلى هذين السببين لقوامة الرجل على المرأة فقال:
﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾
(النساء: ٣٤).

كما أشار النبي ﷺ إلى إخفاق المرأة في الولاية على الرجال -عموماً- وعدم
فلاح أو نجاح المولين لها عليهم فقال: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»^(١)، وولاية
المرأة على زوجها داخلة في هذا العموم - والله أعلم -.

إذا علم هذا؛ فإن إدارة الأسرة - ممثلة في مدير الأسرة (الزوج) ونائبه
(الزوجة) - تحتاج إلى الإلمام ببعض المهارات الإدارية الأولية، لتتمكن من إدارة
الأسرة بنجاح، والوصول - بالتالي - إلى التميز الأسري المنشود.

ومن هذه المهارات الإدارية ما يأتي:

١- التحلي ببعض الصفات القيادية: كالحكمة، والصبر، والحلم، والأناة،
وقوة الإرادة، والتفاؤل، والواقعية، والتوسط بين اللين والشدة، والعدل،
والمساواة، والقدوة الحسنة، واعتماد مبدأ الحوار الأسري إلى غير ذلك
من الصفات التي ينبغي توفرها في الشخصيات القيادية - ولا سيما إدارة
الأسرة - وسنأتي على ذكر بعض هذه الصفات، - قريباً إن شاء الله - فلا
نطيل بذكرها تجنباً للتكرار.

٢- التخطيط الأسري: أي وضع الأهداف، ثم التخطيط لمستقبل الأسرة على
ضوئها، بما يتوقع من خلاله تحقيق تلك الأهداف، بأيسر جهد، وأقل وقت
ممكن.

١- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقبصر، ٤ / ١٦١٠، رقم ٤١٦٣. من
حديث أبي بكره في أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى.

ومثال ذلك قبل الزواج: قيام رب الأسرة بالتحري، ودقة الاختيار لزوجه وشريكة حياته، من خلال الحرص على توافر بعض صفات الزوجة المثالية الصالحة في المرأة التي سيقع اختياره عليها لتشاركه مهمة تكوين أسرة صالحة متميزة .

وهذه الصفات كثيرة ولا يتسع المقام لتفصيل الكلام عنها^(١)، لكن جماعها عائد إلى الدين، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَنْكُحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَافْظَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(٢).

في الحديث ذكر لبعض الخطوط العريضة، التي يستهدي بها الراغب في الزواج، عندما يكون في مرحلة التخطيط ووضع دراسة الجدوى لمشروع أسرته القادمة.

والمفترض أن تحتوي هذه الدراسة على تحديد الأهداف ووسائل تحقيقها؛ أما الأهداف: فتصير جميعها إلى هدف واحد هو: إقامة أسرة سعيدة وناجحة ومتميزة، وأما الوسائل فكثيرة، لكن أهمها إيجاد شريكة حياة مناسبة، تتوفر فيها صفات محددة، تؤهلها لإنجاح هذا المشروع الحيوي الهام.

وهنا تكفلت السنة المطهرة - كما أسلفنا - بإرشاد الراغب في الزواج - من خلال هذا الحديث وغيره - إلى أهم تلك الصفات المطلوبة، مع تأكيدها على

١- هذه الصفات: الدين، والخلق الحسن، والجَمال، والعقل، والبكارة، والأصل الحسن، والبيئة المناسبة، وكونها بعيدة القرابة عنه، ودوداً ولوداً، بكرأ... إلى غير ذلك من الصفات التي ذكرها الفقهاء في هذا الباب، ولعرفة تفاصيل الكلام عن هذه الصفات ينظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢ / ٣٦ - ٤٢، إعانة الطالبين، أبو بكر الدمياطي ٣ / ٢٧٠ - ٢٧٣، المغني لابن قدامة ٧ / ٨٢-٨٣، فقه السنة، سيد سابق، ٢ / ١٤٧ - ١٥١، الأسرة في ضوء الكتاب والسنة، سيد فرج، ص ٦٠-٧٠.

٢- أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكتفاء في الدين، ٥ / ١٩٥٨، رقم ٤٨٠٢، ومسلم كتاب النكاح، باب استحباب نكاح ذات الدين، ٢ / ١٠٨٦، رقم ١٤٦٦ واللفظ له. تربت يدك: أي لصقتا بالتراب - كناية عن الفقر - وهو دعاء عليه، أي لا أصاب خيراً، إن لم يكن الدين اختياره الأول، انظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، ص ٣٢، ولسان العرب، ابن منظور، ١ / ٢٢٨.

معيار الدين وتقدمه على غيره من المعايير النسبية الأخرى.

ومن الواضح أن السنة الشريفة قصدت بذلك وضع أسس سليمة وصالحة لأن تبني عليها - مستقبلاً - أسرة قوية، مستقرة، تتمتع بالديمومة والنجاح والتميز.

وقد صرح النبي - ﷺ - بهذا القصد - الديمومة والبقاء المستقبلي - حينما أراد المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - زواج امرأة، فقال له رسول الله - ﷺ - : «أَنْظِرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤَدَمَ بَيْنَكُمَا»^(١). فمعنى «يؤدم بينكما»: أي تكون بينكما - مستقبلاً - المحبة والمودة والألفة، يقال: أدم الله بينهما: أي ألف ووقف^(٢).

ومن أمثلة التخطيط الأسري بعد الزواج: قيام الزوجين بتخطيط الإنجاب، وتنظيم النسل، باستخدام إحدى الوسائل المشروعة لمنع الحمل - مؤقتاً - كالعزل، بما يحقق مصلحة الأم والطفل، ولا يتعارض مع مقاصد الشرع في الإنجاب والتكاثر. فقد روي عن جابر رضي الله عنه قال: «كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ»^(٣). ومفهوم كلامه أنه لو لم يكن ذلك جائزاً، لم يُقرروا عليه، رغم اشتهاؤه بينهم، وكون الزمان زمن تشريع (على عهد رسول الله ﷺ)، ومع ذلك فقد صرحت بعض الروايات ببلوغ ذلك النبي ﷺ وإقراره له كما في رواية مسلم: «فَبَلَغَ ذَلِكَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَنْهَنَا». ففي الحديث دلالة على جواز العزل عن المرأة طلباً لعدم حملها. والزوجان - عادة - ما يلجآن إلى هذا النوع من التخطيط قصداً لتحقيق أهداف مستقبلية يرونها من مصلحة الأسرة.

- ١- أخرجه الترمذي في سننه كتاب النكاح، باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة، ٣/ ٣٩٧، رقم ١٠٨٧ وقال: حديث حسن، والحاكم في المستدرک کتاب النکاح ٢/ ١٧٩، رقم ٢٦٩٧ وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٥/ ١٦٩، رقم ١٧٨٩ وقال: إسناده صحيح.
- ٢- انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ٣٢.
- ٣- أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب العزل، ٥/ ١٩٩٨، رقم ٤٩١١، مسلم: كتاب النكاح، باب حكم العزل، ٢/ ١٠٦٥، رقم ١٤٤٠.

وهذه الأهداف والمقاصد تختلف من أسرة إلى أخرى؛ فمنهم من يفعل ذلك للحفاظ على صحة الأم والطفل - كما أسلفنا - على اعتبار أن كثرة الولادات وتتابعها ترهق الأم وتضعف الطفل، مما قد يعرضهما - في المستقبل - لاحتمال الإصابة بالأمراض، ومنهم من يقصد به: التحكم في عدد الأطفال، بما يتناسب مع المستوى المعيشي للأسرة ومصادر دخلها، حتى يتسنى لهم القدرة على تربية أطفالهم تربية حسنة، تؤهلهم لأن يكونوا عناصر نوعية تتسم بالفاعلية والتأثير والتميز.

٣- التنظيم الأسري: أي تنظيم أوضاع الأسرة، من خلال التزام أفرادها بالنظام، وتوزيع الاختصاصات والمهام، والبعد عن العشوائية والارتجال، وإهدار الأوقات والطاقات.

مثال ذلك: تنظيم الوقت: فالوقت هو الحياة، وهو عمر الإنسان ورأس ماله، ما ذهب منه يستحيل أن يعود، ومن فرط فيه وأضاعه كان كمن ينتحر ويقتل نفسه^(١).

ومما يساعد الأسرة المسلمة المتميزة على الانتفاع بأوقاتها، العمل على حسن إدارتها، من خلال جدولتها، وتوزيعها على المهام المنوعة بكل فرد من أفرادها، حسب أهمية العمل المراد إنجازه، ودرجته في سلم الأولويات، فإن من شأن ذلك أن يحول دون وقوع التعارضات، التي تحصل - غالباً - بين الأوقات والواجبات، في حال عدم إدارة الوقت بشكل صحيح.

وبذلك يتمكن أفراد الأسرة من إنجاز واجباتهم بشكل جيد، دون أن يطغى شيء منها على الآخر، أو يأخذ بعضها وقت بعض، وهو ما وجه به النبي ﷺ - بعض أصحابه؛ حين حثهم على تنظيم أوقاتهم بما يمكنهم من أداء جميع واجباتهم،

١- انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ص ٢٣٥-٢٤٣، الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص ٣١.

من غير إخلال بما سواها من الواجبات الأخرى، لما بلغه أنهم - رضي الله عنهم - كانوا يستغرقون أوقاتهم في العبادة فقط، ويهملون ما عداها، ولا سيما واجباتهم تجاه أهلهم، فقال لهم - ﷺ -: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»^(١).

٤- المتابعة والتقييم: وهي عملية إدارية مهمة، يقوم بها رب الأسرة الناجح لمعرفة وضع أسرته، ومدى قربها أو بعدها من تحقيق أهدافها في النجاح والتميز، فما كان من إيجابيات عمل على تنميتها، وما وجد من سلبيات بادر إلى تشخيصها، ووضع المعالجات المناسبة لها، قبل استفحالها.

مثال ذلك: ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو قال: «أُنكحني أبي امرأة ذات حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ»^(٢) فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا؟ فَتَقُولُ: نَعَمْ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ! لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا وَلَمْ يُفْتَشْ لَنَا كَنَفًا»^(٣) مُذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «الْقُنَى بِهِ»، فَلَقِيْتَهُ بَعْدُ فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟ قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟ قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَأَقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ... الحديث»^(٤).

في الحديث دلالة على ما ينبغي على رب الأسرة المتميز من المتابعة المستمرة لأحوال أسرته، والعمل على تقويم ما اعوج منها، بالوسائل والآليات المناسبة،

- ١- قال ذلك سلمان الفارسي لأخيه أبي الدرداء، وأقره النبي - ﷺ - عليه كما أخرج البخاري في صحيحه - ضمن سياق طويل - كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع... ٦٩٤ / ٢، رقم ١٨٦٧، وقال النبي - ﷺ - نحوه لعبد الله بن عمرو بن العاص، كما أخرج البخاري - أيضاً - كتاب النكاح، باب لزوجك عليك حق، ١٩٩٥ / ٥، رقم ٤٩٠٣، وسيرد ذكر سبب الحديث في الرواية التي تأتي عقب هذا - إن شاء الله -.
- ٢- كَنَّتَهُ: أي زوجة ابنه. النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير، ٢٠٦ / ٤.
- ٣- لم يُفْتَشْ لَنَا كَنَفًا: الكنف هو: الستر والجانب، أرادت بذلك الكناية عن عدم جماعه لها. انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٦٩ / ٩.
- ٤- أخرجه البخاري في صحيحه - ضمن سياق طويل - كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، ١٩٢٦ / ٤، رقم ٤٧٦٥.

التي تعتمد على الصبر، والحكمة، والحلم والأناة، واعتماد مبدأ اللين والحوار الأسري، بدلاً عن الشدة، والاستبداد بالرأي؛ فعمرو بن العاص - رضي الله عنه - هنا، لم يكتف بتزويج ابنه وحسب، بل أتبع ذلك بعملية متابعة مستمرة - كما يفهم من قوله: «فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَتَتَهُ فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا» - حرصاً منه على نجاح ذلك الزواج. ولما - تبين له - من خلال هذه المتابعة - وجود خلل مهم في علاقة ولده بزوجته، يمكن أن يؤدي استمراره إلى فشل هذه الأسرة الناشئة، سارع إلى محاولة إصلاحه بنفسه، من خلال الحوار، ومناقشة الموضوع مع صاحب الشأن - ولده -، لأكثر من مرة، ومنحه الفرصة الكافية لمراجعة نفسه، وإصلاح خطئه - كما يفهم من قوله: «فلما طال ذلك عليه»، وقوله في رواية أخرى: «فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَعَدَمَنِي وَعَضَّنِي بِلِسَانِهِ فَقَالَ: أَنْكَحْتُكَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ ذَاتَ حَسَبٍ فَعَضَلْتَهَا وَفَعَلْتَ وَفَعَلْتَ...»^(١) وحين أصر الولد على رأيه، ولم يستجب لأبيه - اعتماداً منه على أنه خالفه في طاعة - لم يحاول الوالد الاستبداد برأيه، أو فرضه بالشدة والعنف، وإنما اكتفى برفع الأمر إلى النبي - ﷺ -، وإطلاعه عليه، فما كان منه - ﷺ - إلا أن أقره على كل ما قام به من عمليتي المتابعة والتقويم، ثم مساعدته على حل هذه المشكلة، بإقناع ولده على تغيير موقفه، وحثه على التزام القدر الذي يطيقه من الطاعة، دون أن يؤدي إلى تفريطه في بقية الحقوق الأخرى الواجبة عليه - كما أسلفنا قريباً -.

المطلب الثاني: المهارات الاقتصادية وأثرها على الأسرة المسلمة:

ومما يساعد الزوجين - أيضاً - على بناء أسرة ناجحة ومتميزة؛ الإمام بمبادئ بعض المهارات الاقتصادية في مجال كسب المال وإنفاقه، وفيما يلي توضيح سريع لذلك:

١ - أخرجه أحمد في مسنده ٢ / ١٥٨، رقم ٦٤٧٧ وابن خزيمة في صحيحه باب استحباب صوم يوم وإفطار يوم، ٣ / ٢٩٣، رقم ٢١٠٥ بنحو الإسناد والمتن عند أحمد، قلت: وإسناده صحيح - والله أعلم - . وقوله: «فَعَدَمَنِي»: لأمني وعنفني.

أولاً: مهارات في كسب المال: المفترض أن يكون لدى رب الأسرة المتميز، حرفة أو مهنة يكسب منها رزقه ورزق عياله، ويكف بها وجهه عن الحاجة إلى الناس، وذلك كالتجارة أو الزراعة أو الصناعة، ونحوها.

فقد حث النبي - ﷺ - أصحابه على الاحتراف، وكسب أقواتهم وعيالهم، بجهدهم وعرقهم، ونفرهم من البطالة والكسل، واتباع وسائل الكسب السهل؛ مما يورث صاحبه المذلة والهوان كالمسألة ونحوها.

فعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطَبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ، وَيَسْتَغْنَى بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ»^(١).

في الحديث حث على العمل، والاحتراف، والأكل من عمل اليد، وتنفير واضح من المسألة، وبيان بأن مزاوله المسلم بعض الحرف أو المهارات، التي تدر عليه دخلاً يكفي لسد حاجته وحاجة أهله - رغم مشقته -، أفضل له من مذلة السؤال ومهانة الحاجة إلى الناس، الأمر الذي يتنافى مع عزة النفس وعلو الهمة وغيرها من الصفات السامية التي يفترض بالمسلم أن يكون عليها، ولا يليق به سواها.

ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً ما جاء في حديث أنس - رضي الله عنه - : «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ فَقَالَ: أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟»

١ - أخرجه - بهذا اللفظ - مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، ٧٢١ / ٢، رقم ١٠٤٢، وأخرج البخاري نحوه، عن الزبير بن العوام - ﷺ - كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ٥٣٥ / ٢، رقم ١٤٠٢.

قَالَ: بَلَى حَلَسٌ^(١) نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُ بَعْضُهُ وَقَعْبٌ^(٢) نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: أَتُنَى بِهِمَا. فَاتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذُهُمَا بَدْرَهُمْ. قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَيَّ دَرَاهِمَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذُهُمَا بَدْرَهُمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدَّرَاهِمَيْنِ. وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَاتْنِي بِهِ فَاتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُوْدًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَذْهَبْ فَاحْتَطَبْ وَبِعْ وَلَا أَرِيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطَبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحِيَّيَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). فِي الْحَدِيثِ - كَسَابِقِهِ - حَثٌ عَلَى الْعَمَلِ وَبَذَلُ الْجُهْدِ فِي تَحْصِيلِ أَسْبَابِ الرِّزْقِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْبَطَالَةِ وَالْمَسْأَلَةِ.

لقد كان النبي ﷺ - قادراً على إعطاء هذا السائل شيئاً - قل أو أكثر - يرد به نفسه، ويسد به رمقه، وينتهي الأمر... لكنه - ﷺ - أراد تلقينه - ومن على شاكلته ممن يتكفون الناس وهم قادرون على العمل - درساً ضرورياً يبين لهم خطأ أسلوبهم في الحياة، وأن الإسلام لا يرضى عنه ولا يقره، بل يطالبهم بضرورة السعي لكسب أرزاقهم ومن يعولون، من خلال قيامهم بمزاولة بعض المهن أو الحرف التي يقدرون عليها.

كما أن في الحديث أيضاً - تدريباً عملياً على بعض المهارات الاقتصادية

- ١- حلس: - الحلس - بكسر الحاء وسكون اللام -، كساء يبسط في البيت تحت حر الثياب، انظر: الفائق للزمخشري ١ / ٣٠٤.
- ٢- قعب: القعب - بفتح القاف وسكون العين - القدح، انظر: لسان العرب ١ / ٦٨٣.
- ٣- أخرجه أبو داود كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، ٢ / ١٢٠، رقم ١٦٤١، والترمذي كتاب البيوع، باب ما جاء بيع من يزيد ٣ / ٥٢٢، رقم ١٢١٨ بلفظ مختصر، وقال: حديث حسن، والضياء المقدسي في المختارة ٦ / ٢٤٦، رقم ٢٢٦٣. وضعفه الألباني في: ضعيف الترغيب والترهيب ١ / ١٢٦، رقم ٥٠١.

كالبيع والشراء - بيع المزايدة - وإحسان استثمار الموارد المتاحة وإن قلت -
جلس وقعب - ، للحصول على مكاسب أكبر - عشرة دراهم مقابل درهم واحد
- ، في مدة زمنية قصيرة - خمسة عشر يوماً - والتركيز على الأهم - شراء
الطعام والقدوم - قبل المهم - الاحتياجات الأخرى كالثياب - .

ثانياً: مهارات في الإنفاق:

وهي المهارات التي تساعد الزوجين على حسن إنفاق المال، بحسب
احتياجات الأسرة، وعلى قدر الموارد المتاحة لها، ومن أهمها الآتي:

أ- المحافظة على المال وعدم إضاعته: فالأسرة المتميزة، تحافظ على المال،
وتتجنب إهداره أو إضاعته، معرفة منها بقدر هذه النعمة وأهميتها،
واستجابة منها - قبل ذلك - لأمر الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - في النهي عن
إهداره، فقد جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ،
وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»^(١). والشاهد في قوله: «إِضَاعَةَ الْمَالِ» فهو
عام يندرج تحته النهي عن جميع أساليب إضاعته، كإتلافه كما يفهم ذلك من
عموم قوله - ﷺ -: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(٢)، وكما
جاء في حديث أنس قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ
فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضْرَبَتْ التِّي النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَتِّيهَا يَدَ الْخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ، فَاَنْفَلَقَتْ فَجَمَعَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَقَّ الصَّحْفَةَ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي
كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «غَارَتْ أُمَّكُمْ» ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أَتَى بِصَحْفَةٍ

١- أخرجه البخاري كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى لا يسألون الناس إلخافاً، ٢ / ٥٣٧، رقم ١٤٠٧.
٢- أخرجه البخاري - عن أبي هريرة - كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى... وليس له أن يتلف
أموال الناس ٢ / ٥١٨، وفي كتاب الاستقراض...، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها،
٢ / ٨٤١، رقم ٢٢٥٧.

مَنْ عِنْدَ النَّبِيِّ هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى النَّبِيِّ الَّتِي كَسَرَتْ
صَحْفَتَهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ كَسَرَتْ»^(١).

في هذا الحديث أعطى النبي - ﷺ - درساً عملياً واضحاً لأسرته وأمه،
في موضوع المحافظة على المال، والنهي عن إضاعته بأي وجه كان، ومهما كانت
المبررات؛ يتضح لنا ذلك من قيامه - ﷺ - بجمع فلق الصحيفة المكسورة -
وعدها فلقتان - كما جاء في رواية أبي داود -: «فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الْكُسْرَتَيْنِ فَضَمَّ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى» وهذا يعني أنه كان لا زال بالإمكان
إصلاحها والاستفادة منها، ثم من جمعه الطعام المراق فيها وطلبه ممن كان معه
من أصحابه أن يأكلوا منه - كما جاء عند أبي داود أيضاً -^(٢)، وكذا من إلزام
الكاسر لها بإبدالها بأخرى سليمة، على الرغم من كون المالك للصحفتين واحداً،
وهو النبي - ﷺ -، غير أنه أراد - والله أعلم - بيان موقف شرعي مما حدث أمامه،
والتعبير عن عدم رضاه به، بغض النظر عن كون الدافع إليه مبرراً بعض الشيء
هنا - كما يفهم من قوله - ﷺ - «غارَت أَمْكُمْ» - إلا أن ذلك لا يخرج عن كونه
إتلافاً للمال وإضاعة له، يستحق فاعله - وإن كانت أم المؤمنين - بعض العقوبة
المالية والنفسية؛ وهي إلزامها هنا - أمام الحاضرين من أصحابه - بتعويض التالف
بمثله، وأخذه لإصلاحه والانتفاع به، ضماناً لعدم العودة لمثله مستقبلاً.

١ - أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب الغيرة، ٥ / ٢٠٠٣، رقم ٤٩٢٧.
٢ - انظر: سنن أبي داود كتاب الإجارة، باب فيمن أفسد شيئاً يغرماً مثله، ٣ / ٢٩٧، رقم ٣٥٦٧ وإسنادها صحيح.

وقد تكون إضاعة المال بإساءة استعماله، كالإسراف والتبذير به، أو إنفاقه فيما لا يفيد: وقد نهى النبي ﷺ - عن ذلك - أيضاً - فقال: «كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَابْسُوا، وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»^(١). والإسراف هو: مجاوزة القصد والاعتدال في إنفاق المال، وهو التبذير^(٢)، والمخيلة هي: الخيلاء والتكبر^(٣).

ب- استغلال الموارد المتاحة: الأسرة المتميزة يحسن أفرادها - لا سيما الزوجان - استغلال الموارد المالية المتاحة لهم، ويستفيدون منها مهما قلت. وقد حث السنة المطهرة على ذلك في مواضع عدة، نذكر منها هنا - على سبيل المثال - ما جاء عنه - ﷺ - في الحث على الاستفادة من الطعام الذي وقع فيه شيء من الحشرات أو القوارض، والاقتصار على طرح الجزء المتضرر منه فقط.

فقد جاء عن أم المؤمنين ميمونة - رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ فَارَةٍ سَقَطَتْ فِي سَمْنٍ فَقَالَ: أَلْقُوهَا وَمَا حَوْلَهَا، فَاطْرَحُوهُ وَكُلُوا سَمْنَكُمْ»^(٤).

وقد مر معنا - قريبا - قيام النبي ﷺ - بجمع أجزاء الصحيفة التي كسرتها إحدى أمهات المؤمنين للانتفاع بها، وبعض الطعام المهراق منها لأكله، تربيةً منه - ﷺ - لأسرته وأمته، على شكر النعمة، وحثاً لهم على الاستفادة من أي شيء

١ - ذكره البخاري - تعليقا - في كتاب اللباس، ٥ / ٢١٨١، وقد وصله - من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كل من: النسائي في السنن الصغرى كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، ٥ / ٧٨، رقم ٢٥٥٩ وابن ماجه في سننه كتاب اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، ٢ / ١١٩٢، رقم ٣٦٥، وأحمد في مسنده ٢ / ١٨٢، رقم ٦٧٠٨. وانظر: تغليق التعليق لابن حجر ٥ / ٥٢-٥٤، وقد حسنه الألباني صحيح الترغيب والترهيب ٢ / ٢٤٦، رقم ٢١٤٥ ثم قال: «رواه النسائي وابن ماجه، ورواته إلى عمرو ثقات ويحتج بهم في الصحيح».

٢ - انظر: لسان العرب ٩ / ١٤٨، وعمدة القاري، العيني ٢١ / ٢٩٤.

٣ - انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٢ / ٨٩.

٤ - أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء، باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء، ١ / ٩٣، رقم ٢٣٣.

يمكن الاستفادة منه مهما كان ضئيلاً.

كما مر معنا - أيضاً - كيف عالج النبي - ﷺ - مشكلة السائل الذي طلب منه المعونة المادية، حينما أرشده للنظر فيما لديه من إمكانات متوفرة في بيته: «أما في بيتك شيء؟» وكيف أجابه الرجل بأن لا شيء في بيته سوى (حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُ بَعْضُهُ وَقَعْبٌ)، ظنا منه أنها مجرد أدوات تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا يمكن الاستفادة منها في غير ما ذكر.

لكن النبي - ﷺ - أثبت له أن الحل الجذري لمشكلته يبدأ من هذه الأدوات البسيطة المتواضعة إذا أحسن استغلالها، وأجاد توظيفها! وهذا - بالفعل - ما حصل؛ حين باعها النبي - ﷺ - ثم أمره أن يصنع ما ذكر في الحديث؛ حيث عاد الرجل بعد مدة قصيرة وقد أصبح لديه مبلغ جيد من المال، يستطيع به تعويض ما باع - الحلس والقعب -، وكفاية نفسه وأسرته من بقية الاحتياجات الأخرى سواه.

إن إحسان التدبير الاقتصادي للأسرة أمر يشترك فيه الزوجان - كما أسلفنا -، لكن الجزء الأكبر منه يفترض حصوله من قبل الزوجة؛ بحكم مسؤوليتها عن تدبير البيت وإدارة شؤونه الداخلية.

فالزوجة المثالية هي تلك الزوجة المقتصدة، المدبرة، التي تصون مقدرات أسرته المادية، وتحسن استعمالها، بما يتلاءم مع دخل زوجها وقدرته الشرائية.

ولذلك عد النبي - ﷺ - إحسان إدارة المرأة لاقتصادها المنزلي من المهارات الأساسية التي ينبغي توفرها لدى (خير النساء) - المرأة المتميزة - فقال: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ؛ وفي رواية صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ أَحْنَاهُ عَلَى وُلْدٍ

فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»^(١). قال النووي: «فيه فضيلة نساء قريش، وفضل هذه الخصال وهي: الخنو على الأولاد، والشفقة عليهم، وحسن تربيتهم، والقيام عليهم...، ونحو ذلك مراعاة حق الزوج في ماله، وحفظه، والأمانة فيه، وحسن تديره في النفقة وغيرها وصيانته ونحو ذلك»^(٢)، وقد بَوَّبَ عليه الإمام البخاري فقال: «بَابُ حِفْظِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا فِي ذَاتِ يَدِهِ وَالنَّفَقَةِ»^(٣).

ج- الادخار: والأسرة المتميزة، تحتاط لمستقبلها، وتخطط له - كما سبق - في شتى المجالات، ومن ذلك ادخار بعض المال أو القوت لسد احتياجاتها المستقبلية؛ فقد ثبت أن النبي - ﷺ - كان يدخر قوت أهله سنة كاملة، كما جاء في حديث عمر - رضي الله عنه - قال: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً سُنَّتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٤). قال النووي: «وفي هذا الحديث جواز ادخار قوت سنة، وجواز الادخار للعيال، وأن هذا لا يقدر في التوكل»^(٥).

المطلب الثالث: المهارات النفسية وأثرها في تمييز الأسرة المسلمة.

لا شك أن للجانب النفسي دوراً مهماً في الوصول بالأسرة المسلمة إلى التميز؛ فلا بد أن يكون لدى أفرادها - لاسيما الزوجان - قدر جيد من الدربة والاستعداد النفسي يكفي لتأهيلهم لنيل هذا الهدف السامي. والواقع أن المهارات

- ١- أخرجه البخاري عن أبي هريرة كتاب النفقات، باب حفظ المرأة زوجها في ذات يده والنفقة، ٥ / ٢٠٥٢ ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل نساء قريش ٤ / ١٩٥٩، رقم ٢٥٢٧.
- ٢- شرح صحيح مسلم ١٦ / ٨٠.
- ٣- راجع تخريج الحديث السابق.
- ٤- أخرجه البخاري - واللفظ له - كتاب الجهاد والسير، باب المجن ومتى يتترس بترس صاحبه، ٣ / ١٠٦٣، رقم ٢٧٤٨، وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، باب حكم النفي، ٣ / ١٣٧٦، رقم ١٧٥٧.
- ٥- شرح صحيح مسلم ١٢ / ٧٠.

النفسية اللازمة لهذا الإعداد كثيرة ومتنوعة، نذكر بعضاً منها^(١) فيما يلي:

١- القناعة بضرورة التمييز: غير خاف على أحد أن من يسعى لتحقيق هدف وهو - في الأصل - غير مقتنع به، لا يتوقع منه الوصول إليه، فضلاً عن بلوغ التمييز فيه. فحصول القناعة التامة لدى شخص بأي أمر من الأمور، كفيل بتحريكه إليه، ودفعه لبذل قصارى جهده في تحصيله، والتمسك به، و الدفاع عنه^(٢).

ولعل هذا المعنى مما يفهم من قوله - ﷺ - للحارث بن مالك - رضي الله عنه - : «عرفت فالزم» بعد سؤاله له: «كيف أصبحت؟» وإجابة الحارث: «أصبحت مؤمناً حقاً»^(٣) فإنه - ﷺ - لم يقل هذه العبارة إلا بعدما أعاد سؤاله للحارث - مرة أخرى - عن «حقيقة إيمانه»؟ وإجابة الحارث له إجابة أكدت له - ﷺ - أن مالكاً توصل إلى قناعة تامة نتجت عن معرفة حقيقية بأمر الإيمان، حينها أكد له النبي - ﷺ - صحة إجابته وأنه - فعلاً - قد بلغ حقيقة الإيمان وأمره بالثبات عليها والعمل بمقتضاها.

وهكذا يفترض بمن تحصلت لديه قناعة بضرورة التمييز الأسري وأهميته

١- سبقت الإشارة إلى طرف منها في التمهيد، عند الكلام عن بعض الأسباب الشرعية لتحقيق التمييز - لاسيما تقوية الصلة بالله - عز وجل - والإخلاص له، والاستعانة به، لما لذلك من أثر كبير على نفسية صاحبه، إذ يشعره قربه من الله - تعالى - ومراقبته له، بالراحة، والاطمئنان، والاستقرار النفسي اللازم لحصول النجاح والتمييز في أي عمل يقوم به - ومنه سعيه للتمييز الأسري - .

٢- انظر: أصول التمييز، وحيد مهدي ص ٢٨.

٣- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣ / ٢٦٦، رقم ٣٣٦٧، ولفظه عن الحارث: أنه مر برسول الله - ﷺ - فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال أصبحت مؤمناً حقاً؟ فقال: «انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، واطمأن نهارى، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني انظر إلى أهل النار يتضاغون فيها - فقال: «يا حارث عرفت فالزم». قال الهيثمي في: مجمع الزوائد ١ / ٧٥: «رواه الطبراني في الكبير، وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه»، قلت: ابن لهيعة، هو عبدالله بن لهيعة، أبو عبد الرحمن الحضرمي، ضعيف توفي سنة ١٧٤هـ، انظر: الكاشف للذهبي ١ / ٥٩٠، ترجمة رقم ٢٩٣٤.

للأسرة والمجتمع - كما أسلفنا - أن يسعى لترجمة هذه القناعة إلى أقوال وأفعال، وواقع معاش مليء بالإبداع والتميز.

٢- قوة الإرادة والتفاؤل: كما ينبغي لمن رام التميز الأسري أن يكون صاحب عزم، وإرادة قوية، يحدوه التفاؤل والأمل ويجافيه الشعور بالإحباط والعجز والكسل، منطلقاً في ذلك كله من ثقة عالية بالله - عز وجل - وتسليم كامل بالقضاء والقدر.

جاء في حديث أبي هريرة قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَصُ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعْنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(٤). في الحديث دلالة على أن «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»، وقوة العزم والإرادة داخلة في عموم القوة المطلوبة في المؤمن القوي. فعلى طالب التميز أن يكون قوي الإرادة لا توهن من قوة عزمه المعوقات، أو تثنيه الصعاب عن الوصول إلى هدفه، وعليه - قبل ذلك أن يحرص على العمل بالأسباب الشرعية - كما أسلفنا -، والمادية - أيضاً - «أَحْرَصُ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعْنُ بِاللَّهِ»، ثم عليه - بعد ذلك - أن يوطن نفسه على أن النجاح والتميز قد يأتي أو لا يأتي؟! فقد تتخلف الأسباب عن مسيبتها لوقوع خلل ما، أو لحكمة أرادها الله - عز وجل -، فإذا حصل له ذلك، فأخفق في تحقيق التميز الأسري - كله أو بعضه - فلا ينبغي أن يسبب له ذلك شعوراً بالإحباط والعجز والفشل «وَلَا تَعْجِزْ»، وإنما يفترض به مراجعة نفسه وعمله ليعرف مكمّن العائق - إن وجد -، ثم يستمر في المحاولة دون يأس أو قنوط، فإن حالفه النجاح فيها ونعمت، وإلا فحسبه أنه بذل جهده،

٤- أخرجه مسلم كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ٢٠٥٢/٤، رقم ٢٦٦٤.

والواجب عليه حينئذ الرضى والتسليم بهذه النتيجة - دون أن يحول ذلك بينه وبين المحاولة مرة أخرى «وَأِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ». وله - حينئذ - عزاء وسلوان في قصص بعض رواد التميز الذين لم يحالفهم النجاح في بناء أسر يكون جميع أفرادها متميزين على الرغم من كونهم أنبياء؛ - كنوح ولوط - عليهما السلام - .

٣- الشعور بالمسئولية: الأسرة أمانة عظيمة، أوكلها الشارع الحكيم إلى الزوجين، وحملهما مسئولية رعايتها، والقيام بشؤونها. جاء في حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ - أنه قال: «أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ وَكَلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكَلُّكُمْ رَاعٍ وَكَلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

فقوله: «وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ» يدل بوضوح على تحميل الزوجين المسئولية الكاملة عن هذه الأسرة، وأنهما سيسألان، ويحاسبان يوم القيامة عما صنعا فيها، فمن رعى وأحسن كان جزاؤه الحسنى، ومن فرط وضيع فلا يلومن إلا نفسه.

إن تفريطاً في مسئولية مهمة وخطيرة كهذه، لا يكون كتفريط بما عداها، ولذا رتب الشارع عليه إثماً أشد من غيره؛ كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ عَمَرَهُ»

١- أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، ١٩٩٦/٥، رقم ٤٩٠٤. ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ١٤٥٩/٣، رقم ١٨٢٩. واللفظ له.

يَقُوتُ»^(١)، ومعلوم أن استحقاق المكلف للإثم لا يكون إلا على فعل معصية أو ترك واجب^(٢).

إن استشعار الزوجين لهذه المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقهما، من شأنه أن يمثل لهما دافعاً قوياً - ومستمراً - يحثهما على تقديم كل ممكن في سبيل صيانة أسرتهما، والمحافظة عليهما، والارتقاء بها إلى أعلى درجات النجاح والإبداع والتميز، في شتى المجالات الروحية، والأخلاقية، والعلمية، والمهنية... الخ.

٤- الإيجابية: ومن الصفات النفسية المهمة التي ينبغي توفرها لدى أفراد الأسرة المتميزة: الإيجابية؛ وهي تتحقق بحرصهم على أن يكونوا ذوي شخصيات قوية، فعالة، مستقلة، تتخذ قراراتها وجميع تصرفاتها بناءً على قناعاتها، وتبادر لفعل الخير والإحسان من وحي ذاتها، لا من ردة الفعل الناتجة عن مواقف الناس تجاهها، أو من تأثيرهم السلبي عليها.

جاء في حديث حُذَيْفَةَ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم، ٢/ ١٣٢، رقم ١٦٩٢، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب النفقات، باب وجوب النفقة على الزوجة، ٧/ ٤٦٧، رقم ١٥٤٧٢ -، والحاكم في المستدرک کتاب الزكاة، ١/ ٥٧٥، رقم ١٥١٥، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووهب بن جابر من كبار تابعي الكوفة» قلت: ووهب بن جابر هذا لم يرو عنه سوى أبي إسحاق الهمداني، ولذا قال عنه علي بن المديني والنسائي: «مجهول»، لكن وثقه يحيى بن معين والعجلي، وذكره ابن حبان في الثقات. انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر ١١/ ١٤١، رقم ٢٧٢. فإذا انضم إلى ذلك توثيق الحاكم له - كما ذكرنا - زالت هذه الجهالة - والله أعلم -، أما بقية رجال الإسناد فهم ثقات من رجال الصحيحين، وقد أخرج مسلم نحوه من طريق أخرى عن عبدالله بن عمرو بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته». انظر: صحيح مسلم كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم، ٢/ ٦٩٢، رقم ٩٩٦. فيكون الحديث بذلك صحيحاً - والله أعلم -، وقد حسنه الألباني في: صحيح أبي داود ٥/ ٣٧٦، رقم ١٤٨٥.

٢- انظر: المكاسب، الحارث المحاسبي ص ٣٣.

إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ مُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلُمُوا»^(١).

فقوله: «لا تكونوا إمعة» أي مقلدين لغيركم تقليداً سلبياً. وقد بين الزمخشري أن الإمعة - بكسر الهمزة وتشديد الميم - هو الذي يتابع كل ناعق ويقول لكل أحد أنا معك، لأنه لا رأي له يرجع إليه، ومعناه المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا رؤية ولا تحصيل برهان^(٢).

وجاء في تحفة الأخوذي^(٣) أن المراد هنا الذي يقول: أنا مع الناس كما يكونون معي؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذا المعنى هو المتعين كما يدل عليه قوله (تقولون: إن أحسن الناس) أي إلينا أو إلى غيرنا (أحسناً) أي جزاءً أو تبعاً لهم (وإن ظلموا) أي ظلمونا، أو ظلموا غيرنا فكذلك نحن (ظلمنا) على وفق أعمالهم... (ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا... الخ). قال في القاموس^(٤): توطن النفس تمهيداً... وفي المنجد: وطن نفسه على الأمر وللأمر: هياها لفعله وحملها عليه.

وبالجمله ففي الحديث دلالة على حرمة التقليد الأعمى، وحثاً على تربية النفس وتوطينها على الإيجابية، والمبادرة الذاتية إلى فعل الخير والصواب، والبعد عن ذلك الدور السلبي المعتمد - سلبياً أو إيجابياً - على ردة الفعل تجاه تصرفات الآخرين - كما أسلفنا -.

٥- علو الهمة: وهي من الصفات التي تؤهل الأسرة إلى نيل ما تصبو إليه من

١- أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، ٤ / ٣٦٤، رقم ٢٠٠٧، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والبخاري في مسنده ٧ / ٢٢٩، رقم ٢٨٠٢، وقال - أيضاً -: نحو قول الترمذي، وضعفه الألباني في: ضعيف الترغيب والترهيب ٢ / ٧٧، رقم ١٤٩٤.

٢- الفائق في غريب الحديث ١ / ٥٧ بتصرف، وانظر: تحفة الأخوذي، المباركفوري ٦ / ١٢٣.

٣- ١٢٣ / ٦، بتصرف أيضاً.

٤- انظر: القاموس المحيط ١ / ١٥٩٨.

نجاح وتميز، لأنها صفة تجعل من صاحبها شخصاً كبيراً عند الله - عز وجل -، وعند الناس، وأمام نفسه - أيضاً - . كيف لا يكون كذلك! وهو صاحب نفسية عزيزة سامية، تحب معالي الأمور وتسعى إليها، وتكره حقائرها وتنفر منها، وتطمح - دوماً - إلى الأحسن، لا تكاد تصل إلى درجة من الرقي إلا وتاقت إلى ما هو أعلى منها، نفس تحب الخير، وتبذله للغير، وتقدر العمل، وتبغض العجز والكسل، وتحب صاحبها - دائماً - على تطوير نفسه، وبناء ذاته، وإظهار مواهبه وطاقاته، وتنمية مهاراته.

لهذا كله أحبها الله - تعالى - وحث عليها رسوله - ﷺ - وربى أهل بيته وأصحابه عليها، كما جاء في حديث الحسين بن علي - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(١). في هذا الحديث الذي يرويه سبط النبي - ﷺ - وريحانته حث واضح على علو الهمة وتحري معالي الأمور ومكارمها، والتحذير من دنيئها وردئها، لأنها صفات لا تليق بطبيعة المسلم المتميز، ولا تحقق له عزته وكرامته ومكانته العالية التي أرادها الإسلام أن يكون عليها. وما دام الله - عز وجل - يحب الهمة العالية، كما أخبر عنه نبيه - ﷺ - في الحديث السابق - فإنه يحب - أيضاً من صاحبها أن تدفعه همته هذه إلى تحري الدقة والتركيز والإتقان في كل عمل يعمله.

جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - ﷺ - :

١ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣ / ١٣١، رقم ٢٨٩٤ والقضاعي في مسند الشهاب ٢ / ١٥٠، رقم ١٠٧٦، رقم ١٠٧٧ وفيه خالد بن إلياس، أبو الهيثم القرشي ضعيف، انظر: الكامل في ضعفاء الرجال ٣ / ٥، ترجمة رقم ٥٧١، وتذكرة الحفاظ ٢ / ٦٠٨، لكن له شاهداً صحيحاً من حديث سهل بن سعد بنحو هذا اللفظ - أخرجه الطبراني في الكبير ٦ / ١٨١، رقم ٥٩٢٨. قال الذهبي في مجمع الزوائد ٨ / ١٨٨: رجاله ثقات. وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢ / ٩٠٣: «إسناده صحيح»، كما أن له شواهد أخرى - لا يتسع المجال لذكرها -، فيرتقي الحديث بذلك إلى مرتبة الصحيح لغيره - والله أعلم - وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ١٦٨، ١٦٢٧.

وقوله: "سفسافها": قال ابن الأثير في النهاية ٢ / ٣٧٣-٣٧٤: «السفساف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء، وهو ضد المعالي والمكارم».

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ»^(١). ليس ذلك فحسب، بل إن المتوقع من شخص يكون لديه هذه الهمة أن يصل إلى أعلى درجات الجودة والإتقان؛ وهي درجة الإحسان الذي كتبه الله على كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح^(٢). وفسره النبي ﷺ - بقوله: «الإحسانُ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٣)، وهذا - لعمرى - قمة الإبداع والتميز في كل أمر يتعبد به.

٦- الإيثار والتضحية: ينبغي للساعي إلى نيل التميز الأسري - لاسيما رب الأسرة - أن يكون لديه استعداد نفسي للبدل والعطاء، والتضحية والإيثار، من أجل الوصول بأسرته إلى تلك الدرجة. ويشمل ذلك التضحية بالمال، والجهد، والراحة، وغير ذلك من الأمور الأخرى اللازمة للنجاح والتميز.

جاء في حديث جابر بن عبد الله: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ هَلَكَ وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ أَوْ قَالَ سَبْعَ فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ثَيِّبًا، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا جَابِرُ تَزَوَّجْتَ؟» قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: فَبِكْرٌ أَمْ ثَيِّبٌ؟ قَالَ: قُلْتُ بَلْ ثَيِّبٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَهَلَّا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ، أَوْ قَالَ تَضَاحُكُهَا وَتَضَاحُكَ! قَالَ: قُلْتُ لَهُ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ هَلَكَ وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ أَوْ سَبْعَ، وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ آتِيَهُنَّ أَوْ أَجِيَهُنَّ بِمِثْلِهِنَّ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَجِيءَ بِامْرَأَةٍ تَقُومُ عَلَيْهِنَّ وَتُصَلِّحُهُنَّ، قَالَ: «فَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ» أَوْ قَالَ لِي

١- أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣٤٩/٧، رقم ٤٣٨٦، والطبراني في الأوسط ١/٢٧٥، رقم ٨٩٧، وفيه بشر بن السري؛ متهم برأي جهم، ونقل الحافظ في التقريب ١/١٢٣ توبته عنه، وكذلك فيه مصعب ابن ثابت، قال الحافظ عنه: «لين الحديث»، انظر: تقريب التهذيب ١/٥٣٣، رقم ٥٣١٥، لكن للحديث شاهدا؛ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/٣٣٥، يمكن أن يتقوى به إلى مرتبة الحسن لغيره، وقد صححه الشيخ الألباني في: السلسلة الصحيحة ٣/١٠٦، رقم ١١١٣.

٢- أخرجه مسلم كتاب الصيد والذباح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، ٣/١٥٤٨ رقم ١٩٥٥، عن شداد بن أوس، عن رسول الله ﷺ - قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

٣- أخرجه البخاري - ضمن حديث طويل - عن أبي هريرة - انظر: صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ - عن الإيمان والإسلام والإحسان، ١/٢٢٧، رقم ٥٠.

خَيْرًا»^(١). في الحديث دليل على تضحية جابر براحته الشخصية، وماتشتهي نفسه، من أجل أخواته الصغيرات اللاتي تركهن له والده بعد موته، فقد كان يرغب في نكاح امرأة بكر، غير أنه ترك ذلك وتزوج ثيبا لكونها أقدر على تربيتهن من البكر التي لا خبرة لها بذلك، وقد أقره النبي - ﷺ - على هذه التضحية والإيثار ودعا له بخير.

وقد كان - ﷺ - يحث أصحابه على الإنفاق على أهلهم، والتضحية من أجلهم فيقول «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مُسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»^(٢). في الحديث ترغيب في النفقة على الأهل، وبيان فضلها، وأن أجرها أعظم من أجر الإنفاق في أبواب الخير الأخرى؛ كالإنفاق في سبيل الله وعتق الرقاب والصدقة على المحتاجين ونحو ذلك.

ومن الأمثلة على حث السنة النبوية على التضحية والإيثار للأهل على النفس ما جاء في حديث عائشة أنها قالت: «جَاءَتْنِي مُسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا فَأَطَعَمْتُهُمَا ثَلَاثَ تَمْرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا فَاسْتَطَعَمْتُهُمَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»^(٣).

في الحديث ذكر قصة عجيبة لإيثار الوالدة أولادها على نفسها، وقد عجبت

- ١- أخرجه البخاري كتاب النفقات، باب عون المرأة زوجها في ولده، ٥/٢٥٣، رقم ٥٠٥٢، ومسلم كتاب النكاح، باب استحباب نكاح البكر، ٢/١٠٨٧، رقم ٧١٥ واللفظ له.
- ٢- أخرجه مسلم عن أبي هريرة: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم - ٢/٦٩٢، رقم ٩٩٥.
- ٣- أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ٥/٢٢٣٤، رقم ٥٦٤٩، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، ٤/٢٠٢٧، رقم ٢٦٣٠ واللفظ به.

أم المؤمنين من هذه الحادثة فذكرتها للنبي - ﷺ - فشاركها هذا الإعجاب، وبين لها أن مثل هذه التضحية التي يقدمها الوالدان لأولادهما شأنها عظيم؛ حتى أنها تكفي لفوزهما بالجنة والنجاة من النار، ولا يخفى ما في هذا الترغيب الكبير من تشجيع وحث لأرباب الأسر على التضحية من أجل أسرهم، وبذل كل ممكن للنهوض بها نحو الرقي والرفعة والتميز.

المطلب الرابع: المهارات المنزلية وأثرها في تميز الأسرة المسلمة.

ينبغي للزوجة المثالية التي تسعى إلى التميز، تعلم بعض المهارات المنزلية الأساسية، التي تجعل منها ربة بيت ناجحة ومتميزة. كما يفترض بها أن تسعى - دوماً - إلى تنمية وصقل هذه المهارات، وتطوير قدراتها فيها، وتحسين أدائها لها باستمرار، وبكل الوسائل الممكنة، وصولاً بها إلى درجة من النضج والإتقان، تؤهلها لولوج عتبة الإبداع والتميز في هذا الشأن.

لقد كان نساء البيت النبوي الطاهر، ونساء الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - خير قدوة في هذا الشأن؛ فقد سعين - جاهدات - إلى تعلم كثير من المهن والمهارات المنزلية - داخل المنزل وخارجه - فنجحن في ذلك، وتميزن فيه، حتى وصل بهن الحال إلى بلوغ درجة الاكتفاء الذاتي في كثير من السلع والخدمات التي تنتج عن ممارسة هذه المهارات، فكنّ - بحق - نعم الزوجات الصالحات، والعاملات المنتجات الماهرات.

وقد كان للتوجيهات النبوية - المباشرة وغير المباشرة - في حثهن على تعلم هذه المهارات، وتشجيعهن على تنمية قدراتهن فيها، أبلغ الأثر في وصولهن إلى تلك الدرجة من النجاح والتميز.

إن قيامنا باستعراض سريع لبعض نصوص السنة النبوية المطهرة التي تعرضت

لذكر بعض المهارات المنزلية في العهد النبوي، يضعنا أمام إشارات جيدة، تكفي لرسم صورة أولية عن الوضع الذي كانت عليه تلك المهارات آنذاك، وكيف تعاملت معها السنة النبوية المطهرة. وفيما يلي ذكر لأهم هذه المهارات، مقترنة ببعض النصوص التي أشارت إليها من السنة المشرفة.

أهم المهارات المنزلية في عهد النبي ﷺ -:

يمكننا تقسيم المهارات المنزلية التي عرفت على عهد النبي ﷺ - إلى أربع مجموعات رئيسة هي:

أولاً: مهارات الطبخ: وهي تلك المهارات المتعلقة بإعداد الطعام والشراب، كطحن الدقيق، وعجنه، وخبزه، وأساليب الطبخ، وجلب الماء، وغير ذلك من المهارات التي تقوم بها ربة البيت - عادة - في المطبخ آنذاك. ولعل خير مثال على ذلك حديث علي - رضي الله عنه - الذي أطلعنا من خلاله على بعض ما كان عليه حال فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - في بيتها، فقد روى - كرم الله وجهه -: «أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ اشْتَكَّتْ مَا تَلَقَى مِنَ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ، فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بِسَبِي فَاتَتَهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا... فَقَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمْ فَكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ»^(١). وفي رواية: «أَنَا وَاللَّهِ أُحَدِّثُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هَذِهِ جَرَّتْ عِنْدِي بِالرَّحَى حَتَّى أَثْرَتْ فِي يَدَيَّ، وَأَسْتَقَّتْ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثْرَتْ فِي نَحْرِي، وَكَسَحَتْ^(٢) الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابِي، وَأَوْقَدَتِ الْقَدْرَ حَتَّى دَكَنْتِ ثِيَابِي»^(٣)، وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ قَدْ أَتَاكَ رَقِيقٌ أَوْ

١ - أخرجه البخاري كتاب فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنواب - رسول الله ﷺ -، ٣/ ١١٣٣، رقم ٢٩٤٥ واللفظ له. ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب التسيب أول النهار، ٤/ ٢٠٩١، رقم ٢٧٢٧.

٢ - كَسَحَتْ الْبَيْتَ: أي كُنَسَتْه. انظر: لسان العرب ٢/ ٥٧١.

٣ - دَكَنْتِ ثِيَابِي: أي اتسخت واغبر لونها، انظر: لسان العرب ١/ ١٥٧، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ١٢٨.

خَدَمْتُ فَقُلْتُ لَهَا: سَلِيهِ خَادِمًا.. ثم ذكر نحو اللفظ السابق^(١).

في الحديث دليل على قيام فاطمة - رضي الله عنها - رغم علو قدرها في الدنيا والآخرة - بجميع أعمال البيت - وبضمنها أعمال المطبخ من طحن، وطبخ، وجلب للماء، ونحو ذلك، حتى أرهقتها التعب ورق لها زوجها - رضي الله عنه - فشكيا ذلك إلى النبي - ﷺ - وطلبا منه خادماً تعينها على بعض ما تلقى، لكنه - ﷺ - لم يستجب لهذا الطلب - رغم توفره لديه - وردها - وهي أحب الناس إليه -، واكتفى بإحالتها وزوجها إلى دعاء علمهما إياه؛ مخبراً لهما أنه خير لهما مما سألاه، وكأنه - ﷺ - أراد - فيما أراد - تعليمها الاعتماد على نفسها في تدبير شؤون بيتها، لتكون قدوة لغيرها من نساء أمتها؛ فإن قيام المرأة على رعاية أسرتها بنفسها، من أهم أسباب صلاح الأسرة وتميزها.

وغير بعيد من هذا ما جاء في حديث أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - من ذكر لبعض المهارات المنزلية التي كانت المرأة تمارسها على عهد النبي - ﷺ -؛ حيث قالت: «تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ، وَلَا مَمْلُوكٍ، وَلَا شَيْءٍ، غَيْرَ نَاضِحٍ^(٢)، وَغَيْرِ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلَفُ فَرَسَهُ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَخْرَزُ غَرْبَهُ^(٣)، وَأَعْجِنُ وَلَمْ أَكُنْ أَحْسَنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٍ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ وَكُنَّ نِسْوَةَ صَدَقٍ^(٤)، وَكُنْتُ أَنْقَلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَأْسِي وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثَلَاثِي فَرَسَخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي،

- ١- هذه الرواية أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب، باب في التسييح عند النوم، ٣١٥/٤، رقم ٥٠٦٣، قلت: هذه الرواية ضعيفة لأن في إسنادها علي بن أعبد، وهو مجهول. انظر: تقريب التهذيب لابن حجر ١/٣٩٨، ترجمة رقم ٤٦٨٩، المغني في الضعفاء للذهبي ٢/٤٤٣، ترجمة رقم ٤٢٢٣.
- ٢- ناضح: واحد نواضح وهي الإبل التي يستقي عليها، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥/٦٨.
- ٣- أخرز غربه: الخرز - بفتح الحاء وسكون الراء - هو خياطة الجلد، ويسمى صانع ذلك خرازاً، وقولها: غربه: أي دلوه، انظر: لسان العرب ٥/٣٤٤، وفتح الباري ٩/٣٢٣.
- ٤- نسوة صدق: قال الحافظ - في الفتح ٩/٣٢٣: «إضافتهن إلى الصدق مبالغة في تلبسهن به في حسن العشرة، والوفاء بالعهد».

فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَعَانِي ثُمَّ قَالَ: إِنْ
إِنْ^(١) لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُسِيرَ مَعَ الرَّجَالِ وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَهُ...
الحديث»^(٢).

ففي هذا الحديث - كسابقه - ذكر جملة أخرى من المهارات المنزلية التي
كانت سائدة في زمن النبي - ﷺ - ومنها بعض المهارات المتعلقة بالمطبخ - وهي
شاهدنا هنا - كالعجن، والخبز، وجلب الماء.

كما أن فيه إقراراً عاماً لما كانت المرأة تمارسه من مهارات منزلية في عهده
- ﷺ -، سواء أكانت هذه المهارات داخل المنزل أم خارجه، لعلمه - ﷺ - بحال
أسماء وما تلقاه من عناء في المنزل وخارجه؛ فهي أخت لزوجته، و بنت خليله
وصاحبه، وزوجة حواريه الزبير.

ولذلك عرض عليها المساعدة، فأناخ لها بغيره ودعاها للركوب خلفه، رحمة
بها، وشفقة عليها، وإظهاراً منه - ﷺ - لاحترامه، وتقديره، وتشجيعه لها ولأمثالها
من النساء العاملات، اللاتي لا يدخرن وسعاً في تحصيل الأسباب التي تسهم في
إسعاد أسرهن ونجاحها، بل وتميزها، ومنها إتقان المهارات اللازمة لذلك.

ثانياً: مهارات الخدمة المنزلية والتنظيف: ويأتي على رأس ذلك خدمة
الزوج والأولاد والضيوف، بإعداد الطعام والشراب، وتقديمه، وغسل الثياب،
وتنظيف البيت، وترتيبه،... ونحو ذلك من المهارات الخدمية المهمة التي يفترض
بالمرأة الناجحة إتقانها في هذا الباب.

ومما جاء في قيام المرأة بالخدمة المنزلية حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه

١ - بكسر الهمزة وسكون الخاء - كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينخه. فتح الباري ٩/ ٣٢٣.
٢ - أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، ٥/ ٢٠٠٢، رقم ٤٩٢٦ واللفظ له، ومسلم كتاب السلام،
باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعت في الطريق، ٤/ ١٧١٧، رقم ٢١٨٢.

- قال: «دَعَا أَبُو أُسَيْدٍ السَّاعِدِيُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُرْسِهِ، وَكَانَتْ أُمَّرَاتُهُ يَوْمَئِذٍ خَادِمَهُمْ وَهِيَ الْعَرُوسُ، قَالَ سَهْلٌ: تَدْرُونَ مَا سَقَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْقَعَتْ لَهُ تَمْرَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا أَكَلَ سَقَتْهُ إِيَّاهُ»^(١). في الحديث دليل على إقرار النبي - ﷺ - لقيام المرأة بتقديم الخدمة لزوجها وضيوفه، بإعداد الطعام والشراب، وتقديمه لهم، وما يلحق ذلك من تجهيز البيت لاستقبالهم، ثم القيام بتنظيفه وأواني الطهي بعد خروجهم... ونحو ذلك.

وإذا كانت زوجة أبي أسيد قد صنعت ذلك وهي لا تزال عروساً - بحضرة النبي ﷺ - فإن الأمر يكون في حق غيرها ألزم. قال القرطبي - تعليقا على الحديث - : «... وأخرجه البخاري وترجم له: باب قيام المرأة على الرجال في العرس، وخدمتهم بالنفس»^(٢). قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عرسها...»^(٣). وقال في موضع آخر: «... ولهذا قال علماؤنا: عليها أن تفرش الفراش، وتطبخ القدر، وتقمم الدار بحسب حالها وعادة مثلها»^(٤).

ومما جاء - أيضاً - في تقديم المرأة الخدمة البيتية لزوجها حديث أسماء - السابق ذكره -، حيث جاء في أحد ألفاظه عند مسلم «كُنْتُ أَخْدُمُ الزُّبَيْرَ خِدْمَةَ الْبَيْتِ»^(٥) فأوضحت أنها كانت تقوم على خدمة زوجها وبيتها. جاء في المحلى - تعليقا على هذا الحديث، وحديث علي وفاطمة السابق - : «... فإذا خدمت هاتان الفاضلتان - أي فاطمة وأسماء - هذه الخدمة الثقيلة فمن بعدهما يترفع عن ذلك من النساء»^(٦).

-
- ١ - أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب حق إجابة الوليمة والدعوة، ٥ / ١٩٨٤، رقم ٤٨٨١، ومسلم كتاب الأشربة، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتمد ولم يصبر مسكراً، ٣ / ١٥٩٠، رقم ٢٠٠٥.
 - ٢ - انظر: صحيح البخاري ٥ / ١٩٨٦، حديث رقم ٤٨٨٧.
 - ٣ - تفسير القرطبي ٦ / ٦٨.
 - ٤ - المصدر نفسه ١٠ / ١٤٥.
 - ٥ - صحيح مسلم ٤ / ١٧١٧، رقم ٢١٨٢.
 - ٦ - نقل ذلك ابن حزم عن أبي ثور. انظر، المحلى ١٠ / ٤٧.

أما الأحاديث التي تدل على ضرورة اهتمام المرأة الناجحة بالنظافة - نظافتها الشخصية، ونظافة زوجها، وبيتها - فكثيرة نذكر منها: حديث أنس - رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَ أُمَّ سُلَيْمٍ تَنْظُرُ إِلَى جَارِيَةٍ فَقَالَ: «سَمِّي عَوَارِضَهَا، وَأَنْظُرِي إِلَى عُرْقُوبِيهَا»^(١).

في الحديث دليل على ضرورة عناية المرأة المثالية بنظافتها الشخصية عموماً، وأن ذلك من الصفات المهمة التي ينبغي للخاطب تحريها في المرأة قبل الإقدام على خطبتها، ولا تكون الزوجة زوجة متميزة إلا بتحققها فيها.

ومن الأحاديث التي تدل على ضرورة عناية المرأة بنظافة زوجها والحرص على إظهاره - دوماً - بالمظهر اللائق النظيف؛ ما جاء عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كُنْتُ أَغْسِلُ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا حَائِضٌ»^(٢) وقولها: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اعْتَكَفَ يَدْنِي إِلَى رَأْسِهِ فَأَرْجَلُهُ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ»^(٣)، وقولها: «كُنْتُ أَغْسِلُ الْجَنَابَةَ مِنْ ثَوْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ وَإِنَّ بَقَعَ الْمَاءُ فِي ثَوْبِهِ»^(٤).

فهذه ثلاثة أحاديث تدل جميعها على ما كان عليه حال أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وهي الزوجة المتميزة - من العناية التامة بنظافة زوجها - ﷺ - ،

١ - أخرجه: أحمد في المسند حديث رقم ١٣٦٢٨، واللفظ له، والحاكم في المستدرک کتاب النکاح ٢ / ١٨٠، رقم ٢٦٩٩ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب النکاح، باب من بعث بامرأة لتنظر إليها، ٧ / ٨٧، رقم ١٣٢٧٩، وأبو داود السجستاني في المراسيل باب النظر عند التزويج، ص ١٨٦، رقم ٢١٦، ورجح الألباني إرساله، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣ / ٤٣٢ - ١٢٧٣، رقم ١٢٧٣.

عوارضها: هي الأسنان التي في عرض الفم، وهي ما بين الثنايا والأضراس، واحدها عارض. لسان العرب ٧ / ١٨٠.

عرقوبها: هما أعقاب القدمين. لسان العرب ١ / ٦١١، وانظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣ / ٢٦٩.

٢ - أخرجه مسلم كتاب الحيض، باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد، ١ / ٢٤٤، رقم ٢٩٧.

٣ - أخرجه مسلم نفس الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث.

٤ - أخرجه البخاري كتاب الوضوء، باب غسل النبي وفركه وغسل ما يصيب من المرأة، ١ / ٩١، رقم ٢٢٧.

جسماً وثياباً وهيئة - وهو ما ينبغي أن يكون عليه حال الزوجة المثالية مع زوجها وأولادها - أيضاً - .

وأما الأحاديث التي تدل على ضرورة اهتمام المرأة المثالية بنظافة بيتها وترتيبه فمنها ما جاء في حديث علي - السابق - حيث وصف فاطمة - رضي الله عنها - بأنها: «وَكَسَحَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا»^(١)، أي كانت تكنس البيت وتنظفه حتى اغبرت لون ثيابها من كثرة تكرارها ذلك، واستمرارها عليه.

ثالثاً: مهارات ذات طابع حرفي إنتاجي: ويندرج تحتها تلك المهارات التي ينبغي للزوجة المتميزة - بل وللزوج أيضاً - تعلمها، وإتقانها، بغرض الإسهام في تغطية بعض احتياجات الأسرة المختلفة - الحاجة منها و التحسينية - لتصبح بذلك أسرة فعالة منتجة، توفر كثيراً من احتياجاتها الغذائية والخدمية بنفسها، وصولاً إلى تحقيق درجة التميز التي يفترض أن يكون عليه حال الأسرة المسلمة.

وهذا - في الحقيقة - هو ما كان عليه واقع الأسرة المسلمة المتميزة على عهد رسول الله - ﷺ -، حيث أولت هذا النوع المهم من المهارات المنزلية اهتماماً كبيراً، فسعى أفرادها إلى تعلمها وتعليمها، وتنمية قدراتهم، وإظهار مواهبهم فيها، فأنتجوا وأبدعوا، ووصلوا بذلك إلى درجة الاكتفاء الذاتي في كثير من السلع والخدمات المختلفة.

لقد كان النبي - ﷺ - يحث أزواجه على تعلم المهارات ذات الطابع الانتاجي وإتقانها، كما جاء في حديث أبي برزة - رضي الله عنه - قال: كان للنبي - ﷺ - - تسع نسوة فقال يوماً: «خيركن أطولكن يداً فقامت كل واحدة تضع يدها على

١ - سبق تخريجه وبيان غريبه في ص ٢١-٢٢.

الجدار، قال النبي: لست أعني هذا ولكن أصنعكن يداً^(١).

في هذا الحديث يخبر النبي - ﷺ - أزواجه أن خيرهن هي أكثرهن صنعة ومهارة!، وهو بهذا يفتح باب التنافس الإيجابي بينهن لنيل درجة التميز - الخيرية -، ويخبرهن أن الوصول إلى هذه المرتبة لا يكون إلا بتعلم المهارات المختلفة وإتقانها. فكان لذلك أبلغ الأثر في نزوعهن - رضي الله عنهن - إلى تعلم المهارات المختلفة والحرص على إتقانها - كما سيأتي -.

ومن أهم هذه المهارات ما يلي:

١- تربية الحيوانات المنزلية: قلما تجد بيتاً في المدينة المنورة - على عهد النبي - ﷺ - ليس فيه حيوان أليف؛ من الغنم أو البقر أو الإبل أو الخيل أو البغال والدجاج ونحو ذلك من الحيوانات الداجنة؛ فقد كانوا يربونها للاستفادة من لحومها وألبانها، وأصوافها، وجلودها، والحمل أو الحرث أو القتال عليها.

وقد كان للبيت النبوي الطاهر باع كبير في ممارسة هذه المهارة المهمة، والعناية بها؛ والحث عليها؛ إذ وجد لديهم عدد من الإبل، كان على رأسها ناقة النبي - ﷺ - المشهورة بالقصواء أو العضباء؛ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاقَةٌ تَسْمَى الْعَضْبَاءَ لَا تُسَبِّقُ»^(٢).

١- أخرجه أبو يعلى في مسنده ١٣ / ٤٢٥، رقم ٧٤٣٠، والطبراني في المعجم الأوسط ٦ / ٣، ٢٢٩٧ عن أم المؤمنين ميمونة - رضي الله عنها - قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٢٤٨ عن حديث أبي برزة: «رواه أبو يعلى وإسناده حسن لأنه يعتضد بما يأتي: ثم ذكر رواية ميمونة عند الطبراني وقال عنها: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه مسلمة بن علي، وهو ضعيف وذكر رواية أخرى عن عمر - رضي الله عنه - بنحو اللفظ السابق وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح - قلت: انظر: مسند البزار ١ / ٣٦٠-٣٦١، رقم ٢٤١. قال البزار: «وهذا الحديث قد يروى عن رسول الله - ﷺ - من وجوه، ولا نعلم رواه أحد عن رسول الله - ﷺ - أجل من عمر...»، قلت: وأصل الحديث في الصحيح عن عائشة. كما سيأتي.

٢- أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب ناقة النبي - ﷺ -، ٣ / ١٠٥٣، رقم ٢٧١٧.

قال الحافظ ابن حجر: «... وذكر له - أي للنبي ﷺ - عدة نوق غير هذه تتبعها من اعتنى بجمع السيرة»^(١). كما كان للنبي ﷺ - بغلة بيضاء^(٢).

وقد قام بعض أزواجه - ﷺ - بتربية الأغنام؛ كما جاء عن ابن عباس أَنَّ مَيْمُونَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ دَاجِنَةَ كَانَتْ لِبَعْضِ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَاتَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَخَذْتُمْ إِيَّاهَا فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ». وفي رواية سبقت أن هذه الداجن المذكورة، كانت شاة لأم المؤمنين ميمونة نفسها، أو لمولاة لها^(٣).

ولم يكتف النبي - ﷺ - بإقرار أزواجه على تربية هذه الحيوانات فحسب، بل كان - في أحيان كثيرة - يشاركهم عناء تربيتها بنفسه، كما ورد عن القاسم عن عائشة قال: «سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»^(٤) فدل قولها: «ويحلب شاته» على قيامه - ﷺ - بتأدية بعض المهارات ذات الصلة بتربية الحيوانات، وأن ذلك كان عادة له - كما يفهم من سياق الحديث -، ولا يخفي ما في ذلك من حث عملي وتشجيع لأهله وأمهته على مزاوله هذه المهارة المهمة والعناية بها.

ب- الخياطة والحياكة: وهما مهارتان يفترض بربة البيت الناجحة المتميزة، وكذا رب البيت المتميز الإلمام بهما لأهميتهما، وكثرة احتياج أفراد الأسرة إليهما. وقد مورست هاتان الحرفتان في بيت النبي - ﷺ - على أيدي زوجاته، ليكنَّ بذلك قدوة لغيرهن من النساء الراغبات في تحقيق النجاح الأسري

١- فتح الباري ٦ / ٧٤.

٢- انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير، باب بغلة النبي - ﷺ -، ٣ / ١٠٥٤، رقم ٢٧١٨، ٢٧١٩.

٣- الروايتان أخرجهما مسلم كتاب الحيض، باب طهارة جلود الميتة بالدباغ، ١ / ٢٧٧، رقم ٣٦٤.

٤- أخرجه أحمد في مسنده ٦ / ٢٥٦، رقم ٢٦٢٣٧، وأخرج البخاري نحوه في: الأدب المفرد ص ١٩٠، رقم ٥٤١ وقد صححه الألباني في: السلسلة الصحيحة ٢ / ٢٧٥، رقم ٦٧١.

والتميز. فعن كثير بن عبيد قال: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: أَمْسِكْ حَتَّى أُحِيطَ نَقَبَتِي»^(١). فَأَمْسَكْتُ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ خَرَجْتُ فَأَخْبَرْتَهُمْ لَعَدُوهُ مِنْكَ بَخْلًا. قَالَتْ: أَبْصِرْ شَأْنَكَ. إِنَّهُ لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا يَلْبَسُ الْخَلْقَ»^(٢). في الحديث دليل على ما كانت عليه أم المؤمنين من تواضع، ورجاحة عقل، وبعد عن الإسراف، وإتقان لمهارة الخياطة. ولا غرو في ذلك، وقدوتها رسول الله - ﷺ - الذي كان يخيظ ثوبه بيده الشريفة، تواضعاً منه، وتعليماً لأُمَّته حسن التدبير المنزلي، والاعتماد على النفس، في توفير بعض احتياجاتهم المعيشية.

وعن عروة بن الزبير قال: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: «مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ»^(٣). في الحديث دلالة على مزاولته النبي - ﷺ - لمهارة الخياطة بنفسه «... وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ» وأن ذلك لم يكن شأنًا خاصاً به - ﷺ -، بل عادة معروفة يصنعها أغلب رجال الصحابة في بيوتهم - كما يفهم من قولها: «مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ» - فإذا كان الرجال - وعلى رأسهم رسول الله - ﷺ - يمارسون هذه المهارة - وغيرها من المهارات المذكورة في الحديث - فلا شك أن ممارسة النساء وإتقانهم لها سيكون أكثر، - باعتبارها مهارة يغلب عليها الطابع النسائي - وهذا يعني أننا نقف أمام أسرة - بل مجتمع

- ١ - نقبتي: النقبة: سراويل بغير ساقين، المعجم الوسيط ٢ / ٩٤٣.
- ٢ - أخرجه البخاري في: الأدب المفرد باب الرفق في المعيشة ص ١٦٦، رقم ٤٧١، قال الألباني: حسن الإسناد، انظر: صحيح الأدب المفرد ٢ / ١٩٢.
- ٣ - أخرجه - بهذا اللفظ - ابن حبان في صحيحه ١٢ / ٤٩٠، رقم ٥٦٧٦، وأخرجه أحمد في المسند ٦ / ١٢١، رقم ٢٤٩٤٧ بلفظ: «كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بَيْتِهِمْ»، قال المناوي في: التيسير بشرح الجامع الصغير ٢ / ٢٧٤: إسناده صحيح، قلت: وأصله عند البخاري في الصحيح عن الأسود بن يزيد: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَصْنَعُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ»، انظر: صحيح البخاري كتاب النفقات، باب خدمة الرجل في أهله، ٥ / ٢٠٥٢، رقم ٥٠٤٨.

- مهني، حرفي، إنتاجي، من الطراز المتميز.

أما مهارة الحياكة فقد أخرج الشيخان عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «فَتَلْتُ قَلَائِدَ بُدْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدَيَّ... الحديث»^(١)، وفي رواية لمسلم: «قَالَتْ: أَنَا فَتَلْتُ تِلْكَ الْقَلَائِدَ مِنْ عِهنِ كَانِ عِنْدَنَا»^(٢).

فدلت هاتان الروايتان على إتقان أم المؤمنين - أيضاً - لمهارة الحياكة؛ حيث كانت تصنع قلائد هدي النبي - ﷺ - من الصوف، فإذا كان هذا حال أهل بيت النبوة، فمن باب أولى أن يكون حالاً لغيرهم.

ح - الدباغة والخرازة: الدباغة تكون للجلود، والخرازة - كما مر معنا قريباً - هي: ترقيع الجلود. وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على مزاولة الأسرة في زمن النبي - ﷺ - عموماً، والأسرة النبوية على وجه الخصوص لهاتين المهارتين المهمتين؛ منها: ما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة من وصف لأم المؤمنين زينب - رضي الله عنهما - حيث قالت: «... وَكَانَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةً صِنَاعَةَ الْيَدِ تَدْبِغُ وَتَخْرُزُ وَتَصَدِّقُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

ومنها: حديث ابن عباس - الذي مر معنا قريباً - في شاة ميمونة التي ماتت فأرشدهم النبي - ﷺ - إلى دباغة جلدها، والانتفاع به^(٤). ومن ذلك - أيضاً - ما سبق معنا في حديث عائشة الذي تذكر فيه أن النبي - ﷺ - «يَخْصِفُ نَعْلَهُ،

١ - أخرجه البخاري كتاب الحج، باب من أشعر وقلد بذئ الخليفة... الخ، ٦٠٨ / ٢، رقم ١٦٠٩، ومسلم كتاب الحج، باب استحباب بعض الهدى إلى الحرم لمن لا يريد الذهاب بنفسه، واستحباب تقليده وفتل القلائد... الخ، ٩٥٧ / ٢، رقم ١٣٢١ واللفظ له.

٢ - صحيح مسلم ٩٥٨ / ٢.

٣ - أخرجه - بهذه الزيادة - الحاكم في: المستدرک کتاب معرفة الصحابة، ٢٦ / ٤، رقم ٦٧٧٦ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي - وهو عند مسلم بلفظ: قالت قال رسول الله - ﷺ -: «أسرعن لحاقابي أطولكن يدا». قالت: فكن يتناولن أيتهن أطول يدا. قالت: فكانت أطولنا يداً زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق». انظر: صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين - رضي الله عنها، ١٩٠٧ / ٤، رقم ٢٤٥٢.

٤ - سبق ذكر الحديث وتخريجه في ص ٢٦ من هذا البحث.

وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ»^(١). وكذا ما جاء في حديث أسماء الذي ذَكَرَتْ فيه أنها كانت «تَخْرُزُ غَرْبَهُ»^(٢) أي: ترقع دلوه - كما سبق - .

فقد دلت جميع هذه الأحاديث على أن مهارتي الدباغة والخرازة كانتا من المهارات الشائعة بين أفراد الأسرة المسلمة على عهد النبي - ﷺ -، وأن كثيراً من أرباب الأسر آنذاك - رجالاً ونساءً - وعلى رأسهم رسول الله - ﷺ -، كانوا يتقنونها؛ ويعتمدون على أنفسهم في إصلاح نعالهم وأوانيهم الجلدية ونحو ذلك، الأمر الذي مثل أحد أسباب تميزهم.

د- صيانة وصناعة الأثاث المنزلي ولعب الأطفال: ومن المهارات المهمة التي ينبغي لأفراد الأسرة المتميزة - ولاسيما الزوجان - تعلمها؛ تلك المهارات التي تؤهلهم لصيانة أو ترميم - أو حتى صناعة - بعض الأدوات المنزلية، كالأثاث، والأواني، والملابس وأدوات الزينة، ولعب الأطفال ونحوها من المستلزمات المنزلية البسيطة التي يمكن إنتاجها منزلياً باستخدام خامات أولية، أو مستهلكة - كانت سترمى أو تتلف - ولا يحتاج ترميمها أو تصنيعها إلى كبير عناء، ولا إلى أدوات إنتاجية معقدة .

إن قيام الأسرة، بتعلم ومزاولة مثل هذه المهارات الانتاجية، يوفر عليها كثيراً من المال، وربما يصير مصدراً مهماً لدخلها؛ في حال سعت إلى تحسين جودة منتجاتها وعرضها للبيع، ناهيك عما يسهم به ذلك، من اكتشاف للطاقت الإبداعية لدى أفراد الأسرة، وتنميتها، وتسخيرها لخدمة المجتمع .

لقد أدركت الأسرة المسلمة في زمن النبي - ﷺ - الأهمية الكبيرة لهذا النوع من المهارات فسارعت إلى اكتسابها، وممارستها، وتطويرها، فأنتجت، وتميزت،

١- سبق تخريج الحديث في ص ٢٧ من هذا البحث .

٢- سبق تخريج الحديث وبيان غريبه في ص ٢٢ في هذا البحث .

واكتفت ذاتياً من كثير من السلع والخدمات التي تحتاجها - كما أسلفنا - .

والأمثلة على ذلك كثيرة منها: ما جاء في سؤال عائشة أَيُّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: «مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيْطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ»^(١).

حيث دل الحديث على قيام النبي - ﷺ -، وكثير من أصحابه - رضي الله عنهم - بأعمال الصيانة والترميم لبعض الأغراض المنزلية والمستلزمات الشخصية، كالتياب، والنعال، والدلاء ونحوها.

ومن الأمثلة الواضحة على قيام بعض أزواجه - ﷺ - بصناعة بعض الأغراض المنزلية: حديث عائشة - رضي الله عنها - : قالت: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي^(٢) عَلَى سَهْوَةٍ لِي^(٣) فِيهَا تَمَائِيلٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَتَّكُهُ، وَقَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ». قَالَتْ: «فَجَعَلْنَاهُ وَسَادَةً أَوْ وَسَادَتَيْنِ»، وفي رواية لمسلم: (فَأَخْرَجْتُهُ فَجَعَلْتُهُ وَسَادَةً)^(٤). في الحديث دليل على قيام أم المؤمنين بتجهيز بعض أثاث بيتها بنفسها؛ حيث صنعت وسائد من ستر لها نهاها النبي - ﷺ - عن تعليقه - لعله ذكرها في الحديث -، ولا يخفى ما يستلزمه ذلك منها، من إجادة للخياطة، وحسن اختيار لمادة الحشو، وإجادة لطريقته، ونحو ذلك مما تحتاجه صناعة مثل هذه الوسائد - آنذاك - .

- ١- سبق تخريجه في ص ٢٧.
- ٢- قرام: القرام هو: الستر الرقيق، وقيل: الصفيق من صوف ذي ألوان. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤ / ٤٩.
- ٣- سهوة: أي خزانه صغيرة شبيهة بالرف والطاق، يوضع فيه المتاع، انظر: غريب الحديث لابن سلام ١ / ٥٠.
- ٤- أخرجه البخاري كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، ٥ / ٢٢١، رقم ٥٦١٠، ومسلم كتاب اللباس والزينة، باب في تحريم تصوير صورة الحيوان... الخ ٣ / ١٦٦٨، رقم ٢١٠٧.

ومن هذه الأمثلة كذلك، ما جاء عنها - أيضاً - من قيامها بصناعة ألعابها - وهي صغيرة - بنفسها، حيث قالت: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ، وَفِي سَهْوَتِهَا سَتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتِ لِعَائِشَةَ لُعبَ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ قَالَتْ: بَنَاتِي. وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟» قَالَتْ: فَرَسٌ. قَالَ: «وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قَالَتْ: جَنَاحَانِ. قَالَ: فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ! قَالَتْ: «أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنَحَةٌ!» قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ»^(١).

في الحديث دليل على قيام أم المؤمنين - أيضاً - وعمرها آنذاك أربعة عشر سنة أو أكثر^(٢) - بصناعة بعض لعب الأطفال كالدمى والعرائس بنفسها، مستخدمة بعض الخامات المتوفرة كالرقاع والصفوف ونحوه.

ولم يكتف النبي - ﷺ - بإقرارها على ذلك فحسب، وإنما أخذ في تشجيعها - وغيرها - على إظهار مواهبها، وتنمية قدراتها في هذا الجانب، حين أبدى إعجابه واهتمامه بما رأى، وشرع يناقشها في بعض مفردات هذا العمل، وهو يضحك سروراً وابتهاجاً مما يرى ويسمع.

رابعاً: مهارات تجميلية وفنية:

أ- مهارات تجميلية: وهي مهارات الزينة التي ينبغي للزوجة المثالية الراغبة في التميز إتقانها كي تتزين لزوجها وتنال إعجابه. وهي مهارات عديدة ومتنوعة؛ بعضها يتعلق بالملابس وطريقة اختيارها أو لبسها، وبعضها يتعلق بنوعية الزينة المعدنية من الذهب أو الفضة ونحوها، والبعض الآخر يتعلق

١- أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب، باب في اللعب بالبنات، ٢٨٣/٤، رقم ٤٩٣٢. والنسائي في السنن الكبرى كتاب عشرة النساء، باب إباحتها الرجل اللعب لزوجته بالبنات، ٣٠٦/٥، رقم ٨٩٥٠، والحديث صححه الألباني في: مشكاة المصابيح ٢/٢٤١، رقم ٣٢٦٥.

٢- انظر: فتح الباري ١٠/٥٢٧.

بالأصباغ والعطور والمواد التجميلية التي تضعها المرأة على بدنها أو شعرها، ويلحق بذلك كله معرفة طرق وأساليب العناية بالشعر وتسريحه، وغير ذلك من مهارات التزيين المعروفة بين النساء.

والواقع أن الأحاديث الواردة في هذا الباب من السنة كثيرة جداً لا يسعفنا المجال لذكرها، ولعل حديثاً واحداً منها يكفيننا هنا، وهو حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سئل النبي - ﷺ -: «أي النساء خير؟ فقال: «التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره»^(١).

إذ يبين لنا هذا الحديث أهم الصفات التي ينبغي توفرها في خير النساء - المرأة المثالية - ومنها كونها لا تظهر أمام زوجها إلا على حال (تسره إذا نظر) إليها، وهو لفظ جامع، يفتح الباب واسعاً أمام الزوجة الناجحة، للتميز والإبداع في هذا الجانب، ويعطيها الحق - بل يحثها - على سلوك كل وسيلة أو اكتساب أي مهارة من مهارات التزين والتجميل يكون من شأنها إظهارها أمام زوجها بمظهر يسره ويشير إعجابه بها، ما لم تكن هذه المهارة مخالفة للشرع.

والحقيقة أن القيود والضوابط^(٢) التي وضعتها السنة المطهرة في هذا الباب قليلة، وضرورية، ولها ما يبررها شرعاً وعقلاً وواقعاً، ولا تؤثر أو تتعارض مع ما ذكرنا من تشجيع السنة لهذه المهارات وحث النساء - لاسيما المتزوجات - عليها.

ب- مهارات فنية: ونقصد بها تلك المهارات الفنية المباحة؛ كتحسين الصوت

١- أخرجه النسائي في السنن الكبرى كتاب عشرة النساء، باب طاعة المرأة لزوجها ٥ / ٣١٠، رقم ٨٩٦١، والحاكم في المستدرک کتاب النکاح، ٢ / ١٧٥، رقم ٢٦٨٢، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم - ووافقه الذهبي، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: سنده صحيح، انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٢ / ٣٩.

٢- مثل تحريم وصل الشعر، والوشم، وترف شعر الحواجب النمص وتفليج الأسنان للحسن الوشر وتشبه النساء بالرجال في الملبس، وتبرجهن أمام الأجانب، ونحو ذلك.

بالقرآن، والغناء البرئ الذي لا يخالطه محرم، والضرب بالدف، ونظم الشعر ذي المعاني السامية، أو الاستماع إليه ونقده، ونحو ذلك من المهارات الفنية الرفيعة، التي أبحاثها السنة النبوية، وندبت أفراد الأسرة لتعلمها، للترويح عن أنفسهم، وتنشيطها، لاسيما في المناسبات السعيدة كالأعراس والأعياد وغيرها.

ومن الأحاديث الواردة في إباحة بعض هذه المهارات اللطيفة؛ حديث عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «يَا عَائِشَةُ مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهُوٌ! فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهُوٌ!»^(١). قال الحافظ في الفتح^(٢): «قوله: (ما كان معكم من لهو) في رواية شريك: فقال: (فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف، وتغني؟) قلت: تقول ماذا؟ قال: (تقول:

أَتَيْنَاكُمْ، أَتَيْنَاكُمْ...»

فَحَيُّونَا، نُحَيِّكُمْ

لَوْلَا الذَّهَبُ الْأَحْمَرُ...»

مَا حَلَّتْ بَوَادِيكُمْ

وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمْرَاءُ...»

مَا سَمِنَتْ عَذَارِيكُمْ»^(٣).

١- أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها، ٥ / ١٩٨٠، رقم ٤٨٦٧.

٢- فتح الباري ٩ / ٢٢٦.

٣- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣ / ٣١٥ من طريق أبي عصام رواد بن الجراح عن شريك بن عبدالله، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: وذكره. قلت: فيه أبو عصام رواد بن الجراح ضعيف. قال البخاري في التاريخ الكبير ٣ / ٣٣٦، ترجمة رقم ١١٣٩: «... كان قد اختلط، لا يكاد أن يقوم حديثه»، لكن له شاهداً من حديث ابن عباس، أخرجه ابن ماجه في السنن باب إعلان النكاح، باب الغناء والدف، ١ / ٦١٢ بنحو لفظه، فلعله يرتقي به إلى مرتبة الحسن لغيره - والله أعلم -، وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٦ / ٤٨٣ رقم، ٢٩٨١.

في الحديث دليل على إباحة اللهو بالغناء المباح، والضرب بالدف في الأعراس ونحوها؛ فقد أخذ النبي - ﷺ - على عائشة عدم اصطحابها جارية تضرب بالدف وتغني، وعلل ذلك بأن (الأنصار يعجبهم اللهو)، فكان في ذلك إقرار منه - ﷺ - لعادة الأنصار هذه.

ولم يكتف بذلك فحسب، بل علمها - أيضاً - بعض الآيات التي تقال في مثل هذه المناسبات، فكان ذلك منه - ﷺ - تشجيع واضح لهذه المهارة، وحث على تنميتها، وتحسين الأداء فيها.

ومما يؤكد هذا المعنى ويزيده وضوحاً ما جاء في الحديث الآخر الذي رواه الإمام البخاري عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: «جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بنى علي^(١)، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويزات لنا يضربن بالدف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: «دعى هذه وقولي بالذي كنت تقولين»^(٢). فقد أقر النبي - ﷺ - في هذا الحديث - أيضاً - غناء الجواري وضربهن بالدف، كما قام بالملاحظة والتعديل عليهن حينما تضمن الشعر الذي أنشدته مخالفة شرعية، هي وصفه بأنه يعلم الغيب، فلم يزد - ﷺ - على إيقافهن، ثم حثهن على تحسين مهارتهن - من حيث الكلمات -، وأمرهن بالاستمرار بإنشاد الآيات السابقة التي لا محذور فيها.

١ - أي تزوجت.

٢ - أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة، ٥ / ١٩٧٦، رقم ٤٨٥٢.

الخاتمة

ونذكر فيها أهم نتائج البحث وتوصياته:

أولاً: النتائج:

- ١- التميز الأسري ذو أهمية كبيرة للفرد والأسرة والمجتمع ، وهو يمثل أساس التميز المجتمعي ومنطلقه.
- ٢- تنمية المهارات الأسرية، من أهم وسائل تحقيق التميز الأسري، إن لم تكن أهمها على الإطلاق.
- ٣- المهارات اللازمة لتميز الأسرة المسلمة عديدة ومتنوعة؛ منها ما يتعلق بالجانب النفسي والمعنوي لأفراد الأسرة - مهارات نفسية - ومنها ما تعلق بالجانب المادي - كالمهارات الإدارية والاقتصادية والمنزلية... وغيرها -.
- ٤- أولت السنة النبوية المباركة المهارات الأسرية عناية كبيرة؛ فقد حثت - قولاً وعملاً - على تعلمها، وتعليمها، وتنميتها، وصولاً بالأسرة المسلمة إلى درجة الإبداع والتميز.

ثانياً: أهم التوصيات: يوصي الباحث بالآتي:

- ١- ضرورة استشعار الأسرة المسلمة المعاصرة لأهمية التميز الأسري، والعمل الجاد على تحقيقه بكل الوسائل الممكنة؛ وعلى رأس ذلك الاهتمام بالجانب الحرفي والمهاري للأسرة - اكتساباً، وممارسةً، وتطويراً -.
- ٢- قيام جميع الجهات ذات العلاقة - حكومية ومدنية - بدورها في نشر وترسيخ ثقافة التميز وتنمية المهارات عند الأسرة المسلمة، والعمل على تقديم كافة أشكال الدعم المادي والمعنوي اللازم لتشجيع وحث أفراد الأسرة

على اكتساب المهارات المختلفة، وتنميتها، واستكشاف المواهب الذاتية والقدرات الإبداعية لديهم، وتبنيها والعمل على صقلها وإنضاجها، وإيجاد السبل المناسبة لاستيعابها والاستفادة منها في الدفع بالأسرة والمجتمع نحو التقدم، والرقي، والإبداع والتميز.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات،،

فهرست المصادر والمراجع^(١)

- الأحاديث المختارة، ت: محمد بن عبدالواحد المقدسي، تخ: عبدالملك بن دهيش، ط: ١، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.
- إحياء علوم الدين، ت: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت.
- الأدب المفرد، ت: محمد بن إسماعيل البخاري، تخ: محمد فؤاد عبدالباقي، ط: ٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- الأسرة في ضوء الكتاب والسنة، ت: سيد فرج، ط: ٣، دار الوفاء، مصر، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- أصول التميز، ت: وحيد مهدي، ط: ١، دار الأندلس الجديدة، مصر، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، ت: أبي بكر بن السيد محمد شطا الدمياطي، دار الفكر، بيروت.
- تاج العروس من جواهر القاموس، ت: محمد مرتضى الزبيدي، تخ: مجموعة من المحققين، دار الهداية للطباعة والنشر.
- التاريخ الكبير، ت: أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تخ: السيد هاشم الندوي، دار الفكر للطباعة والنشر.
- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، ت: محمد عبدالرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

١- رمزنا بحرف ت للتأليف، وبحرفي تخ للتحقيق، وبحرف ط للطبعة.

- تذكرة الحفاظ، ت: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تغليق التعليق على صحيح البخاري، ت: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تخ: سعيد عبدالرحمن القزفي، ط: ١، المكتب الإسلامي، دار عمار للنشر - بيروت، عمان - الأردن.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ت: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.
- تقريب التهذيب، ت: أحمد بن علي بن حجر، تخ: محمد عوامة، ط: ١، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٦هـ-١٦٨٦م.
- تهذيب التهذيب، ت: أحمد بن علي بن حجر، ط: ١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- تهذيب اللغة، ت: محمد بن أحمد الأزهرى، تخ: محمد عوض مرعب، ط: ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
- التيسير بشرح الجامع الصغير، ت: زين الدين عبدالرؤوف المناوي، ط: ٢، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- خلق المسلم، ت: محمد الغزالي، ط: ١٣، دار القلم، دمشق، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام، ت: محمد بن إسماعيل الأمير، تخ: محمد عبدالعزيز الخولي، ط: ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، ت: محمد

- ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض.
- السلة الصحيحة، ت: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
 - السلسلة الضعيفة (١/١٣)، ت: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
 - سنن ابن ماجه، ت: محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت.
 - سنن أبي داود، ت: سليمان بن الأشعث، أبو داود السجستاني، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر.
 - سنن البيهقي الكبرى، ت: أحمد بن الحسين البيهقي، تح: محمد عبدالقادر عطا، دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤-١٩٩٤ م.
 - سنن الترمذي - (الجامع الصحيح)، ت: أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - سنن النسائي (المجتبى) ت: أحمد بن شعيب النسائي، تح: عبد الفتاح أبو غدة، ط: ٢، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦ م.
 - السنن الكبرى، ت: أحمد بن شعيب النسائي، تح: عبد الغفار البنداري، سيد كسروي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١ م.
 - شرح النووي على صحيح مسلم، ت: يحيى بن شرف بن مزي النووي، ط: ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.
 - شعب الإيمان، ت: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح: محمد السعيد بسيوني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت- ١٤١٠هـ.

- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: محمد بن حبان بن أحمد البستي،
تح: شعيب الأرنؤوط، ط: ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- صحيح ابن خزيمة، ت: محمد بن إسحاق بن خزيمة، تح: محمد مصطفى
الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠-١٩٧٠م.
- صحيح أبي داود، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط: ١، مؤسسة غراس،
الكويت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، ت: محمد ناصر الدين الألباني،
ط: ١، دار الصديق، ١٤٢١هـ.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، ت: محمد بن إسماعيل
البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط: ٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت،
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- صحيح الترغيب والترهيب، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط: ٥، مكتبة
المعارف، الرياض.
- صحيح مسلم، ت: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد
عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ضعيف الترغيب والترهيب، ت: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة
المعارف، الرياض.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ت: بدر الدين محمود بن أحمد
العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- غريب الحديث، ت: القاسم بن سلام الهروي، أبو عبيد، تح: محمد عبد المعيد

- خان، ط: ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٦.
- الفائق في غريب الحديث، ت: محمود بن عمر الزمخشري، تخ: علي البجاوي - محمد أبو الفضل، ط: ٢، دار المعرفة، لبنان.
 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، ت: أحمد بن علي بن حجر، تخ: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.
 - فقه السنة، ت: السيد سابق، ط: ١، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
 - الفوائد، ت: شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي (ابن القيم)، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
 - في ظلال القرآن، ت: سيد قطب، ط: ٤، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٧٧م.
 - القاموس المحيط، ت: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
 - الكاشف، ت: حمد بن أحمد الذهبي، تخ: محمد عوامة، ط: ١، دار القبلة للثقافة الإسلامية - مؤسسة علو، جدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
 - الكامل في ضعفاء الرجال، ت: عبدالله بن عدي الجرحاني، تخ: يحيى غزاوي، ط: ٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
 - لسان العرب، ت: محمد بن مكرم بن منظور، ط: ١، دار صادر، بيروت.
 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ت: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.

- مختار الصحاح ، ت: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تح: محمود خاطر، ط: جديدة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- المراسيل، ت: سليمان بن الأشعث السجستاني، أبو داود، تح: شعيب الأرنؤوط، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ت: علي بن سلطان القاري، تح: جمال عيتاني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة، ت: خالد حامد الحازمي، ط: ٢، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، ١٤٢٦هـ.
- المستدرک على الصحيحين، ت: محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- مسند أبي يعلي، ت: أحمد بن علي المثني، أبو يعلي الموصلي، تح: حسين سليم أسد، ط: ١، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- مسند أحمد بن حنبل، ت: أحمد بن حنبل، أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.
- مسند البزار (البحر الزخار)، ت: أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، تح: محفوظ الرحمن زين الله، ط: ١، مؤسسة علوم القرآن - مكتبة العلوم والحكم، بيروت - المدينة، ١٤٠٩هـ.
- مسند الشهاب، ت: محمد بن سلامة القضاعي، تح: حمدي السلفي، ط: ٢،

- مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
- مشكاة المصابيح، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، ط: ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
 - المعجم الأوسط، ت: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تخ: طارق بن عوض الله، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
 - المعجم الكبير، ت: سليمان بن أحمد الطبراني، تخ: حمدي السلفي، ط: ٢، مكتبة الزهراء، الموصل، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
 - المعجم الوسيط، ت: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، مجمع اللغة العربية.
 - المغني عن حمل الأسفار، ت: زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي، تخ: أشرف عبدالمقصود، ط: ١، مكتبة طبرية، الرياض، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
 - المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ت: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، ط: ١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
 - المغني في الضعفاء، ت: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تخ: نور الدين عتر.
 - المكاسب والورع والشبهة وبيان مباحها ومحظورها...، ت: الحارث بن أسد المحاسبي، تخ: نور سعيد، ط: ١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٢م.
 - النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

المواقع الإلكترونية:

www.Acc4arab.com -

www.ar.wikipedia.org -

www.manhal.net -

www.muslimh.com -

www.Saaid.net -

www.uae7.com -

وظيفة المرأة في صناعة التميز

في ضوء السنة النبوية

أ. د. عبدالرحمن العمراني
جامعة القاضي عياض / مراكش - المغرب

من أبرز فقرات البحث

«ساعد الإسلام المرأة على ولوج مجالات الحياة العامة بصورة تحفظ كرامتها وتضمن احترامها، على خلاف ما كان عليه وضعها في الجاهلية؛ حيث عانت من عدم المساواة ومن تبعيتها للرجل في كل شيء يرسمه لها. وجاءت مساهماتها إيجابية متميزة في مجموعة محطات حضرتها أثبتت من خلالها أنها تملك قوة اقتراحية في المواقف الصعبة من حياة المسلمين. ومما يفيد هذا إشارة أم سلمة رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية بأن يحلق شعره ويخرج إلى الناس ليتبعوه بعد أن لم يستسيغوا رجوعهم إلى المدينة دون دخول البيت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

عندما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، لم يخص بدعوته جنسا من الناس دون جنس، ولكن دعا الرجال والنساء على السواء. لكن تمثل المساواة بين الجنسين في بداية البعثة كان يقف دون تحقيقه في الواقع ما كان يحمله الرجال من نظرة دونية للمرأة؛ فقد كانوا يتطيرون من ولادتها، ويرونها خلقت فقط للمتعة والولادة والخدمة لمصلحة زوجها - صاحب الأمر والنهي - وهي عليها الطاعة والامتثال لأوامره. وأما أن تشارك برأيها في شيء من شؤون بيتها فأمر مستحيل في حقها.

غير أن سلطة الإسلام كانت أقوى في تحقيق العدل، بالإرشاد إلى الحق والصواب في الاعتقاد والقول والسلوك؛ إذ جاء خطابه التكليفي في الكتاب والسنة عاما للرجال والنساء. ووردت نصوص تخص النساء بالخطاب وتبين حقوقهن. وثبت أن المرأة كانت تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم تستفسر عن حقوق النساء إلى جانب الرجال، فيجيبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيان الشافي أن لا فرق في التكليف الشرعية بينها وبين الرجل، إلا ما جاء تخصيصه به دونها. ولم يلبث أن تحاكم الناس إلى الشرع، فتقومت تصوراتهم للحياة، وأقروا بحقوق المرأة كاملة معهم. وقد عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا التحول في نظرة الرجل إلى المرأة، وعن تحسن صورتها بنزول الوحي في قوله: «كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ، رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ نُدْخِلَهُنَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِنَا»^(١).

١ - صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجوز من اللباس واليسط، ح ٥٨٤٣. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، ح ٣٦٧٥.

وإن الأحاديث لتشهد بما تميزت به المرأة المسلمة في عهد القدوة من قوة في الالتزام بدينها، ظهرت في الصدق في القول، والاستقامة في السلوك، والجرأة في الموقف. وهذه القوة المتميزة هي ما سيحاول هذا البحث كشفها من أجل أن تستبصر بها المرأة المسلمة اليوم. وهو يحمل عنوان «وظيفة المرأة في صناعة التميز في ضوء السنة النبوية». وقد هيأته للمشاركة به في الندوة العلمية الدولية السادسة التي تنظمها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي. وهو بحث لا يروم بيان مكانة المرأة في الإسلام في ضوء السنة النبوية؛ ولكن يبتغي الكشف عن المنهج الذي اعتمده المرأة المسلمة على عهد القدوة، وتفوقت به في إبراز شخصيتها المسلمة، وفرض احترامها في محيطها، والإفادة من حقوقها الشرعية كاملة إلى جانب شقيقها الرجل، وإثبات حضورها ومشاركتها النبيلة في الحياة العامة من خلال استقراء الأحاديث النبوية، وتتبع مراحل السيرة النبوية في مصادرها الصحيحة. وهذا هو محل الجدة فيه. وهو موضوع ليس من السهل ضبط مادته العلمية - ما يدخل في بابه وما لا يدخل - لجدة اصطلاحية لفظ «التميز»، واختلاف نظر الباحثين فيه. وإن «كثيرا من النزاع - كما قال ابن تيمية - يعود إلى إطلاقات لفظية لا إلى معان عقلية»^(١).

وبالنظر إلى معناه في اللغة، يظهر أنه يدور على فرز الأشياء وفصل بعضها من بعض. جاء في لسان العرب «المَيِّز: التمييز بين الأشياء. تقول: مَيَّزْتُ بعضه من بعض فأنا أَمَيِّزه مَيِّزًا. وقد أَمَازَ بعضه من بعض. ومَيَّزْتُ الشيءَ أَمَيِّزه مَيِّزًا؛ عزلته وفرزته. وكذلك مَيَّزْتُهُ تَمَيِّيزًا (..). ويقال: امتاز القوم، إذا تنحى عصابة منهم ناحية»^(٢). وجاء في المعجم الوسيط: «امتاز الشيء بدأ فضله على مثله (..) والمَيِّز الرفعة»^(٣).

١ - مجموعة الفتاوى، ابن تيمية، ج ١٢ / ١٥.

٢ - لسان العرب، ابن منظور، باب الزاي، فصل الميم.

٣ - المعجم الوسيط، ماز.

ومنه يكون معنى التميز، هو وجود بعض صفات في الشيء أو الشخص،
يعلو بها سائر أفراد جنسه، ويعرف بها إذا تنحى ناحية. وهذا المعنى، هو الذي
حاول هذا البحث بيان وظيفة المرأة في صناعته في ضوء السنة النبوية الصحيحة.
وهو ينحصر في ثلاثة مجالات؛ يتعلق أولها بخدمتها دينها تمسكا وتعلما. والثاني
بمشاركتها في الحياة العامة. والثالث بعلاقتها الزوجية. وذلك في ثلاثة مطالب
هي:

المطلب الأول: وظيفة المرأة في صناعة التميز في خدمة الدين.

تعد خدمة الدين أمرا مشتركا بين المسلمين، كل من موقعه وحسب جهده.
لكن استقراء الأحاديث الواردة في هذا الباب يكشف عن تميز بعض النساء في
ذلك بما بذلته من جهد، وأبدعته من طرق في العمل على تحقيقه، وبما قمن به من
تحد للمعوقات الذاتية والعرفية في بلوغه، وبما تحملته من أذى في سبيله. وجاء
ذلك بمبادرة ذاتية من المرأة، وسلوك حر منها صقلته رغبتها في طلب الأحسن،
وفي الطموح نحو الأعلى. ويتجلى دورها في الوصول إلى ذلك فيما يأتي:

أولا- الثبات على الدين والاعتزاز به:

لا شك أن من عوامل نجاح العمل بفكرة من الأفكار، وجود من يحملها
ويتمسك بها، ويضحى من أجلها، بحيث لا يتركها خوفا من تهديد سلطة، أو طمعا
في الحصول على مصلحة، أو خضوعا لإغراء مادي من أحد. بهذا تحيي الأفكار
وتنتشر، ويستمر العمل بها. وهذا كله حصل من المرأة المسلمة في بداية الدعوة
الإسلامية، إذ أظهرت قوة في ثباتها على دينها، يمكن بيان صور منه فيما يأتي:

١- صبرها وتحملها الهوان في سبيل الدين: يعد الصبر في سبيل تحقيق المشاريع
طريق الوصول إلى التميز، وذلك ما قامت به المرأة المسلمة؛ فبمجرد

خروجها من وضع الشرك بالله إلى رحاب التوحيد، لقيت الأذى الشديد من ذويها وقومها. ولم تجد من قوة لدفعه إلا أن تصبر وتحمل، لترسم بذلك طريقاً لمجاورة العقبات لمن يأتي مؤمناً بعدها. وتمثل سمية أم عمار رضي الله عنها النموذج في ذلك، إذ كانت تعذب ولا تجد من يخلصها مما تجده إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كان يحضها وأهلها على الصبر والاحتساب، ويبشرها بجزائها في الجنة، فصبرت وقدمت نموذجاً متميزاً في الثبات على الدين. نقل ابن هشام عن ابن إسحاق قوله: «وَكَاثُ بْنُ مَخْرُومٍ يَخْرُجُونَ بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ إِسْلَامٍ، إِذَا حَمِيَتِ الظَّهِيْرَةُ، يُعَذِّبُونَهُمْ بِرَمَضَاءِ مَكَّةَ، فَيَمُرُّ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَقُولُ فِيمَا بَلَغَنِي: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنْ مَوَّعِدْكُمْ الْجَنَّةَ». فَأَمَّا أُمُّهُ فَقَتَلُوهَا، وَهِيَ تَأْبَى إِلَّا لِلْإِسْلَامِ»^(١).

وكذلك تحملت فاطمة بنت الخطاب الهوان بسبب إسلامها، إذ كان الذي يؤذيها وزوجها إهانة لها وإكراهها للرجوع عن الإسلام، هو أخوها عمر. ولا يخفى أن الأذى من ذوي القربى يكون أشد وأنكى على المرء. وقد تحملته ولم تستسلم، لتضع بذلك حداً لآفة تقليد الآباء، والخضوع لتهديد الإخوة الأعداء. وكان من فضل صبرها أن هدى الله على يدها أخاها عمر للإسلام. وما كانت لتنال هذا الشرف، لولا ثباتها وتمسكها بما آمنت به. أخرج البخاري عن سعيد بن زيد قال: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنِي، وَإِنَّ عُمَرَ لَمُوثِقِي عَلَى الْإِسْلَامِ - وَفِي رِوَايَةٍ أَنَا وَأَخْتُهُ^(٢) - قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ عُمَرُ»^(٣). وقد ترجم له البخاري في موضع آخر أخرجه بقوله: «باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر»^(٤). وذكر الحافظ ابن حجر أنه - أي

١- سيرة ابن هشام، ذكر عدوان المشركين على المستضعفين من أسلم بالأذى والفتنة، ج ١ / ٢٣٧.

٢- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب، رقم الحديث، ٣٨٦٧.

٣- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام سعيد بن زيد، ح ٣٨٦٢.

٤- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

الحديث - «ظاهر فيما ترجم له، لأن سعيداً وزوجته أخت عمر، اختارا الهوان على الكفر»^(١). وفي ذلك دلالة على أنهما كانا يدركان تمام الإدراك أنهما يسيران في الاتجاه الصحيح، فصبرا على ما تلقياه من أذى، وثبتا على دينهما. وبذلك يتقرر أن الذي يكسب في النهاية من يتقي ويصبر، وأن المرء حين ينجح في مشروعه ينسى التعب الذي يجده في طريقه، ولا يحتفظ إلا بلذة النجاح.

٢- عدم تحولها عن الدين تبعا لأحد: وهذه صورة من صور ثبات المرأة المسلمة على دينها الذي تميزت به على عهد القدوة؛ أنها حين أسلمت أسلمت عن قناعة لا عن تقليد. وبذلك اكتسبت القدرة النفسية على تحدي عادات الجاهلية، وعلى الثبات على الحق، وعدم التحول عنه تبعا لأحد ولو كان زوجها. ومعلوم ما كان للزوج في الجاهلية من سلطة على زوجته. لكن سلطته سرعان ما اندحرت وتكسرت على صخرة الإيمان بمجرد إسلام الزوجة؛ فلا نجد امرأة تحولت عن دينها بعد الإسلام تبعا لردة زوجها لثباتها. وهذا مؤشر على تميزها بشخصيتها المستقلة في بداية الدعوة. وقد حصل هذا الأمر مع أم حبيبة حين هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة في الهجرة الثانية، إذ تنصر وارتد وحده، وثبتت - هي - على دينها ولم تأبه لمخالفته^(٢). وشد هذا الأمر انتباه الإمام الزهري فقال: «وَمَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ ارْتَدَّتْ بَعْدَ إِيمَانِهَا»^(٣)، ليظهر بذلك قوة شخصية المرأة المسلمة في ثقتها بما آمنت به، وقدرتها على مجاوزة الصعوبات المحيطة بها. وذلك طريق التميز.

٣- دعوة الأقربين إلى الإسلام: وهذه مرحلة متقدمة في خدمة الدين؛ أن تنتقل

١- فتح الباري، ج ١٢ / ٣٨٣.

٢- الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٨ / ٩٦.

٣- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج ٢٧٣٣.

المرأة بعد إسلامها من الالتزام الشخصي بدينها، إلى القيام بنشره في الأقربين أولاً، غير مكترثة لقلق أحد، أو غضبه ولو كان زوجها. وقد حصل هذا من أم سليم رضي الله عنها. إنها حين أسلمت، انطلقت تلقن ابنها أنس ابن مالك كلمة التوحيد. ودخلت في مواجهة مع زوجها مالك بن النضر عندما خاطبها، وَكَانَ غَائِبًا، فَقَالَ: أَصَبَوْتُ؟ قَالَتْ: مَا صَبَوْتُ وَلَكِنِّي آمَنْتُ بِهَذَا الرَّجُلِ، قَالَتْ: فَجَعَلْتُ تُلَقِّنُ أَنْسًا وَتُشِيرُ إِلَيْهِ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: فَفَعَلَ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهَا أَبُوهُ: لَا تُفْسِدِي عَلَيَّ ابْنِي فَتَقُولُ: إِنِّي لَا أَفْسُدُهُ^(١). ويظهر من جوابها وردها مدى إدراكها لما تقوم به، وثقتها في قدرتها على الدفاع عن دينها. لقد آمنت به عن قناعة تامة، وإرادة حرة، ووعي كامل بأحقيقته. وثبت لديها أن مصلحتها ومصلحة ابنها فيه، فجعلت بيتها محل دعوة، وانطلقت مؤمنة بقدرتها على التأثير فيه. هكذا يفعل الإيمان حين يتمكن في القلب؛ فإنه ينير كالقمر. ويضيء كالشمس. فإذا البيت كله ومحيطه، ينال من ضيائها ونوره.

٤- تقديمها حظ الإسلام على حظ نفسها ومصالح زوجها: وهذا دليل اعتزاز المرأة المسلمة بدينها، أنها حين أسلمت أخذت أحكامه للتنفيذ، فامتثلت لها بقوة. ووقفت عند حدودها. ولم تحد عنها تجاهلاً أو تحايلاً أو مجاملة، من أجل مصلحة آنية تعرض لها. ولكنها جعلت مصلحة الدين فوق كل اعتبار. وهذا أحد مقومات تميزها أنها لم تدع للضغط المادي فرصة للتأثير سلباً عليها. وتمثل أم سليم النموذج الأرقى في ذلك، إذ ردت أبا طلحة لشركه حين تقدم لخطبتها، ولم تخضع لإغرائه. وهو من هو في قومه، لا ترده النساء إذا خطبهن. واشترطت عليه أن يدع الشرك ويدخل في الإسلام لتتزوجه. وهذا يدل على جعلها مصلحة الدين تتقدم سائر مصالحها من أجل صنع

١- الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٨ / ٤٢٥.

حياة ناجحة. ولا ترى ذلك إلا في ظل دينها. أخرج ابن سعد أن أبا طلحة جاء يخطب أم سليم فقالت: «يَا أَبَا طَلْحَةَ! أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ إِلَهَكَ الَّذِي تَعْبُدُ إِنَّمَا هُوَ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّمَا نَجَرَهَا حَبَشِيُّ بَنِي فَلَانَ؟». وفي رواية أخرى قالت: «أَمَا تَعْلَمُ يَا أَبَا طَلْحَةَ أَنَّ إِلَهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَ يَنْحَتُهَا عَبْدُ آلِ فَلَانَ النَّجَّارُ، وَأَنْتُمْ لَوْ أَشْعَلْتُمْ فِيهَا نَارًا لَأَحْتَرَقَتْ؟». وفي رواية أخرى قالت: أَرَأَيْتَ حَجْرًا تَعْبُدُهُ لَا يَضُرُّكَ وَلَا يَنْفَعُكَ أَوْ خَشَبَةً تَأْتِي بِهَا النَّجَّارُ فَيَنْجُرُهَا لَكَ هَلْ يَضُرُّكَ هَلْ يَنْفَعُكَ؟»^(١).

وروى النسائي بسنده إلى ثابت البناني عن أنس قال: «خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ، وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ كَافِرٌ وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ. فَإِنْ تَسَلَّمَ فَذَاكَ مَهْرِي، وَمَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَأَسْلَمَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا»^(٢). ويؤخذ من بدء أم سليم جوابها بقولها: «وَاللَّهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ»، مدى نضجها في مخاطبة المخالف، وتحقيق التواصل الفعال معه، إذ سعت إلى اكتساب احترامه بإقرارها بالعناصر الإيجابية فيه. وفي ذلك تهيئة له للاستماع لرأيها، وإعداد له لقبول مقترحها.

وقد حصرت موطن اختلافها معه في نقطة واحدة جعلتها شرطاً لقبول زواجه، وهي أن يسلم. ولا تسأله بعد ذلك صداقاً. وكان لها ما أرادت لصحة عزمها، وصدق نيتها، ووضوحها في طرح رأيها، واكتسابها مهارات الإقناع والتأثير في المخالف. وهذا من المقومات في طريق صنع التميز. قال ابن حجر: «أم سليم رغبت في تزويج أبي طلحة، ومنعها من ذلك كفره. فتوصلت إلى بلوغ غرضها ببذل نفسها، فظفرت بالخيرين»^(٣). يعني أنها غلبت مصلحة الدين

١- المصدر نفسه، ج ٨ / ٤٢٦ / ٤٢٧.

٢- سنن النسائي، كتاب النكاح، باب التزويج على الإسلام، ح ٣٣٤١.

٣- فتح الباري، ج ١ / ١٨.

فقدمتها على مصلحة الدنيا، فنالت بها المصلحتين معا. وقد أعجب ثابت بن أسلم البناي بصنيعها، فعلق عليه بقوله: «فَمَا سَمِعْتُ بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم؛ الإسلام»^(١). يعني أنها تميزت في هذا الجانب تميزا لم تضاهيها فيه امرأة؛ إذ لم تضعف أمام إغراء أبي طلحة لزوجها وهو كافر. ولم تحملها الرغبة في الجاه والمال على أن تخالف أمر دينها لمصلحة نفسها. ولكنها جعلت مصلحة دينها هي العليا رضي الله عنها. وكانت صادقة في ذلك، فكان خيرا لها.

ويظهر هذا المنهج أيضا من سلوك المرأة المسلمة على عهد النبوة في امتثالها أمر الشرع، وتقديمها إياه على حظ نفسها وزوجها فيما قامت به نساء الصحابة الثلاث^(٢) الذين خلفوا، ولم يشاركوا في غزوة تبوك حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتزالهن. حيث لم تخالفه واحدة منهن. ولم يتهاون رضي الله عليهن جميعا في الامتثال لأمره. روى البخاري ومسلم عن كعب بن مالك قال: «لَمْ أَخْلَفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. (...) فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا (...) جِئْتُهُ. فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: (تعال). فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: (مَا خَلَفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟) (...) فَقُمْتُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي (...) ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَّ هَذَا مَعِيَ أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ. رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتُ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ (...). حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ أَطْلَقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ اعْتَزَلِيهَا وَلَا تَقْرُبِيهَا. وَأَرْسَلِي إِلَى صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ. فَقُلْتُ

١- المصدر نفس.

٢- وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم.

لَا مَرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةً هَلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ هَلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرُبُكَ. قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَّا إِلَى شَيْءٍ. وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا»^(١).

ظاهر هذا الحديث أن نساء الصحابة الذين خلفوا، التزم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صدر باعتزال أزواجهن. ولم يترددن في الاستجابة إليه مهما صعبت الأحوال حتى يأخذن الرخصة منه، كما فعلت امرأة هلال بن أمية. فقد كان زوجها شيخا كبيرا يعجز أن يدبر أموره لوحده، ومع ذلك امتثلت أمر رسول الله باعتزاله حتى استأذنته في ذلك فأذن لها. ويدل هذا السلوك منها رضي الله عنها على تميزها بتقديم حظ دينها على حظ نفسها وزوجها امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

٥- حبها التطهر من السوء: ما أكثر ما يخطئ المرء في حق الله فينتهك حرمانه، ويتعدى حدوده، ثم يتوب مستترا دون أن يعلم أحد بجريمته! وأما أن نجد من يصرح بما اقترفت يداه، ويكشف ما قام به من سوء بجهالة في ملا، ويصر على إقامة الحد عليه ليتطهر منه؛ فهذا خروج عن المألوف، وتميز في الاستدلال على كراهة الوقوع في المعصية، والندم على اقترافها. وقد حصل هذا من المرأة المسلمة على عهد النبوة، فروى الإمام مسلم عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه قال: «جاءت الغامدية فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهَّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، ح ٤٤١٥. وصحيح مسلم شرح النووي، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَا عَزَا؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لِحُبْلَى . قَالَ: إِمَّا لَا فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي .
فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خَرْقَةٍ . قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ . قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ
حَتَّى تَفْطَمِيهِ . فَلَمَّا فَطَمْتَهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كَسْرَةَ خُبْزٍ فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ
اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ . وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ . فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ أَمَرَ
بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا ، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا ، فَيُقْبَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ
فَرَمَى رَأْسَهَا ، فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا ، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ: مَهَلًا يَا خَالِدُ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً
لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ . ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدَفِنَتْ»^(١) .

يظهر من هذا الحديث مدى جرأة هذه المرأة في إعلان توبتها، وندمها على المعصية، إذ لم يهتمها ما سيقوله الناس عنها، وانطلقت بنفسها إلى رسول الله تطلب أن يقيم عليها الحد جزاء ما اقترفته يدها. وأصرت على ذلك إصرارا لم يزدده تقادم فعلها إلا قوة في المطالبة بتطهيرها منه. وهذا سر تميزها أن كانت نيتها في طلب التوبة صادقة فأمدتها الله بالقوة، وصرف عنها الموانع، فلم تعد تجد راحتها واطمئنانها إلا في تنفيذ حكم الله فيها. ولقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم تميزها بما صنعه ببيانه فضل توبتها ومقدارها، وبصلاته عليه الصلاة والسلام عليها.

وبهذا يظهر الخط التصاعدي لخدمة المرأة دينها بثباتها عليه منذ الوهلة الأولى لإسلامها، المتمثل في صبرها على ما لحقها من أذى في سبيله، وسعيها لنشره، وعدم ارتدادها عنه، وندمها على مخالفة أحكامه. ثم بمبادرتها إلى تعلم أحكامه والتفقه فيه. وهذه المبادرة هي موضوع النقطة الثانية.

ثانياً - الحرص على تعلم دينها والتفقه فيه:

١ - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ح ٤٤٠٧.

يعد الحرص على طلب المنفعة أساسا في ديننا، به يظهر المرء رغبته في العمل، ويبرهن على كراهته الكسل. وهو خطوة مهمة في طريق النجاح، يدل على أن للمرء هدفا يسعى لتحقيقه، ويملك همة للوصول إليه. وتلك سمة من سمات قوة الإيمان كما بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»^(١).

وإن المرأة المسلمة على عهد النبوة بعد أن شرح الله صدرها للإسلام، استقر لديها أن ما ينفعها يكمن في دينها، فقامت بخدمته. وعبرت عن ذلك بثباتها عليه. وقد تبين ذلك - وبحرصها على تعلم أحكامه والتفقه فيه. وكانت في ذلك متميزة بما قامت به من دور من أجل التحصيل، لم تعرف معه مللا ولا يأسا، حتى حققت هدفها باعتماد منهج بيداغوجي راق في التعلم. وتتلخص معالم هذا الدور فيما يأتي:

١- مبادرتها إلى السؤال من أجل التعلم: يعد السؤال من وسائل التعلم. به يدفع الجهل، ويتميز الصواب من الخطأ، ويتعد المرء عن الانحراف. دعا إليه الشارع في قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالَ»^(٢). وقد عرفت نساء الأنصار بمبادرتهن إلى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحكام دينهن. وتنوعت أسئلتهن لتشمل سائر مجالات الحياة. ومن صورها:

أن تسأل المرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صفة تطهرها من الحيض من دون أي حرج تجده في ذلك، وتلح عليه في السؤال لتفهم. روى الشيخان

١- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ح ٢٦٦٤.

٢- سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتييم، ح ٣٣٦.

عن عائشة: «أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنَ الْمَحِيضِ، فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، قَالَ: خُذِي فُرْصَةً مِنْ مَسْكَ فَتَطَهَّرِي بِهَا. قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ؟ قَالَ: تَطَهَّرِي بِهَا. قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ! تَطَهَّرِي. فَاجْتَبِذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ: تَتَّبِعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ»^(١). وروى الشيخان عن أم سلمة قالت: «جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلِ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ. فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ - تَعْنِي وَجْهَهَا - وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ تَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ، فَبِمِ يَسْبِئُهَا وَلَدَهَا؟»^(٢).

إننا هنا أمام صورتين اثنتين لموقف المرأة من طرح المسألة على رسول الله معرفة أحكام دينها؛ إحداهما تتسم بالجرأة على السؤال من أجل التعلم، وتمثله أم سليم. والثانية تتسم بالخجل منه بدعوى الحياء، وتمثله أم سلمة بخجلها الذي عبرت عنه بتغطية وجهها، حين سماعها سؤال أم سليم. ولقد كانت أم سليم رضي الله عنها - بفطنتها العالية - أدري وأعرف بما يمكن أن يحدثه سؤالها من حرج. لذلك مهدت له بتمهيد بارع، بسطت فيه عذرها في ذكرها ما تستحيي النساء من ذكره. فدلّت بذلك على حسن خلقها وأدبها. وأبانت عن امتلاكها مهارة توجيه السؤال بقولها: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِيهِ مِنَ الْحَقِّ»^(٣).

ويؤخذ من قول عائشة رضي الله عنها: «نِعَمَ النِّسَاءِ نِسَاءَ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»^(٤)، أن الحياء حاضر عندهن، كما هو حاضر

١- صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض وكيف تغتسل، ح ٣١٤. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحيض، باب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم، ح ٤٧٦.

٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ح ١٣٠.

٣- صحيح البخاري، كتاب كتاب الأدب، باب التَّبَسُّمِ وَالضَّحْكَ، ح ٦١٥٨.

٤- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك، ح ٥٠٠. وسنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب الاغتسال من الحيض.

عند سائر نساء الصحابة. لكن ما يميز نساء الأنصار، أن الحياء فيهن لم يمنعهن من السؤال عن دينهن وتعلمهن. ويدل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم الاعتذار عنه، على تقريره أن لا بأس من طرح المرأة المسألة على العالم بأدب، ولو في أمور تخصها في نفسها، تتخرج النساء من مثلها.

ب- أن تطرح المرأة المسألة للتأكد من صحة ما يفتيها به شخص ما. وهذا منهج أساس في تمحيص ما يتلقاه المرء من أجوبة. يدل على إعمال العقل في فهم الأشياء، وإدراكها والحكم عليها، وعدم الاستسلام للأفكار المتسرعة المثبطة عن تحقيق مشروعها. ومن الأمثلة عليه سؤال سبيعة بنت الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترددها في قبول ما أفتاها به أبو السنابل. روى الشيخان عن سبيعة بنت الحارث أنها كانت تحت سعد بن خولة، (...) فتوفيت عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته. فلما تعلق من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك - رجل من بني عبد الدار - فقال لها: ما لي أراك تجملت للخطاب؟ ترجين النكاح! فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت علي ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك، فأفتاني باني قد حلت حين وضعت حملي. وأمرني بالتزوج إن بدا لي^(١). يظهر من سلوك سبيعة هنا، بانطلاقها إلى رسول الله للتأكد من صحة ما ذكره أبو السنابل، أنها انتبهت لمحاولته تشييطها من الخروج تبعاً لهواه - إذ سبق أن تقدم لخطبتها فردته - وبادرت إلى استفسار رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعلوم أن مقاومة التشييط والإحباط عامل أساس في صناعة التمييز. قال ابن حجر: «وفي

قصة سبيعة من الفوائد (..) ما كان في سبيعة من الشهامة والفتنة، حيث

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حدثني عبد الله بن محمد الجعفي، ح ٣٩٩١، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل، ح ٣٧٠٦.

ترددت فيما أفتاها به أبو السنابل، حتى حملها ذلك على استيضاح الحكم من الشارع»^(١).

ج- أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقوقها إلى جانب حقوق الرجال: وهو سؤال يقوم على موازنة قامت بها المرأة بين أحكامها وأحكام الرجل في خطاب الشارع التكليفي، فسألت عن الجهاد مثلا هل يخص الرجال وحدهم..؟ ولم يكن سؤالها عنه من أجل التصارع مع الرجل، كما تقوم به بعض الجمعيات النسوية اليوم؛ حيث تبني مبادئها على ثقافة الصراع بين الجنسين، فتنادي بالمساواة في الإرث مثلا. وتطالب بإلغاء القوامة. ولكن كان بدافع الرغبة في الفهم، والتنافس المحمود في العمل. روى الترمذي عن أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: «مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا لِلرِّجَالِ! وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذَكَّرْنَ بِشَيْءٍ! فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢). ومنه استفادت أن لا تميز في العمل بين الجنسين، وكذلك في الأجر. ويكفيها شرفا أن سؤالها كان سبب نزول الآية.

٢- طلبها تخصيص حصة منتظمة للتعليم: وهذا ما يصطلح عليه اليوم بالبرمجة؛ بأن يحدد المدرس لفئة معينة من الناس حصة تعليمية منتظمة يخصهم بها. وهو ما طلبته النساء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلم

١- فتح الباري، ج ٧ / ٤٤٥ عند شرح الحديث رقم ٥٣١٨، من كتاب النكاح.

٢- سنن الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأحزاب، ح ٣٢١١. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وإنما نعرف هذا الحديث من هذا الوجه. وصححه الشيخ الألباني، ينظر صحيح سنن الترمذي، ج ٣ / ٩٢، برقم ٢٥٦٥. الأحزاب: ٣٥.

تكتف المرأة بحضور مجالسه التعليمية التي يعقدها في المسجد، وبسماع خطبه، ولكن طلبت أن يخصص للنساء مجلساً منتظماً يعظهن فيه. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: «قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غَلَبْنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَّظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ»^(١). ومن هذا الحديث أخذ ابن حجر «ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلم أمور الدين»^(٢). وبهذا الحرص على التعلم ارتفع مستواهن المعرفي وارتقبن. واكتسبن منهجا علميا في التفكير، ومهارة في التوصل إلى المعلومة. ومن صور هذا الرقي ما ثبت عن أم الفضل بنت الحارث أن ناساً اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِصَائِمٍ. فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِقَدَحِ لَبَنٍ، وَهُوَ وَقَفٌ عَلَى بَعِيرِهِ فَشَرِبَهُ»^(٣). ظاهره أن أم الفضل رضي الله عنها وظفت مهارتها في حل المسألة المختلف فيها، فأبدعت في طريقة طرحها منهجا دقيقا في باب المناظرة. ووضعت بذلك حدا لاختلاف الناس حول صوم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم عرفة. وتوصل الجميع - رجالا ونساء - إلى الجواب الشافي لمسألتهم، من دون أن تخاطب رسول الله بسؤال. ولا ندرى هل كان تميزها هنا في الوصول إلى حل المسألة موهبة أو تعلمًا؟ وأيا كان الجواب، فإن الناس لا يختلفون في أن عملها كان إنجازا نوعيا في بابها. لقد حسمت الخلاف في أوجز وقت، بأبداع طريقة سلكتها. وبهذا يثبت أن التعلم طريق صناعة التميز.

هذه بعض مظاهر تدل على ما قامت به المرأة المسلمة في سبيل صنع التميز في مجال خدمة الدين. وهو يظهر في صورتين اثنتين؛ إحداهما ثباتها عليه بما

- ١- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم؟ ح ١٠١.
- ٢- فتح الباري، ج ١ / ٢٤٩، عند شرح الحديث رقم ١٠١.
- ٣- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم عرفة. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيام، باب استحضار الفطر للحاج بعرفات يوم عرفة.

تحملته في سبيله من أذى المشركين من ذوي القربى وغيرهم، وهجومها على الشرك بدعوتها إلى التوحيد، واعتزازها به بجعلها أحكامه خطأ أحمر لا تخالفها مهما كلفها ذلك من ثمن. والثانية حرصها على تعلم أحكامه، والتفقه فيه بالاجتهاد وتحدي الصعاب التي تعترضها، وطرقها كل الأبواب المؤدية إلى رفع الجهل عنها. فانتقلت بذلك من صغار القوم إلى كبارهم؛ بما حصل لها من تراكم معرفي في دينها، وبما فجرته من طاقات كامنة في النفس نمت شخصيتها، وبما وظفته من مؤهلات تملكها، وبما اكتسبته من مهارات نافست الرجال بها. ولا شك أن هذا التميز في خدمة الدين تعلمًا والتزامًا بأحكامه، وتفقهًا فيه، هو ما جعلها تشعر برسالتها في الحياة. وشجعها على المشاركة بكل مسؤولية في الحياة العامة بنجاح. وهذا ما سيأتي بيانه في المطلب الثاني.

المطلب الثاني: وظيفة المرأة في صناعة التميز في الحياة العامة.

لما كانت المرأة شريكة الرجل في إعمار الأرض؛ لم يكن بد من مشاركتها في بعض مجالات الحياة. وقد سجلت حضورها على عهد النبوة إلى جانب شقيقها الرجل بكل مسؤولية بحضورها الجمعة، والخروج إلى المصلى لصلاة العيد والتكبير مع الرجال، والقيام بالتعزية، وعيادة المريض، والصلاة على الجنازة، وصنع الطعام للمجاهدين ومداواة جرحاهم، وإبداء رأيها في شؤون السياسة (...). لقد فهمت من العموم الوارد في خطاب الشارع التكليفي أنه يهملها، وأنها معنية به. يفيد هذا ما رواه الإمام مسلم عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ، وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ وَالْجَارِيَةُ تَمْشُطُنِي، فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ! فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ: اسْتَأْخِرِي عَنِّي. قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرَّجَالَ، وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ. فَقُلْتُ: إِنِّي

مِنَ النَّاسِ»^(١). يعني أن النداء عام، وهي معنية به. وهذا ما ذهب إليه غير واحد من الفقهاء فقال ابن رشد: «إن الأصل أن حكم الرجال والنساء واحد، إلا أن يثبت في ذلك فارق شرعي»^(٢). وقال ابن القيم: «قد استقر في عرف الشارع أن الأحكام المذكورة بصيغة المذكر إذا أطلقت، تقترن بال مؤنث، فإنها تتناول الرجال والنساء»^(٣). وكذلك أوضح ابن دقيق العيد أن لفظ الرجل حين يرد منفردا غير مقرون بذكر المرأة في النص الشرعي، فإنه يتوجه للمذكر والأنثى معا. قال: «أما وصف الرجولية، فحيث يندب للمرأة الخروج إلى المسجد ينبغي أن تتساوى مع الرجل، لأن وصف الرجولية بالنسبة إلى ثواب الأعمال غير معتبر شرعا»^(٤).

إذا ثبت هذا، فلنعلم أن ما يهمننا في هذا المطلب ليس هو إثبات حضور المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، - فهذا ثابت تشهد له النصوص الصحيحة - ولكن بيان وظيفتها في صناعة التميز في ذلك، من خلال سلوكها ومواقفها باعتبارها قيمة مضافة في عملها. وتتجلى هذه الوظيفة فيما يأتي:

أولاً - الإصرار على الإفادة من حقها المشروع كاملاً: غير خاف أن الحقوق الشرعية جاءت للإعمال والتنفيذ. وقد فهمت المرأة المسلمة هذا الأمر فمارسته بانضباط، ولم تتنازل عنه لرأي أحد ولو كان زوجها. وقد ضربت إحدى نساء عمر بن الخطاب مثالا في ذلك، بإصرارها على خروجها للصلاة في المسجد، وحضور الجماعة على الرغم من كراهة زوجها عمر لذلك. روى الإمام البخاري عن ابن عمر قال: «كَانَتْ امْرَأَةٌ لِعُمَرَ تَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهَا: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ؟ قَالَتْ: وَمَا

- ١- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة باب إثبات حوض النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته، ح ٥٩٣٠.
- ٢- بداية المجتهد لابن رشد، ج ١ / ١٧٢.
- ٣- إعلام الموقعين لابن القيم، ج ١ / ٩٢.
- ٤- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ١٩٧، عند شرح حديث "صلاة الرجل في الجماعة"، ح ٥٩، من كتاب الصلاة.

يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟ قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»^(١).

وثبت أن المرأة حين كانت تجد من يعترض عليها لتبسيطها من ممارسة حقها المشروع، لم تكن تستسلم لمحاولته. ولكن تنطلق إلى رسول الله للتثبت من الحكم الشرعي في ذلك للعمل به. يفيد هذا ما رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «طَلَّقْتُ خَالَتِي، فَأَرَادَتْ أَنْ تُجِدَّ نَخْلَهَا فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ. فَاتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بَلَى، فَجُدِّي نَخْلِكَ، فَإِنَّكَ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي، أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا»^(٢). وبهذا برهنت على أن الاستفادة من الحقوق المشروعة يكون بالتمسك بها عند حصولها، وبالمطالبة بها عند فقدانها، وعدم الاستسلام للأفكار المثبطة للتنازل عنها. وكل هذا أساس في بناء الشخصية المتميزة.

ومما يفيد هذا إصرار بريرة على مفارقة زوجها مغيث حين أعتقت. روى البخاري عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبداً، يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ. كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى حَيْثِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبَّاسٍ: يَا عَبَّاسُ! أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ رَاجَعْتَهُ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَأْمُرْنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ. قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ»^(٣).

ظاهره أن بريرة كانت أمة تحت عصمة زوجها مغيث، صابرة على حكم الله عليها في ذلك إلى أن فرج الله عنها بأن أعتقها عائشة رضي الله عنها، فأفصحت عن بغضها إياه وفارقتة. وكان ذلك من جهتها وحدها، وأما زوجها مغيث فكان يحبها لدرجة أنه بكى على فراقها. وطفق يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على

١- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب، ح ٨٩٩.

٢- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطلاق، باب جواز خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها، ح ٣٧٠٥.

٣- صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، ح ٤٩٧٩.

لحيته. وقد أصرت على إفادتها من حقها المشروع فيما تريد. وقد احترم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيها، ولم يلزمها بمراجعة زوجها حين عرض عليها ذلك، تقريراً لها على أن ذلك حقها. ومن ثم أجابته في حسن أدب بقولها: «لا حاجة لي فيه»، من دون أن تفصح عن رد شفاعته عليه الصلاة والسلام. وثبت تميزها بإصرارها على ممارسة حقها، ثم بقوتها في الدفاع عنه إذ بادرت إلى استفسار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: «لو راجعته» هل هو أمر يجب عليها امتثاله، أو مشورة فتتخير فيه؟

ثانياً - الانخراط الإيجابي في المجتمع بأعمال الخير: يعد البذل والتضحية بالمال صورة من صور العمل التطوعي. وهو عنصر مشترك بين المحسنين. لكن أن يعرف المرء به في الناس من دون رياء منه أو سمعة، ويتفوق على أمثاله فيه فذاك هو التميز. وقد اشتهرت من نساء المسلمين بهذا زينب بنت جحش رضي الله عنها. روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: «أينا أسرع بك لحوقا؟ قال: أطولكن يداً. فأخذوا قصبه يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يداً. فعلمنا بعد أنما كانت طول يديها الصدقة. وكانت أسرعنا لحوقا به. وكانت تحب الصدقة»^(١). وفي رواية قالت: «ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرّب به إلى الله تعالى»^(٢). وروى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «وكانت زينب امرأة صناعة اليد، فكانت تدبغ وتخرز، وتصدق في سبيل

١ - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب حدثنا موسى بن إسماعيل. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل زينب أم المؤمنين.

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها، ح ٦٢٤٠. سنن النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض، ح ٣٨٨٣.

اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وهذه الشهادة من عائشة رضي الله عنها في حق زينب دليل على تمييزها في البذل، وتفوقها في المساهمة في أعمال الخير. وهذا لا يتأتى إلا من يملك قوة دافعة للخير، وهي قوة الإيمان. ومن لا يملكها لا ينتظر منه تميز فيما يقوم به.

ومن صورها أيضا من سلوك نساء الصحابة، ما كانت تقوم به أم شريك من إيواء الضيفان من أصحاب رسول الله المهاجرين. روى الإمام مسلم عن فاطمة بنت قيس أخت الضحّك بن قيس - وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلِ - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «انْتَقِلِي إِلَيَّ أُمَّ شَرِيكِ. وَأُمُّ شَرِيكِ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ عَظِيمَةُ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. يَنْزِلُ عَلَيْهَا الضَّيْفَانُ. فَقُلْتُ: سَأَفْعَلُ. فَقَالَ لَا تَفْعَلِي إِنَّ أُمَّ شَرِيكِ امْرَأَةٌ كَثِيرَةُ الضَّيْفَانِ»^(٢). يعني أنها ستجد حرجا إذا أقامت عندها لكثرة ما ينزل بيت أم شريك من الضيفان من المهاجرين الأولين.

ويظهر أنه قد شد انتباه عائشة رضي الله عنها سبق زينب بنت جحش في كثرة البذل، وتفوقها فيه دون غيرها من النساء، وأخذها فيه بما هو أعلى وأولى. وكذلك شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لها رضي الله عنها بأنها عظيمة النفقة في سبيل الله، وأن بيتها مأوى الضيفان من المهاجرين. وإن شهادته صلى الله عليه وسلم لها بذلك دليل تمييزها.

١- المستدرک علی الصحیحین، کتاب معرفة الصحابة، ح ٦٨٥٠، وقال الحاكم، على شرط مسلم.

٢- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، ح ٣٦٨٤.

ثالثاً- المشاركة بالتوجيه في سياسة الناس: لقد ساعد الإسلام المرأة على ولوج مجالات الحياة العامة، والانخراط فيها بصورة تحفظ كرامتها، وتضمن احترامها، على خلاف ما كان عليه وضعها في الجاهلية؛ حيث عانت من عدم المساواة، ومن تبعيتها للرجل في كل شيء يرسمه لها. وجاءت مساهماتها إيجابية متميزة في مجموعة محطات حضرتها، أثبتت من خلالها أنها تملك قوة اقتراحية في القضايا الصعبة من حياة المسلمين. ومما يفيد هذا إشارة أم سلمة رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية بأن يحلق شعره، ويخرج إلى الناس ليقتدوا به. وقد كان أمرهم بالرجوع من حيث أتوا فلم يستسيغوا ذلك دون دخول البيت. وكانوا يودون أن يأذن لهم رسول الله بحرب قريش لدحر كبريائهم. روى البخاري عن المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «قَوْمُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ اَحْلِقُوا. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلْمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلْمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ أَخْرَجَ، ثُمَّ لَا تَكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بَدَنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ؛ نَحَرَ بَدَنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا»^(٣).

وإن في عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوجيهها اعترافاً بتميزها فيه، وإقراراً بدور المرأة في المشاركة في صنع القرار. وهو ما أخذه ابن حجر من الحديث فقال: «وفيه فضل المشورة (...). وجواز مشاورة المرأة الفاضلة. وفضل أم سلمة ووفور عقلها، حتى قال إمام الحرمين: «لا نعلم امرأة أشارت فأصابت إلا أم سلمة»^(٤).

٣- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ح ٢٧٣١.

٤- فتح الباري، ج ٥ / ٤٠٩، عند شرح الحديث رقم ٢٧٣١.

ومن صورها أيضا إشارة حفصة على أخيها عبدالله بعدم التخلف عن الجمع يوم التحكيم، وإصرارها عليه بأن لا يتغيب. وكانت إشارتها سديدة من أجل وحدة صف المسلمين. روى الإمام البخاري عن ابن عمر قال: «دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَنَسَوَاتُهَا^(١) تَنْطَفُ^(٢) قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ مَا تَرَيْنَ. فَلَمْ يُجْعَلْ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. فَقَالَتْ: الْحَقُّ، فَإِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ. وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ فِي احْتِبَاسِكَ عَنْهُمْ فُرْقَةٌ. فَلَمْ تَدْعُهُ حَتَّى ذَهَبَ»^(٣). ظاهره أن إشارة حفصة رضي الله عنها جاءت سريعة من دون تفكير، من أجل درء فرقة المسلمين. قال ابن حجر: «أشارت على أخيها عبدالله يوم التحكيم بين علي ومعاوية باللحاق بالناس خشية أن ينشأ من غيبته اختلاف يفضي إلى استمرار الفتنة»^(٤).

يظهر من هذا أن تحولا سريعا أحدثه الإسلام في اهتمامات المرأة المسلمة، إذ تجاوزت بانخراطها في الحياة العامة - وفق ضوابط الشرع - حدود المشاركة بقوتها ومالها، إلى المشاركة برأيها في الشؤون السياسية. وكان تدخلها سديدا في اتجاه تحقيق المصلحة العامة، بحسن نظرها للمسلمين جمعا لكلمتهم، وتوحيدا لصفهم. وإن في إقرار هذا الحق لها إقرارا بما يصطلح عليه اليوم بحق المواطنة وما تقتضيه من الحق في المشاركة. وقد ضمنه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمن لها الفرص المناسبة للعمل، فتحررت من كل القيود، وبادرت إلى الإنجاز برغبتها، وحرصها، وعدم مبالاتها بأنواع المثبطات، فأبدعت وكان تأثيرها في محيطها ظاهرا.

نستخلص من هذا أن المرأة المسلمة في عهد القدوة والاستبصار لا يختلف حال التزامها بدينها عن شقيقها الرجل؛ فكل تخرج من المدرسة النبوية، لكن من نساء الصحابة من عرفن بتميزهن في المشاركة في الحياة العامة. وصارت المرأة

١ - يعني ذوائبها.

٢ - تنطف يعني تقطر كأنها اغتسلت.

٣ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ح ٤١٠٨.

٤ - فتح الباري، ج ٧/٤٩٢، عند شرح الحديث رقم ٤١٠٨.

بسلوكها نموذجاً في الجد، ومثلاً في علو الهمة، وقدوة في الطموح. وإنها كما تميزت بذلك في حياتها العامة في المجتمع؛ تميزت في بيتها في علاقتها الزوجية، وهذا ما يأتي توضيحه في المطلب الثالث.

المطلب الثالث: وظيفة المرأة في صناعة التميز في حياتها الزوجية.

نتقل من الإطار العام لوظيفة المرأة في صناعة التميز في الحياة العامة إلى وظيفتها في صناعته في حياتها الزوجية، حيث نجد أنها تجاوزت في سلوكها حدود التزام الحقوق الزوجية إلى تمثل مواصفات المرأة الصالحة، بما قامت به من أجل إسعاد حياتها الزوجية، واستقرار أسرتها واستمرارها في جو من التواد والتراحم. وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً على صالح نساء قريش، وذكر ما تميزن به في هذا الجانب.. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُ نِسَاءِ رَكْبِنَ الْإِبِلِ نِسَاءُ قُرَيْشٍ. وَقَالَ الْآخَرُ: صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ؛ أَحْنَاهُ عَلَيَّ وَلَدٌ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَيَّ زَوْجٌ فِي ذَاتِ يَدِهِ»^(١). وإن استقراء الأحاديث النبوية يكشف لنا عن دور باقي نساء الصحابة الطلائعي على عهد القدوة في صناعة التميز في العلاقة الزوجية. وبيانه فيما يأتي:

أولاً - صدق التعلق بالزوج: إن تعبير الزوجين عن تعلقهما ببعضهما أمر عاد مألوف.. لكن غير المألوف فيه أن تعبر المرأة عنه برمزية بالغة في الدقة، لا يشعر بها كل واحد. وقد أبدعت فيه زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع زوجها أسيراً في يد المسلمين في معركة بدر، إذ بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقدتها لتفديته. وكان العقد لأمها خديجة. وهو أعلى ما تملك. وفي اختيارها إياه من أجل فدائه إشارة رمزية إلى أبيها لم يدركها غيره،

١ - صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب حفظ المرأة زوجها في ذات يده والنفقة، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير وما يستحب أن يتخير.

أنها متعلقة بزوجها بصدق، وأن عمق حبها له يوازيه عمق حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجته خديجة. ولقد التقط رسول الله رسالتها فاستجاب لطلبها، وفك أسر زوجها بشرط أن يرد إليه ابنته.

وبذلك أثبتت أن التعبير بالعمل الجيد حيث لا محل للكلام، أفضل بكثير من الكلام الجيد. نقل ابن هشام عن ابن إسحاق حديث عائشة رضي الله عنها بسنده إليها قالت: «مَا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَسَارَاهُمْ، بَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ بَمَالٍ فِيهِ قِلَادَةٌ كَانَتْ خَدِيجَةُ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ حِينَ بَنَى عَلَيْهَا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا»^(١).

ومن صور ذلك أيضا ما كان يحصل من عائشة رضي الله عنها حين تغضب على زوجها محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها كانت تتجنب التلطف باسمه في خطابها. روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي. قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً فإِنَّكَ تَقُولِينَ لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ. وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي قُلْتُ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ. قَالَتْ: قُلْتُ أَجَلْ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ»^(٢).

ظاهره أن عائشة رضي الله عنها كانت تترك التسمية اللفظية - حين غضبها على زوجها - دون أن يترك قلبها التعلق بذاته الكريمة صلى الله عليه وسلم مودة ومحبة. وقد ذكر ابن حجر أن «في اختيار عائشة ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام دون غيره من الأنبياء دلالة على مزيد فطنتها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أولى

١- سيرة ابن هشام، ج ٢ / ٢٦٨، غزوة بدر الكبرى.

٢- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، ح ٥٢٢٨. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها، ح ٦٢٣٥.

الناس به كما نص عليه القرآن. فلما لم يكن لها بد من هجر الاسم الشريف أبدلته بمن هو منه بسبيل، حتى لا تخرج عن دائرة التعلق في الجملة»^(١). وقد تفوقت بتصرفها. على الرغم من حداثة سنّها. إذ أنّها تغضب كسائر النساء، لكنها كانت تملك نفسها، ولا تترك لغضبها على زوجها فرصة للتشويش على مكانته في قلبها. وهنا مكن التميز أن يتعامل المرء بواقعية مع حالات النفس المألوفة، فلا يتعنت في إخفائها، ولكن يستجيب لها حسب قدرها وحجمها. ويتركها تمضي على وعي منه إلى نهايتها بطريقة غير مألوفة.

ثانياً - مشاركة الزوج همومه لتنفيسيها: ربما تكون مؤازرة الزوجين لبعضهما عند الشدة أمراً عادياً تقتضيه العلاقة الزوجية، ورغبتهما في استمرار رابطتهما؛ لكن ما يميز الحديث عن هذا العنصر هو موقف المرأة عند أول وقت لحصول الشدة، من حيث إحساسها إزاءها، ومبادرتها لمعالجتها. وقد كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها مثلاً لصناعة التميز في هذا الجانب، حينما جاءها زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم خائفاً مما حصل له في غار حراء، إذ شاركته كل همّه بإيجابية، فبادرت إلى التخفيف عنه بكلمتها الطيبة التي ذكرته فيها بخصاله الحميدة، وتصديقه في حكايته، وبتحرّكها لمعرفة تفسير ما حكاها لها.

أخرج الشيخان عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حَرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ. وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حَرَاءٍ (...). فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجِفُ فُوَادَهُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ خَدِيجَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي. فَزَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ

١ - فتح الباري، ج ٩ / ٢٧١، عند شرح الحديث رقم ٥٢٢٨.

عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِحَدِيحَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبْرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي . فَقَالَتْ حَدِيحَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا . إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ . وَتَحْمِلُ الْكَلَّ . وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ . وَتَقْرِي الضَّيْفَ . وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَدِيحَةُ حَتَّى آتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بَنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ حَدِيحَةَ (. . .) فَقَالَتْ لَهُ حَدِيحَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ ! اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ»^(١) .

ولم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفها ووقوفها إلى جنبه منذ الوهلة الأولى ، فاستمر يذكرها في مجموعة مناسبات بعد وفاتها رضي الله عنها ، حتى تضايقت عائشة رضي الله عنها من كثرة ما يذكرها . روى الإمام أحمد عنها رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ حَدِيحَةَ أَتْنِي عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءِ . قَالَتْ: فَغَرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذَكَّرُهَا ! حَمْرَاءَ الشُّدُقِ ، قَدْ أَبَدَلَكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا . قَالَ: مَا أَبَدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا؛ قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَبِي النَّاسُ . وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ . وَوَأَسْتَنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ . وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»^(٢) .

لقد نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوابه هنا نفيا قاطعا أن تكون إحدى نسائه من بعد حديجة بمن فيهن عائشة - وقد تزوجها بكرا - قد ملأت مكانها عنده . وقد بين سر تفوقها ، وأوضح عناصر تميزها رضي الله عنها عن سائرهن بصحة رأيها ، وبثقتة بنصيححتها . وهو ما ذكره ابن هشام في قوله: «آمنت به ، وصدقت بما جاءه من الله . وآزرته على أمره . وكانت أول من آمن بالله وبرسوله . وصدقت بما جاء منه . فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها . تثبته ، وتخفف عليه ، وتصدقته ، وتهون عليه أمر الناس رحمها الله تعالى»^(٣) . وبهذا

١ - صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحيح مسلم بشرح

النووي ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي .

٢ - المسند ، أحمد بن حنبل ، ح ٢٣٧١٩

٣ - السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ / ١٨٠ .

حسم عليه الصلاة والسلام الخلاف في سبق خديجة، وكونها سيدة النساء.

ثالثاً- مراعاة غير الزوج: لا شك أن العشرة الزوجية تكشف للزوجين من سلوكات بعضهما ما يحب أحدهما في صاحبه وما يكره. ومن ثم يجتهدان في تجنب ما يفسد عشرتهما. ويكون من فطنة الزوجة مراعاة أحوال زوجها بتحمل بعض المشقة في ذلك. وقد تميزت من نساء الصحابة بهذا السلوك أسماء بنت أبي بكر في سلوكها مع زوجها الزبير بن العوام؛ إذ كان شديد الغيرة. روى الشيخان عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: تَرَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ وَلَا شَيْءٍ غَيْرِ نَاضِحٍ ^(١) وَغَيْرِ فَرَسِهِ. فَكُنْتُ أَغْلِفُ فَرَسَهُ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَخْرُزُ غَرْبَهُ وَأَعْجَنُ. وَلَمْ أَكُنْ أَحْسَنُ أَخْبِرُ. وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتِ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ - وَكُنَّ نِسْوَةَ صَدَقٍ. وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقَطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثَلَاثِي فَرَسَخٍ. فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَعَانِي. ثُمَّ قَالَ إِيحُ، لِيَحْمَلَنِي خَلْفَهُ. فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُسِيرَ مَعَ الرَّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ. وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ. فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى ^(٢).

هنا وجدت أسماء رضي الله عنها نفسها في موقف حرج بين أن تستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها بأن تترك ويخلصها من ثقل ما تحمله، وهي في مأمن تام من الفتنة - وبين استحيائها أن تسير في موكب الرجال، فاختارت أن تتحمل تعب ما تنقل من النوى على رأسها، ولا تترك مراعاة لغيره زوجها. وقد وصفته بأنه «كان أغير الناس».

١- الناضح هو البعير يستقى عليه، والأنثى ناضحة. ينظر لسان العرب، باب الحاء، فصل النون.
٢- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، ح ٥٢٢٤. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، ح ٥٦٥٦.

وثبت من سلوكها أيضا - مراعاة لذلك - أنها اجتنبت مرة أن تأذن لرجل فقير أن يبيع في ظل دارها بدون إذن من زوجها. ولم ترد رضي الله عنها أن تتعرض لما ينافره. روى الإمام مسلم عن ابن أبي مليكة أن أسماء قالت: «كُنْتُ أَخْدُمُ الزُّبَيْرَ خِدْمَةَ الْبَيْتِ. وَكَانَ لَهُ فَرَسٌ، وَكُنْتُ أُسْوِسُهُ. فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْخِدْمَةِ شَيْءً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ سِيَاسَةِ الْفَرَسِ؛ كُنْتُ أَحْتَشُّ لَهُ، وَأَقُومُ عَلَيْهِ وَأُسْوِسُهُ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهَا أَصَابَتْ خَادِمًا؛ جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبِيًّا فَأَعْطَاهَا خَادِمًا. قَالَتْ: كَفَّنِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَأَلَقْتُ عَنِّي مَثُونَتَهُ، فَجَاءَنِي رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ! إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ، أَرَدْتُ أَنْ أُبِيعَ فِي ظِلِّ دَارِكَ. قَالَتْ: إِنِّي إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ أَبِي ذَاكَ الزُّبَيْرِ، فَتَعَالَ فَاطْلُبْ إِلَيَّ وَالزُّبَيْرُ شَاهِدٌ. فَجَاءَ فَقَالَ: يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ! إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ، أَرَدْتُ أَنْ أُبِيعَ فِي ظِلِّ دَارِكَ. فَقَالَتْ: مَا لَكَ بِالْمَدِينَةِ إِلَّا دَارِي؟ فَقَالَ لَهَا الزُّبَيْرُ: مَا لَكَ أَنْ تَمْنَعِي رَجُلًا فَقِيرًا يَبِيعُ؟ فَكَانَ يَبِيعُ إِلَيَّ أَنْ كَسَبَ»^(١).

ولقد قامت بهذا رضي الله عنها وهي تعلم أن لها الحق في التصرف في ملكها، لكنها من لطفها بزوجها أنها راعت غيرته. وتحايلت من أجل الاستجابة لطلب الرجل من دون أن تثير غضب زوجها. وهذا من فطنتها وسياستها في حسن تعاملها مع زوجها إذ أنها في الحديث الأول تحملت مشقة رعاية غيره زوجها لما كان ضرر الغيرة يقع عليها، لكنها في الحديث الثاني احتالت لرعاية غيرته حين رأت ضرر الغيرة يقع على غيرها، فنالت ما أرادت بحسن تدبير منها. وهذا إبداع في سياسة الحياة الزوجية. وهنا مكن تميزها أنها حرصت على أن تتصرف في ملكها بموافقة زوجها. وقد علق الإمام النووي على صنيعها بأن «فيه حسن الملاطفة في تحصيل المصالح، ومداراة أخلاق الناس في تتميم ذلك»^(٢). وبهذا أثبتت أن صناعة التميز عملية إنتاجية ذاتية بمقدور المرء الوصول إليها بنجاح، عن طريق إعمال العقل، وتوظيف ما أودعه الله فيه من قدرات ومواهب تؤهله لذلك.

١ - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، ح ٥٦٥٧.

٢ - شرح النووي على صحيح مسلم عند شرح الحديث رقم ٥٦٥٧.

رابعاً - السعي إلى رفع معاناة الزوج: الأصل أن ينفق الرجل على زوجته وأولاده، وإذا أعسر بنفقتها كان من حقها أن تطالب بمفارقتها. وهذا ما ذكره أبو هريرة فقال: «تَقُولُ الْمَرْأَةُ: إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي»^(١)، أو تنظره مدة ليوفر نفقتها. لكن التمييز يظهر في تطوع المرأة بمالها لفائدة زوجها لعسره. وقد حصل هذا من غير واحدة من نساء الصحابة، فروى الشيخان عن زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: «كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: تَصَدَّقْنِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ. وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَيْتَامٍ فِي حَجْرِهَا. قَالَ: فَقَالَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ: سَلْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أَنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حَجْرِي مِنَ الصَّدَقَةِ؟ فَقَالَ سَلِي أَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى الْبَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي. فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٍ فَقُلْنَا: سَلِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أَنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامٍ لِي فِي حَجْرِي، وَقُلْنَا: لَا تُخْبِرْنَا. فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: مَنْ هُمَا؟ قَالَ: زَيْنَبُ. قَالَ: أَيُّ الزَّيْنَبِ؟ قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: نَعَمْ لَهَا أَجْرَانِ؛ أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»^(٢).

يظهر من سلوك زوجة عبد الله بن مسعود أنها تعاملت بإيجابية مع وضع زوجها المادي بإكرامه بمالها من أجل صنع حياة ناجحة، وأنه ما أبطأها عن مساعدته إلا أنها لم تكن تعرف حكم الشرع في ذلك. ولم يثنها عجزه عن استفتاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تريد أن تقوم به، فانطلقت بنفسها لسؤاله. ولما أجابها رسول الله، صارت هي التي تنفق على زوجها وأيتامها. ولم تدخل في صراع مع زوجها حول مسؤوليته في النفقة، ولم تطالبه بها. وذلك من لطفها في معاشرتها، ومحبتها له، وشفقتها عليه. وقد نقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: «وعون المرأة

١ - صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، ح ٥٣٥٥.

٢ - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر، ح ١٤٦٦، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج.

زوجها في ولده ليس بواجب عليها. وإنما هو من جميل العشرة، ومن شيمة صالحات النساء»^(١).

خامسا - موافقة الزوج في عمل الخير: يشترك الناس في فعل الخير وبذل المعروف ومنه الضيافة؛ فالناس ينزلون ضيوفا على أهلهم فيضيفونهم. وهذا مألوف بين الأسر والأفراد، لكن التميز يظهر في إثارة الضيف الغريب بما يملكه المضيف على نفسه وأولاده. ويتفق الزوجان ويتراضيان على ذلك. وقد حصل هذا من إحدى نساء الصحابة. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يضم أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك. وأصبحي سراجك. ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيات طعامها. وأصبحت سراجها. ونومت صبيانها. ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعل يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين. فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما. فأنزل الله: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة». ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»^(٢).

يظهر من خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للزوجين بقوله: «ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما» أنهما أبدعا في إكرام ضيفهما إبداعاً يأخذ بإعجاب كل أحد، بتوافقهما في تدبير الأمر، وقيامهما بواجب الضيافة من دون تحسيس الضيف بأمرهما، على الرغم من شدة حاجتهما إلى الطعام (...). وقد أسند

١ - فتح الباري، ج ٩/٤٩٣، عند شرح الحديث رقم ٥٣٦٧

٢ - صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله عز وجل، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ح ٣٧٩٨. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، ح ٥٣٢٧.

رسول الله الفعل إليهما معاً للدلالة على أنهما توافقا على صناعة التميز بإنجازهما.

سادساً - الحكمة في التصرف عند النوائب: لا يظهر تميز المرأة عندما تنزل مصيبة بأحد أفرادها في صبرها، وعدم ارتكابها ما يخالف الشرع؛ فهذا موقف يشترك فيه كثير من المسلمين. وهو مطلوب منهم. ولكن تميزها يظهر في امتلاكها القدرة على إخفاء حزنها فلا تبديه لأحد. وفي تفوقها في ذلك بحيث لا يكتشفه أحد من سلوكها. وقد ضربت أم سليم مثالا نموذجيا في ذلك بإخفائها خبر وفاة ابنها عن زوجها حتى يقضي حاجته منها. روى الإمام مسلم عن أنس قال: «مات ابن أبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بآبائه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب. فقال، ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك، فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها. قالت: يا أبا طلحة! أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلتطخت ثم أخبرتني بابني؟ فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بآرك الله لكما في غابر ليلتكما»^(١).

وإن من يتأمل طريقتهما في نعي ابنها لزوجها يظهر له مدى كمال عقلها، إذ أمرت أهلها بأن تكون هي من تخبره في الوقت الذي تختاره، وبالطريقة التي تراها تقنعه. وهذا ما أكده النووي بقوله: «ضربها لمثل العارية دليل لكمال علمها وفضلها، وعظيم إيمانها وطمأنينتها»^(٢). ولا شك أنها رضي الله عنها تفوقت بموقفها بصبرها على ما أصابها أولاً، ثم بحسن تدبير الأزمة التي مرت بها حتى صارت مضرب الأمثال في الصبر والاحتساب عند مصيبة الموت. ولا يتبادر إلى الذهن عند الموعظة بالصبر إلا حكايتها لتفردا.

١ - صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري، ح ٦٢٧٢.

٢ - شرح النووي على صحيح مسلم، شرح الحديث ح ٦٢٧٢.

خاتمة

هذا هو بحث «وظيفة المرأة في صناعة التميز في ضوء السنة النبوية». قدمت له بيان ما جاء به الإسلام لتصحيح نظر الرجل إلى المرأة من أجل حسن انطلاقها نحو صناعة التميز. وجاء في ثلاثة مطالب. أحدها وظيفتها في صناعة التميز في مجال خدمة الدين بثباتها عليه، واعتزازها به، وحرصها على تعلمه والتفقه فيه. والثاني وظيفتها في صناعة التميز في حياتها العامة، بانخراطها إيجابيا في مصالح المجتمع. والثالث وظيفتها في صناعة التميز في حياتها الزوجية. وقد تم فيه الرجوع إلى المصنفات الحديثية الصحيحة، واستخراج ما يظهر منها سلوكا نحو صناعة التميز. وربما يظهر للقارئ أن هناك نصوصا تخدم الموضوع لم ترد في البحث، ومواقف متميزة من سلوك نساء الصحابة لم تعرض فيه. وهذا حاصل يمكن تداركه بمزيد التوسع في ذكر الأمثلة، وتقديم النماذج. وحسبي أنني اقتصر على ذكر بعض الصور المثلى من حياة المرأة المسلمة على عهد القدوة والاستبصار، ووضعها في إطارها ليندرج فيه غيرها.

ويبقى هذا العمل اجتهادا في الكشف عن هذه الوظيفة بسبب اختلاف النظر فيما يدخل في باب التميز وما لا يدخل فيه. وإن ما تم بيانه منه إنما هو معالم سارت عليها المرأة نحو إنجاز الأعمال المتميزة؛ بثباتها على دينها، واعتزازها به في المواقف الصعبة، وحرصها على تعلم أحكامه والتفقه فيه. ثم بمبادرتها إلى الانخراط الإيجابي في الحياة العامة، بقوتها ومالها واهتمامها بشؤون المسلمين، متحدية الصعاب والعراقيل التي وضعت أمامها. وأيضا بحسن سلوكها وتضحيتها من أجل صناعة حياة زوجية ناجحة. وظهر بذلك أن المرأة المسلمة تملك من القدرات الذاتية ما تستطيع أن تنجز بها أعمالا متميزة، لا تقل أهمية عن إنجازات شقيقها الرجل في كثير من مجالات الحياة، بشرط احترام حقها الشرعي

في العمل، وعدم ممارسة الإقصاء في حقها. وإن ما ينبهر له المرء من وظيفة المرأة المسلمة هنا، أنها تميزت في إنجازها في مدة زمنية محدودة، لا تتجاوز مدة البعثة النبوية. وهذا وحده تميز في الإنجاز.

ومما يمكن اقتراحه من توصيات للندوة ما يأتي:

أ- وضع معجم لمصطلحات التميز من نصوص السنة النبوية الصحيحة وترجمتها إلى اللغات الأخرى.

ب- إدراج الأعمال المتميزة للمرأة المسلمة على عهد النبوة في البرامج الدراسية.

وبالله التوفيق.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد (٧٠٢هـ)، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨، دار الآثار، القاهرة.
- أحكام النساء: الحافظ عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق علي بن محمد بن يوسف المحمدي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (ت ٧٥١هـ)، تحقيق وتعليق عصام الدين الصبابي، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣، دار الحديث، القاهرة.
- تأملات إسلامية حول المرأة: محمد حسين فضل الله، ط ٤ / ١٤١٣هـ - ١٩٩٣، دار الملاك.
- تحرير المرأة في عصر الرسالة: عبدالحليم أبو شقة، ط ١ / ١٤١٠هـ - ١٩٩٠، دار القلم، الكويت.
- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ط ١ / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨، دار الندى، بيروت لبنان.
- حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام: محمد رشيد رضا، تعليق محمد ناصر الدين الألباني، مطبعة المكتب الإسلامي سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (ت ٧٥١هـ)، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للحافظ ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق محمد علي البجاوي، سنة ١٩٩٢، دار الجيل، بيروت.
- سنن أبي داود (ت ٢٧٥هـ)، عناية مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- سنن الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.
- سنن النسائي: الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- سنن ابن ماجه (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.
- السنن الكبرى للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الفكر.
- السيرة النبوية لابن هشام، ضبط الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطه، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨، المكتبة العصرية، بيروت.
- سيمياء المرأة المسلمة في الإسلام بين النفس والصورة للدكتور فريد الأنصاري، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣، مطبعة طوب بريس، الرباط.
- صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ) دار الفكر ١٤١٤هـ - ١٩٩٤.
- صحيح مسلم بشرح النووي: تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، الطبعة السابعة سنة ٢٠٠٠، دار المعرفة، بيروت.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، نشر دار صادر، بيروت.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، عناية محمود

- ابن الجميل، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣، مكتبة الصفا، القاهرة.
- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: الشيخ محمد الغزالي، ط٤ / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢، دار الشروق.
- لسان العرب لابن منظور، (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.
- مجموعة الفتاوى لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)،، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ، دار الوفاء دار الوفاء، ج م ع.
- مسند الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٦، مؤسسة الرسالة.
- معالم السنن لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، حلب ١٣٥٢ هـ.
- المعجم الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٨.
- الموطأ: الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، دار الحديث، القاهرة.

مراعاة الحاجات النفسية للطفل
في ضوء السنة النبوية
مدخل لصناعة التميز وتنمية المهارات

د. عزيز البطيوي
أستاذ باحث/المغرب

من أبرز فقرات البحث

«مدار الرؤية النبوية في التأهيل النفسي للطفل على مراعاة حاجاته النفسية وإقداره على فهمها والوعي بها وإشباعها وفق مقاصد الدين وكليات الشريعة، تحقيقاً لأعلى درجات التميز، وامتلاكاً لأكبر قدر من المهارات والقدرات... إن وقفة جريئة وموضوعية ينبغي أن تخوضها أبحاث التنمية البشرية ودراسات تنمية المهارات وصناعة التميز تعلن فيها العودة إلى النبع الصافي للهدي النبوي، وتكف عن الاغترار والتسويق لخلفيات فلسفية وعقدية تتعارض مع المنظومة العقدية الإسلامية وتجنّي على كينونة الإنسان وفطرته السليمة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين، أما بعد،،،،

فلا يخفى على كل ذي نظر وبصيرة ما لمرحلة الطفولة من خصوصية وما يشكله الاعتناء بها ومراعاة أحوالها من أهمية يجعل منها مقدمة لتحقيق نهضة الأمم ورقى الحضارات خصوصاً حينما يكون الرهان الحقيقي والمحك الأساس مرتبطاً بتحقيق نسب عالية من التميز والإبداع والجودة ومهارات القيادة الناجحة أمام ما تواجهه هذه الطفولة من تحديات عظيمة نتيجة التحولات الحضارية العالمية المعاصرة.

وتكمن مشكلة البحث في مقارنة العلاقة بين مراعاة الحاجات النفسية للطفل في السنة النبوية وأثر ذلك على فاعلية الطفل وتميزه ودافعيته نحو الإنجاز وذلك من خلال الجواب عن سؤالين: ماهي الحاجات النفسية التي حرص النبي صلى الله عليه وسلم على مراعاتها في الطفل: إشباعاً وتوجيهاً وتصحيحاً؟ وكيف جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من مراعاة هذه الحاجات مدخلاً أساساً لتنمية مهارات الأطفال وصناعة تميزهم؟

ولعل أهمية هذا الموضوع إنما تنبع من الوعي بخطورة التحديات التي تواجه الطفل المسلم المعاصر وضرورة إعادة تأهيله وفق الهدي النبوي الذي رسم المعالم الكبرى لهذا التأهيل، وقدم الضمانات الحقيقية التي ترعى حاجاته النفسية، وتقوده نحو التميز والفاعلية، وتنمي خبراته ومهاراته الكفيلة بإمداده بالشروط

المحققة لأعلى درجات الكفاءة والاستقلالية والانتماء. وقد اجتهدت نظريات علم النفس المعاصر في تقديم الأطر المعرفية والمنهجية المتعلقة بفهم عالم الطفولة واستثمرتها مجمل الكتابات اليوم في ميدان التنمية البشرية، لكن طالما أن تلك النظريات قد أعرضت عن بصائر الوحي ولم تستهد بأنواره فإنه صار من اللازم مراجعة تلك الكتابات التي تخوض في الحديث عن صناعة التميز وتنمية المهارات لدى الطفل وعرضها على ضوء السنة النبوية. ولذلك كان من أفضل ما يستأثر ببذل الجهد وتجديد النظر في السنة النبوية هو الكشف عن تلك الأبعاد الحضارية الكبرى للسنة النبوية والإسهام في إبراز أصالتها وفعاليتها الرسالية العالمية في إخراج جيل امتلك الفاعلية الوظيفية والدافعية الإيجابية نحو الإنجاز وحاز أعلى مستويات التميز الاجتماعي والعلمي والسياسي.

ويسعى هذا البحث إلى تجديد فهم السنة النبوية من خلال بيان سبقها الحضاري العالمي في مجال صناعة التميز وتنمية المهارات لدى الأطفال، مع التأكيد على أن السنة النبوية منظومة متكاملة في صناعة التميز والإبداع وتنمية المهارات لدى الطفل من خلال بناء اتجاهات نفسية إيجابية ومتوازنة لديه تقوم على مراعاة حاجاته النفسية بما هي ضرورات إنسانية ودوافع فطرية تنمي لديه الشعور بالتميز وترعى صناعته، وتحفزه على الفاعلية والإيجابية وتزرع فيه قيم العطاء والبذل وتطلق لديه طاقاته الإبداعية وتوجه مختلف سلوكياته نحو الإحساس بالمسؤولية وتعلم مهارات جديدة. وإذا كانت المكتبة المعاصرة تزخر بدراسات وأبحاث أكاديمية حول نظرية الحاجات النفسية وارتباطها بمجموعة من المتغيرات بحسب موضوع الدراسة فإن الحاجة اليوم ماسة إلى إنجاز بحوث علمية أكاديمية تأصيلية تنهض بقراءة السنة النبوية قراءة تكشف عن بصائر وهدايات النبوة في توجيه الناشئة وإشباع حاجاتها النفسية بما يحقق تميزها وكفاءتها.

تمهيد

نبتغي في هذا التمهيد تقديم تعريف لمفاهيم موضوع البحث مع بيان موقع نظرية الحاجات النفسية في علم النفس المعاصر متوخين في ذلك الدقة والاختصار.

أ- مفاهيم البحث:

- **الحاجات:** الحاجة المأربة والطلب^(١)، وتدل على معنى الضرورة والإلحاح، فالحاجة دائما ملحة وضرورية وعدم إشباعها يهدد الإنسان في توازنه وبقائه، وثمة فرق بين الحاجة والرغبة؛ حيث تحيل الحاجة على كل ما هو ضروري لبقاء الكائن، أما الرغبة فتحيل على نزوع وميل الذات إلى كل ما يجلب لها اللذة والاستمتاع سواء أكانت هذه الذات تحتاجه عمليا وواقعا أم لا.

- **النفس:** تشير المعاجم اللغوية إلى أن كلمة النفس دالة على الروح و الدم والجسد والإنسان^(٢)، وبالنظر في التعريفات الواردة في هذه المعاجم يتبين ارتباط دلالة النفس بما هو جوهري وعميق في الذات الإنسانية وتعلقها بالبعد المعنوي (القصد: الحقيقة) والأخلاقي (ذو خلق، الهمة) والوجداني (المحبة، الرغبة). ولذلك عدت من الأسماء المشتركة بين معاني متعددة.

ويمكن القول إن النفس هي: «الوجود الحي للإنسان كله وأن وجود النفس هذا ينقسم إلى قسمين: قسم معنوي يشار إليه باسم القلب، وقسم مادي وهو الجسم، والإشارات (في القرآن والحديث) التي ذكرت كلا من النفس والقلب لم تتطرق للتعريف بماهية أي منهما، وإنما وجهت الوعي إلى أفعالهما المحسوسة في واقع الحياة لتنمية الصالح منها وتطهير السيئ...»^(٣). ومن تأمل القرآن الكريم وجد أن النفس تتخذ أبعادا مختلفة في الشخصية: الجسمية منها والعقلية

١- لسان العرب، ابن منظور، مادة (حوج).

٢- انظر: مادة (نفس): مختار الصحاح، الرازي، ص ٥٥٦، لسان العرب، ابن منظور، ١٤ / ٢٣٤٢٣٥.

٣- مناهج التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، ص ١٣٨.

والانفعالية والدافعية والاجتماعية.

- **الطفل:** هو المولود والصغير والناعم، وقد يكون الطفل واحدا وجمعا كما ذكر غير واحد من أهل اللغة^(١). وفي المعجم الوسيط طفل بمعنى: نعم ورق... والطفل: الولد حتى البلوغ، والطفولة: المرحلة من الميلاد إلى البلوغ^(٢). وقد توسع ابن منظور كعاداته في مادة (طفل) فقال: «الطفل: الصغير من كل شيء... ولا فعل له، وقال ابن الهيثم: الصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم... وريح طفل إذا كانت لينة الهبوب وعشب طفل لم يطل»^(٣).

- **التمييز:** الفضل والرفعة والتفرد، وقولنا امتاز الشيء: أي بدا فضله على مثله، واستماز الشيء تعني فضل بعضه على بعض^(٤). ويكون التمييز بهذا المعنى تفرد المرء بقدرات عالية على مستوى التفكير أو الإنجاز أو مجال العلاقات الإنسانية.

- **المهارة:** الحذق في الشيء وإتقانه وتجويده^(٥). فالمهارة أداء يقوم على الإحكام والدقة والسرعة والاقتصاد في الجهد والوقت.

- **التعريف العام:** الحاجات النفسية للطفل هي تلك الأبعاد الحسية المادية، والأخلاقية السلوكية، والعقلية الإبداعية، والانفعالية العاطفية، والتواصلية الاجتماعية التي تلح على صاحبها ضرورة إشباعها بغرض تحقيق تماسك الذات وتقديرها وتنمية إمكاناتها واستقلاليتها وإيجابيتها وقدرتها على حل المشكلات واتخاذ القرارات وفق منظومة عقدية وقيمية وتشريعية تحقق

١- انظر مادة (طفل): مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٣٦، لسان العرب ٨ / ١٧٤١٧٦.

٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص ٥٦٠.

٣- لسان العرب، ابن منظور، مادة طفل، ٨ / ١٧٤١٧٦.

٤- انظر مادة (ماز): لسان العرب، المعجم الوسيط.

٥- مختار الصحاح، الرازي، مادة مهر، ص ٥٢٩.

مقاصد الاستخلاف وعمارة الأرض.

ب- نظرية الحاجات النفسية للطفل في علم النفس المعاصر:

تشكل نظرية الحاجات النفسية الأساس النظري والإطار المرجعي للكتابات والأبحاث في ميدان التنمية البشرية في الغرب. ولا شك أن لهذه النظرية خلفيات فلسفية استندت عليها تستمد أصولها من الحضارة الغربية، لكنها مع ذلك اعتبرت ثورة على تلك النظريات والاتجاهات التي أغفلت دور القيم والدين في تنمية الحاجات النفسية ومراعاتها. وقد أكدت الدراسات المعاصرة التي أنجزتها مدرسة علم النفس الإنساني بقيادة عالم النفس الأمريكي ابراهام ماسلو؛ أن أصل كل سلوك أو فعل دافع داخلي وحاجة نفسية. وتلتقي كل من نظرية الدوافع عند مكدوجال... ونظرية الحاجات عند ماسلو⁽¹⁾ مع المنهج النبوي الذي يراعي جانب الحاجات النفسية في تربية الطفل ويعتمد استراتيجيات تربوية هادفة تعمل على تشكيل الأبعاد الإيجابية في شخصيته. وقد وظفت فيما بعد المحلل النفسية ميلاني كلاين ثنائية الحاجة والرغبة في فهم نفسية الطفل محاولة تطبيق آليات التحليل النفسي على الأطفال. كما تشير آخر الأبحاث التي أنجزها دوسي وريان⁽²⁾ من خلال نظرية محددات الذات (SDT) إلى أن الحاجات النفسية (الحاجة إلى التميز والاستقلالية والكفاءة) عبارة عن مطالب فطرية وأساسية للوصول إلى السعادة والنمو النفسي، وأن فهم الدوافع الإنسانية يتطلب مراعاة هذه الحاجات.

١- صنف ماسلو الحاجات في مجموعات رئيسة هي: الحاجات الفسيولوجية حاجات الأمنحاجات الانتماء حاجات التقدير حاجات تحقيق الذات. وثمة ملاحظات وانتقادات على هذا الترتيب الهرمي لهذه الحاجات.

2- The "What" and "Why" of Goal Pursuits: Human Needs and the Self Determination of Behavior; Edward L. Deci & Richard M. Ryan; Psychological Inquiry; Volume 11. Issue 4. 2000; pages 227268.

ومما تجدر الإشارة إليه أن للعلم حدودا يقف عندها، ولذلك فإن علم النفس مهما تطورت مناهجه فإنه يظل قاصرا عن إدراك حقيقة النفس الإنسانية بدون الاهتداء بآيات القرآن وسيرة الرسول ﷺ. وقد وعت بعض الاتجاهات في علم النفس الغربي هذا الأمر فدعت إلى ضرورة اعتبار الدين والقيم في فهم النفس الإنسانية، ومن هؤلاء رئيس جمعيات علماء النفس في أمريكا في السبعينات أبراهام ماسلو الذي يقول «لابد من طريقة جديدة للمعرفة، ولا بد من معنى أوسع للعلم، فإن ملحد القرن التاسع عشر قد حرق البيت بدل أن يعيد ترميمه، فلقد رمى بجميع الأسئلة التي يطرحها الدين وبإجاباتها معا وأدار ظهره لكل مقررات الدين... ولكن اليوم... أصبح واضحا أن موضوعات البحث الدينية ومباحث الدين... هي قضايا علمية تستحق الاحترام وهي قضايا عميقة الجذور في الطبيعة البشرية ويمكن دراستها وتمحيصها بأسلوب علمي...»^(١).

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول إن حاجة علم النفس إلى السنة النبوية هي حاجة إلى مصدر أصيل من مصادر المعرفة الإسلامية دون أن يعني ذلك اعتصار وقائعها ولي أعناق نصوصها أو التكلف في فهمها، إذ من العبث والسفه أن نجري سباقا بين كتاب الله وسيرة رسوله ﷺ ومعطيات علم النفس فهذه مغالطة كبرى وسوء منهج في الفهم والاستدلال.

إن الهدى النبوي عطاء متجدد يتعالى على الزمان والمكان ويتنزل عليهما، تأهيلا للإنسان نحو آفاق الخير والاستخلاف وعمارة الأرض، وأنى يتحقق ذلك بدون إعداد الطفل وتنمية خبراته ومهاراته وصناعة تميزه عبر مدخل مراعاة حاجاته النفسية. وقد أفضى بنا النظر في مرويات السنة ووقائع السيرة النبوية إلى الإسهام في بيان الحاجات النفسية للطفل في ضوء الهدى النبوي ودورها في تنمية المهارات وصناعة التميز عبر مطالب خمسة.

١ - فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، ص ٢٨٤.

المطلب الأول: الحاجة إلى الإيمان والانتماء للرسالة.

إن تشكيل هوية الطفل الذاتية والجماعية وبناء اتجاهه النفسي إنما ينطلق من تنمية البعد الإيماني في شخصيته، كحاجة أصيلة في النفس الإنسانية تنبني عليها كل الحاجات النفسية الأخرى وكصمام أمان يمنحه القدرة على مواجهة الواقع والثقة بالنفس.

وقد وجه الرسول ﷺ عنايته إلى إشباع حاجة الطفل إلى الإيمان حتى يتحرر من الشعور بالعزلة والضياع في هذا العالم، وحرص على غرس روح الرسالة فيه درءاً للعبث واللامبالاة. والأصل أن الهدى متمكن في فطرة الطفل، والحاجة إلى الإيمان في نفسه ثابتة مستقرة، ولذلك تنصرف ذاته إلى التطلع إلى كل ما هو حق، والإيمان بالله والتصديق بكلماته ما لم يشوش المجتمع على هذه الفطرة بشتى أساليب الإغواء والإغراء.

وقد روى أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد ضعيفة أن رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته

فاطمة بالصلاة - أي بآذانها^(١). ويكشف ابن القيم عن أسرار هذا التأذين، والأثر النفسي الإيجابي من تلقين كلمة التوحيد للمولود، وأقتصر هنا على إيراد معنى واحد - وهو الذي يفيد سياق الحديث عن أمر الفطرة والحاجة إلى الإيمان - قال رحمه الله: «وفيه معنى آخر وهو: أن تكون دعوته إلى الله وإلى دينه الإسلام وإلى عبادته سابقة على دعوة الشيطان كما كانت فطرة الله التي فطر عليها سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنها»^(٢). إن تلقين الطفل المولود كلمة التوحيد

١- أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في الصبي يولد فيؤذن في أذنه، ٥/ ٣٣٣، الترمذي، السنن، كتاب الأضاحي، باب الأذان في أذن المولود، ح ١٥١٦، وقال: "حديث حسن صحيح". ومداره على عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف. التقريب، ابن حجر، ح ٣٠٨٢، ص ٤٧٢. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، ح ٣٢١.

٢- تحفة المودود، ابن القيم، ص ٣٢.

يحفظ توازنه النفسي في بداية أمره إذ ولد على الفطرة فيوافق التلقين ما ولد عليه فيحصل التوازن والتناغم.

وثبت في السيرة أنه قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة كان قد أرسل إليها مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم يقرئان الناس القرآن^(١) وكان فيهم الصغار والكبار، وقد روى الخبر البراء بن عازب رضي الله عنه وكان يومئذ ابن إحدى عشرة سنة لأنه استصغر يوم بدر وأحد وأجيز في جماعة يوم الخندق^(٢)، وكانوا أبناء خمس عشرة سنة، فحفظ حينها سورة الأعلى وسورا من المفصل^(٣)، وهذا زيد بن ثابت لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهو حينها ابن إحدى عشرة سنة، كان قد حفظ سورا من القرآن، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعلم كتاب اليهود^(٤)، وكتب الوحي بين يدي رسول ﷺ وهو غلام، وتعلم السريانية والعبرانية، وقيل الفارسية واليونانية، وحكى ابن عباس عن نفسه فقال: «تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ»^(٥).

وفي تنشئة الأطفال على حب القرآن وتلاوته إشباع لحاجتهم إلى الإيمان بالله، والأنس بكلامه، وإشعارهم بالانتماء إلى دين له كتاب من رب كريم، من حفظه وتلاه أجر الأجر العظيم، فيكون ذلك حفظا لفطرتهم وتنويرا لأفكارهم، فيؤتون الحكمة وهم صغار كما أوتيها ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد كان حرص رسول الله ﷺ شديداً على إشباع حاجة الطفل إلى الانتماء

- ١- البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ح ٣٩٢٥، وكتاب التفسير، سورة "سبح اسم ربك الأعلى" ح ٤٩٤١.
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر، ح ٣٩٥٥ و٣٩٥٦، وباب غزوة الخندق ٤٠٩٧. مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب بيان البلوغ ح ١٨٦٨.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ح ٣٩٢٥.
- ٤- أخرجه البخاري معلقاً في صحيحه من كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد.
- ٥- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن ح ٥٠٣٥. وفي رواية أخرى قال: "جَمَعْتُ الْمُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمُحْكَمُ قَالَ الْمَفْصَلُ" ح ٥٠٣٦.

للمرسلة، فعمل على تخريج جيل من الأطفال تشبعوا بروح هذا الدين وأحسوا بعمق الانتماء لهذه العقيدة حتى دفعهم ذلك إلى أن يعرضوا أنفسهم للمشاركة في القتال، فمنهم من استصغر يوم بدر، ومنهم من استصغر يوم أحد، ثم أجزوا يوم الخندق^(١)، ومنهم من استصغر يومئذ ورد إلى الذراري؛ استكمالاً لرعايته ﷺ لهذه الحاجة ولم يكن يجوز إلا من استكمل خمس عشرة سنة. وهذا عمير بن أبي وقاص الذي كان يتوارى يوم بدر حتى لا يراه الرسول ﷺ فلما رآه ورده بكى، ثم أجازته فمات شهيداً يومئذ^(٢). وقد دعاه إلى ذلك تلك الحاجة إلى الانتماء للمرسلة التي صاغها رسول الله ﷺ الصياغة السليمة، توجيهها وبناء وترشيداً حتى استوت على سوقها.

إن تربية الصغار على حمل الرسالة وتفهمهم قيمتها وتنشئتهم على العمل بمقتضياتها جعلهم يندفعون نحو الرسول ﷺ يرجون بيعته. فقد أخرج مسلم حديث خروج أسماء بنت أبي بكر للهجرة وفيه: «وَهِيَ حُبْلَى بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَدِمَتْ قُبَاءً، فَانْفَسَتْ بَعْدَ اللَّهِ بِقُبَاءَ، ثُمَّ خَرَجَتْ حِينَ نَفَسَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَحْنِكُهُ «فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا، فَوَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِنَمْرَةَ» قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَكَّثْنَا سَاعَةً نَلْتَمِسُهَا قَبْلَ أَنْ نَجِدَهَا، فَمَضَّغَهَا. ثُمَّ بَصَقَهَا فِي فِيهِ، فَإِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ بَطْنَهُ لَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ثُمَّ قَالَتْ أَسْمَاءُ: «ثُمَّ مَسَحَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ، ثُمَّ جَاءَ، وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ، لِيُبَايِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

١- ثبت في الصحيحين عدم إجازة كل من ابن عمر والبراء بن عازب للقتال يوم بدر وأحد (كما سبق تخريجه)، وذكر أهل السير والمغازي أسماء أخرى مثل: زيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وأسيد بن ظهير، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج (وقد أجزا يوم أحد)، وأسامة بن زيد، وعرابة بن أوس، وعمرو ابن حزم، وزيد بن جارية، وسعد بن حبة، وسعيد بن معيقب، وأبي سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله، وسعد بن الحنظلية.

٢- كشف الأستار عن زوائد البزار، ح ١٧٧٠. قال الهيثمي: "رواه البزار ورجاله ثقات". انظر: مجمع الزوائد، ٦/ ٦٩.

وَأَمْرُهُ بِذَلِكَ الزُّبَيْرِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَاهُ مُقْبِلًا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَايَعَهُ^(١). وأخرج البغوي من طريق هشام عن عروة عن أبيه «أن عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير بايعا للنبي ﷺ وهما ابنا سبع سنين»^(٢). ومعلوم أن للبيعة شروطها ولو ازمها، وهي غير واجبة في حق الصبي الصغير كما لا تنعقد بيعته. وقد ذكر ذلك ابن حجر رفعا للوهم الذي قد توحى به ترجمة البخاري باب: بيعة الصغير، فقد أخرج فيه حديثا عبد الله بن هشام وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَهَبَتْ بِهِ أُمُّهُ زَيْنَبُ ابْنَةُ حُمَيْدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعُهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ صَغِيرٌ، فَمَسَحَ رَأْسَهُ وَدَعَا لَهُ، وَكَانَ يُضْحِي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْ جَمِيعِ أَهْلِهِ»^(٣).

لكن إذا لم تقع البيعة من عبد الله بن هشام والهرماس بن زياد^(٤) لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لصغرهما، فإنها وقعت من عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر (كما تقدم) وعمر بن أبي سلمة^(٥). ويجمع بين رواية البخاري ورواية مسلم وابن منده والبغوي، أنه يحتمل أن عبد الله بن هشام والهرماس بن زياد كانا صغيرين لا يعقلان في حين أن عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير كانا ابني سبع أو ثماني سنين، وكان عمر بن أبي سلمة ابن تسع أو عشر سنين؛ لأنه يكبر عبد الله بن الزبير بستين^(٦)، أو يرتبط الأمر بمناقب آباء هؤلاء الصبية: جعفر بن أبي طالب، والزبير ابن العوام، وسلمة بن عبد الله بن عبد الأسد. فقد يكون رسول الله ﷺ راعى

١- مسلم، الصحيح، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود، ح ٢١٤٦.

٢- الإصابة، ابن حجر، ٤ / ٣٨.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام باب بيعة الصغير، ح ٧٢١٠.

٤- قال: "مددت يدي إلى النبي ﷺ وأنا غلام لبياعني فلم يبايعني". النسائي، السنن الصغرى، كتاب البيعة، باب بيعة الغلام ح ٤١٨٩. حسنه الألباني، صحيح سنن النسائي ٣٨٩٩.

٥- الإصابة، ابن حجر، ٤ / ٨٠.

٦- عبد الله بن الزبير أول مولود للمهاجرين بالمدينة كما في حديث مسلم السابق، وعمر بن أبي سلمة ولد قبل الهجرة بستين بالحيشة ثم قدم المدينة مع أبويه قبل الهجرة واحتلم في عهد النبي ﷺ وتزوج وسأله عن القبلة في الصيام (مسلم ح ١١٠٨) وقد شهد أباه بدرًا. فهو يكبر ابن الزبير بستين كما صرح بذلك ابن الزبير نفسه في بعض الروايات.

يتم عبد الله بن جعفر فكان يخصصه بعناية خاصة، وهو وأبوه شبيهان بخلق وخلق رسول الله ﷺ. أما الزبير فهو حوارى رسول الله ﷺ، وجمع له أبويه يوم الخندق. كما راعى رسول الله ﷺ يتم عمر بن أبي سلمة وهو ربيبه زوج أمه أم سلمة، أو لأنه ﷺ أنس منهم إدراكا متقدما على أقرانهم وكان أبرزهم عبد الله بن الزبير.

إن من شأن هذه البيعة أن تكون لدى هؤلاء الصغار اتجاهات نفسية إيجابية؛ فتحررهم من أي شعور بالنقص، وتنمي فيهم شعور الثقة بالنفس والارتباط بالرسالة التي بايعوا عليها، وتطلق لديهم الطاقة العقلية والنفسية والإيمانية فيتحررون من كل سلوك أخلاقي غير مقبول ويسعون إلى وضع أنفسهم موضع الرجال دون أن يتخلوا عن انتمائهم إلى عالمهم. وثمة إشارة إلى أن سن السابعة لها خصوصية متميزة، ففي السابعة يؤمر الطفل بالصلاة^(١) وفيها كانت بيعة الصبيان؛ والصلاة والبيعة أعظم رموز الإسلام بعد التوحيد وهذا يدل على أن سن السابعة هي السن التي ينبغي للوالدين الحرص الشديد فيها على التوجيه والإرشاد والارتباط الوثيق بالطفل عن طريق الحوار والتواصل، فهي السن التي تؤسس لما بعدها، فهذه سبع السنوات إنما هي إعداد لمرحلة أخرى من عمر الطفل تتميز بمجموعة من الخصائص كما تشير إلى ذلك دراسات الباحثين في علم نفس الطفل نجلها فيما يأتي:

- تأثره بالعادات والسلوكيات المحيطة به.
- تفتح ميوله وقدراته النفسية والعقلية.
- بداية تشكيل جهاز ما يسمى «ترابط الأفكار» من خلال ما يخزنه الطفل في ذاكرته من خبرات، فيركب ويستخلص النتائج.

١- أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ح ٤٩٤ و٤٩٥ وغيره. وحسن إسناده النووي في رياض الصالحين ح ٣٠١، وصححه الألباني، إرواء الغليل ١/ ٢٦٦.

- مراوحة ذاكرته بين الانتباه والتشتت، مما يدعو إلى إثارته إيجابيا لتنمية ذهنه.
- محاولته الوعي بذاته وتمثيلها أمام الآخرين للاعتراف به ككيان مستقل.
- رغبته في انتزاع إعجاب الآخرين وحبهم.
- نضج عمليات النمو الحسي الحركي والعقلي واللغوي والإدراكي^(١).

ولعل ابن عباس رضي الله عنهما قد أخذ حظا وافرا من العناية النبوية بتربيته التربية النفسية والعقلية والإيمانية، وكأنه خضع لبرنامج تأهيلي خاص ودورات تدريبية مركزة كان القائم عليها رسول الله ﷺ، ففي أهم محطات هذا البرنامج التربوي التأهيلي لشخصية الطفل ابن عباس وفي لحظة الاقتراب النفسي العاطفي والجسدي من شخصية الرسول ﷺ يتلقى أعظم توجيه تربوي وأرقى إرشاد نفسي وأسمى منهج وأسلوب في إشباع الحاجة إلى الإيمان والانتماء إلى الرسالة، وذلك حينما كان ابن عباس رديف رسول الله ﷺ، وكان خلف النبي ﷺ فبلغ سمعه، ووعى قلبه، وتأثر وجدانه بذلك الخطاب التربوي النبوي وهو يومئذ غلام دون الثالثة عشرة. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهُ تَجِدُهُ تَجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢).

إن رسول الله ﷺ وهو النبي الرسول المكلف بتبليغ ما أنزل إليه من ربه، كانت

- ١- انظر: كريستين نصار، أيها الطفل من أنت؟ ص ٥٣٥٦ "بتصرف". وسعد إبراهيم الديهي، موقف الإسلام من تنشئة الطفل ١٧١-١٨٠.
- ٢- الترمذي، السنن، كتاب صفة القيامة، باب، ح ٢٥١٦، قَالَ أَبُو عَيْسَى: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". وأحمد، المسند، ح ٢٦٦٩. وحسنه ابن رجب من هذه الطريق. انظر: جامع العلوم والحكم، ص ١٩٣.

حياته جهادا ودعوة وتعلّما وتربية وإدارة لأمر الدولة والمجتمع فلم تصرفه هذه المهام العظيمة وتلك المسؤوليات الجسيمة عن أن يردف صغار الصحابة - ومنهم ابن عباس - على دابته ثم يخاطب عقولهم ووجدانهم. وفي هذه الواقعة من سيرته - كما يحكيها لنا ابن عباس - دروس غالية في التربية النفسية للطفل، وقواعد ذهبية في علم نفس الطفل من منظور إسلامي، وأساليب تربوية في فن التعامل مع الطفل وكيفية توجيهه، وسأف أف عند بعضها بما تيسر لي من الفهم:

١- لا يصح الظن بقصور إدراك الطفل للمعاني السامية والمبادئ العقدية والأخلاقية النبيلة، فتفهم الطفل أنه ما زال صغيرا من شأنه أن يؤخر نموه النفسي الانفعالي، وأن يؤثر سلبا على انطلاق مواهبه وطاقاته، ولذلك خاطب رسول الله ﷺ ابن عباس وهو طفل بكلمات عظيمة.

٢- أن اصطحاب الطفل الصغير وإردافه والحديث معه ليس فيه ما يخدش شخصية الكبير أو يخرم مروءته، إذ كان هديه ﷺ أن يتلقى بالصبيان إذا دخل المدينة من سفر فيحملهم ويردّهم معه؛ وأثبتت العديد من الدراسات النفسية أنه كلما كانت المسافة قريبة جدا من المخاطب فإن أثر الرسالة يكون أقوى.

٣- أنه ﷺ هيا ابن عباس لسماع توجيهاته النبوية، وحمله على التشويق والانتباه فناده بـ «يا غلام» تلتفأ به وتحبأ إليه، ولم يفأجه ﷺ بخطابه التربوي ليقع في نفس ابن عباس موقع القبول.

٤- أنه اختصر له التوجيه اختصارا بجوامع الكلم الذي أوتيه ﷺ، فما سيقوله الرسول ﷺ تعلّم لابن عباس، إنه يعلم هذا الطفل كلمات موجزة جامعة، بدون زجر ولا تعنيف أو قسوة أو غلظة، وما كان ذلك من خلقه ﷺ.

٥- تحفيز وجدان الطفل وعقله نحو العمل بهذا التوجيه الذي سيسمعه، إذ حين يصل إلى سماعه أن الأمر لا يتعدى أن يكون مجرد كلمات فإن المربي يكون قد جعل أمر تطبيقها سهلاً وهيناً.

٦- تثبيت قواعد التربية الإيمانية الرسالية وأصولها بما يؤهل الطفل لخوض غمار الحياة وإعمار الأرض، تلبية لتلك الحاجة إلى التعلق بالله واستشعار مراقبته، والإيمان بقدره، وقطع العلائق التي تصرف عنه، وكيفية مواجهة الشدائد والاستعداد لها، وفقه النصر وغرس قيم الصبر، والتجرد لله والرضى بقضائه.

٧- اعتماد الصيغ الإيجابية في توجيه الخطاب إلى الطفل بدلاً من الصيغ السلبية. والمتأمل في خطاب الرسول ﷺ سيجد أن غالبية صيغ التوجيه كانت صيغاً إيجابية التي من شأنها تحفيز الطفل نحو الفعل. ولذلك يشكل هذا الحديث وغيره تأسيساً نبوياً لعملية البرمجة الفاعلة للسلوك الإيجابي عند الطفل.

إن عملية البرمجة الفاعلة للسلوك الإيجابي من خلال حديث ابن عباس إنما أتت نتائجها المرجوة لأنها اعتمدت على:

- أ- لغة إيجابية تسهم في برمجة عقل الطفل وشخصيته.
- ب- التكرار الذي يثبت الأمر لدى الطفل «احفظ، احفظ، اعلم».
- ج- بناء كثافة عاطفية لدى الطفل بإردافه، والاقتراب منه وإشعاره بقيمته وملاحظته في النداء عليه.
- د- متابعة سلوكه وتدريبه على مجموعة من الممارسات الإيجابية (مبيته عند خالته ميمونة...).

المطلب الثاني: الحاجة إلى الحب والأمن والطمأنينة

وهي من الحاجات النفسية الأساسية التي تسهم في النمو العاطفي والانفعالي للطفل، متى تم إشباعها لديه - بتوازن - فإنها تحرك لديه كل الدوافع الإيجابية وتنمي لديه مهارات الاندماج مع محيطه الأسري وبيئته الاجتماعية وتخلصه من كل ميل إلى الانطواء والانحراف. ولذلك يجد القارئ لسيرة رسول الله ﷺ في تعامله مع الأطفال والصبيان صفحات مشرقة وومضات مضيئة للمربين والآباء يمكنهم أن يستلهموا منها صوراً وأساليب في كيفية إشباع هذه الحاجة لدى الطفل من إظهار الحب له ومداعبته وممازحته والسؤال عنه وتفقد حاله وتقبيله وضمه.

أ- إظهار الحب له والتعبير عنه: فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبُهُمَا فَأَحْبِبْهُمَا أَوْ كَمَا قَالَ»^(١)، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ مُقْبِلِينَ. قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ مِنْ عُرْسٍ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُثْمَلًا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَارٍ»^(٢). لقد اتجهت التربية النبوية في إشباع حاجة الطفل إلى الحب والأمن والطمأنينة، إلى إظهار محبته ﷺ للصبيان والإفصاح عنها بالتعبير اللفظي المباشر وبالاحتكاك الإيجابي؛ مثل وضع الطفل على العاتق أو الفخذ. فالرسول ﷺ لم يكتف بالتعبير عن حبه للحسن وأسامه بالكلمات والألفاظ، وإنما أضاف إلى ذلك أن حمل الحسن على عاتقه وأجلسه هو وأسامه على فخذيه ﷺ، ومن شأن هذا الأسلوب في إشباع الحاجة إلى الحب والأمن أن يمنح الطفل كثافة

١- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسن رضي الله عنه ح ٣٧٤٧، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي باب ذكر أسامة ح ٣٧٣٥.

٢- البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَنْصَارِ أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، ح ٣٧٨٥ (واللفظ له)، وكتاب النكاح باب ذهاب النساء والصبيان إلى العرس، ح ٥١٨٠، مسك، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار، ح ٢٥٠٨.

عاطفية عالية تمكنه من تقوية الروابط بينه وبين والديه وذويه، وثقة في محيطه الأسري والعائلي كما يؤمن له هذا الأسلوب إحساسا بالطمأنينة والارتياح النفسي، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني ارحمهما»^(١).

ب- مسح رؤوس الصبيان: ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يمسح على رؤوس الصبيان وخذودهم؛ ملاطفة لهم وإظهارا لحبه إياهم. وقد صدر ذلك عنه في مواضع كثيرة وفي أحوال مختلفة مما يدل على الأثر النفسي الذي يخلفه المسح على رأس الطفل في إشباع حاجته إلى الحب والأمن والطمأنينة. بينما ذهبت أمه زينب ابنة حميد بابنها عبد الله بن هشام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله بايعه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو صغير، فمسح رأسه ودعا له، وكان يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله»^(٢). فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجري أمر البيعة على عبد الله بن هشام إذ هو صغير لا يعقل، لكنه مراعاة لشعور أمه وحرصا على إشباع حاجة هذا الطفل إلى الحب والإشفاق؛ مسح صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا له، وأصابه من ذلك خير كثير حتى كان ابن عمر وعبد الله بن الزبير يجيئانه طلبا لمشاركته في الطعام كما ثبت في الصحيح^(٣)، وفيه أيضا عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير «وكان النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم قد مسح وجهه عام الفتح»^(٤). كما مسح على رأس قرة بن إياس المزني^(٥) وعبد الله بن جعفر لما حمله صلى الله عليه وسلم أمامه ومسح على رأسه ثلاثا، وقال

- ١- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ، ح ٦٠٠٣.
- ٢- سبق تخريجه.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب الدعاء للصبيان بالبركة، ح ٦٣٥٣.
- ٤- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب مقام النبي صلى الله عليه وسلم زمن الفتح، ح ٤٣٠٠، كتاب الدعوات، باب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم، ح ٦٣٥٦.
- ٥- أحمد، المسند ٤/ ١٩ و ٣٤/ ٥، ٣٥ بسند صحيح.

كُلَّمَا مَسَحَ: «اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي وُلْدِهِ»^(١). كما مسح رأس ابن عباس، والسائب بن يزيد رضي الله عنه^(٢) ومسح رأس حنظلة بن حذيم^(٣) ومحمد ابن أنس بن فضالة الظفري^(٤).

وعموما فكثيرا ما كان ﷺ يمسح رؤوس الصبيان، وكان هذا هو الغالب على تعامله معهم، فعن أنس قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُزَوِّرُ الْأَنْصَارَ فَيَسْلِمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ وَيَمْسَحُ بِرُؤُوسِهِمْ وَيَدْعُو لَهُمْ»^(٥).

لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الفعل لم يكن يصدر منه ﷺ معزولا عن أهدافه التربوية، أو بعيدا عن مجموعة من الوسائط التي تجعله مؤثرا وذا مردودية عالية في إشباع الحاجة إلى الحب والأمن، فكان دائما ما يقرنه بالتسليم على الصبيان، أو الدعاء لهم بالبركة، أو حملهم معه على دابة، أو استقبال الولدان له بعد الصلاة، كما في حديث جابر بن سمرّة قال: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ فَاسْتَقْبَلَهُ وَلِدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدِّي أَحَدَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّهَا أَخْرَجَتْهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ»^(٦). وفي هذا الحديث مراعاة لمشاعر الأطفال إذا كانوا جماعة فلا يصح مسح رأس البعض وإغفال الآخر لما فيه من الضرر النفسي عليهم، بل العدل التسوية بينهم.

- ١- أحمد، المسند ح ١٧٦٠. وسنده حسن
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، باب استكمال فضل وضوء الناس ح ١٥٠ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب إتيان خاتم النبوة وصفته، ح ٢٣٤٥.
- ٣- أحمد، المسند ٦٧٦٨/٥، وسنده حسن. وحذيم بكسر المهملة وسكون المعجمة وفتح التحتانية كما ضبطه ابن حجر في التقريب: ص ٢٧٨.
- ٤- البيهقي، الدلائل ٦/٢١٤، ابن عبد البر، الاستيعاب ٣/٤٢٢-٤٢١.
- ٥- النسائي، السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب التسلم على الصبيان ٦/٩٠.
- ٦- مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه ح ٢٣٢٩. الجؤنة: بالضم، التي يعد فيها الطيب ويحرز. انظر: ابن الأثير، النهاية ١/٣١٨.

ج- ضم الأطفال وتقبيلهم: ضم الصبيان وتقبيلهم من الوسائل الفاعلة والمؤثرة في نفسية الطفل وأبلغها أثرا في إشباع حاجته إلى الحب والأمن، ولذلك كان من تربيته ﷺ أن يضم إليه الصبيان فيلتزمهم ويحضنهم إليه. فعن عطاء أن رجلاً أخبره أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يضم إليه حسنا وحسينا يقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»^(١). ومن جملة ما كان ينهجه ﷺ في تربية الأطفال نفسيا من خلال إشباع حاجتهم إلى الأمن والحب؛ تقبيلهم تعبيرا عن حبه لهم وتواضعه معهم، ودليلا على الرحمة التي كانت تزين خلقه مع الناس جميعا. ثم «إن للقبلة دورا فعالا في تحريك مشاعر الطفل وعاطفته، كما أن لها دورا كبيرا في تسكين ثوراته وغضبه، بالإضافة إلى الشعور بالارتباط الوثيق في تشييد علاقة الحب بين الكبير والصغير»^(٢).

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أو أمك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»^(٣). وفي هذا الجواب النبوي على هذا الأعرابي (أو الأعراب إذ ذكرت روايات مجيء جماعة منهم ولا يمتنع أن تتكرر الحادثة) المستغرب من تقبيل رسول الله ﷺ الصبيان بيان صريح إلى انتزاع الرحمة من قلوب أولئك الذين يترفعون - وهم واهمون - عن تقبيل صبيانهم وأبنائهم ذلك «أن تقبيل الولد وغيره من الأهل المحارم وغيرهم من الأجانب إنما يكون للشفقة والرحمة لا للذة والشهوة، وكذا الضم والشم والمعانقة»^(٤).

ويتضح كيف كان نكير رسول الله ﷺ على هؤلاء شديدا فلم يجعلهم أهلا

- ١- أحمد، المسند ٥ / ٣٦٩. قال الزهراني: وإسناده صحيح وإبهام راويه الأعلى لا يضر، فإنه قد وصف بما يقتضي الصحة، انظر: المرويات الواردة في أحكام الصبيان ٢ / ٣٥٤.
- ٢- منهج التربية النبوية للطفل، نور سويد، ص ٣١٠.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ح ٥٩٩٨ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، ح ٣٢١٧.
- ٤- الفتح، ابن حجر ١٠ / ٤٨٩.

للرحمة ولا يملك أن يردها لهم لأنهم امتنعوا عن تقبيل صبيانهم «إما للاستكبار أو للاستحقار»^(١).

وإن كلا من السلوك الاستكباري والتحقيري الموجه ضد الطفل من شأنه أن يزعزع ثقته بنفسه ويوقظ داخله مشاعر الخوف والريبة من حوله، ويتراجع تقديره لذاته ويؤثر حتماً على مستوى تميزه فينشأ حاد الطبع، فيه من الجفاء والغلظة كما هو حال الأعراب، وعند ما تطفو على السطح ظواهر العناد والتمرد، والتحرر من المحيط الأسري والفرار منه ما دام لم يحقق له هذا الأخير الأمن النفسي. لكن المنهج النبوي في إشباع حاجة الطفل إلى الحب والأمن والطمأنينة كان متوازناً لا يميل مع أهواء الطفل ورغباته المخالفة لقوانين الفطرة وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق، إذ إن مجارة الولد في كل ما يرغب فيه وعدم منعه مما يضره بحجة ضرورة أن يشبع رغباته حتى لا يصاب بالحرمان العاطفي أو الاضطراب النفسي مجرد وهم بل جنائية يجنيها الوالد أو المربي على الولد.

وقد ثبت في سيرة رسول الله ﷺ توجيهات تربوية وتصويبات لسلوك الصبيان والأطفال حينما يقتضي الموقف تعليمهم وتأديبهم أو منعهم عما يضر بهم، وأذكر هنا بإذن الله تعالى واحدة من تلك التوجيهات النبوية على أن أعرض فيما بعد وحسب سياق الحديث لباقي الأحاديث الواردة في تأديب الصبيان وتعليمهم.

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَخَذَ الْحَسَنُ ابْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَخِ كَخِ لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»^(٢).

١- تحفة الأحوذى، المباركفوري ٦ / ١٩.

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ ح ١٤٩١ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ ح ١٠٦٩.

إن إشباع كل حاجة من الحاجات النفسية للطفل له حدود وضوابط لا يصح الخروج عنها أو تجاوزها حتى لا يصرفها ذلك عن مقاصدها النفسية والعاطفية والتربوية، وأكبر هذه الحدود وأعظم هذه الضوابط هو تربية الولد على شرع الله تعالى، وأن كل حاجة نفسية تعارضت مع شرع الله تعالى تعارضا بينا صريحا لا تأويل فيه ولا تسوية هي حاجة وهمية لا يمكنها إلا أن تفسد البناء النفسي التربوي للطفل، كما أن التمادي في إشباع الحاجات النفسية للطفل دون مراعاة ضوابط الشرع، وسنن الفطرة، ونواميس الكون يورث شخصية ضعيفة هشة لا تقيم وزنا لأمر ولا نهى، ولا تقدر على مواجهة مشاق الحياة ولأوائها. وقد استنبط ابن حجر من هذا الحديث فوائد منها: (١).

١ - «تأديب الأطفال بما ينفعهم» فقد لا يعرف الطفل غير المميز ما ينفعه فوجب تأديبه به لا وفق أهوائه هو أو أهواء والديه.

٢ - «منعهم مما يضرهم».

٣ - «منعهم من تناول المحرمات وإن كانوا غير مكلفين ليتدربوا بذلك» وهو أمر توجبه محبتهم ولا يتعارض مع استشعارهم الأمن والطمأنينة، إذ كيف يحصل للطفل شعور بالأمن ونحن لم ندر به على اجتناب المحرمات.

٤ - «الإعلام بسبب النهي» وفيه ضرورة صرف الطفل عما يضره مع بيان الدليل، وتفهمه السبب عن النهي أو الأمر، فيكون ذلك أدعى لإذعانه واستجابته. وهي قاعدة من قواعد علم نفس التربوي الإسلامي نبه إليها أحمد الراشد من خلال استقصاءاته الفريدة وجولاته المتميزة في كتب التراث الإسلامي فقال: فمن حسن التربية: تعليل الأوامر، وبيان فقه الأحكام وطريق التدرج التربوي وسببه والحكمة فيه.

١ - الفتوح، ابن حجر ٣ / ٤٣١ وقد أوردتها مجزأة لتظهر جلية واضحة.

٥- «مخاطبة من لا يميز لقصد إسماع من يميز لأن الحسن إذ ذاك كان طفلاً» ثم إن الرسول ﷺ لم يقتصر على المخاطبة دون الفعل وإنما جمع بينهما وهو أقرب للتفهيم؛ مراعاة لإدراك الصبي في مثل هذه السن. وهنا إثارة للذاكرة السمعية و البصرية والحسية الجسدية وأمعن في تثبيت الموقف في ذاكرة الطفل.

٦- «وأما قوله: «أما شعرت» وفي رواية البخاري في الجهاد: «أما تعرف» ولمسلم: «أما علمت» فهو شيء يقال عند الأمر الواضح وإن لم يكن المخاطب بذلك عالماً أي: كيف خفي عليك هذا مع ظهوره، وهو أبلغ في الزجر من قوله لا تفعل» وفيه من مخاطبة الطفل بأمر أو نهى على سبيل معرفته به ليكون أقرب إلى الأخذ به، وعدم نهره وتوبيخه بكلمات تحط من قدره، وكأن الرسول ﷺ استشار في الحسن بن علي الأبعاد الإيجابية في شخصيته حينما أراد نهيه و صرفه عن أكل تمر الصدقة، فأشار إلى أن هذا أمر لا يخفى، وألفاظ الحديث «أما شعرت» «أما تعرف» «أما علمت» الدالة على الشعور والمعرفة والعلم تقوي هذا المعنى.

ويبقى أن حاجة الطفل إلى المحبة والأمن لا تلغي وجوب تأديبه ومنعه مما يضره، وأن تلك مسؤولية ولي أمره ومن يتصدى لتربيته وتعليمه. وفي سنته ﷺ شواهد كثيرة على هذا الأمر إلا أنني سأورد لها في غير هذا المورد.

المطلب الثالث: الحاجة إلى المداعبة والممازحة واللعب

تقر جميع نظريات علم النفس التربوي وعلم نفس الطفل بالأهمية البالغة للعب والمداعبة في التكوين النفسي للطفل. وذلك لأن الطفل يتجه نحو إشباع حاجاته النفسية والمعرفية والاجتماعية والجسدية عن طريق اللعب. وهذا يعني أن اللعب ليس مجرد تسلية أو لهو أو متعة فحسب؛ بل هو وسيط تربوي

ومدخل أساسي لنمو الطفل انفعاليا واجتماعيا وعقليا وجسميا، فتتفتح أمامه أبعاد العلاقات الاجتماعية ويتعلم الضبط الذاتي واحترام القواعد وإبداع طرق جديدة وتخيل جميع الاحتمالات الممكنة لحل معضلة ما، كما يتحرر من تمرّكه حول ذاته^(١)، ويكتسب مهارات الاتصال الاجتماعي، واكتشاف عوالم محيطة الخاص والعام، وينمي قدراته المعرفية واللغوية والمنطقية فيتعلم مفاهيم جديدة، ويصير قادرا على التحليل والتفكيك والتركيب وإعادة البناء، وغيرها من الآثار الإيجابية للعب التي حدث «ببعض علماء النفس إلى القول بأن اللعب يمثل - لدى الطفل - نموذجا ممتازا لما يمكن تسميته باسم «التجربة المفتوحة»^(٢) وإن كان الطفل «لا يلعب عادة من أجل التعلم وإنما من أجل المتعة والتسلية، إلا أن هذا لا يمنعه من تعلم الكثير من خلال هذا اللعب»^(٣).

ونظرا لهذه الضرورة الكبرى للعب في نمو الطفل ومدى حاجته النفسية إليه الذي اعتبرته المناهج التربوية الغربية إلى حدود القرن السابع عشر مجرد مضيعة للوقت والجهد - كان رسول الله ﷺ يداعب الأطفال، ويمازحهم، ويحملهم على عاتقه أو بين يديه، ويلعب معهم، ويمر بهم وهم يلعبون فيقرهم على ذلك. وقد أخرج الشيخان وغيرهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَسَنُ عَلَى عَاتِقِهِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ»^(٤)، وجاء في حديث شداد عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم: «... فَقَالَ إِنِّي رَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ فِي سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِكَ هَذِهِ سَجْدَةٌ قَدْ أَطَلَّتْهَا، فَظَنْنَا أَنَّهُ قَدْ

١- اللعب الجماعي المنظم والمبدع هو الذي يسمح بذلك.

٢- مشكلة الحياة، إبراهيم زكريا، ص ٩٣.

٣- أولادنا من الطفولة إلى الشباب منهج عملي للتربية النفسية والسلوكية، مأمون مبيض، ص ١٥٦.

٤- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين، ٣٧٤٩ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما، ح ٢٤٢٢.

حَدَّثَ أَمْرًا، أَوْ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْكَ، قَالَ: «فَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»^(١). فسمّاها رسول الله ﷺ حاجة، وإنها لحاجة إلى المؤانسة والمداعبة واللعب. وأقول: ليس هناك من عالم نفس أو رجل تربية كان أسبق في التأكيد على ضرورة مداعبة الطفل، وتقريب المسافة بين الأب المربي والطفل، وتعميق إحساس الطفل بثقته واكتشافه لإمكاناته الجسدية (قفز، وثب...) والعقلية، وتخزين ذكريات إيجابية محفزة على التعلم، واكتشاف أشياء جديدة، من رسول الله ﷺ وهو النبي الموحى إليه الذي هياه الله تعالى.

وما ذكرته من فعل الحسن والحسين رضي الله عنهما مع رسول الله ﷺ في الصلاة فلا شك أنهما كانا دون الخامسة أو السادسة، والأرجح أنهما كانا دون ذلك بسنتين أو ثلاث لأن الطفل عادة حينما يكون ابن سنتين أو ثلاث فإن لعبه يطغى عليه الجانب الحسي - الحركي ولا يهتم باحترام قواعد اللعب ولا يرتبط باللعب التخيلي الرمزي^(٢) الذي عادة ما يبدأ في السنة الرابعة من عمر الطفل.

وهذه المرحلة الأولى من المداعبة والملاعبة أساسية في النمو العقلي للطفل، فعلماء النفس متفقون على أن صفات الذكاء تظهر بين الشهرين الثاني عشر والثامن عشر «وأن النمو الذهني خلال الأشهر الثمانية عشر الأولى يكون سريعاً ومهماً لأن الطفل في هذه السن يعي الأساس المعرفي الذي سيكون نقطة انطلاق لبنياته الإدراكية والعقلية في المستقبل، كما يهيئ ارتكاساته العاطفية الأولى التي تقرر جزئياً عاطفته اللاحقة»^(٣) ولأبي حامد الغزالي سبق أدركه بعلمه الشرعي وخبرته التربوية وإشراقته الإيمانية في أن منع الطفل من اللعب سبب في إبطال ذكائه ونفوره من طلب العلم فقال «أن الصبي ينبغي أن يؤدي له بعد الانصراف

١- النسائي، السنن، كتاب الافتتاح، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، ٢/ ٢٢٩-٢٣٠،

وصححه الألباني، صحيح سنن النسائي، ح ١٠٩٣

٢- أيها الطفل من أنت؟ كريستين نصار، ص ١٧٥١٧٣.

٣- علم نفس الولد، جان بياجيه وبيربيل إنهلدر، ترجمة خليل الجر، ص ٨.

من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يسترىح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب من اللعب فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يمت قلبه ويبطل ذكاه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه»^(١).

وقد بلغ الهدي النبوي في المداعبة والممازحة مع الطفل أن يمج ﷺ مجة على وجه صبي، كما أخبر بذلك محمود بن الربيع قال: «عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِهِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ»^(٢)، فهذه المداعبة والملاطفة منه ﷺ لمحمود بن الربيع لها آثار نفسية خاصة منها: تحصيله لبركة رسول الله ﷺ وهو ما لا تدركه عقول وأفهام علماء النفس الغربيين ومن سار على منهجهم من الباحثين والدارسين، وهي بركة العمر؛ وقد مات محمود بن الربيع رضي الله عنهما كما ذكر ابن حبان وغيره سنة تسع وتسعين وهو ابن أربع وتسعين سنة^(٣)، ومنها تشكيل اتجاه نفسي لدى محمود بن الربيع يتسم بالإيجابية والفاعلية والثقة بالنفس والاندماج مع المحيط الاجتماعي. وصحة سماع الصغير وهو ابن خمس، وليست هذه السن شرطاً في السماع فقد يكون دونها كما هو حال عبد الله بن الزبير حينما روى رؤيته والده يوم بني قريظة، وما حصل للحسن وقول الرسول ﷺ له «كخ كخ» وهي لا تقال إلا لمن كان صغيراً جداً فلعله كان حينها رضيحاً أو ما قارب ذلك^(٤).

- ١- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٦٣ / ٣
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب العلم باب متى يصح سماع الصغير؟ ح ٧٧، مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ح ٣٣. قال ابن حجر: "والمج هو إرسال الماء من الفم" الفتح ١ / ٢١٠.
- ٣- الفتح، ابن حجر، ١ / ٢١٠.
- ٤- سبق تخريجه، وثمة رواية صحيحة عن أبي الخوراء السعدي عن الحسن بن علي قال: "حملني ﷺ على عاتقه فأخذت تمر من تمر الصدقة..." رواه أحمد في المسند ح ١٧٢٣ و١٧٢٥ و١٧٢٧ وصححه أحمد محمد شاكر.

ومما ثبت عنه ﷺ في أمر المداعبة والممازحة قوله لأنس: «يَا ذَا الْأُذُنَيْنِ»^(١)، وهو وصف منه ﷺ لمهارات الإنصات والضبط والذكاء وحسن الإصغاء التي كان يتمتع بها أنس رضي الله عنه بسبب خدمته لرسول الله ﷺ وبركة دعائه، وهذا تقدير ومكافأة بالتعبير اللفظي الدال على مشاعر القبول والإعجاب.

وقد جاءت الروايات والأحاديث بخبر لعب صغار الصحابة مجتمعين سواء في السوق أو غيره فيمر عليهم رسول الله ﷺ، فيسلم عليهم، أو يسمح على رؤوسهم، أو يردف معه بعض الصبيان، فهذا أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ - وهو في معرض ذكره لما كان عليه الرسول ﷺ من الخلق قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمَرَ عَلِيَّ صَبِيَّانَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ»^(٢).

لقد كان أنس رضي الله عنه مدفوعاً بحاجة نفسية إلى مشاهدة الصبيان وهم يلعبون، وبرغبة جامحة إلى مشاركتهم اللعب والانخراط معهم فيه دون أن يكون لديه عزم أو نية على عدم قضاء الحاجة التي أرسله رسول الله ﷺ لها، ولكن لعب جاذبيته الخاصة لدى الصبيان فاستغرق أنس رضي الله عنه فيه فما شعر حتى قبض رسول الله ﷺ بقفاه من ورائه وهو يضحك عليه الصلاة والسلام لعلمه بحاجة الصبي إلى اللعب، ورحمته به، وزيادة في التلطف معه ومؤانسته، فلم يعنفه أو يوبخه وإنما ضحك ثم ناداه: يا أنيس مداعبة وممازحة، وهذا درس

١ - أبودواد، السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح ح ٥٠٠٢، والترمذي، السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، ح ١٩٩١، وقال: "صحيح غريب". والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح ٤١٨٢، وصحيح سنن الترمذي، ح ١٦٢٢.

٢ - مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، ح ٢٣١٠.

تربوي وقاعدة ذهبية في التعامل مع الطفل الذي يفرط في اللعب ففني ما كلف به أو استهواه لعب الأطفال فشغله عن مهمة أو حاجة أرسله أبوه أو أمه لأجلها، وهو سلوك طبيعي إذا ظل في حدوده المعقولة يتعامل معه بما تعامل به رسول الله ﷺ مع أنس بن مالك: لمسة فيها ملاطفة، ونظرة فيها رحمة، وضحك يدل على الشفقة، واستشعار الصبي لحالة الأمن النفسي ثم نداء تذكيري فيه أمر دال على الحزم. ومن قبيل هذه الممازحة والمداعبة ما وقع له ﷺ مع أبي عمير أخو أنس ابن مالك من أمه أم سليم وأبوه أبو طلحة. فعن أنس بن مالك قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا، وَلِي أَخٌ صَغِيرٌ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ، وَكَانَ لَهُ نُغْرٌ يَلْعَبُ بِهِ فَمَاتَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَاهُ حَزِينًا، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُ؟ قَالُوا: مَاتَ نُغْرُهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ»^(١)

وفي الحديث من وجوه الفقه والتربية وعلم نفس الطفل والأسرة، وفنون الأدب والمعاملة والمخالطة ما جعل أهل الحديث يستنبطون منه فوائد عديدة. وكما يلعب الصغير وتحترم رغبته وحاجته إلى اللعب فإن الصغيرة كذلك تلعب وتلهو، ويمزح معها وتنال حقها من المداعبة والملاطفة والموانسة مع مراعاة ما يناسب أئوتها ويحفظ خصوصيتها وطبيعتها. فمن ذلك حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد^(٢). ولم يمنعه وقاره ﷺ وهو بين أصحابه حين يرى الحسين وهو صبي يلعب في الطريق فيضحكه ويشاركه متعة اللعب، وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث يعلى بن مرة «أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى

١- رواه بهذا السياق البخاري في الأدب المفرد ح ٣٧٥، وفي الصحيح، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس ح ٦١٢٩، وباب الكنية للصبي، وقبل أن يولد للرجل ح ٦٢٠٣، مسلم، الصحيح، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود، ح ٢١٥٠. النغير: طير كالعصافير حمر المناقير (مختار الصحاح ٥٥٣) واحدة نغرة ويجمع على نغران.

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به أو قبلها أو مازحها، ح ٥٩٩٣.

طَعَامَ دُعُوا لَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ يَلْعَبُ فِي السَّكَّةِ^(١) قَالَ: فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُهَا هُنَا وَهَاهُنَا وَيُضَاحِكُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَخَذَهُ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ وَالْأُخْرَى فِي فَأْسِ رَأْسِهِ^(٢) فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سَبَطُ مِنَ الْأَسْبَاطِ»^(٣).

المطلب الرابع: الحاجة إلى المدح والقبول والتشجيع.

المدح والقبول والتشجيع حاجة نفسية لدى الطفل متى تم إشباعها ومراعاتها أورثت في الطفل شعورا بالإيجابية، واعترافا بمكانته داخل الأسرة والمجتمع وبقدراته الذاتية، ورغبة في الإنجاز والاستجابة للواجبات والانقياد لتوجيهات الوالدين والمربين. فتتعزيز لديه قيم الإبداع والاعتماد على الذات والثقة بالنفس ويتخلص من السلوكيات العدوانية ومن العناد والتمرد التي ليست سوى رد فعل على ممارسات يشعر من خلالها الطفل الحط من قيمة ذاته وتضخيم أخطائه ويخيل إليه أنه غير مرغوب فيه.

ونظرا للقيمة العالية لهذه الحاجة التي قد تحول سلوك الطفل من السلبية إلى الإيجابية إذا ما روعيت فيها ضوابط وقواعد - فقد كان رسول الله ﷺ يشجع الصبيان ويمدحهم ويتحمل أخطاءهم ويسوي بينهم ويدعو إلى العدل معهم والمساواة بين ذكورهم وإناثهم ليشعر الجميع بأنه مقبول ومرغوب فيه.

وقد فقه أبو حامد الغزالي هذا المعنى فسطر في الإحياء أسطراً - في القرن الخامس الهجري - تدل على مدى أهمية مراعاة هذه الحاجة النفسية وعدم إحراج

١- السكة، الزقاق (س ك ك) مختار الصحاح ٢٦٥.

٢- فأس رأسه: طرف مؤخره المشرف على القفا» النهاية ٣ / ٤٠٥.

٣- ابن ماجه، السنن، المقدمة، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ١ / ٥١، وأحمد، المسند ٤ / ١٧٢، والبخاري، الأدب المفرد ح ٣٦٦ وجود الألباني إسناده، الصحيحة ح ١٢٢٧ والحديث حسن إن شاء الله.

الطفل بإظهار أخطائه ومعاتبته عليها فقال رحمه الله: «ومهما ظهر من الصبي خلق جميل، وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس. فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشف،... ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد حسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود... فتفصح بين الناس»^(٤).

وما ذكره الغزالي رحمه الله يعد سبقا تاريخيا أنجزه علم النفس الإسلامي في تربية الطفل في حين يتبجح الكثيرون بمثل هذه الأفكار وأنها نتاج للمناهج التربوية الغربية الناجحة في تربية الطفل، ولكنهم ماقرأوا الغزالي وأمثاله، وما شموا رائحة السيرة النبوية العطرة التي امتاح الغزالي من رياضها النضرة.

وهذا زيد بن ثابت رضي الله عنه يحدثنا ابنه خارجة عن التشجيع وحسن التقدير الذي لقيه أبوه زيد من رسول الله ﷺ حين قدم المدينة قال زيد: «ذَهَبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْجَبَ بِي، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بضعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: يَا زَيْدُ، تَعَلَّمَ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَمِنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي قَالَ زَيْدُ: فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأَجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ»^(٥).

وإذا كان زيد بن ثابت رضي الله عنه قد حفظ بضع عشرة سورة، فإن تعلمه

٤- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، باب رياضة الصبيان، ٦٦/٣
 ٥- أحمد، المسند، ١٨٦/٥ (واللفظ له)، وأبو داود، السنن، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، ح ٣٦٤٥، والترمذي، السنن، كتاب الأدب، باب في تعليم السريانية ح ٢٧١٥، وقال: "حديث حسن صحيح".

لغة اليهود، ولغات أخرى كما ذكر ابن حجر والسخاوي في خمس عشرة ليلة أو سبع عشرة ليلة كما في رواية أخرى وهو ابن إحدى عشرة سنة فهو دليل على ما يفعله التشجيع والمدح والإعجاب بإنجازات الطفل من التدعيم النفسي للطفل وإطلاق قدراته الإبداعية وطاقاته الخفية، وكان هذا هو حال زيد بن ثابت الحافظ اللبيب العالم العاقل حتى كتب الوحي لرسول الله ﷺ بالمدينة، وجمع القرآن بأمر من أبي بكر، وغيرها من المناقب التي حفلت بها كتب التراجم والسير ومصنفات السنن.

والذي يتأمل نفسية الطفل ويسبر أغوارها يجد أن من أعظم ما يلحق الضرر النفسي بالطفل، ويفقده ثقته بأسرته ومجتمعه، ويهدد إحساسه بالانتماء والأمن عدم التسوية بينه وبين إخوانه وأقرانه، وتفضيل أحد الأبناء على الآخر بعطية أو هبة أو ما شابه ذلك مما يخل بقيمة العدل كقيمة أخلاقية واجتماعية.

وكلما ذكر أمر العدل بين الأبناء والصبيان إلا وتحضر قصة النعمان بن بشير رضي الله عنهما حين أعطاه أبوه بشير عطية وأرادت أمه أن تشهد رسول الله ﷺ على ذلك. عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فَاتَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرْتَنِي أَنْ أُشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا». قَالَ: لَا. قَالَ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدَلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ». قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ^(١). قال البخاري في ترجمة أخرى أورد فيها الحديث في صحيحه: «باب الهبة للولد، وإذا أعطى بعض ولده شيئاً لم

١ - البخاري، الصحيح، كتاب الهبة، باب الإشهاد في الهبة ح ٢٥٨٧ (اللفظ له)، وكتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ح ٢٦٥٠، مسلم، الصحيح، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ح ١٦٢٣ و ١٦٢٤. وللحديث روايات وطرق فيها زيادات وفوائد.

يَجْزُ حَتَّى يَعْدَلَ بَيْنَهُمْ، وَيُعْطَى الْآخِرِينَ مِثْلَهُ، وَلَا يُشْهَدُ عَلَيْهِ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ»^(١). فدلّت طرق هذا الحديث على وجوب التسوية بين الأولاد وبه صرح البخاري - كما سبق - وطاوس وعروة ومجاهد والثوري وأحمد وإسحاق وداود وابن المبارك وآخرون وبعض المالكية وهو الذي صححه ابن تيمية وابن القيم وانتصر له ابن حجر وغيره^(٢)، وهو الموافق لأحكام الشريعة ومقاصدها وعليه يدل ظاهر الحديث وما في معناه. وقد استدل الطحاوي على العدل بين الأنثى والذكر حتى في التقبيل بحديث أنس، قَالَ: «كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَجَاءَ ابْنٌ لَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ عَلَيَّ فَخَذَهُ ثُمَّ جَاءَتْ بِنْتٌ لَهُ فَأَجْلَسَهَا إِلَيَّ جَنْبَهُ قَالَ: «هَلَّا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا»^(٣).

المطلب الخامس: الحاجة إلى تحمل المسؤولية وتحقيق الذات واكتساب مهارات جديدة.

تتكامل هذه الحاجة النفسية مع الحاجات الأخرى في تحقيق النمو النفسي والنضج الانفعالي لدى الطفل وتنمية شعوره بالتميز وتحرير طاقاته ومهاراته نحو الإيجابية والفاعلية. وكلما كان تشجيع الطفل على تحمل المسؤولية، وإشعاره بقيمته الذاتية، وتم تهييء الفرص التي يثبت من خلالها ذاته ويتذوق طعم نجاحاته وإنجازاته إلا وكان ذلك أكبر مساعدة للطفل على تكوين نظرة إيجابية عن ذاته وتأمين دافعيته نحو الإنجاز واكتساب مهارات جديدة.

وإذا كانت هذه الحاجة النفسية كغيرها من الحاجات تحتاج إلى فهم سليم حتى لا يصرّفها أي جنوح أو سوء فهم عن تحقيق مراميها، فإن تتبعها في سيرة رسول الله ﷺ أثناء تعامله مع الصبيان والنظر في جملة الوقائع والأخبار

- ١- البخاري، الصحيح مع الفتح، كتاب الهبة وفضلها، باب الهبة للولد ٥ / ٢٥٥.
- ٢- المنهاج، النووي، ١١ / ٦٩، مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣١ / ٢٩٤-٢٩٧، والفتح، ابن حجر، ٥ / ٢٥٨ و٢٥٩ والشوكاني، نيل الأوطار، ص ١١٧٥.
- ٣- الطحاوي، شرح المعاني ٢ / ٢٤٦، وقال الهيثمي: " رواه البزار، فقال: حدثنا بعض أصحابنا ولم يسمه، وبقية رجاله ثقات". مجمع الزوائد، (٨ / ١٥٦)، وصححه الألباني، الصحيحة ٣٠٩٨.

والأحاديث المتعلقة بهذه الحاجة هو العاصم من الأفهام المغالية المتطرفة التي صارت تنهل من مصادر معرفية غريبة وتدعي أن ما وصلت إليه هو النموذج التربوي الأقدر على تربية الطفل تربية نفسية متوازنة وناجحة، معرضة عن فطرة الله التي فطر الصبيان عليها.

لقد كان رسول الله ﷺ يدرك إدراكا واضحا أن الأطفال يمتلكون مقدرة عالية على تحمل المسؤولية متى شعروا بوجود من يتعهدا ويرعاها، وأنهم في حاجة إلى من يحسسهم بتقدير ذاتهم ويمنحهم فرصا وإمكانات مختلفة تؤهلهم أن يلجوا المرحلة العمرية القادمة بكل اتزان وإيجابية.

وقد ثبت في الصحيح كما تقدم تكليف رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود، فسارع زيد رضي الله عنه إلى الاستجابة لهذا الأمر النبوي وهو يومها ابن إحدى عشرة سنة فاكسب مهارة جديدة في التواصل اللغوي في مدة زمنية خيالية، خمس عشرة ليلة أو سبع عشرة ليلة، ليتحمل بعد ذلك مسؤولية كتابة الوحي بالمدينة بجانب صحابة كبار كأبي بن كعب رضي الله عنه. ويبدو أن استراتيجية تعليم الصبيان الكتابة مقابل الفداء التي سلكها رسول الله ﷺ مع أسرى بدر^(١) تحمل في ذاتها دلالات عديدة، فهي من جهة ستحول المجتمع المسلم إلى مجتمع علم ومعرفة عن طريق إتقان مهارتي القراءة والكتابة، ومن جهة أخرى ستلبي حاجة لدى الصبيان المولعين بحب الاستطلاع، الراغبين في التفوق وتحقيق الذات.

كما كان ﷺ يدرّب الصبيان على تحمل مسؤولية حفظ الأسرار التي كان يسر بها إلى بعضهم. فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «أَرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسْرَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا

١- أحمد، المسند، ح ٢٢١٦، وصححه أحمد محمد شاكر، ورواه أيضا الحاكم في المستدرک ٢/ ١٤٠ وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وابن سعد في الطبقات، ١/ ٥١.

مَنْ النَّاسِ»^(١). عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «أَتَى عَلِيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، قَالَ: فَسَلِّمْ عَلَيْنَا فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَةٍ. قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لَا تَحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا. قَالَ أَنَسٌ: «وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتُ»^(٢). وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ أَنَسٌ: «أَسَرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرًّا فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ أَحَدًا بَعْدَهُ، وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ»^(٣).

والذي يبدو من حديثي عبد الله بن جعفر وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن التدريب على قضاء الحاجات وتحمل مسؤولية حفظ الأسرار يكسب الطفل ثقة بنفسه، ويوفر له رصيذا إيجابيا إضافيا إلى ما يملك من الخبرات والتجارب، ويقبل على الحياة بكل فاعلية وانفتاح، غير منطو على ذاته إذ «يتعرف على مجاهيل الحياة، فيشعر بفرح ونشوة المعرفة، وثقة في مواجهة الأمور، وفعال في مستقبله، إذ يكون قد اكتسب مهارة وخبرة في طفولته التي تمكنه من متابعة حياته، بخطى ثابتة، مركزة بدون خلل، أو اضطراب»^(٤) ولعل مشاركة بعض صغار الصحابة^(٥) الذين لم يكونوا قد أجزوا للقتال - في غزوة بني المصطلق كانت لها الأثر الإيجابي والفعال في إعدادهم لمواجهة المواقف القادمة، ومنحهم فرصا ميدانية في تحمل

- ١- مسلم، الصحيح، كتاب الحيض، باب ما يستتر به لقضاء الحاجة، ح ٣٤٢، وكتاب فضائل الصحابة، باب فضل عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما ح ٢٤٢٩.
- ٢- مسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ح ٢٤٨٢.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب الاستئذان، باب حفظ السر ح ٦٢٨٩.
- ٤- منهج التربية النبوية للطفل، نور سويد، ص ٢٧٥.
- ٥- من بينهم عبد الله بن عمر: البخاري، الصحيح، كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا فوهب ح ٢٥٤١، مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، ح ١٧٣٠، وزيد بن أرقم: البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المنافقين، ح ٤٩٠٠ وفي مواضع أخرى من صحيحه.

المسؤولية وإثبات الذات^(١)، واكتساب مهارات حربية عسكرية، وخبرات ميدانية مباشرة كما حصل مع زيد بن أرقم^(٢) في غزوة بني المصطلق حينما كشف مقالة عبد الله بن أبي بن سلول، واستشارته ﷺ مع أسامة بن زيد في أمر حادثة الإفك^(٣) ولم يكن قد جاوز الخامسة عشرة من عمره^(٤). ومما يقوي هذه الحاجة ويثبتها في شخصية الطفل أخذه إلى مجالس الكبار: فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يصطحبون أبناءهم الصغار معهم إلى مجالس رسول الله ﷺ فيشاهدون حوار الكبار وأدبهم فيما بينهم، وتسمو نفوسهم، وتنمو مداركهم، وتتهذب أخلاقهم وطباعهم، ويكون ذلك تدريبا لهم وإعدادا لهم للانخراط الكلي في مسؤولية الأسرة والمجتمع والدولة.

إن التواصل بين الأجيال - بين جيل كبار الصحابة وصغارهم - هو الذي سمح بظهور طاقات علمية وقيادات فكرية وسياسية في عهد الخلافة الراشدة وبعده لم تتجاوز العشرين من سنها. وليس ابن عباس سوى نموذج من النماذج المضيئة في بداية تاريخ الإسلام التي ربها رسول الله ﷺ كأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر... وما البيعة التربوية إلا صورة أخرى من صور إشباع حاجة الطفل إلى تحمل المسؤولية واعتبار الذات. إن حقيقة هذه البيعة التربوية تتجلى في كونها تأهيل نفسي وإعداد تربوي للطفل على معاني الفعالية والجدية

- ١- أشير هنا إلى أن إثبات الذات وتقديرها من خلال قيام الفرد بأنشطة وأعمال لا يتعارض مع مفهوم الإخلاص.
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب سورة المنافقين، ح ٤٩٠٠ وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في أول صفات المنافقين، ح ٢٧٧٢.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ح ٤١٤١ وفي مواضع أخرى من صحيحه.
- ٤- اختلف في سن أسامة حين وفاة النبي ﷺ فقيل: ثماني عشرة، وقيل تسع عشرة، وقيل عشرون (الاستيعاب، ابن عبد البر، ١ / ١٧٠) وإذا علم أنه كان ممن استصغروا يوم أحد، وأنه أجزى يوم الأحزاب وهي بعد بني المصطلق التي وقعت في أعقابها حادثة الإفك وهو ابن خمس عشرة سنة فتكون سنة رضي الله عنه في شعبان سنة خمس (زمن وقوع غزوة بني المصطلق) خمس عشرة سنة على الأكثر.

والانضباط والمسؤولية وتخليصه من كل معاني العجز والالتكالية والشعور بالنقص. وإذا كانت بيعة الصغير لا تنعقد فإن ثمة حكما وفوائد تتحقق بسبب هذه البيعة التربوية ومنها^(١).

١- إعداد الصغير بعد سن السابعة وتدريبه على مجموعة من القواعد الاجتماعية والمبادئ الأخلاقية، ذلك أن السابعة من عمر الطفل هي مرحلة تشكل الوعي الأخلاقي.

٢- عدم اعتبار الصغير بعد سن السابعة عاجزا عن تحمل مسؤولية ما أو التدريب عليها، كما يظن كثير من الآباء فإن ذلك سيؤثر على نموه النفسي والانفعالي وسيؤخر تفاعله مع محيطه الاجتماعي.

٣- أن الأوامر والتوجيهات الموجهة إلى الطفل تحتاج أن تكون مصحوبة بتفاعل إيجابي كالتبسم في وجهه، ومصافحته، ومعانقته، وغير ذلك مما يزيد من اعتباره لذاته وتقديره لها وتشجيعه على الدخول بأمان إلى عالم المسؤولية.

٤- إن تدريب الطفل على المسؤولية وتعلم مهارات جديدة ينبغي أن تمر عبر مشاعر الحب والعطف.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عملية تدريب الطفل على تحمل المسؤولية واكتساب مهارات جديدة لا يمكن أن تتم بدون صدور أخطاء وهفوات من لدن الطفل، فكان لزاما لإنجاح هذه العملية من التعامل بحكمة مع هذه الأخطاء، فحينما ينتبه الآباء كثيرا لأخطاء أبنائهم ويركزون عليها، ويذكرونهم بها فإنهم حينها يعمقون من شعورهم بالخطأ، ويفقدونهم الثقة بأنفسهم وتراجع درجة اعتبارهم لذواتهم، ومما يذكره علماء النفس: «أن السلوك الذي ينتبه إليه يتكرر، والذي لا ينتبه إليه

١- كنت قد ذكرت بعضا من هذه الفوائد جين حديثي عن الحاجة إلى الإيمان والانتماء للرسالة.

يؤول للزوال»^(١). فالطفل يتعلم ويترقى في خبراته ومهاراته من خلال التجربة والمحاولة بالخطأ، ولا ينبغي أن ينتظر منه فوق قدراته وطاقاته. ففي مسند أحمد من حديث أنس بن مالك قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ، أَوْ ضَيَّعْتَهُ فَلَامَنِي، فَإِنْ لَامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا قَالَ: دَعُوهُ فَلَوْ قُدِّرَ أَوْ قَالَ لَوْ قُضِيَ أَنْ يَكُونَ كَانَ»^(٢).

وفي مشروعية تقديم الصبي في الشراب ونحوه قبل الكبير إذا كان على اليمين كما دل حديث سهيل بن سعد رضي الله عنه دليل على تقدير حاجة الطفل إلى اعتبار ذاته وعدم بخس قيمته وقدره. فعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاحُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ. فَقَالَ الْغُلَامُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أُؤْثِرُ بِنَصِيْبِي مِنْكَ أَحَدًا، قَالَ: «فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِهِ»^(٣). ومن مظاهر تدريب الطفل على تحمل المسؤولية حمله على القيام بفرائض الدين خصوصا ذات الطابع الجماعي مثل الصلاة في المسجد والحج^(٤) والصيام^(٥). فيتعلمون الانضباط وهو روح المسؤولية وأساسها، ويكتسبون مهارات التواصل الاجتماعي والانخراط الإيجابي الفعال في المشروع الرسالي للأمة.

- ١- أولادنا، مأمون مبيض، ص ٢٢٦ على ما في هذا القول من نسبية، فهو ليس على إطلاقه ونصوص السنة ووقائع السيرة تفيد هذا الذي ذكرته، والله أعلم.
- ٢- أحمد، المسند، ٣/٢٥٦، ٢٠٠، ١٢٤، وأصله في الصحيحين.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب الأشربة، باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه في الشرب ليعطي الأكبر؟ ح ٥٦٢٠، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم، الصحيح. كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء واللبن، ح ٢٠٣٠. "فتله" وضعه... وأصله من الرمي على التل... ثم استعمل في كل شيء يرمى به وفي كل إلقاء. فتح الباري، ابن حجر، ١٠/١٠٠.
- ٤- البخاري، الصحيح، كتاب جواز الصيد، باب حج الصبيان، ح ١٨٥٨.
- ٥- البخاري، الصحيح، حديث الربيع بنت معوذ، كتاب الصوم، باب صوم الصبيان ح ١٩٦٠.

الخاتمة

لقد أبرز هذا البحث أن النبي ﷺ كان يملك رسالة ورؤية ومنهجاً وهو يربي صغار الصحابة تهيئاً لهم لقيادة العالم وإعمار الأرض، وقياماً بمقتضيات أمانة الاستخلاف والعبودية لله عز وجل، ومدار هذه الرؤية النبوية في التأهيل النفسي للطفل مراعاة حاجاته النفسية وإقداره على فهمها والوعي بها وإشباعها وفق مقاصد الدين وكليات الشريعة، تحقيقاً لأعلى درجات التميز، وامتلاكاً لأكبر قدر من المهارات والقدرات.

وقد خلص البحث إلى خمس قضايا كبرى:

- أن مراعاة الحاجة إلى الإيمان والانتماء للرسالة من حيث هي أم الحاجات النفسية كفيل بتكوين اتجاهات نفسية إيجابية وكثافة عاطفية لدى الطفل، وتحرير طاقاته العقلية والنفسية والإيمانية، والشعور بالتحدي والاندفاع نحو تحقيق الأهداف بكل إيجابية وفعالية.
- أن إشباع الحاجة إلى الحب والأمن والطمأنينة ينمي لدى الطفل مهارات الاندماج مع محيطه الأسري وبيئته الاجتماعية، ويخلصه من كل ميل إلى الانطواء والانحراف ومن كل مشاعر الخوف والرغبة ممن حوله، ويكسبه مهارة المرونة في التفكير والانفتاح الإيجابي على الآخرين.
- أن تلبية الحاجة إلى المداعبة والممازحة واللعب من شأنها أن تمكن الطفل من تعلم الضبط الذاتي واحترام القواعد وإبداع طرق جديدة واكتساب مهارات حل المشكلات وتشكيل اتجاه نفسي يتسم بالإيجابية والفاعلية والثقة بالنفس.
- أن مراعاة الحاجة إلى المدح والقبول والتشجيع طريق نحو الإبداع والتميز

والاعتماد على الذات وتقديرها وتخليص الطفل من السلوك العدواني ومن مظاهر العناد والتمرد وتدعيمه نفسياً فتعزز قدراته العقلية والأدائية.

- أن إشباع الحاجة إلى تحمل المسؤولية وتحقيق الذات هو تأهيل نفسي وإعداد تربوي للطفل على معاني الفعالية والجدية والانضباط والمسؤولية والاستقلالية وهي مداخل أساسية للتميز في اتخاذ القرار وتولي القيادة خصوصاً حينما يحوز الطفل عبر هذه الحاجة على نظرة إيجابية عن ذاته تؤمن دافعته نحو التميز والإنجاز.

- أثبت هذا البحث أن السياقات الاجتماعية والفروق الفردية للأطفال التي راعاها النبي ﷺ هي عوامل مدعمة للإشباع المتوازن والإيجابي لحاجات الطفل النفسية حتى تكون الأمة قادرة على صناعة التميز وتنمية المهارات.

لقد كان الهدي النبوي متمثلاً لمبادئ الشمولية والتكاملية والتوازن والفاعلية والوسطية والإيجابية في إكساب الطفولة مهارات انفعالية ونفسية وتواصلية وحضارية في تناغم مع سنن الفطرة وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق، مكنت الأمة من أن تفتح العالم وتحوز احترام الحضارات الأخرى.

إن وقفة جريئة وموضوعية ينبغي أن تخوضها أبحاث التنمية البشرية ودراسات تنمية المهارات وصناعة التميز تعلن فيها العودة إلى النبع الصافي للهدي النبوي، وتكف عن الاغترار والتسويق لخلفيات فلسفية وعقدية تتعارض مع المنظومة العقدية الإسلامية وتجنى على كينونة الإنسان وفطرته السليمة.

وقد كتبت ما غلب على ظني أنه صواب، سائلاً الله تعالى أن ينفع بصوابه وأن يتجاوز عما أخطأت فيه، والحمد لله رب العالمين.

لائحة بالمصادر والمراجع

- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.
- أخلاق النبي وآدابه، أبو الشيخ الأصبهاني (٣٢٩هـ) الدار المصرية اللبنانية الطبعة الثانية، ١٩٩٧.
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، (٢٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٩٩ م.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (٤٦٣هـ).
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (٨٥٢هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.
- أيها الطفل من أنت، كريستين نصار، جروس برس، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
- تحفة الأحوذني شرح سنن الترمذي، محمد بن عبد الرحمان أبو العلا المباركفوري (١٣٥٣هـ)، تحقيق محمد جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.
- التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة السخاوي (٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم (٧٥١هـ) دار البيان دمشق، ١٤٠٧هـ.

- تقريب التهذيب، ابن حجر، تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة، ١٤١٣.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة، أبو بكر البيهقي (٤٥٨)، تح عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، والدار السلفية الكويت.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني، المكتب الإسلامي في بيروت ومكتبة المعارف في الرياض.
- السنن للإمام ابن ماجه، (٢٧٣هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- السنن للإمام الترمذي، (٢٧٩هـ)، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- السنن للإمام النسائي، (٣٠٣هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
- صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- صحيح سنن الترمذي، الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى

- ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- صحيح سنن النسائي، الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
- علم نفس الولد، جان بياجيه وبيريل إنهالدر، المنشورات العربية، سلسلة ماذا أعرف؟.
- عمل اليوم والليلة، ابن السني، (٣٦٤هـ) دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٥هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) دار التقوى.
- فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان ١٤١٩هـ.
- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان.
- المرويات الواردة في أحكام الصبيان، عبد الله بن مساعد الزهراني، دار ابن القيم ودار ابن عفان، ط١، ١٤٢٣هـ.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، دار

- الكتاب العربي، بيروت.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
 - مشكلة الحياة، زكريا ابراهيم، مكتبة مصر.
 - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية.
 - مناهج التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان ١٤١٩هـ.
 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون، دار المعرفة، بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
 - منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد، دار ابن كثير، ط٤، ١٤٢٤هـ.
 - الموطأ للإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) دراسة وتحقيق عبد المجيد زكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
 - نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، عبد الحي الكتاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
 - النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحقيق محمود الطناحي وظاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية.
 - The «What» and «Why» of Goal Pursuits: Human Needs and the Self-Determination of Behavior; Edward L. Deci & Richard M. Ryan; Psychological Inquiry; Volume 11, Issue 4, 2000;

التطبيقات النبوية في صناعة التميز
وتنمية المهارات (الدعوة والإعلام)

د. محمد عبد الرزاق إمام
جامعة طيبة - السعودية

من أبرز فقرات البحث

«الرسول ﷺ؛ هو المثل الأعلى في تطبيق كل ما دعى إليه القرآن الحكيم، من شرائع، وأحكام، وفق أعلى مقاييس التميز، والتفوق، وتعد التطبيقات النبوية هي الصراط المستقيم، والمنهاج القويم لصناعة التميز العلمي، والعملي، وتنمية المهارات الفطرية، والمكتسبة، والدعوة إلى التفوق في جميع أمور الحياة الدينية، والدنيوية، وله ﷺ الأولوية، والتقدم، والسبق في ذلك، حيث يقول في دعائه: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

تزخر التطبيقات النبوية بكثير من الشواهد والنماذج الراقية، في صناعة التميز وتنمية المهارات، تستحق أن تكون نبزاً ومعلماً، يُقتدى بها في كافة ميادين ونظم الحياة، وتوظيفها، واستثمارها في كافة التخصصات، وبالأخص مجال الدعوة والإعلام، من أجل صياغة شخصية دعاة وإعلاميين مؤصلين، ذوي ملكة علمية متميزة، وجودة في المهارات، وكفاءة في التفكير الإبداعي، والمنهجي في جميع مجالات الحياة، لاستنباط مناشط العمل الدعوي والإعلامي، والفهم الدقيق من الدلائل، والقواعد الشرعية المعتمدة للتطبيقات النبوية، فيسيرون على منهاج قويم، في الاستقراء، والاستنباط، ومعالجة قضايا الواقع في ضوءها، وقدرات مهارية، على التعامل مع المستجدات الحضارية والتطورات العالمية، وتوظيف نصوص السنة النبوية، في كافة ميادين، ومجالات الحياة، ومواكبة المعطيات الحديثة في النمو الحضاري، والرقي الاجتماعي، على أساس من الإبداع، والتميز، وبناء الثقة وتطوير الذات.

إن موضوع «التطبيقات النبوية في صناعة التميز، وتنمية المهارات»، موضوع أصيل في منظومة خدمة السنة النبوية، وأولته كلية الدراسات الإسلامية، والعربية بدبي، جل عنايتها، ورسمته في إستراتيجيتها التنموية، والحضارية، ودعت إلى تفعيله في الواقع العلمي، والعملية، والعناية بتأصيله وتفعيله، وتنميته فكرياً،

وسلوكاً، وممارسةً، ولإثراء ما كتب حول هذا الموضوع من دراسات سابقة، رغبت الكتابة فيه مستعينا بالله تعالى، وتبيان أثر التطبيقات النبوية، في تعزيز و دعم صناعة التميز، وتنمية المهارات، وكونه يمثل مقياساً لتقدم الأمة، ومعياراً حضارياً راقياً، في تحقيق الاستقرار الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي في المجتمع المسلم، وشكر الله تعالى سعي المسؤولين في الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، إدارة، وأعضاء، ونضر الله وجوههم، ورفع درجاتهم، لما يقومون به من جهود عظيمة في خدمة حديث الرسول ﷺ، والذب عن سنته، وتفعيلها في جوانب الحياة، اقتداءً بعلماء السلف الصالحين رضوان الله عليهم.

تتجلى الأهمية الكبرى للتطبيقات النبوية، في كونها تشكل منظومة متكاملة، من أسس البناء التعاوني الخير، لتنمية القدرات وصقل المهارات، وتربية القيادات الدعوية والإعلامية الفاعلة، ولها دور عظيم في غرس منابت و جذور التميز، وتنمية المهارات في الحياة الاجتماعية، وفق ضوابط ومحفزات شرعية مؤصلة؛ وإن نشر ثقافة التميز، وتنمية المهارات، وتفعيلها بقوة، من خلال هذه التطبيقات النبوية، يسهم في تعميق الوعي، لدى الفرد، والمجتمع، والأمة، وإدراك آثارها وثمراتها الجنية، ولا شك أن التميز، والإبداع، بكل ما يحمله هذا المصطلح من زخم كبير، ودلالات أخاذة، مطلب مهم لكل مسلم يحب العلو، والتفوق، والنجاح، بل هو من أسس الأهداف للأفراد والمجتمعات، والمؤسسات، والدول؛ والدعاة والإعلاميون، أحوج ما يكونون اليوم إلى معرفة أسس التميز، وتنمية المهارات، وركائزه ومكوناته في التطبيقات النبوية، ليسهموا في تشييد صرح الحضارة الإسلامية، من خلال المنابر الدعوية والإعلامية، وتحقيق المكاسب، والانتصارات لأمة الإسلام.

أسباب البحث ودواعيه تكمن في الآتي:

١- الأمة الإسلامية في هذا العصر، بحاجة ماسة إلى إبداع المتميزين من أبنائها الدعاة والإعلاميين، في شتى العلوم، والمعارف النافعة، وذلك للخروج من الذلة والضعف، والتخلف الذي ضرب عليها بجرانه.

٢- صناعة التميز وتنمية المهارات، في مجال الدعوة والإعلام من أعظم ألوان الجهاد، وأقوى أسلحته وأشدّها مضاء، في الوقت الحاضر، الذي يعنى بالتفوق، والعلو العلمي، والعملي.

٣- يتطلب مجال الدعوة والإعلام، التعامل الدقيق مع الأسباب، وإدراك علل الأشياء، وسنن التغيير وقوانين التسخير في الحياة، والمجتمع، وفي هدي السنة النبوية، والتطبيقات العملية؛ بيان لكيفية صناعة التميز، وتنمية المهارات من خلالها.

٤- أسس تنمية المهارات في التطبيقات النبوية: هي تنمية المهارات العقلية، والنفسية، والجسدية، هذه الأسس لا بد من وجودها في كل داعية وإعلامي، ولا يتصور وجود متميز بدونها.

٥- الدعوة والإعلام فرع مهم من فروع المعرفة النظرية، والتطبيقية، وهو بحاجة ملحة إلى هذا المنهج النبوي، وخصائصه، وقواعده بصورته المشرقة المستقاة من هذه التطبيقات.

وتتلخص مشكلة البحث في كون مجال الدعوة والإعلام؛ من أشد المجالات تأثيراً، وتأثراً، في ظل التطورات التقنية، والمتغيرات العالمية المتسارعة في عصرنا الحاضر، حيث يحتاج الداعية والإعلامي إلى صياغة راقية في صناعة التميز، وتنمية المهارات، والسنة النبوية المطهرة تزخر بثروة هائلة، من التطبيقات

في صناعة التميز، وتنمية المهارات في شتى المجالات، وبخاصة مجال الدعوة والإعلام، حيث لم يستثمر كثير منها، ويسعى الباحث للإجابة عن السؤال الرئيس للبحث وهو: ما أبرز التطبيقات النبوية، التي لها تأثير كبير في صناعة التميز، وتنمية المهارات (مجال الدعوة والإعلام)؟

يهدف البحث في جملته إلى:

- ١- بيان دور التطبيقات النبوية، وأثرها في صناعة التميز، وتنمية المهارات، لدى الداعية والإعلامي.
 - ٢- بناء الملكات العلمية، والعملية المتميزة، للدعاة والإعلاميين، ليكونوا قدوات صالحة، في تربية أنفسهم، وخدمة الإسلام، والعلو به على العالمين، ولكي يسهموا في تطوير مجالاتهم.
 - ٣- توظيف نصوص السنة النبوية، في كافة ميادين، ومجالات الحياة، ومواكبة المعطيات الحديثة، في النمو الحضاري، والرقي الاجتماعي على أساس من الإبداع، والتميز، وبناء الثقة، وتطوير الذات.
- وأسأل الله جل وعلا، أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله منارا يضيء للسائرين، هذا الطريق الطويل، طريق الإبداع، والتألق، والتفوق، والتميز.

التمهيد

المطلب الأول: في التعريف بمصطلحات البحث

- تعريف التميز: التميز لغة: من ميز قال الجوهري: «مزت الشيء أميزه ميذا: عزلته وفرزته يقال: امتاز القوم، إذا تميز بعضهم من بعض»^(١) وامتازوا: صاروا في ناحية، وفي التنزيل: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيَّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢) أي: انفردوا من المؤمنين، والتميز في الشيء هو «أن يكون كل نوع منه مبايناً لغيره وصائراً على حدته»^(٣).

- التميز في الاصطلاح العام هو: «التفوق الإيجابي في الحياة الشخصية، والعملية، بما يجعل الإنسان متقدماً، ومتطوراً عن غيره من الناس»^(٤)، وعرفه بعضهم فقال: «التفوق في القدرات العقلية، والتفكير الابتكاري، والاستعداد الأكاديمي، والقدرات القيادية، والفنون، والمهارات الأدائية، والبصرية»^(٥).

ويمكن تعريف التميز في الاصطلاح الشرعي بأنه: الأفراد، والتفوق، والعلو عن الغير، بصفات الإيمان، والعبادة، والأخلاق، الذي تصاغ به الشخصية الإسلامية في العلم، والعمل، وفق المنهاج النبوي.

- تعريف المهارات: المهارات لغة: من مهر، قال الفراهيدي: «والماهرُ: الحاذقُ بكلِّ عملٍ»^(٦)، وقال ابن دريد: «ومَهَرَ الرجلُ مَهَارَةً، إذا أَحْكَمَ الشيءَ، ومنه

١- الصحاح، للجوهري ٣ / ٨٩٧، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده ٩ / ٩٧.

٢- سورة يس الآية ٥٩.

٣- الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن العسكري ١ / ٨٣.

٤- دعوة للتميز، أحلام جمعة، مقال في موقع المستشار، ٢٠٠٥، ٢٠٠٤.

٥- تعريف فيلدهوسين وزملائه، انظر: أطفال عند القمة، زكريا الشريبي، يسرية صادق، ص ٢٩.

٦- كتاب العين، للفراهيدي ٤ / ٥١.

قيل: «سابع ماهر»^(١)، ويقال: «مَهَرْتُ بهذا الأمر أمَهَرُ به مهارةً: إذا صرَّتْ به حاذقاً»^(٢).

- المهارات شرعاً: عرفها بعضهم: «المهارة قدرة الفرد على القيام بعمل ما، أو تعلم شيء ما، سواء كان جسدياً أم عقلياً، بسهولة، ودقة، وبدرجة من السرعة، والإتقان مع الاقتصاد في الجهد المبذول»^(٣). وتعرف المهارة بأنها: «قدرة الشخص، على استخدام يديه، ومعارفه، ومواهبه، وموارده، وجميع خصائصه الشخصية (البدنية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية)، المميزة لإنجاز أهداف معينة»^(٤).

- تعريف الدعوة: الدعوة لغة: مأخوذة من «دعو» وتشمل معاني، ودلالات كثيرة أفاض فيها علماء اللغة^(٥)، منها: النداء، والاستدعاء، والعبادة، والسؤال، والحث، على قصده، والسوق إلى الشيء.

- الدعوة شرعاً: مصطلح الدعوة في النصوص الشرعية يطلق على أمرين: دين الإسلام، أو على سبل التبليغ ووسائل النشر، ويمكن أن نستنبط تعريفاً للدعوة، يضم أركانها الرئيسية: قيام الدعاة المؤهلين علماء، وبصيرةً، بدعوة الناس جميعاً، إلى أركان الإسلام، والإيمان، والإحسان، وفق المنهاج النبوي، والوسائل والأساليب الشرعية، الموائمة لأصناف المدعوين.

- تعريف الإعلام: الإعلام لغة: قال ابن فارس: «العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على أثرٍ بالشيء يتميِّزُ به عن غيره»^(٦)، وقال الفراهيدي:

- ١- جمهرة اللغة، لابن دريد ١ / ٤٤٧.
- ٢- تهذيب اللغة، للأزهري ٦ / ١٥٩.
- ٣- الإدارة والإشراف التربوي، رداح الخطيب وآخرون، ص ٣٧.
- ٤- مهارات الاتصال، محمد عبدالغني، ص ١٩.
- ٥- انظر بالتفصيل: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٢ / ٢٧٩، تهذيب اللغة، للأزهري ٣ / ١١٩، لسان العرب، لابن منظور ٤ / ٣٦٠.
- ٦- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤ / ١٠٩.

«العَلْمُ ما يُنْصَبُ في الطَّرِيقِ، ليكونَ علامةً يُهْتَدَى بها شِبْهُ المِيلِ. ويقال: استَعْلِمَ لي خِبرَ فلانٍ وأَعْلَمَنِيه حتى أَعْلَمَهُ»^(١). وفرق المناوي بين الإعلام والتعليم فقال: «التعلم تنبه النفس لتصور ذلك، وربما استعمل في معنى الإعلام، لكن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع»^(٢). الإعلام شرعاً: كما يقول د. حجاب: «جهد فني وعلمي مدروس، ومخطط، ومستمر، وصادق من قبل قائم بالاتصال، هيئة كانت أم جماعة أم فرداً، لديه خلفية واسعة ومتعمقة في موضوع الرسالة التي يتناولها، أو يستهدف الاتصال بالجمهور العام، وهيئته النوعية، و أفراده بكافة إمكانيات وسائل الإعلام، والإقناع، وذلك بغرض تكوين رأي عام صائب، يعي الحقائق الدينية، ويدركها، ويتأثر بها في معتقداته، وعباداته، و معاملاته»^(٣)، وعرفه بعضهم بأنه: «فن إيصال الحق للناس قصد اعتناقه، والتزامه»^(٤)، وبذلك يتضح أن المقصود بالإعلام: مجموعة الوسائل، والأدوات، التي تسهم في صياغة الفكر، وصناعة الرأي العام، وبث الأخبار.

المطلب الثاني: أهمية التميز، وتنمية المهارات في القرآن الكريم والسنة النبوية:

القرآن الكريم هو أساس الدين، وقاعدة الملة، وكلية الشريعة، في جميع الأحكام، والعقائد، والتشريعات والنظم، أنزله على خاتم أنبيائه، ورسله محمداً ﷺ، ليبين أحكامه وتفصيله بالتطبيق العلمي، والعملية النافع، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٥) قال القرطبي رحمه الله: «في هذا الكتاب من الأحكام، والوعد، والوعيد بقولك، وفعلك،

١- كتاب العين، للفراهيدي ٢/ ١٥٣ وانظر: تهذيب اللغة، للأزهري ٢/ ٢٥٤.

٢- التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي ١/ ١٨٨.

٣- مبادئ الإعلام الإسلامي، محمد منير حجاب، ص ١٣٥.

٤- نحو تأصيل للدراسات الاتصالية، سيد ساداتي ص ٥٣.

٥- سورة النحل، الآية ٤٤.

فالرسول ﷺ مبين عن الله عز وجل مراده، مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصله»^(١)، وتميز ﷺ بتفصيل كل ما أنزل الله إليه من الأوامر، والتكاليف، وأوضحه بالطريقة القولية، والعملية التطبيقية أوضح بيان، وأكملة ليحصل التفكير والتدبر، الذي هو من أجل خصائص التميز بالهداية، وبهذا البيان الكامل والشامل المراد لله تعالى، قامت الحجة واستبان المحجة لكافة جمهور المدعوين، واستحق بذلك أن يكون الرسول ﷺ أسوة حسنة متميزة، في العلم، والعمل، وكمال التطبيق قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢)، حيث جاءت التطبيقات النبوية، تجسيدا للمنهج الإلهي، في صورة دعوة عملية حية إلى منهاجه، وكافية في باب الهداية والسعادة والنجاح والفلاح، وأضحت من مستلزمات كمال الدعوة والبلاغ المبين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٤)، فالرسول ﷺ هو المثل الأعلى في تطبيق كل ما دعى إليه القرآن الحكيم، من شرائع، وأحكام، وفق أعلى مقاييس التميز، والتفوق، وتعد التطبيقات النبوية هي الصراط المستقيم، والمنهاج القويم لصناعة التميز العلمي، والعملية، وتنمية المهارات الفطرية، والمكتسبة، والدعوة إلى التفوق في جميع أمور الحياة الدينية، والدينية، وله ﷺ الأولوية، والتقدم، والسبق في ذلك، حيث يقول في دعائه: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(٥)، وفيه دعوة للمؤمنين للمبادرة

١- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٠٩.

٢- سورة الاحزاب: الآية ٢١.

٣- سورة المؤمنون: الآية: ٧٣.

٤- سورة المائدة الآية: ٦٧.

٥- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل ٢/ ١٨٥، ح ١٨٤٨، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب مَا يُسْتَفْتَحُ بِهِ الصَّلَاةُ ١/ ٢٧٧، ح ٧٦٠، واللفظ له.

إلى هذا التميز، وتنويه بأهميته، حيث إن له منزلة سامية، ومرتبة عالية مرغوبة.

ولا غرو أن يكون القرآن الكريم: هو الأساس الأول، والمصدر الرئيس، والنواة الكبرى التي انطلقت منها هذه التطبيقات النبوية لصناعة التميز الدعوي والإعلامي، ومن هذه الدلائل التي تبين أهميته، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، قال السعدي رحمه الله: «يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين، ومقوياً لعزائمهم و منهضاً لهممهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها»^(٢) والمقصود بالعلو التميز بالإيمان «وبالحجة والتمسك بالدين، والعاقبة الحميدة»^(٣)، وهي من أعظم سمات التميز التي دعي إليها المؤمنون في هذه الآية الكريمة، لأنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة، وسبب للتفوق، والنجاح، مما يدعوهم أن يكونوا دائماً في المنزلة العليا، في هذه الحياة علماً، وعملاً، ويتربوا على هذه المزية مستعينين بالله تعالى، وقد دعانا الله تعالى إلى ارتياض خلق التميز، بالرفعة وعلو الدرجة قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤)، إن صناعة التميز، وتنمية المهارات، مبدأ أصيل، ورد تنظيره وتأصيله والحض عليه، بالرفعة في الدرجات، ومنشؤها التميز الراقي في الإيمان، والعلم، والآية: فيها بشارة للمتميزين الناهضين، بتنمية مهاراتهم الإيمانية، والعلمية، والعملية، وأن الله يميزهم بالراقي في الدرجات العالية، والكرامة في الدنيا والآخرة، إن التميز قانون مضطرد، وسنة ثابتة يجب أن يعيها الداعية والإعلامي، من قوله تعالى:

١- سورة آل عمران الآية: ١٣٩.

٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي ١ / ١٤٩.

٣- مفاتيح الغيب، للرازي ٩ / ١٢.

٤- سورة المجادلة الآية: ١١.

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾^(١) «فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يجوز في حكمته أن يذركم على ما أنتم عليه، من اختلاط المنافقين بكم، وإظهارهم أنهم منكم ومن أهل الايمان، بل كان يجب في حكمته إلقاء هذه الحوادث، والوقائع حتى يحصل هذا الامتياز»^(٢)، فالتمييز له حكم، وأهداف عليا، «وعلى المسلم أن يستحضر كل ملكاته العقلية، حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث»^(٣)، ليتحقق له التمييز المحبوب، والمنجي عند الله تعالى في الدنيا، والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾^(٤)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» فميّز أهل السعادة من أهل الشقاوة»^(٥)، والآية فيها دعوة لأهمية تنمية الملكات المهارية، في التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، وأهل الحق من الدعاة والإعلاميين، أولى الناس بهذه التنمية، والتمييز، والتمييز، لما فيه من تحقيق خير عميم، ومصالحة عظيمة للإسلام، وأهله.

المطلب الأول: التمييز الدعوي والإعلامي، وتنمية المهارات في العقيدة.

أ- التمييز في قوة العقيدة، وتنمية مهارتها: إن صناعة التمييز العقدي في مجال الدعوة والإعلام، تأتي في المرتبة الأولى، في سلم أولويات التطبيقات النبوية، وذلك لأن الإيمان بالله تعالى؛ هو القاعدة الأساسية التي تبنى عليها جميع الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة، ومن المعلوم بالضرورة من الدين أنه لا سعادة، ولا خير، ولا صلاح، ولا استقامة، ولا فلاح للعباد في

- ١- سورة آل عمران الآية: ١٧٩.
- ٢- مفاتيح الغيب، للرازي ٩ / ٤٤١.
- ٣- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي ١ / ٢٣٧٠.
- ٤- سورة الأنفال الآية: ٣٧.
- ٥- أخرجه الطبري في جامع البيان، ١٣ / ٥٣٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٣ / ٧٦.

الدنيا، والآخرة، إلا بهذا الإيمان القوي، والعقيدة الصحيحة، وما من آية في كتاب الله تعالى، أو نص من حديث رسول الله ﷺ، إلا وقد اشتمل على البيان والإعلام، والدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، والتزام أصوله ومطالبه اعتقاداً وسلوكاً، وتنمية واستثماراً للمهارات، والطاقات.

والعقيدة بحسب قوتها في قلب الداعية والإعلامي، وتمكنها في النفس، ينعكس عطاؤها القوي على الجوارح والسلوك، والأعمال، إن الدعوة والإعلام مهمتان متلازمتان تحتاجان إلى التميز بصفة القوة الإيمانية، لحمل التكليف الشرعية وتبليغها للناس، وخصوصاً عند مَنْ يكون في مركز القيادة، والريادة، ومقام الإرشاد، والتوجيه، ومقام من يمتلك قوة التأثير، لذلك كان من أجل مقاصد الشريعة الإعداد القوي المتميز في جميع الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١)، «أمر الله تعالى المؤمنين، بالتماس أسباب القوة المادية إلى جانب القوة الروحية التي عمر الإسلام قلوبهم بها»^(٢)، وهي قوة العقيدة، ورسوخ الإيمان، وبهذا يدرك الداعية والإعلامي «أثر الدعاية الحسنة في هذه الآية الكريمة»^(٣)، والتي ترشد إلى ضرورة تحقيق التوازن في جميع أنواع القوي المادية، والقيمية، وأهمية أن يتسلح بهما حملة الدعوة والإعلام، فقوة الإيمان لها تأثيرها، في ثبات الدعاة والإعلاميين وقوة تصميمهما، والتزامهما بالمنهاج النبوي القويم، واستمساكهما بأسباب القوة المتاحة المشروعة، والحديث في جميع الوسائل، والأساليب، والاجتهاد في تعلم تلك المهارات وتنميتها علماً وعملاً، مستعينين بالله تعالى في الإفادة من معطيات العلوم، والفنون، والصناعات والحدائق فيها، لمجابهة تحديات وسائل الدعاية والإعلام المفسدة، وبخاصة في عصر عولمة الاتصال والإعلام المتقدم، وسيطرته

١- سورة الأنفال الآية: ٦٠.

٢- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥ / ٦٦٥.

٣- أضواء البيان، للشنقيطي ٨ / ٢١.

من قبل دعاة الباطل، حيث كسرت فيه حواجز الزمان، والمكان، وأضحى مؤثراً في اجتذاب النفوس، وصياغة الأفكار وبناء الشخصيات، وتشكيل القناعات العقيدية، وتهميش الخصائص النفسية، وقد جاءت تطبيقات الرسول ﷺ، في الدعوة إلى هذه القوه بجميع عناصرها، وأنواعها، بطرق متنوعة، وأصبح لها أثرها البالغ في صناعة التميز المحبوب والخير، وهي من صفات الكمال التي يحبها الله، كما قال ابن القيم رحمه الله: «من وافق الله في صفة من صفاته، قاده تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربه، وأدنته وقربته من رحمته، وصيرته محبوباً له»^(١)، واستخدم الرسول ﷺ أسلوب الترغيب، حيث يدعو إلى صناعة منهج التميز في قوة الإيمان والعقيدة. كما في قوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢)، إن أركان الدعوة والإعلام، بحاجة إلى المؤمن القوي في إيمانه، وعلمه وعمله وبدنه، الذي يحمل علو المهمة، وتنظم في شخصيته سمات التكامل الروحي، والمادي، فارتقى رتبة الإحسان بعد الإيمان، واجتمعت فيه صفات التميز بالعقيدة الصحيحة، والعبادة القويمية، والعلم النافع، والعمل الصالح، وحرى بالداعية والإعلامي أن يحرصا على هذا التميز الفاعل والمؤثر، وينميان فيهما جوانب قوة الشخصية والإرادة، مستفيدين من قدرة الرسول ﷺ، في توظيف الطاقات وتنمية المهارات، للمؤمن القوي في شخصيته، «فكما كان رسول الله ﷺ، الخبير بتجنيد بعوث الحرب، وبعوث الاستطلاع، كان خبيراً كذلك بتجنيد كل قوة في يده، متى وجب القتال، إن كانت قوة رأي، أو قوة لسان، أو قوة نفوذ، فما نعرف أن أحداً وجه قوة الدعوة

١- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، ص ١١٦.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة ٨/ ٥٦، ح ٦٩٤٥، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا غلبه أمره ٩/ ٢٣٠، ح ١٠٣٨٢.

توجيهًا أشد، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام»^(١)، والقوة من الصفات التي دعي إليها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وامتازوا بها، كما قال تعالى: ﴿يَجِيئُ حُذَّالِكِتَبَ بِقُوَّةٍ﴾^(٢)، وإن تضافر القوة بأبعادها العقلية، والقلبية، والجسدية، والمهارية، في جميع أصول الدعوة والإعلام، وتنمية ملكة الجد والحرص، ومنتهى النشاط والطاعة لأوامر الله واجتناب نواهيه، هي التي تقنع بدعوة الحق، ودعوة الحق وحدها، لا يمكن أن تنتصر بغير قوة تسندها، وطاقة فاعلة تديرها، وإن «قوة الدعوة في قوة دعائها، وثباتها في ثباتهم، وقدرتها على غزو قلوب الناس من قدرة دعائها على حل مشكلاتهم كل مشكلاتهم، ولا يمكن أن نرجو نصرا في معركة ما، تخاذلت همتنا فيها عن استعمال نفس السلاح، الذي يستعمله أعداؤنا، أو استعمال ما هو أفضل منه»^(٣)، وفيما يتعلق بقوة وتميز «النشاط الإعلامي، فقد غدا من لوازم الحرب الناجحة في عصرنا، فهو لازم لتقوية الروح المعنوية للمجاهدين، وزرع الثقة والأمل في النفوس، وبث الرعب في قلوب الأعداء، وقد يكون النصر بالرعب، وهو لازم لتجنيد الرأي العام العالمي للوقوف بجانبهم»^(٤)، وقد وظف الرسول ﷺ سلاح الإعلام في نصرته الدعوة، وأهلها.

ب- التمييز في العزيمة القوية، وتنمية مهارتها: ضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة، في تميزه بالعزيمة القوية، والثبات في دعوته إلى عقيدة التوحيد، ومن شواهد ذلك التميز، قوله ﷺ لعنه أبو طالب - حين عرض كفار قريش على ابن أخيه مساومته على الدعوة بالمال، والملك والنساء - فقال ﷺ: «يَا عَمَّ وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي، عَلَيَّ أَنْ أَتْرِكَ هَذَا

١- عبقرية محمد ﷺ، عباس محمود العقاد، ص ٦٠.

٢- سورة مريم، الآية ١٢.

٣- (٣٠) طريقة لخدمة الدين، رضا أحمد صمدي، ١ / ٩٤.

٤- قرارات المجمع الفقهي الإسلامي للرابطة مكة، ١ / ٤٧.

الأمر، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتَهُ»^(١)، فهذه صورة من إصرار النبي ﷺ على دعوته، في اللحظة التي تخلى عنه فيها عمه حاميه، وكافيه، وآخر حصن من حصون الأرض، يمنعه المتربصين به المتدامرين فيه، هذه صورة قوية رائعة جديدة جدة هذه العقيدة، قوية قوة هذه العقيدة^(٢)، وهذا التطبيق النبوي يجب أن يستثمره أهل الدعوة والإعلام، في التميز القوي الواضح، واليقين الراسخ على المعتقدات والمبادئ الإيمانية، وإعلاء كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل، والوعي والاطمئنان: بأنهما حقاً على عقيدة ثابتة راسخة رسوخ الراسيات الشامخات، مآلها إلى النجاح والفلاح والتفوق، وهي التي تبعث على الأقوال والأخبار الصادقة، والأعمال الراشدة والسلوكيات الحميدة، وقطع أطماع دعاة الباطل، وصد جميع أساليبهم ووسائلهم السيئة للنيل من أصول العقيدة، ومن الدروس المستفادة: أن رسالة الداعي والإعلامي يجب أن تبنى على الإخلاص، والصدق، والصبر، والشجاعة بلا ضعف، ولا مدهانة، ولا تغتر بزخارف الدنيا وزينتها، ليتحقق لها النجاح الفريد، وفي الحديث تنمية مهارة العزيمة، وتقويتها للوقوف أمام التحديات، وقد أقام النبي ﷺ في صناعة التميز سمة التوازن بين القوة، والأخلاق، كما في حديث أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣)، إن الداعية والإعلامي بهذه العزيمة الراسخة، واليقين الراسخ لا يزيدهما ذلك إلا إعلاناً بالدعوة، وتصميماً على إظهارها، وإشهارها، والنداء بها في مجامع الناس، عبر جميع وسائل الإعلام والاتصال، والقائد

١- أخرجه الطبري في تاريخ الأمم والملوك، ١/ ٤٨٠، والبيهقي في دلائل النبوة، ٢/ ١٨٦، ١٨٧، وله شاهد مختصر في مسند أبي يعلى الموصلي ٦/ ١٩١، ح ٦٧٧١، وقال الهيثمي: ورجال أبو يعلى رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد ٦/ ١٤، ١٥. قال الألباني للحديث طريقة أخرى بسند حسن، السلسلة الضعيفة، ٢/ ٤١٠.

٢- في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٦٠.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب ٥/ ٢٢٦٧ ح ٥٧٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٨/ ٣٠ ح ٦٨٠٩.

الناجح هو الذي يُتقن فن الإصغاء، ولا يُمضي الوقت في تبكيت الأتباع والتنظير عليهم، والذي يُتقن فن الإصغاء؛ ويدرك مفتاح التميز، ويستطيع اتّخاذ القرار السليم، فتتحقق الأهداف، فيُحبُّه أتباعه ويطيعونه.

ج- التميز الأخروي، وتنمية المهارت الشخصية المتميزة: ويلفت النبي ﷺ

الأنظار بأسلوب الترغيب، إلى أن التميز كما هو حاصل في الدنيا، يتحقق أيضا في الآخرة حيث يتميز المؤمنون الموحدون، بشفاعة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَيَّزَ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، قَامَتِ الرُّسُلُ فَشَفَعُوا، فَيَقَالُ: أَذْهَبُوا فَمَنْ عَرَفْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ قِيرَاطٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرَجُوهُ»^(١)، ومما يستفيدة الداعية والإعلامي من هذه التربية النبوية، قوة الأمل، والتفاؤل، وعدم القنوط، واليأس، والتنبيه إلى مسؤولية نصح الجمهور، وتذكيرهم وتوعيتهم، بنتائج التميز في المعاد بعد تميزهم في المعاش بالإيمان، مما يدل على أهمية إخلاص التوحيد، وتنمية الأمل في نفوس المدعوين، وشحذ هممهم، لتخطي عوائق المعاصي والذنوب، بالتوبة، والإنابة، وعدم الإصرار على الكبائر، لتفهم هذه الشفاعة، والطمع في رحمة الله وشفاعة الشافعين، «ويشرق التميز في حياتهم، فلا يأس عند أهل التميز من روح الله ولا من رحمته ومغفرته مهما كانت الذنوب، ولكن عمل، وجهاد، ونية، حتى يتحقق النجاح والتقدم، ويحصل التميز والإبداع»^(٢)، ولون آخر من صناعة التميز في الآخرة، وهو رفعة الدرجات في الجنة، وهذه الدرجات متفاضلة تفاضلا عظيما، وأولياء الله المؤمنون المتقون، في تلك الدرجات والمنازل بحسب تميز إيمانهم وتقواهم، وعملهم في الدنيا،

١- أخرجه الإمام أحمد بن حنبل، في مسنده، ٣/ ٣٢٥ ح ١٤٥٣١، وابن حبان في صحيحه ١/ ٤٠٩ ح

١٨٣، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات.

٢- صناعة التميز، محمد الياحي، ص، ٦٦.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءُونَ، أَهْلَ الْغُرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءُونَ الْكُوكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرَبِ، لَتَفَاضِلَ مَا بَيْنَهُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١)، قال القرطبي رحمه الله: «لم يذكر عملاً ولا شيئاً، سوى الإيمان والتصديق للمرسلين، وذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ، وتصديق المرسلين، من غير سؤال آية، ولا تلجلج، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان إلا التصديق الذي للعامة! ولو كان كذلك، كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات، وأرفع الدرجات وهذا محال»^(٢)، ويرغب النبي ﷺ في الآخرة، ويبشر بنعيمها بأسلوب التشويق والتحبيب، بوصف يبلغ يوجب الرغبة العظيمة فيها، وتحصيل هذه الدرجات الرفيعة؛ التي هي نتيجة مترتبة لعربون التميز في الدنيا، ألا وهو كمال الإيمان بالله ورسوله، وتصديق المرسلين، والناس يتميزون يوم القيامة بعقد القلوب وعمل الجوارح من الأقوال والأعمال، قال الترمذي: «أراد به إيمان الصديقين، لا إيمان المخلطين من الموحدين»^(٣). وهذا الأسلوب النبوي، له تأثير في صقل أساليب الدعوة والإعلام، وإثارة همم المخاطبين، وشحن عزائمهم، لتنشر صدورهم، وتنطلق بعزيمة وثابة، نحو اغتنام الباقيات الصالحات، إن أساليب التشويق والتحبيب؛ هي من فنون وسائل الدعوة والإعلام، ومن المهارات المحبذة، التي يجب أن تستثمر لجذب الجمهور إلى التميز، في رفعة الدرجات لأهل عليين، وعلى الدعاة والإعلاميين، تشجيع المؤمنين لهذا التسابق المغتبط عليه، واستشعاره والتفكير فيه، وتفعيله كما وكيفاً.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة ٣/ ٣٠٨٣ ح ١١٨٨ ومسلم،

في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة ٤/ ٢١٧٧ ح ٢٨٣١.

٢- التذكرة في أحوال الموتى، للقرطبي، ٢/ ١٠١.

٣- نوارد الأصول في أحاديث الرسول، للترمذي، ٣/ ٩٣.

المطلب الثاني: التميز الدعوي والإعلامي، وتنمية المهارات في العبادة

ووردت التطبيقات النبوية متميزة، في العبادة شكلاً، وجوهرًا، ومضموناً، سالكةً نهج القرآن، في بناء منظومة التميز، بدءاً بتحويل القبلة إلى الكعبة، تمييزاً لعبادة المسلمين وتوجههم، عن عبادة الكفار وتوجههم، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾^(١)، وفي هذه الدعوة العملية، تنويه بالثبات على منهج الحق، وتنمية مهارة الالتزام العملي المتميز، في التطبيق لشعائر العبادة.

أ- صناعة التميز في الوسطية، وتنمية مهارات الاعتدال: إن مما ينبغي أن يُعنى بنشره، وتبليغه، وإعلانه، في مجال الدعوة والإعلام، ثقافة الوسطية، وفي التطبيقات النبوية نماذج فريدة، اشتملت على صناعة التميز الوسطي في العبادة، وغيرها من أمور الحياة، بشتى وسائل الدعوة والإعلام الشخصي، والجماهيري، عن أنس رضي الله عنه قال: «جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنِ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَانَهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلَا أَفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ، اللَّهُ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ، وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢)، وهكذا نجد خاصية الوسطية، من أبرز محاسن التطبيقات النبوية، وسمة عالية في مميزاتها، حيث يربي النبي ﷺ أصحابه، على الاعتدال، والوسطية،

١- سورة البقرة الآية: ١٤٤.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب التَّزْوِجِ فِي النِّكَاحِ ١٩٤٩/٥ ح ٤٧٧٦ ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ ص ٤/١٢٩، ح ٣٤٦٩، والنسائي في سننه، كتاب الصيام، صوم يوم وإفطار يوم، ٤/٢١٠، ح ٢٣٩١، واللفظ له.

والبعد عن الغلو والتشدد، والقصد في العبادة بأسلوب حكيم، وفي تناسق بديع بين أمور العبادة، والحياة، والنبى ﷺ بهذا التطبيق يرسم معالم الوسطية، والاعتدال، التي هي وسام شرف، وتميز لهذه الأمة، «بكونها أمةً وسطا تقوم على جادة الاعتدال في العقائد، والأخلاق، والأعمال، وتسعى في إصلاح البشر بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»^(١) ومجال الدعوة والإعلام، هو أولى المجالات، للتميز بهذه الوسطية في الدين، وتنمية هذه المهارات، وتفعيلها في جميع أصوله، وأركانه، وأعماله، وقد تجلت مظاهرها في العقيدة، والشريعة، والسلوك، والأخلاق، جمعا بين مطالب الحياة الدنيا بإعمارها، ومطالب الآخرة بالطاعات المعتدلة، وتتسم قمة التميز المتوازن، والمعتدل، في مراعاة الطبيعة البشرية، وبناء العقيدة في المسلم، بناءً، يتسم بالدقة، والتناسب، والتوازن بلا إفراط ولا تفريط، ولا اعوجاج، فكل عبادة يؤديها المسلم؛ تحقق له توازن منسجم في حياته، وجميع مناشطه اليومية، وتوازن في علاقاته الاجتماعية، وتوازن بين روحه وجسده، وقلبه، وعقله، ونفسه، وجميع مداركه وتصرفاته، وذلك في اعتدال، وتناسب كامل، بلا غلو ولا تقصير.

وتتجلى صناعة التميز المعتدل الموزون، بين هذه الجوانب، كلها في وصية النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، فقال: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَلَا تَفْعَلَنَّ، نَمْ وَقُمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِعَيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُؤُوسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُؤُوسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢). وفي هذه الوصية تتجلى خصيصة التوازن الوسطي الواضح، في إعطاء كل ذي حق حقه، بتوازن فريد بين مطالب الروح

١- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١/ ١٣٥.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الادب، باب حق الضيف، ١٩٤٩/٥، ح ٥٧٨٣ ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استخباب النكاح، ٣/ ١٦٥، ح ٢٧٦٩، والنسائي في سننه، كتاب الصيام، صوم يوم وإفطار يوم، ٤/ ٢١٠، ح ٢٣٩١، واللفظ له.

والجسد، وبين حقوق الدين، والدنيا، وأمور الدنيا والآخرة، وبين حقوق النفس وبين حقوق الآخرين، في وسطية، وحكمة، واستقامة، واعتدال، وإنصاف.

ب- التميز بالإخلاص في العبادة، وتنمية معاني البراءة من العبادات الشركية: حرص النبي ﷺ، على تحقيق أعظم أهداف التميز في القرآن، لدين الإسلام، فلا يخالطه بشيء من دين الشرك، متبعا قول الحق تعالى: ﴿لَا آعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(١)، قال ابن كثير رحمه الله: «من جهلهم دَعَوْا رسول الله ﷺ، إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية»^(٢)، وقال ﷺ قوله الفاصلة (معاذ الله أن أشرك به غيره)^(٣)، وفيه تعليم النبي ﷺ أمته، على أهمية الثبات والاستمسك المكين بدعوة الحق، وأسلوب بديع لتنمية الإرادات باليقين، والصبر، قال سيد قطب رحمه الله: «إجمال الحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه، والتمييز الذي لا اختلاط فيه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ مفاصلة كاملة شاملة، وتميز واضح دقيق، ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، وطبيعة الطريق، وهذه المفاصلة، بهذا الوضوح ضرورية للداعية [والإعلامي] وضرورية للمدعوين، إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل، ثم انحرفت عنها، ذلك أنها تظن بنفسها الهدى، في الوقت الذي تتعقد انحرافاتهما وتتلوى! واختلاط عقائدها، وأعمالها وخلط الصالح بالفساد فيها، قد يغري

١- سورة الكافرون الآية: ٢.

٢- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٨/ ٥٠٧.

٣- أسباب النزول، للواحدى ١/ ٣٠٧، وانظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للنيسابوري ١٠/ ٣١٥.

الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها، إذا أقر الجانب الصالح، وحاول تعديل الجانب الفاسد، وهذا الإغراء في منتهى الخطورة! إن الجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام، والفارق بينهما بعيد، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته، وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية، وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصوراً، ومنهجاً، وعملاً، وتميز هذه الصورة في شعور الداعية: هو حجر الأساس، وأنه ليس هناك أنصاف حلول، ولا ترقيع مناهج، إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان، والتميز الكامل عن الجاهلية»^(١)، وبهذا المنهج النبوي، يجب أن يتميز نظام الدعوة والإعلام عن جميع نظم الدعوة والإعلام الأخرى، ويستقى تصوراتها وقيمه، وعقيدته، وشريعته، كلها من الله وحده لا شريك له، في كل نواحي الحياة، وأنماط الفكر، والسلوك، وعليه تركز أسسه، ووظائفه، وفي ضوء ذلك يتم تنمية المهارت، وصناعة القدرات، وتحسين وإثراء البرامج المرئية، والمسموعة، وأساليب الاتصال الحديثة، ولقد طبق النبي ﷺ الداعي إلى الله بإذنه، ما أمره ربه من صناعة هذا التميز في الدين كله، وهو درس بليغ في وجوب تميز مجال الدعوة والإعلام، وانفراد كافة أنشطته، ومهامه برابطة عقيدة الولاء والبراء؛ لأنها من أقوى وشائج الإيمان، وأوثق عراه، ومن الأسس التي يقوم عليه بناء شخصية المسلم بعامته، والداعية والإعلامي على الخصوص، وإن عليهما مسؤولية الدعوة إلى ذلك بالحكمة، والموعظة الحسنة، في أسلوب التبليغ، وإعلان المفاصلة الكاملة، في جميع نظم الإسلام، بأسلوب مميز يتسم بطابع قوة الحججة، والبرهان الشرعي، والعقلي.

ج- التميز في أداء السنن، والنوافل، وتنمية المهارات فيها: شرع الله تعالى السنن، والنوافل لحكم عظيمة، وفوائد نفيسة، منها المحافظة على الفرائض

١- في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٦/ ٣٩٩٣.

وتعظيم أمرها، وجبراً لما ينقص منها بطريق الخطأ والسهو، وتسهم في صناعة التميز فيها بإخلاص وإتقان، والتطبيق النبوي يؤكد هذه المعاني، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَطَعَامٍ صَنَعْتَهُ فَأَكَلَ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: «قَوْمُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ»، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبَسَ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ وَالْعَجُوزُ مِنْ وِرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ»^(١).

والمحافظة على أداء النوافل ضرورة شخصية للداعية والإعلامي؛ لأنها من تمام المحافظة على الأصول، والفرائض في جميع الأعمال الدينية، والدينية، وفي هذا التطبيق النبوي الشريف تنمية «الشعور بالتميز، الذي يعطى للمسلم في نفسه دافع الدعوة لغيره، والتهجد مصدر أساسي لهذا الشعور، حيث إن هذه الصلاة لا يقوى عليها إلا من تفرّد و تميز بالعزم، والقوة، وقد قصد النبي ﷺ أن يؤكد شعور التميز من خلال صلاة العشاء، فأخبرها إلى أن قال عمر بن الخطاب: «نَامَ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِأَهْلِ الْمَسْجِدِ حِينَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مَا يَنْتَظَرُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ غَيْرِكُمْ»^(٢)، وفي رواية البخاري: «أَبَشُرُوا! إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرِكُمْ، أَوْ قَالَ مَا صَلَّى هَذِهِ السَّاعَةَ أَحَدٌ غَيْرِكُمْ»^(٣)، فوضح أن تميز الصحابة بالصلاة، في وقت لا يصلّى فيه أحد غيرهم كان هدف رسول الله ﷺ من تأخير الصلاة، وصلاة

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على الحصير ١/ ١٤٩، ح ٣٧٣، ومسلم في

صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز الجماعة في النافلة ٣/ ٣٩٨، ح ٦٥٨.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب وقت العشاء وتأخيرها ٢/ ١١٦، ح ١٤٧٩.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل العشاء ١/ ٢٠٨، ح ٥٥٥.

التهجد بوقتها من الليل تحقيق لهذا الهدف»^(١)، ومن مقاصد أمر الرسول ﷺ، بصلاة السنن، والنوافل، في البيوت أمام الأهل والأولاد، تزكيتها، وتطهيرها، وإشاعة الخير فيها، وإثارة ميول الاقتداء، والصلاح في ميادين المجتمع، وتنمية لمهارة الأطفال في أداء العبادة بإتقان، وتدريب، وتعويد لهم على حب الطاعات، وتهذيب سلوكياتهم.

د- صناعة التمييز في التسامح المشروع والممنوع: لقد حرص النبي ﷺ، على بيان التسامح المشروع، وتميزه عن التسامح الممنوع، ونجد تطبيق ذلك في قصة وفد ثقيف: فقد جاؤوا إلى النبي ﷺ، وأنزلهم في المسجد، وبنى لهم خياماً؛ لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، فمَكَثَ الْوَفْدُ أَيَّامًا يَخْتَلِفُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّبِيُّ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدٌ يَالَيْلُ: هَلْ أَنْتَ مُقَاضِينَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى أَهْلِنَا وَقَوْمِنَا؟ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ إِنْ أَنْتُمْ أَقْرَرْتُمْ بِالْإِسْلَامِ قَاضِيَتِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا قَضِيَّةَ، وَلَا صَلَاحَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»، قَالَ عَبْدٌ يَالَيْلُ: أَرَأَيْتَ الزَّنَا؟ فَإِنَّا قَوْمٌ عَزَابٌ بَعْرَبٍ، لَا بُدَّ لَنَا مِنْهُ، وَلَا يَصْبِرُ أَحَدُنَا عَلَى الْعُرْبَةِ. قَالَ: «هُوَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ قَالَ: أَرَأَيْتَ الرَّبَا؟ قَالَ: الرَّبَا حَرَامٌ قَالَ: فَإِنَّ أَمْوَالَنَا كُلَّهَا رَبَا، لَكُمْ رِءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ الْخَمْرَ؟ فَإِنَّهَا عَصِيرُ أَعْنَابِنَا، لَا بُدَّ لَنَا مِنْهَا. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَهَا، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ﴾، قَالَ: فَارْتَفَعَ الْقَوْمُ»^(٢)، فقد تميز تعامله ﷺ مع الوفد، بالتسامح المشروع المتمثل في استضافتهم في المسجد، وبناء الخيام لهم،

١- في النفس والدعوة، رفاعي سرور، ص ٢٦٥
 ٢- أخرجه ابن شبة، في أخبار المدينة ١ / ٢٧١ ٨٧٤، والواقدي، في المغازي ١ / ٢٠٧.

وهو تكريم لهم بالتعامل الظاهري الحسن؛ ليستألفهم للدخول في الإسلام،
 وحينما طلبوا التنازل عن بعض المحرمات، رفض التسامح معهم في ذلك،
 وأعلن التميز الفاصل، وعدم التنازل لهم، مبيناً حرمتها بأدلة القرآن الكريم،
 هذا وإن فقه الداعية، والإعلامي للتمييز المطلوب، في أنواع التسامح، من
 ضرورات العصر الذي نعيش فيه، حيث تشابكت العلاقات والمصالح،
 وتقاربت المسافات بين الدول المسلمة، وغير المسلمة، والعلم بأهميته يفتح
 آفاقاً واسعة، وأبعاداً نافعة، في حسن التصرف، ومنهجية التعامل مع غير
 المسلمين، وكيفية استقطاب هذه الفئات إلى دين الإسلام، ويسهم في تحقيق
 عولمة الإسلام وانتشاره في أقطار الأرض، باستغلال عالمية الدولة الإعلامية
 الواحدة في هذا العصر الحديث، كما أنه يحمي الداعية، والإعلامي، من
 الذوبان في العولمة، التي يهدف إليها أعداء الإسلام، وتستدعي التنازل
 والتسامح في فرائض الدين، وشرائعه، وانصهار شعوب العالم أجمع في
 بوتقة واحدة، بدون تميز للهوية الدينية، والفكرية، والشخصية للمسلم، مما
 يستلزم ضرورة أن يتفقهها بدراسة هذه التطبيقات النبوية التي تعينهما على
 معرفة التميز الصحيح للتسامح المشروع، والفرق بينه وبين الولاء، فالتسامح
 هو: «البر وحسن التعامل، وهو سلوك، وعمل، ومكانه الجوارح، والولاء،
 والبراء معتقد ومكانه القلب»^(١)، وضبط هذا التميز؛ يحقق مصداقية
 الاقتداء بالنبي ﷺ، ودقة التعامل في العلاقات، والتعاملات، والتصرفات،
 وتنزيل هذه النصوص الشرعية متسقة مع الواقع ومطابقة له والبعد عن
 الازدواجية، أو التضارب.

المطلب الثالث: التميز الدعوي والإعلامي، وتنمية المهارات في الأخلاق:

أ- احتوت التطبيقات النبوية، على قيم عظيمة، وكنوز أخلاقية مميزة، جديرة

١- التسامح في الإسلام، زيد عبدالكريم الزيد ص ٢١.

أن تكون ضمن مناهج وبرامج، وخطط، الدعوة والإعلام، إذ الأخلاق: تعتبر مقصداً من مقاصد البعثة المحمدية، بل من أبرز أهدافها وغاياتها، كما قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(١)، قال ابن عبد البر رحمه الله: «ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل فبذلك بعث ليتممه ﷺ»^(٢)، وتشتمل التطبيقات النبوية على صناعة التميز الأخلاقي؛ والتي يتحصل منها تمام مكارم السلوك، ومعالي الشيم، ومحاسن الأعمال، وكمال الآداب، وجميلها، والمهارة في تهذيب الأخلاق، وتركية النفس بالمجاهدة والرياضة، ومجال الدعوة والإعلام من أهم المجالات التي يجب أن تصطبغ بهذه المقاصد الأصلية من صالح الأخلاق، وجميل الآداب، ومحاسن الفضائل، كالإخلاص، والأمانة، والوفاء، والصدق؛ وأدب الحديث، وسلامة الصدر من الأحقاد، وقوة العزيمة؛ والحلم، والأناة، والقصد، والعفة، والطهارة والحياء، والعدل، والسخاوة، والإخاء، وقد علمنا ﷺ بتطبيقه الفعلي، والقولي كيفية التخلق، بها وأرشدنا إلى أساليب التحلي بها، والتفوق فيها، فعَنْ طَلْحَةَ بِنِ كَرِيمِ الْخَزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرِيمٌ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»^(٣)، والحديث فيه تحريض للنفس لتمييز بالأخلاق الزكية، وتنميتها بالأخلاق الشرعية العالية، ولتتربى على الخصال الدينية المرضية، والمحبوبة عند الله، والتخلي عن حقيرها، وردئها، والنبى ﷺ يستحث على علو الهمة، والحرص على، «إعزاز النفس، وإكرامها، وتعظيم

١- أخرجه البخاري في، الأدب المفرد، ١/١٤٣، ح ٢٧٣، والحاكم في المستدرک، ٣/٥١٤، ح ٤٢٧٨، والإمام أحمد في مسنده ٩/٥٦، ح ٨٩٣٢، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ١/١١٢، ح ٤٥.

٢- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، ٢٤/٣٣٤.

٣- أخرجه الحاكم في المستدرک، ١/٢١٦، ح ١٥٧، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق، ص ٢، والخراطي في مكارم الأخلاق، ص ٢٧، وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح، انظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، للحداد ٤/١٩١٧، ح ٣٠٣٦.

مالكها، فيتولد من ذلك شرف النفس، وصيانتها عن الرذائل والدنايا، والمطامع القاطعة لأعناق الرجال، فيربأ بنفسه أن يلقيها في ذلك»^(١)، وهذا ينشئ في الداعية والإعلامي ملكة التدرب على مهارة التمييز بين محاسن الأخلاق، ومساوئها، بتنشيط نفوس المدعويين، لتتنافس في هذه الأخلاق الربانية، وتنفر من مساوئها، والسعي الجاد لتغيير الأحوال الفاسدة في شتى مجالات الحياة، وتبديلها بأحوال وسلوكيات صالحة، وفق أساليب تربوية تخاطب العقل، وتنبه القلب، كما ورد عن القاسم بن محمد، أنه سئل عن الغناء فقال: «أنهاك عنه وأكرهه» قال: أحرام هو؟ قال: «انظر يا ابن أخي، إذا ميز الله الحق من الباطل في أيهما تجعل الغناء»^(٢)، فاستخدم مهارة الاستفتاء، لينبهه بخطورة الغناء، حيث إن له تأثير، وضرر في إفساد الأخلاق والسلوك.

ب- صناعة التمييز الأخلاقي، بالمجاهدة، والمهارة في اكتسابه: إن من وسائل تحقيق التمييز الأخلاقي، المجاهدة الحقة، والمهارة في اكتساب مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وهو ما دعا إليه القرآن الكريم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(٣)، والنبى ﷺ بعث بتكميل ما يحتاجه البشر، من أمهات مكارم الأخلاق، وغرسه في نفوسهم، وتثبيته في جوارحهم، وسلوكياتهم، بشتى الطرق، والأساليب المهارية، قال الغزالي رحمه الله: «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال، التي يقتضيها الخلق المطلوب»^(٤)، وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً، تترسخ وتصير ملكةً وسجيةً مطبوعةً، بالتعويد والمداومة، يقرر ذلك الراغب الأصفهاني فيقول: «كل متعاط لفعل من الأفعال النفسية، فإنه يتقوى فيه بحسب الازدياد منه، إن

١- مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني، إعداد: معتر أحمد، ١ / ٢٦١.

٢- حلية الأولياء لأبي نعيم، ٤٣٠، ٨ / ٦٢.

٣- سورة الشمس الآية ٩.

٤- إحياء علوم الدين، الغزالي ٣ / ٥٨.

خيراً فخيئراً، وإن شراً فشرأً، وإن التخلق معه استثقال، واكتساب ويحتاج إلى بعث، وتنشيط من خارج، والتخلق والتشبه بالأفاضل ضربان: ضرب محمود، وذلك ما كان على سبيل الارتياض، والتدريب، ويتحراه صاحبه سرأً، وجهراً، على الوجه الذي ينبغي، وبالمقدار الذي ينبغي، وضرب مذموم، وذلك ما كان على سبيل المراءاة.

وجميع الفضائل النفسية ضربان: نظري، وعملي، وكل ضرب منهما يحصل على وجهين: أحدهما بشري، يحتاج فيه إلى زمان وتدريب، وممارسة، ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة، والثاني يحصل بفضل إلهي^(١)، ومن التطبيقات النبوية، في تنمية الأخلاق ابتداءً، لتترسخ طبعاً، حديث معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَعْلَمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢)، دعوة إلى التميز في الفقه، والعلم، والأمر بهما، والحث عليهما، والترغيب فيهما، بشتى وسائل التمرن، وآليات التدريب؛ من التعليم، والحفظ، والإتقان، والتفهم، والمذاكرة، والمدارسة، والفكرة، والمناظرة، بقصد واجتهاد في الطلب، وعزم على تخصيص الشيء بالفعل والقول، ليكون سجية له وطبعاً له، فإذا حاول وجاهد نفسه، حصل له ما يريد من التفوق، والعلم إنما يكون بتنمية مهارة التعلم، والطلب من أسباب التميز فيه، قال الشافعي رحمه الله: «الطبع أرض، والعلم بذرة، ولا يكون العلم إلا بالطلب، فإذا كان الطبع قابلاً، زكا ريع العلم، وتفرعت معانيه»^(٣)، والعلم ثمرة، يجني من ورائها، تعلم فضائل الأخلاق، والاجتهاد في التخلق بها، وتطبيقها عملياً، والعلم

١- الذريعة إلى مكارم الشريعة، للأصفهاني، ٥٤، ٥٨.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ٣٧/١، والطبراني في المعجم الكبير، ١٤/٣٢٤، ح ١٦٢٩٦

٣- أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه، ١/٤٤٩، ح ٨٣٥، والقاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ١/١٤٢.

بمساوئ الأخلاق لاجتنابها، ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، ومالم تواظب عليه مواظبة من يشق إلى الأفعال الجميلة، ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة، ويتألم بها كما قال ﷺ: «وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي، فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وهذه الأخلاق المكتسبة، من جنس الملكات الصناعية، التي تصير بتكرار الأفعال، صفات راسخة في النفس، ثابتة في القلب يصعب خروجها، والنبي ﷺ ينبهنا إلى هذه القاعدة فيقول: «إِنَّمَا الْعُلْمُ بِالْتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالْتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّى الشَّرَّ يُوقَهُ»^(٢)، فأرشد ﷺ إلى مراقبي الفلاح، والصلاح، والكمال، لتنمية ما أودع الله في النفوس من الخير والفضيلة، في الفطرة، بالمران والدربة، التي تدفع إلى أحسن الأخلاق، وأعلاها منزلة وأجلها سلوكاً وهدياً صالحاً، والحلم وإن كان خلقاً جبلياً، إلا إنه يُمكن اكتسابه، بالتعويد والتربية، وتدريب النفس عليه بالتدرج، وهكذا كل خلق جميل، وعلم نافع، محتاج فيه إلى إيجاده، وتجويده، وتزيينه دنيوياً كان، أو أخروياً، ليصبح بكرم السجية، وبراعة القريحة وجودة المهارة والملكة الجميلة، قيمةً من القيم الاجتماعية، ومقوماً من مقومات الشخصية المسلمة، ومعياراً للمروءة والجمال، ومن أكبر العوامل المساعدة على تحقيقه، وتفعيله؛ أصول العقيدة والإيمان، التي تعد روافد توجيه، وتزكية لها، ومدارج كمال وسمو ترتقي في معاليها الأخلاق، وتسير في محمود طرائقها، وشريف خصالها، هذا وإن ميدان الدعوة والإعلام، من أهم الميادين، التي تحتاج إلى نشر هذه الفضائل الخلقية، وتبنيها صناعةً

- ١- أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء ٧/ ٦١، ح ٣٩٤٠، والحاكم في المستدرک، ١٧٤/ ٢، ح ٢٦٧٦، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
- ٢- أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط ٣/ ١١٨، ح ٢٦٦٣ والبيهقي، شعب الإيمان ١٣/ ٢٣٦، ح ١٠٢٥٤ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وصححه الألباني في كتاب العلم، لأبي خيثمة ١/ ٤٧.

ومنهجاً، وفكراً، ونظاماً، وتطبيقاً وممارسةً، وبخاصة في مواجهة الغزو الإعلامي الكافر، الذي يهدف إلى تمييع النظام الأخلاقي في الإسلام، وهدم قيمه ومثله العليا، والإطاحة بشعار التميز للمجتمع المسلم، وبذلك يتبين: أن مجاهدة الداعية، والإعلامي لنفسه، أساس، ومنهج لا بد منه؛ «لكي تكون دعوته ناجحة، ومؤثرة في نفوس الناس، ولكي يتمكن من تزويد الآخرين بالطاقة، والقدرة على مجاهدة نفوسهم، والانتصار عليها»^(١)، ومنه يستفيد تنمية مهارة التقويم المستمر، ليعم النفع الخاص، والمتعدي، في عملية الاتصال الفردي، والجماعي، والجماهيري.

ج- التميز بحسن الخلق، ومحاسن الآداب، والأعمال، هي من أوكد الوصايا التي طبقها النبي ﷺ واقعاً عملياً، وترجمة حية لآداب القرآن، وقد شهد الله تعالى له بذلك، وأثنى عليه بقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، وظهرت سمة التميز، في تخلقه بآداب القرآن، في قول عائشة رضي الله عنها حينما سألتها سعد بن هشام: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ»^(٣)، وهو ﷺ الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى، في تطبيق محاسن الأخلاق، التي يجب على المسلم الاقتداء بها في جميع مجالات الحياة، «ولقد كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الله تعالى، مبنية على كل ما تطلبه الدعوة، من أخلاق الداعية، والدعوة، كما كانت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام قبله، ولكنها كانت فيه ﷺ، وفي دعوته أكمل كمالاً، وبيانا،

١- تزكية النفس، أنس كرزون ص ٤٠٢.

٢- سورة القلم الآية: ٤.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جامع صلاة الليل، ٢ / ١٦٨، ح ١٧٧٣، وأبو داود في سننه، كتاب التطوع، باب في صلاة الليل، ١ / ٥١٢، ح ١٣٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى، ٢ / ٤٩٩، ح ٤٤١٣.

نظراً لمقام الداعي، وشمول المدعوين، والدعوة، وغلظ المدعوين»^(١).

إن كل كمال خلقي تميزت به الدعوة النبوية، يعد من مقومات نجاح الإعلام، والدعوة إلى الله تعالى، وبخاصة إذا كان رائدها، الإخلاص، والصبر، والتضحية، وقوة الحجة، والبيان الإعلامي الواضح، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر هنا، وسنقتصر على ذكر نماذج صالحة، أوصى بها الدعوة، عن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، إلى اليمن داعياً، ومعلماً، فقال معاذ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ أَوْ آيَنَمَا كُنْتَ، قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: «اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا». قَالَ: «زِدْنِي». قَالَ: «خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٢)، قال ألباجي رحمه الله: «بأن يظهر منه لمجالسه، أو الوارد عليه البشر، والحلم، والإشفاق، والصبر على التعليم، والتودد إلى الصغير، والكبير»^(٣)، وإن تميز الداعية والإعلامي بالأخلاق الحسنة، وتحليه بالآداب الشريفة؛ له أثره على جميع أركان العملية الدعوية، والإعلامية، إذ إن حسن الخلق، هو السلعة الغالية المميزة، التي تجعله محبوباً، ومألوفاً لدى المدعوين والمتلقين، ومقبولاً عندهم، وهذا يستدعي طبعاً، وعقلاً قبول ما يقوله، وبلغه، ويوصله، ويصبح من الدعائم القوية، في التأثير على الناس، واجتذابهم إلى سبيل الهداية، والنجاة، والسعادة إن اليسر، والرحمة، والسماحة، هي من أهم الخصائص، التي تم تميزها في سيرة النبي ﷺ العلمية، والعملية، عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أنها قالت: «مَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حُرْمَةَ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا»^(٤)،

١- أخلاق النبي ﷺ، للحداد ص ١٠٦٥.

٢- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥٤٣/١٥، ح ٢١٣٧٩، وابن عبد البر في التمهيد ٥٥/٦، ٣٠٠/٢٤، وقال: الحديث ثبت عنه ﷺ، وحسنه الألباني في، صحيح وضعيف الجامع الصغير، ١/٩٧ ح ٩٧.

٣- المنتقى شرح الموطأ، للباجي ٤/٢٨٥.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب صفة النبي ﷺ ٣/١٣٠٦، ح ٣٥٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مُبَاعَدَتِهِ ﷺ لِلْأَثَامِ ٧/٨٠، ح ٦١٩٠، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب فِي الْعَفْوِصِ ٧٢٧، ح ٤٧٨٥.

وبهذا التطبيق كان يوجه الدعوة . عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: أَنْطَلِقَا فَادْعُوا النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبَشِّرَا وَلَا تَنْفَرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تَعْسِرَا»^(١)، ومما يفيدُه الداعية، والإعلامي، من هذا التوجيه النبوي، أن البشارة، واليسر؛ مفتاح صناعة الأمل، والتفاؤل، الذي يلائم الفطرة البشرية، ويستحث إلى قمة النشاط، والجد، والبعد عن شبح التكاثر، والتواني، وفي ذلك أعظم داع ومرغب للمدعوين، في معالي الأخلاق، وناه عن مساوئها، ورذائلها، ووسائلها، وأساليب الدعوة والإعلام الحديثة يجب، أن يختار منها، ما يوائم روح الأخلاق الجميلة، وينسجم مع أحوال المستقبلين، وهذا النهج النبوي، يجب أن يكون سمة الدعوة، والإعلام.

د- التميز بجميل الرفق في التعليم، والتأديب، فعن معاوية بن الحكم السلمي قال: بَيْنَا أَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَلَاةٍ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَحَدَّقَنِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَكُلَ أُمِّيَاهُ مَا لَكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَضَرَبَ الْقَوْمُ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُسْكِتُونَنِي، لَكِنِّي سَكْتُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ دَعَانِي، فَبَآبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ ﷺ كَانَ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، وَاللَّهُ مَا ضَرَبَنِي، وَلَا كَهْرَنِي، وَلَا سَبَّنِي، وَلَكِنْ قَالَ لِي: «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلِحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ». وفي لفظ: «فَمَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَطُّ، أَرْفَقَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢). قال النووي رحمه الله: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق، الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورافته بأمته، وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلق الله ﷻ، في

١- أخرجه أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب ما يُكره من التنازع، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير ٦ / ٣٣٤، ح ١٠٠٥، وأبي عوانة في مستدرجه ٩ / ٢٦، ح ٦٤٠٦، واللفظ له

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ٢ / ٧٠، ح ١٢٢٧، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب تسميت العاطس في الصلاة ١ / ٣٤٩، ح ٩٣١.

الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللفظ به، وتقريب الصواب إلى فهمه»^(١)، وتبيين خطأه بأسلوب متميز بطابع العطف، والرحمة، وهذه من المهارات، التي ينبغي تنميتها في الداعية والإعلامي، مقتدياً بما كان عليه النبي ﷺ من حسن التعليم، وجودة الدعوة، في رفق، ولين، وحلم، وأناة؛ لماها من أثر في جذب المخاطبين، واستمالتهم للحق، والاقتناع بالحكم الشرعي، وبذلك «تكون النفوس لهم أوطأ، والقلوب لهم أصفاء، فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع، ولأوامرهم أطوع»^(٢)، فتعامل الرسول ﷺ باللين، والرفق، في معالجة خطأ الرجل، وتعليمه بلطف، جلب محبته، والاستجابة له، بخلاف الشدة، فهي تجلب النفرة، والاستكبار، وهذه الصناعة الأدبية، والأخلاقية، ينبغي أن تنمى بالتربية، وتغرس في كافة مهارات التعامل الدعوي، والإعلامي، وبخاصة عند تعليم المدعويين، وتثقيفهم.

هـ- التميز الخالص من التشبه: من التطبيقات النبوية لتفعيل التميز الأخلاقي، نبيه عن التشبه بالكفار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، بَاعًا فَبَاعًا، وَذَرَاعًا فَذَرَاعًا، وَشِبْرًا فَشِبْرًا، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ مَعَهُمْ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، قَالَ: فَمَنْ إِذَا؟»^(٣)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم وهم الأعاجم، وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة، فعلم بخبره الصدق أن في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب

١- شرح النووي على مسلم، ٢٠ / ٥.

٢- أعلام النبوة للماوردي، ١ / ٢١٥.

٣- أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم ٦ / ٢٦٦٩، ح ٦٨٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٨ / ٥٧، ح ٦٩٥٢ ولحاكم في المستدرک، ١ / ٩٣ ح ١٠٦ واللفظ له

اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفوفاً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية وقد يكون خطأ^(١)، والحديث ذو دلالات دعوية وإعلامية، ينبغي التنبه إليها حيث جاء خبراً يقينياً صادقاً، عن تحقق وقوع التشبه، والذم والتوبيخ لمن يفعله ويقصده، لما يترتب عليه من وقوعه في الضلال، والانحراف العلمي، والعملي، وأخذ الحيلة، والحذر، والتحذير من عدم التميز، والمباينة الكاملة، واتخاذ التدابير الوقائية منه، لأنه يعد ذنباً مردوفاً، ومذموماً عند الله تعالى، ورسوله ﷺ، ويؤء صاحبه بالخذلان، وحيث إن وسائل الدعاية والإعلام، من أشد الوسائل دعوة للتشبه، والتقليد، والتبعية، لما تملكه من تكنولوجيا الاتصال الصناعي، عبر الأقمار الصناعية، والذي يخاطب البشرية كلها وبعده لغات، بات من الضروري للدعاية والإعلامي أن ينتبها لخطر التشبه، وأن يأخذ العبرة والعظة من إخبار النبي ﷺ، حيث يقوي فيهما، اتخاذ سبل الوقاية وطرائقها، وينمي لديهما خاصية الحذر، والتحذير، ويؤصل قاعدة سد الذرائع، والتي يجب أن تكون قانوناً مشاعاً عبر أساليب، ووسائل الدعاية، والإعلام، ويقرر الإمام ابن تيمية رحمه الله، هذه المعاني بالتفصيل فيقول: «قد بعث الله عبده ورسوله محمداً ﷺ بالحكمة، التي هي سنته، وهي الشرعة، والمنهاج الذي شرعه له، وكان من الحكمة، أن شرع له من الأعمال، والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم، والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمر: منها أن المشاركة في الهدى الظاهر؛ تورث تناسباً و تشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق، والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم،

١- اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية ١ / ٨١.

واللابس لثياب الجند المقاتلة-مثلا -يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيا لذلك، إلا أن يمنعه مانع، ومنها: أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة، ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب، وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى، والرضوان، وتحقيق ما قطع الله من الموالاتة بين جنده المفلحين، وأعدائه الخاسرين، وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام - الذي هو الإسلام-لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً، أو باطناً بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة، كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً، وظاهراً أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد، ومنها: أن مشاركتهم في الهدى الظاهر، توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهراً، بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم، والضالين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية، هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر، إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن مشابهتهم.

فأما إن كان من موجبات كفرهم؛ كان شعبة من شعب الكفر؛ فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له^(١)، هذا وإن تنمية معاني الحذر، وأخذ الحيطة، والتحرز من التشبه بهم في العقائد، أو العبادات أو القيم، والأخلاق، يورث العزة والتميز، وعدم التميز عنهم في الاعتقاد، والقول والعلم، والعمل؛ من نتائج الشقاء، والذل، والتبعية لأعداء الإسلام، في كافة المجالات، ومجال الدعوة الإعلام من أخطرها، لعظم أثرها وتأثيرها، وسرعة انتشارها، وبخاصة ونحن نعيش عصور غربة الدين، في هذه الأزمنة، ونحوها من أزمنة الفترات، التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، وخصيصة التميز للداعية، والإعلامي: منهجاً، واعتقاداً، وتصوراً، وممارسةً، في جميع شؤون حياته الفردية، والأسرية والاجتماعية،

١ - اقتضاء الصراط المستقيم، للإمام ابن تيمية ١/ ٩٤.

والمادية، والروحية، والثقافية، وتدبير أموره الخاصة والعامة، وبعده عن المشابهة يحقق له الثبات، والأصالة، المانع من التميع والذوبان، في بوتقة الكفرة، أو التقليد، والتبعية الفكرية، أو الاجتماعية، أو السلوكية لهم، ويجعل له شخصيته المتميزة وهدية الأسنى، والأسمى، وفق صبغة إسلامية هي: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(١)، وبهذا تكون أمة الدعوة والإعلام، أمة قائدة لا مقودة، ومتبوعة لا تابعة.

لقد جاءت التطبيقات النبوية في مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، والسلوك مثلاً حياً، ونموذجاً فريداً، يسترشد منها الدعاة، والإعلاميون: القدوة الصالحة، التي تميز لهم طريق الخير من الشر، وتدلهم على السلوك السوي، في مختلف العلاقات، والمعاملات، وضبط التصرفات، وإحكام المشاعر، والموازنة في الملكات، والغرائز وبناء المهارات الفريدة.

المطلب الرابع: التميز الدعوي والإعلامي، وتنمية المهارات العلمية.

أ- صناعة التميز العلمي المتخصص: صناعة التميز العلمي المتخصص، هو أحد المرتكزات الرئيسة في التطبيقات النبوية، فقد ميز النبي ﷺ بعض الصحابة رضي الله عنهم، بأخص وصف له، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشْدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَوُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٢)، ومن مزايا هذا التخصص، قول الشاطبي رحمه الله: «وما جاء في الترجيح

١- سورة البقرة الآية: ١٣٨.

٢- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، مناقب معاذ بن جبل ٥/ ٦٦٥، ح ٣٧٩١ وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في سننه، أبواب السنّة، فضائل زيد بن ثابت ١/ ١٠٧، ح ١٥٤٠، واللفظ لابن ماجه.

والتفضيل، كثير لأجل ما يبني عليه من شعائر الدين، وجميعه ليس فيه إشارة إلى تنقيص المرجوح، وإذا كان كذلك؛ فهو القانون اللازم، والحكم المنبرم، الذي لا يتعدى إلى سواه، وكذلك فعل السلف الصالح^(١)، وبنوا على هذه القاعدة عناصر الحضارة المثلى، «مما يدل على أن الاختصاص في العلم، والتخصص في بعض مواد له أصل، وقد يفيد الأمة أكثر من غيره، وقد كانت نتائج هذا التخصص أو تلك الخصوصيات أنهم رضي الله تعالى عنهم كانوا إذا اختلفوا في مسألة من تلك العلوم رجعوا لصاحب الاختصاص فيها»^(٢).

إن اكتشاف المهارات لدى الصحابة رضي الله عنهم، منهج، وسياسة حكيمة، في التطبيقات النبوية؛ ليصنع منهم التميز الفريد، ويستثمره في كل جانب، وفن، فهذا حسان رضي الله عنه، صاحب الحملات الإعلامية الكبرى في الإسلام، ميزه ﷺ في تخصص الشعر، وهياً له المنبر الإعلامي، تشجيعاً وتحفيزاً له، عن جابر رضي الله عنه، قال: لما كان يوم الأحزاب، وردهم الله بغيظهم، لم ينالوا خيراً، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَحْمِي أَعْرَاضَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ كَعْبٌ: أَنَا. قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: أَنَا، قَالَ: «إِنَّكَ لَتَحْسُنُ الشُّعْرَ. قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: أَنَا إِذَا، قَالَ: «أَهْجُهُمْ، فَإِنَّهُ سَيَعِينُكَ عَلَيْهِمْ رُوحُ الْقُدُسِ»^(٣)، فميز النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم بهذه التخصصات تقديراً، لقيمتها المؤثرة في مجالات الدعوة، والإعلام برسالة الإسلام العقدية، والشرعية، والأخلاقية، وإدراكاً لأبعادها المتعددة والخطيرة في التغيير والصياغة والتشكيل، وتهيئة لهذه الطاقات المبدعة، في هذه التخصصات، والتنبه المبكر لها، ولعطيائها الحساسة، في ضوء إمكانيات

١- الموافقات، الشاطبي ٥/ ٢٩٧.

٢- شرح الأربعين النووية لمحمد عطية سالم، ٤٢/ ٢.

٣- أخرجه الطبري في تهذيب الآثار مسند عمر ٢/ ٦٣١، ح ٩٣١، والطحاوي في شرح معاني الآثار، ٢٩٧، ح ٧٠٠٠، والحديث له شواهد في صحيح البخاري كتاب بدء الوحي، ٤/ ١٥١٢ ح ٣٨٩٧.

الواقع، واستشراف المستقبل، وتنمية مهارات التخصص العلمي أسلوب نبوي ضروري، تتعظم أهميته في عصرنا الحديث، حيث أصبح مجال الدعوة، والإعلام علما لهما، مناهجها ومبادئها، ومقوماتها الخاصة، وأضحى لهما معاهد ومقاعد متخصصة في الجامعات، وفق شروط وضوابط ومعايير التميز والجودة، وتقنيات وآليات الخطابة ووسائل، وخبراء متخصصون، وأصبح فناً له خطته، ومستلزماته، وأدواته، وأساليبه، كما أصبحت ثمرةً جنيةً، تتنافس في إنضاجها وتطويرها كل الثقافات، والمعارف، والعلوم، وتوظف لهما أرقى الخبرات، ليكون هندسةً، وصناعة من الصناعات الفكرية الثقيلة، التي لها نظامها المؤسسي، والاستراتيجي، ونفقاتها الخاصة في ميزانية الدول، والتخصص العلمي يسد هذه الثغرات، بحيث لا يؤتى الإسلام من قبله، وتعطى كل مهارة ما تستحقها من التميز، والإبداع، والتطور الإيجابي الفعال المعطاء، في تشييد معاهد الحضارة.

ب- صناعة التميز العلمي الديني النافع: يوجه النبي ﷺ إلى صناعة التميز الديني، الذي هو فوق التميز بالنسب، أو المال، أو الجاه وغيرها من أمور الدنيا، قَالَ ﷺ: «لَوْ كَانَ الدِّينُ مُعَلَّقًا بِالثَّرِيَاءِ، لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ»^(١)، إرشاد، وبيان أن المعيار الحقيقي للتميز، إنما هو التفوق العلمي الإيماني، والتسابق إلى المعالي في الدين والعلم، وقد ظهر مصداق هذا الحديث في أهل خراسان من فارس، حيث «دخلوا في الإسلام رغبة، ومنهم العلماء والمحدثون، والنسك، والمتعبدون، وإذا حصلت المحدثين في كل بلد، وجدت نصفهم من أهل خراسان وجل رواة الرجال منها»^(٢)، فمدحهم الرسول ﷺ؛ لأنهم تميزوا بعلو الهمة في الإيمان، وتحصيل أسبابه؛

١- أخرجه مسلم في صحيحه، ٧/ ١٩١ ح ٦٦٦١، والإمام أحمد في مسنده ٢/ ٣٠٨، ح ٨٠٦٧، وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٦٣، ح ٧١٢٣ واللفظ له.

٢- معجم ما استعجم، للبكري ٢/ ٤٩٠.

وهو الأصل في جميع أنواع العلوم، والمعرفة، وضربوا فيها بسهم وافر، ولأن «هذا الثناء أسلوبٌ تربويٌّ مؤثرٌ وقوي، يثير كوامن الخير في نفس الإنسان، وفي نفس المجموعة، وفي نفس القبيلة، إذا كان ثناءً معتدلاً، ليس فيه مجاملة، ولا تزلف، ولا مبالغة، ولا خروج على حدود الاعتدال»^(١)، وفي الحديث تذكرة للدعاة والإعلاميين، وشحن لهمهم؛ ليعوا أن التميز الحقيقي، والرقي الإيجابي، إنما يكون بالدين، والإيمان، والعلم، وعلى هذه المقاييس يتفاضل الناس، وتعلو الهمم الشامخة، وتتحرك البواعث للتنافس في زيادة الإيمان، وفعل الخيرات، وإيصال هذه الهممة والتفوق لأمة الإجابة، وإن تقوية الهممة القلبية وإصلاحها، والصدق فيها، له أثر في صناعة متميزة، وبخاصة في ميدان الدعوة والإعلام، ومما يقوي الهممة الطمع بموعود الله تعالى يوم القيامة، فعلى الداعية والإعلامي، أن يحفظا همتها، فإن الهممة مقدمة الأشياء، فمن صلحت همته، وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال، قال أبو القاسم النصرباذى «وما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء»^(٢)، ولأن الهممة إنما ترمي، إلى توليد قوة دافعة، تحرك قلب المؤمن، وتوجهه إلى إقامة الطاعات، وتجنب المعاصي والمخالفات، لذا فهما مدعوان، إلى بعث الهممة، وتحريكها واستحثاثها للتنافس في الخيرات، عبر جميع الحملات الإعلامية، والدعائية.

ج- صناعة التميز العلمي في المسابقة، وتنمية مهارة استباق الخيرات: من وسائل صناعة التميز، المسابقة التي دعي إليها المؤمنون قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(٣)، قال الطبري رحمه الله: «فبادروا بالأعمال الصالحة، شكراً لربكم، وتزودوا في دنياكم لأخرتكم، فإني قد بينت لكم سبل النجاة، فلا

١- دروس للشيخ سلمان العودة، ١٣٢ / ٢٨.

٢- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن الأزدي، ١ / ٣٦٥.

٣- سورة المائدة الآية: ٤٨.

عذر لكم في التفريط»^(١)، لقد وظف الرسول ﷺ، هذا الخطاب الإلهي في رسالته الدعوية والإعلامية بين أصحابه رضي الله عنهم، فسمى فيهم ملكة المبادرة إلى الخَيْرَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْهَا؛ وجعلها سبباً للتنافس فيها واغتنامها، فقال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فَتَنَّا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسَى كَافِرًا أَوْ يَمْسَى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢)، فدعا ﷺ إلى المبادرة بالطاعات، لأنها من متطلبات صناعة التميز، في الأعمال الصالحة الدينية والدنيوية، وتحذيرهم من الفتن بأنواعها؛ لأنها معوقات في طريق التميز، وعقبات في سبيل التنمية، وهذه توعية مهمة يتوجب على الدعاة والإعلاميين إدراك مغزاها، إحرازاً لسابقة الفضل، والتقدم، إنها مفاتيح التميز التي يجب أن يستثمروها، ويتسابقوا إليها، كما قال ﷺ (في كل قرن من أمتي سابقون)^(٣).

وقد جاء التطبيق النبوي متسقاً مع ما يهدف إليه القرآن من المسابقة والرفعة، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٤)، فمن سابق في هذه الدنيا، وسبق إلى فعل الخير، كان في الآخرة من السابقين المقربين إلى دار السلام، والكرامة قال المناوي: «المراد بالسابق الداعي، إلى الله المبعوث، على رأس كل قرن، ليجدد لهذه الأمة أمر الدين»^(٥)، إن صناعة التميز في كل عصر لا بد له من سابقين متميزين، في كل المجالات، فالدعاة والإعلاميون، هم أولى الناس بأن يكونوا هم السابقون المقربون، بهذا

- ١- جامع البيان تفسير الطبري، ٣/ ١٩٦ وانظر تفسير المنار - محمد شيد رضا ٦/ ٣٤٧.
- ٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال ١/ ٧٦، ح ٣٢٨، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، ما جاء ستكون فتن ٤/ ٤٨٧، ح ٢١٩٥.
- ٣- أخرجه أبو نعيم في، حلية الأولياء ١/ ٨، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، ١/ ٣٦٩، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٥٠٠، ح ٢٠٠١.
- ٤- سورة الحديد الآية: ٢١.
- ٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي ٤/ ٦٠٢.

التميز بالأسبقية، والأولية في التزام الأوامر الشرعية، وتطبيقها، وطلب الخير في تليغها، وحرصاً على المزيد والمزيد من مضاعفة الأجر والثواب، إن مشروع المسابقة في الخيرات، يجب أن يكون مضمراً للمنافسة المحمودة، بين الدعاة والإعلاميين وإن هذه «الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر، إلا بأمرين: المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به»^(١) ومن ثم جاءت الدعوة إلى «السباق في ميدان السباق الحقيقي، للغاية التي تستحق السباق، الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم، والتي تلازمهم بعد ذلك في عالم البقاء»^(٢)

المطلب الخامس: التميز الدعوي الإعلامي.

أ- صناعة التميز المنهجي للدعوة والإعلام، وتنمية المهارات: من التطبيقات النبوية، التي توضح الأصول المنهجية في مجال الدعوة والإعلام، وتربي في الداعية الناجح والإعلامي الحاذق، ملكة الوعي بأحوال جمهور المدعوين، والعلم بطبائعهم، واستعداداتهم، وميولهم، وقدراتهم حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَىٰ: أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ، أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَأَتَىٰ دَعْوَةَ

١- تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ١/ ٢٣٤

٢- في ظلال القرآن لسيد قطب، ٦/ ٣٤٩٢.

المظلوم، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١)، قال القرطبي رحمه الله تعالى: «وإنما نبهه على هذا ليتهياً لمناظرتهم، ويعد الأدلة لإفحامهم؛ لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين، وعبدة الأوثان»^(٢)، وفي هذه الوصية النبوية، توعية بأهمية تنمية مهارة الدعوة والإعلام، بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة والتي هي أحسن، في ضوء رعاية تفاوت قدرات المدعويين، واستعداداتهم وتنوع مراتبهم، كما قال الإمام ابن تيمية: «فالقلوب التي لها فهم، وقصد تدعى بالحكمة، فيبين لها الحق علماً، وعملاً فتبلّغه، وتعمل به، وآخرون يعترفون بالحق، لكن لهم أهواء تصدهم عن أتباعه، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، والدعوة بهذين الطريقتين لمن قبل الحق، ومن لم يقبله، فإنه يجادل والتي هي أحسن»^(٣)، وهكذا يُعطي لكل حالة ما تقتضيها من الحكمة، أو الموعظة الحسنة، أو المجادلة المحمودة، حقها الكامل أداءً لواجب الدعوة، وإبراءً للذمة، فعلى الدعاة والإعلاميين، أن يكونوا من أحرص الناس على مراعاة هذا الجانب الحيوي المؤثر، وهو إعطاء كل ذي حق حقه، ورعاية مبدأ التفاضل بين الناس، مسترشدين في ذلك، بقول عائشة رضي الله عنها: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ)^(٤).

إن صناعة التميز المعرفي، البصير بأصناف المدعويين، له دور مهم في العلم بأحوالهم، من حيث تميز مداركهم في قبول الحق له، وإن فقه الداعية والإعلامي، بهذه المراتب هو السبيل الأمثل، في تحقيق نجاح الدعوة، واحتواء المدعويين، والتأثير في قلوبهم، وعقولهم، ليكونوا إلى داعي

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء ٢ / ٥٤٤، ح ١٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين ١ / ٣٧، ح ١٣٠.
- ٢- المفهم، للقرطبي ١ / ١٨١.
- ٣- معارج الوصول، للإمام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١ / ١٨٢.
- ٤- مقدمة صحيح مسلم، للنووي، ١ / ٤، وصححه النووي، أخرجه أبو داود ص ٧٣٣، كتاب الأدب، باب ٢٣ ح ٤٨٤٢، وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١١١، ح ١٧٩.

الحق أسرع، وتنمية هذه المهارة لدى الداعي والإعلامي، تبني لديه وعياً مستنيراً بالفروق الفردية، والذاتية للبشر، للوقوف على الأساليب الحكيمة، والوسائل المناسبة، في مخاطبة المدعوين والمستقبلين، وأساليب التأثير فيهم، وتزويده إيماناً، في كمال قدرة الله تعالى «وبديع صنعه حيث، خلق كل إنسان له فرديته، وميزته، وشخصيته، وله فروقه الخاصة في صورته، وشكله، وقدرته، وتركيب جسمه»^(١)، وتبرز له الحكمة التربوية، والاجتماعية في هذا التفاوت، لتحقيق التكامل، والتعاون والترابط في المجتمع المسلم، ومن فوائد هذا التطبيق النبوي، صناعة التميز في فقه أولويات أصول الدعوة، والمهارة في ضبط النسب، وترتيب الأحكام الشرعية، قال النووي رحمه الله: «ولأنه ﷺ رَبَّ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الإِسْلَامِ وَبَدَأَ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمُّ»^(٢)، فتحققت الأولوية في الابتداء بالدعوة إلى عقيدة التوحيد أولاً، ثم أركان الإسلام، ثم الأخلاق الحسنة»، ولا شك أن نهج النبي ﷺ، في وصيته لمعاذ، بهذه الكيفية البديعة، وتنبهه إلى التدرج في الدعوة، والبدء بالأهم فالمهم، وإعطاء كل مسألة، وأمر ما يستحق من العناية والأهمية، ليدل دلالة واضحة على الحكمة النبوية العالية في الدعوة، والنظرة الحصيفة في ما ينفع الناس ويمكث في الأرض^(٣)، وبهذا التطبيق النبوي الرائع؛ يبنى الرسول ﷺ منهج الدعوة والإعلام، الذي يجب أن يكون المنطلق الشرعي لجميع النشاطات الدعوية والإعلامية، ومقياساً لجميع أعمالهما، المقروءة، والمسموعة، والمرئية، وضابطاً شرعياً لجميع المواد والوسائل والقنوات النظرية، والتطبيقية.

ب- صناعة التميز الخطابي، وتنمية مهارة الكلمة: القول وسيلة دعوية إعلامية، والكلمة أداة التخاطب، والفهم، وقد جاء استثمارها، وحسن

١- المنهاج النبوي، سليمان العيد، ص ١٥٧.

٢- شرح النووي على مسلم، ١ / ٨٩.

٣- منهج الدعوة إلى الله، عبد الرحيم المغذوي ص ١٢٩.

توجيهها في التطبيقات النبوية لأغراض شتى، من أهمها الخطابة، حيث وظفها النبي ﷺ، لتمكين العقيدة في القلوب، وتبليغ الشريعة، ونشر الفضائل، ومعالجة المشكلات بحسب الوقائع والأحداث، والخطابة هي المنبر الإعلامي، والدعوي الهام، للاتصال الشفهي المباشر مع المخاطبين، والذي يستعان به في إشاعة محاسن الإسلام، وتنمية القدرات العقلية، والاستعدادات الفطرية، والمواهب العلمية، ولأهمية فن الخطابة، وخصائصها الفريدة، في «كونها الوسيلة المثلى للاتصال بالجماعات، والتأثير فيها، واستمالها، اتخذها لذلك ﷺ أداة لنشر دعوته، وإقناع المشركين بصدق رسالته، ثم اتخذها بعد الهجرة، أداة لإيضاح تعاليم الإسلام، ووعظ المسلمين»^(١)، وإصلاح أحوالهم الدينية، والدنيوية، وتختص الخطابة في التطبيقات النبوية بمزايا فريدة، وعوامل جذب مؤثرة، وسريعة، وسهلة، وعميقة، في إيصال دين الإسلام، ونشر أحكامه، وتعاليمه لدى جمهور المدعوين، وإقناع السامعين، وتميزت بجودة الأسلوب، والصيغة، وبلاغة الألفاظ، ونصاعة الأفكار، والمعاني، والصور، والأخيلة، واصطبغت بصبغة شرعية، وعبادية، ومن الشواهد العملية الدالة على ذلك، ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ أَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَانَهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ». وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ». وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَابَةِ، وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَا لَّا فَلَاهُ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا، أَوْ ضِيَاعًا فَإِلَى وَعَلَى»^(٢). قال النووي رحمه الله:

١- الخطابة في عصرها الذهبي، إحسان النص ص ٢٩.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة، ٣/ ١١، ح ٢٠٤٢، وابن حبان في صحيحه ١/ ١٨٦، المقدمة، ١٠.

«يستدل به على أنه يستحب للخطيب، أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب، وترهيب، ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمراً عظيماً، وتحذيره خطباً جسيماً»^(١).

وتميزت خطب النبي ﷺ بصفات، ومقومات منها: أنها وسيلة شفوية سمعية بصرية، وهذه الخاصية تمنحها مزيداً من القوة، والتأثير في السامعين، وإذا أحسن الداعي الخطيب خصائص هذه الوسيلة، وانتقى لها المعاني الشريفة القوية، والألفاظ الجزلة، والعبارات السهلة الميسرة، وحسن الأداء، وعمق التفاعل مع المدعوين استطاع بعون الله وتوفيقه، أن يملك قلوبهم ويوجه عقولهم، ويستثير عواطفهم القلبية، نحو الحق والهدى والخير، وأن يلامس بخطبته أحاسيسهم ومشاعرهم، ويترك فيها آثاراً إيمانية يقينية صادقة بإذن الله تعالى، والخطابة وسيلة دعوية تأخذ طابع التكرار، كخطبة الجمعة والعيدين، ونحوهما، ومن خصائص التكرار، ولوازمه التثبيت، والتقريب، والإقناع والبناء، وتتضمن مهارة إقناع المخاطبين برأيه، واستمالهم إليه، وتقريب الفكرة في نفوسهم، كاللجوء إلى أساليب التوكيد المختلفة، من تكرار، وقسم، واستعانة بأدوات التوكيد، ونجد نموذجاً تطبيقياً في صناعة التميز الخطابي، في خطبة الوداع، فعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «ألا تدرون أي يوم هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال أليس بيوم النحر؟ قلنا بلى يا رسول الله قال: أي بلد هذا أليست بالبلدة، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، وأبشاركم، عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم قال: اللهم أشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له، فكان

١- شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٢٤٧.

كَذَلِكَ قَالَ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١)، فكان هذا التفاعل الصادق للنبي ﷺ، لِيَتَأْتِيَ عمق التأثير بالمشافهة للمدعوين، وتجاوبهم بالسماع، والمشاهدة، مع حرصه ﷺ على البلاغة الواضحة، ومن أوجه تميز خطبته ﷺ، بكونها وسيلة دعوية، ذات أثر وبعد تربوي، وتعليمي، واجتماعي، وإعلامي فذ - حيث جعلها وسيلة، تذرّف منها الدموع، خشية لجبار السموات والأرض، وتخشع منها قلوب المدعوين، وتخبت لله الواحد القهار، وتقشعر منها الجلود، ثم تسكن وتلين إلى ذكر الله تعالى - ما جاء في خطبته بعد غزوة حنين حينما أعطى المؤلفة قلوبهم من الغنائم ولم يعط الأنصار شيئاً، قال الراوي: «لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خُطْبَتِهِ بِكَيِّ الْقَوْمِ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحَاهُمْ بِالْذُّمُوعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»^(٢)، والداعية والإعلامي البصيران هما الذان يستثمران هذه الأبعاد، من حكمته وسياسته في الخطب، وأساليب الجذب والتأثير، وفق ما يقتضيه المقام، والحال في مواقف الدعوة والإعلام.

ج - التميز في صناعة الرأي العام، وتنمية المهارات: الرأي العام فن من فنون الإعلام الإسلامي، وثمره الوسائل الإعلامية، «فهدف الإعلام الأول إيجاد الرأي العام، أو توجيهه نحو قضية ما، أو وجهة نظر مطلوبة وتأثير الإعلام في الرأي العام راجع إلى اتصاله المباشر بال جماهير، على اختلاف طبقاتهم، ومستوياتهم الثقافية»^(٣)، والمقصود به: إثارة قضية دينية أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية بأساليب ووسائل الاتصال المتنوعة، للترغيب فيها، وتثبيتها، أو التنفير منها، واجتنابها، وقد حرص النبي ﷺ، على التميز في

- ١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى ٢/ ٦٢٠، ح ١٦٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء ٥/ ١٠٧، ح ٤٤٧٨.
- ٢ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ٣/ ١٠٦، ح ٢٤٨٦، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٧٦، ح ١١٧٤٨.
- ٣ - الرأى العام في المجتمع الإسلامي، إبراهيم زيد الكيلاني مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢٩/ ٤٢٧.

صناعة الرأي العام الإسلامي، وطوعه لخدمة القيم الإيمانية؛ لجلب المصالح، وتكميلها، ودرء والمفاسد، وتقليلها في المجتمع، ووظفه لأغراض كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال: اتخاذه تأنيب الرأي العام، وسيلة للتأديب، والتهذيب، وإصلاح الأخطاء بحكمة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَشَكَاَ إِلَيْهِ جَارًا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «اصْبِرْ ثُمَّ، قَالَ لَهُ فِي الرَّابِعَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ: اطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ فَفَعَلَ، قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَمْرُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: آذَاهُ جَارُهُ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: لَعْنَهُ اللَّهُ فَجَاءَهُ جَارُهُ، فَقَالَ: رُدِّ مَتَاعَكَ، لَا وَاللَّهِ لَا أُؤْذِيكَ أَبَدًا»^(١)، فاستخدم ﷺ سلاح الرأي العام، للتقويم والإصلاح، وجعل هذه الوسيلة «سلطة لها وزنها الكبير في التوجيه، والإرشاد، ومقاومة الشر، والفساد، والوقوف في مواجهة الظلم والطغيان، وفي حراسة القيم الإسلامية، وصيانتها، وفي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي تضامن الأمة، وتعاونها على البر والتقوى، وفي رفع الروح المعنوية، وإعلاء كلمة الله، وفي تأييد الحق، ومقاومة الباطل وخذلانه»^(٢)، وفي الحديث إشارة إلى أهمية تنمية مهارات الرأي العام، وأثرها في الحياة الاجتماعية، وأن يحسب لهذه القوة التنظيمية الكبرى حسابها في ضوء منهج، التقويم، والمراجعة، والمناصحة، والنقد، وضرورة تنمية مهارة استخدام هذه السلطة، حيث إنها سلطة اختيارية أدبية لها أهمية بالغة، في غرس بذور الصلاح، واقتلاع بذور الفساد، وفي إشاعة روح التضامن، والوحدة بين المسلمين في المعتقدات الصحيحة، وأن لا تترك لأهواء أفراد المجتمع، وينساقوا لها دون وزن بمعايير الحق والهدى والرشاد كما في حديث حُذَيْفَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمَاعَةً»

١- أخرجه أبو داود في سننه، ٤/ ٥٠٤، ح ٥١٥٥، والحاكم في المستدرک، ٤/ ١٨٣، ح ٧٣٠٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي.

٢- أصول الإعلام الإسلامي، إبراهيم إمام ٢٩٩.

تَقُولُونَ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا، وَإِنْ أَسَاؤُوا أَسَآنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ
 إِنَّ أَحْسَنُوا أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤُوا أَلَّا تَظْلِمُوا»^(١)، وقول النبي ﷺ، ينمي
 في الداعية والإعلامي الرفعة، والإبداع الفكري الناقد، واستقلالية الرأي،
 والتميز بأصالة الشخصية الذاتية، وتربية للنفس على إتباع الهدى، والرشد،
 وعدم المداهنة والنفاق، والحذر من التبعية، والتقليد الأعمى، للأشخاص
 أو الأفكار، دون بصيرة، وعلم، فيُضَلُّون ويُضَلُّون.

د- صناعة التميز الحقيقي للمجددين: جاء التطبيق النبوي، في صناعة
 التميز الحقيقي، للمجددين، خاصية في حفظ هذا الدين، خالصاً نقياً من
 جميع الشوائب، والبدع، والمحدثات، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
 عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ
 سَنَةٍ، مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(٢)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «لا يلزم أن
 يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في
 الطائفة، وهو متجه فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها، لا ينحصر
 في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص
 واحد، فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك، عند رأس المائة، هو
 المراد سواء تعدد أم لا»^(٣). وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى- مؤكداً
 شمولية تخصص المجددين-: «وقد ادعى كل قوم في إمامهم أنه المراد
 بهذا الحديث، والظاهر- والله أعلم- أنه يعم حملة العلم، من كل طائفة،

١- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر، ما جاء في الإحسان والعفو ٤ / ٣٦٤، ح ٢٠٠٧، وقال: حسن
 غريب، والبراز في مسنده، ٧ / ٢٢٩، ح ٢٨٠٢، وقال الألباني: ويصح وقفه على ابن مسعود. مشكاة
 المصابيح، ٣ / ١١٢.

٢- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب مَا يُذَكَّرُ فِي قَرْنِ الْمِائَةِ ٤ / ١٧٨، ح ٤٢٩١. والحاكم في
 المستدرک، وسكت عنه الذهبي في التلخيص ٤ / ٥٦٧، ح ٨٥٩٢. وَقَالَ السخاوي في المقاصد الحسنة:
 وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات، انظر: ١ / ٢٠٣.

٣- فتح الباري، ابن حجر، ١٣ / ٢٩٥.

وكل صنف من أصناف العلماء؛ من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، ونحاة، ولغويين، إلى غير ذلك من الأصناف، والله أعلم^(١)، وبهذا يعلم أن مجال الدعوة، والإعلام يشمل التجديد بالضرورة، والدعاة والإعلاميون، يجب أن يتميزوا بهذا التجديد، وأن تكون لهم بصمات واضحة، في هذا البعث المبارك، لحفظ الدين، والذب عن شرائعه وقيمه، والإسهام في النهوض، والارتقاء بأدوات التوصيل، والدعوة للخطاب الإسلامي المعاصر، وهذا الحديث يتضمن أسلوب الترغيب، والتبشير، بقاء الدين نقياً صافياً من الشوائب، والمحدثات، بفضل ما يهيؤه الله تعالى من هؤلاء المجدين، من علماء السنة الذين ينصرون دين الحق، بثتى أساليب، ووسائل الدعاية، والإعلام، وهم الطائفة المنصورة، التي بشر ﷺ بظهورها فقال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٢)، وإن من أجل مقاصد الحديث، بناء الثقة في النفوس، وتنمية معاني الأمل، والتفاؤل والرجاء، بتميز هذا الدين وأهله بالنصرة والتمكين إلى قيام الساعة، وطرد اليأس والقنوط، والإحباط، ومما يؤكد هذه المعاني، قوله ﷺ: «لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرَسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣)، وإن على الدعاة والإعلاميين، مسؤولية تطبيق موعود رسول الله ﷺ، والإعلام بأنه لا يتحقق هذا الوصف، والثناء لكل مسلم على ثغرة من ثغر الإسلام، إلا لمن تمسك بهدي الله تعالى، الذي هو دين الإسلام محضاً، وراض نفسه، وأدبها، وقوم أخلاقها بتدييره، واعتني بالقرآن، والسنة علماً، وعملاً، واعتقاداً، واجتهد في الحرص، والحدب على سنة النبي ﷺ، والعناية بتطبيقها، في

١- النهاية لابن كثير، ص ٣٢، ٣١.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ / ٩٥، ح ٤١٢، والحاكم في المستدرک ٤ / ٤٩٦، ح ٨٣٨٩ واللفظ له.

٣- أخرجه ابن ماجه في سننه، أَبْوَابُ السُّنَّةِ / ١ / ٦، ح ٨، وابن حبان في صحيحه ٢ / ٣٢، ح ٣٢٦، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات، مصباح الزجاجة، ١ / ٥.

عملية التنمية، وصناعة التميز، ليستحق أن يكون من أمناء الله في أرضه، ومسهما في تثبيت حجج الله في أرضه، وإن حقيقة التجديد التي يجب أن تعيها أذن واعية، عبر الدعوة والإعلام السمعي، والبصري، والمقروء، إنما تكون بإعادة أمة الإجابة إلى الدين مفهوماً، وممارسةً، علماً، وعملاً، وإلى صورته الأولى في عهد النبوة، والقرون الخيرة الفاضلة، وإبطال ما أحدثه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، مما يُفسدُه قبل التحريف، والإضافة، والدعاة، والإعلاميون المجددون، يتميزون، ويبرزون، ويتقدمون، ويتفوقون على غيرهم، بهذه الخصال الشريفة، وما يجب أن يعتنى ببيانه، في أوعية الدعوة والإعلام، «المفهوم الحقيقي للتجديد، ويعني استئناف العمل بالدين اعتقاداً، وعملاً، وإحياء ما اندثر من السنن، وإماتة ما ابتدع من البدع، والمحدثات، كما صنع المجددون من أئمة الدين في تاريخ المسلمين إلى يومنا، حيث كانوا يجددون العمل بالسنة، وهدي السلف الصالح في العلم، والعمل، كما فعل الخليفة عمر بن عبد العزيز، والإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله، وغيرهم من أئمة السنة»^(١).

إن التجديد في معظم الموضوعات، والفقرات التي تقدم باسم الدعوة، والإعلام الإسلامي، والتي تحمل الخصائص، والسمات، والقوالب الإعلامية، والدعوية المتخصصة، والمؤثرة «بحاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق، تجديد يعيد للاجتهاد حياته، ونشاطه من جديد، والاجتهاد بنوعيه: الترجيحي الانتقائي والإيداعي الإنشائي، اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها، من داخل شريعة الإسلام، تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر، مخاطباً كل قوم بلسانهم، واعياً لخصائص العصر، وخصائص الإسلام،

١ - الافتراق... مفهومه، أسبابه، ناصر العقل ١ / ٣٤.

وخصائص الأقسام، مدركاً المفهوم الأوسع، والأعمق، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾^(١)، «وهذا يقتضي تطوير أجهزة الدعوة، وأساليبها، وقدرات رجالها، وفقاً لما يتطلبه العصر، ويوجهه الإسلام، ويحتمه ما يصنعه الآخرون، تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق في (فروض الكفايات) من العلوم الكونية، والرياضية، وتطبيقاتها (التكنولوجية) في المجالات المدنية والعسكرية، ويجعل أمة (سورة الحديد) قادرةً على تصنيع الحديد، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة، والمنشورة، بحيث لا تكون عالة على غيرها في القوات الذي يحييها، وفي السلاح الذي يحميها، وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم، وأجهزته، وغاياته، وأساليبه وفقاً لما يتطلبه العصر، ويفرضه السلام، ويحتمه التطور»^(٢)، والدعوة التجديدية عبر وسائل الدعوة، والإعلام المسموعة، والمقروءة، والمرئية، يجب أن تعم بواطن الأشياء، وجواهرها، وظواهرها، وأشكالها، ولا تمس هذه الثوابت إلا من جهة أسلوب عرضها، أما غير الثوابت، فهي التي يدخلها الاجتهاد، والتجديد، وهي معترك لأفهام أهل العلم الأصلاء ففيها مجال للاجتهاد الجزئي، والكلي، والاجتهاد المقيد، والاجتهاد المطلق، والاجتهاد الانتقائي، والاجتهاد الإنشائي»^(٣)، ومن هذه المسؤوليات العظمى الملقاة على عاتق الدعاة والإعلاميين، كشف دعاوى المستغربين، ومراد العصرانيون بالتجديد، هو إعادة النظر في أصول الدين، وفروعه، في مسلماته، وثوابته، والأخذ منه ما يتناسب مع العصر الحاضر، وتأويل ما يقبل التأويل، ورفض ما لا يتماشى مع روح العصر! ولو كان أمراً ثابتاً بالكتاب، والسنة أو مجمعاً عليه، كل ذلك بدعوى مسامرة لركب التحضر»^(٤)، ومن هذا المنطلق فإن على الداعي والإعلامي المحيي للدين، والمجدد للسنة، أن يكون بصيراً بثوابت أصول

١ - سورة إبراهيم الآية: ٤.

٢ - من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدين، يوسف القرضاوي ص ٢٨ - ٢٩.

٣ - الخطاب الإسلامي مقارنة منهجية، خالد روشه، دائرة معارف الأسرة المسلمة ١١٥ / ٢٨٤.

٤ - المشابهة بين المعتزلة الأوائل والمعتزلة الجدد، فؤاد الشلهوب، ١٠ / ١.

الدين، وقواعده، ومتغيراته في الفروع، والوسائل، وعلى إحاطة، وعلم بدواعي التجديد، ومقوماته، ومجالاته، وفقها بمدى مناسبته لأحوال المتلقي قبل بيانها، وإبلاغها للجمهور، وعن دراية، وبصيرة بالواقع المعاصر، خيره، وشره، وحقه، وباطله، وحينما يتميز بهذا التجديد الشامل، والمتكامل الواعي في عملية الدعوة، والغرس المبارك، وفق هدي التطبيقات النبوية؛ يعتبر عمله جهاداً في سبيل الله، ومن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي هو سياج الدين، وبه قوام نظام الإسلام، وحفظ الشريعة، وإقامة الحجّة بالبيان واللسان، وعليه مدار الفلاح، والنجاة، وملاك السعادة في الدارين.

هـ- صناعة التمييز الدعوي والإعلامي، الحججي، وتنمية مهارة البرهان: تميزت التطبيقات النبوية، بأنها دعوة، وحجة مستمرة وباقية، وكاملة شاملة شمول الزمان، والمكان، فأقوال الرسول ﷺ، وأفعاله تحمل كمال الدعوة، وكمال الحجّة للناس كافة، فالسنة وحي كالقرآن، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ ﴾^(١)، قال حسان بن عطية رحمه الله: «كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة، كما ينزل عليه القرآن، فيعلمه إياها، كما يعلمه القرآن»^(٢)، وهذه الخُصِيصة المتميزة؛ هي سمة القرآن، والسنة المطهرة، قال الحلبي رحمه الله: «ومن عظيم قدر القرآن، أن الله خصه بأنه دعوة، وحُجَّةٌ، ولم يكن هذا لنبي قط، إنما كان يكون لكل منهم دعوة، ثم تكون له حُجَّةٌ غيرها، وقد جمعها الله لرسوله ﷺ في القرآن، فهو دعوة بمعانيه، حُجَّةٌ بألفاظه، وحسب الدعوة شرفاً أن تكون الحجّة نفسها، وحسب الحجّة قوة أن لا تتميز الدعوة عنها، وهو معجزة الرسول الباقية، وذلك لنفاد دعوته إلى يوم القيامة»^(٣)، ومن النتائج التي تثري مجال الدعوة والإعلام

١- سورة النجم، الآية ٣-٤.

٢- السنة للمروزي، ٢٩٤، ١/١١١.

٣- المنهاج، للحلبي، ١/٢٧٥ - ٢٧٦.

بهذا التميز، كثرة استجابة المدعويين لهذه الدعوة المباركة، كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وذلك لما يختص به الوحي من عظم تأثير دلائله، وآياته، واستمرار آثارها، وبذلك يتميز برهان الداعية والإعلامي المسلم بالقوة، والثقة •

و- صناعة التميز النقدي التمحيصي: سنة التمحيص، عنصر مهم في التطبيقات النبوية، ولها أثر عظيم في صناعة التميز الحقيقي لدعوته، فقد واجه النبي ﷺ صنوفاً، وألواناً من المحن والابتلاءات في طريق دعوته، بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بهذه الحقيقة ﴿أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأُمَثَلُ فَالْأُمَثَلُ﴾^(٢)، ومن الحكم البليغة في ذلك أن يقوي عودها، ويطبعتها بطابع الجد، الذي يناسب طبيعتها، وهو الذي يميز دعوة الحق من الدعاوى الزائفة، ويمحص القائمين عليها، ويطردهم الزائفين منهم فلا يبقى بجوارها، إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة، التي لا تبتغي مغنم قريبة، ولا تريد إلا الدعوة خالصة، تبتغي بها وجه الله تعالى^(٣)، وصناعة هذا التمحيص المميز، يسير وفق سنة الله كما في قوله: ﴿وَلِيُمَجِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾^(٤)، ولهذا حرص النبي ﷺ على تميز الجماعة المؤمنة، وتثبيت قلوبهم، ودعوتهم إلى الصبر، وتذكر مواقف الدعاة السابقين، وما واجهوه من بلاء كبير، كما في حديث خباب رضي الله عنه قال: «شَكَّوْنَا إِلَى رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ،

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، ٤/ ١٩٠٥، ح ٤٦٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ١/ ٩٢، ح ٤٠٢.
- ٢- أخرجه النسائي في السنن الكبرى، باب أي الناس أشد بلاءً ٧/ ٤٧، ح ٧٤٤٠، والبخاري في مسنده، ٣/ ٣٩٤ ح ١١٥٠، والحاكم المستدرک علی الصحیحین ١/ ٩٩، ح ١١٩، وصححه ووافقه الذهبي.
- ٣- في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٦١.
- ٤- سورة آل عمران الآية: ١٤١.

وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟
 قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمُنْشَارِ
 فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمِشُّ بِأَمْشَاطِ
 الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ، أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ
 لِيَتَمَنَّيَ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ
 إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١). ومن آثار ذلك: أن
 يستطيع الدعاة والإعلاميين، أن يميزوا بين دعوات الحق من دعاوى الباطل،
 وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء، وليعلموا علم اليقين
 أن الطريق التي يسلكونها طريقاً غير ممهدة بالأزهار، ويتأكد على الدعاة
 والإعلاميين، أن يتصفوا دائماً بالتميز في العزيمة، فليس لمن كان في موضع
 القدوة أن يترخص، وهكذا تخرج الصحابة رضي الله عنهم، الذين كانت
 صفاتهم تؤهلهم لهذا التميز: علم مؤصل، ويعقبه عمل، ودعوة وجهاد في
 سبيل الله. ويفيد الحديث تنمية مهارات القلب من الثبات، والحلم، والتأني،
 والصبر، وترك العجلة.

المطلب السادس: التميز، وتنمية المهارات في العمل الآلي، والفكري.

دلت التطبيقات النبوية؛ أن صناعة التميز في العمل، إنما تكون بالإتقان فيه
 من الناحية الفكرية، والجسدية وتنمية الجودة في المهارات العملية الإدراكية،
 والحركية، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ
 إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»^(٢)، الإتقان: تميز في الجودة، والكفاءة في إدارة
 أدوات، العمل، ودقة التخطيط لها بفعالية، وهو من صميم الإحسان، الذي دعا

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب،، باب علامات النبوة ٣/ ١٣٢٢، ح ٣٤١٦، وأبو داود،
 في سننه، كتاب الجهاد، باب في الأسير، ٣/ ١، ح ١٢٦٥.

٢- أخرجه أبو يعلى، في مسنده، ٧/ ٣٤٩، ح ٤٣٨٦، والطبراني في المعجم الأوسط، ١/ ٢٧٥، ح ٨٩٧،
 وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح ١١١٣.

إليه النبي ﷺ، ورغب في استثماره، حتى في اللحظات الأخيرة من عمر الدنيا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ، وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»^(١)، فالزراعة رغب النبي ﷺ أن يتميز فيها العامل، وهي جهد عقلي، وجسدي، تتطلب أدوات وأجهزة، وتستدعي المهارة فيها، ويقاس عليها سائر الأعمال التجارية، والصناعية، والإعلامية والدعوية، تتطلب ضرورة تنمية المهارة الإدراكية، والجسدية في أدواتها، وآلياتها، وينمي الرسول ﷺ حب العمل، وصناعة التفوق العلمي فيه، من خلال أمره بغرس الفسيلة في أصعب اللحظات، وأحرجها، والحياة الدنيا تلفظ أنفاسها الأخيرة، مما يشعر بأهمية إعمار الدنيا بالعمل المنتج المعطاء، وتحصيل الأعمال الحرفية، والمهنية، والعقلية، في وقت المهلة، وضرورة التميز والإبداع والبراعة في تقنياتها، وكل ذلك من حكم الاستخلاف الرشيد التي نوه بذكرها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٢)، إن «توكيد قيمة العمل، وإبرازه، والحض عليه، فكرة واضحة شديدة الوضوح في مفهوم الإسلام، ولكن الذي يلفت النظر هنا ليس تقدير قيمة العمل فحسب، وإنما هو إبرازه على أنه الطريق إلى الآخرة الذي لا طريق سواه»^(٣)، كما يدعو الرسول ﷺ إلى اصطناع المال، وتوظيفه، ومهارته في شتى المهن، والأعمال، ويبين أهميته، وعظم ثمرته، ليكون من أعظم المقاصد التي يعتني بها المسلم والداعية والإعلامي بخاصة، في كسبه واحترافه، قال ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٤)،

١- أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ٣/ ١٩١، ح ١٣٠٠٤، والبخاري في مسنده ١٤/ ١٧، ح ٧٤٠٨، قال الشيخ الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد ١/ ١٦٨، ح ٤٧٩.

٢- سورة هود الآية: ٦١.

٣- قبسات من الرسول، محمد قطب ١/ ١٠.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل ٢/ ٧٣٠، ح ١٩٦٦، والبخاري في مسنده ٥/ ٣٥٨، ح ١٩٩٠.

ينمي الرسول ﷺ الإحساس بتقدير العمل، وينبه إلى أنه صنعة النبي داود عليه الصلاة والسلام، والشعور بأهمية التميز بالأهداف النبيلة، عند القيام بالأعمال، واستحضار النية الحسنة، وابتدأ الأوقات، ليتحقق الأجر وتكتسب البركة في الأوقات، والحرف، وتقوى الهمم والعزائم ولا تفتر، إنه إذا كان المؤمن مطالب بالتميز في العمل الدنيوي، وتكريم العمل وتقديره، فالداعية والإعلامي، أولى أن يكون عاملاً معطاءً لدينه ما استطاع متميزاً في جميع ميادين الدعوة والإعلام، ما دام فيه قدرة وعطاء ولديه أهداف وهمة عالية، وفي الحديث تنويه بأهمية تنمية المهارة في العمل الدنيوي النافع، لأنه منهج سديد لعمارة الدنيا بالحق والعدل، والخير، ومسلك رشيد في صناعة الإبداع، في شتى المهن والأعمال، واستثمار هذه المهارة في، تفعيل سبل البناء الحضارية، والإيجابية في خدمة الناس، ونفع الأمة كما قال ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»^(١)، «فالعمل الدنيوي المباح فيه أجر إذا كان بنيةً صالحةً، فكيف إذا كان هذا العمل فيه خير للعباد، وفيه مصلحة لهم في دنياهم؟! كأن يُغيث ملهوفهم، أو يساعد ضعيفهم، أو يعطف على صغيرهم، أو يرفق بهم، أو يعين محتاجهم، أو يطعم جائعهم، أو يكسو عاريهم، فكيف إذا كان هذا العمل فيه مصلحة دينية أيضاً للعباد، بأن يهدي الضالين، والكافرين، أو يرشد المسلمين المنحرفين، أو يعلم الجاهلين، أو يجمع المتفرقين، أو يصلح الفاسدين فكم في هذا من الأجر والثواب»^(٢)، وكل هذه الأعمال تدخل، في مجال الدعوة والإعلام، لأن فيها نفع متعدد، وعام، ومثل هذه الخدمات تنمي في نفس الداعية والإعلامي التواضع، وتعمق في نفسه معاني الخير، وعلو الهمة، والاحتراف، والمهارة، والتميز بحب الآخرين، بما يعود على لمجتمع والأمة من خير، ونفع عميم.

١ - أخرجه الطبراني، المعجم الكبير ١١ / ٨٣، ح ١٣٤٦٨، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، ١ / ٤٧، ح ٣٦ وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة ١ / ٣٢٤، ح ٤٤٣ والألباني في السلسلة الصحيحة، ٢ / ٤٨٠، ح ٩٠٦

٢ - مقالات الشيخ سلمان العودة، موقع الإسلام اليوم ٣٩ / ١٦٦ / ٨ / ١٤٢٣هـ.

المطلب السابع: التميز، وتنمية المهارات في المعاملات.

المعاملات المالية ركن من أركان دين الإسلام، وهي علم يحتاج إلى تأصيل شرعي، وفن لا بد من ضبط أنشطته، وهي قدرات، ومهارات تفتقر إلى صناعة التميز النظري، والتطبيقي في إتقانها، وتنظيمها، وتنميتها، وتطويرها، وللدعوة والإعلام دور عظيم، في مجال عرض المعاملات الصحيحة، والتحذير من المعاملات المحرمة، لما تملكه من وسائل، وأساليب الدعاية والإعلام المتطورة في تقنياتها، ودواعي الجذب والتأثير المباشر في إقناع المدعويين بعوامل الاستمالة العقلية، والقلبية، وعلى الدعاة والإعلاميين مسؤولية تبصير الناس بالحق، واتباع ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، من أحكام، وقواعد فكرية، وتطبيقية في كافة أبواب المعاملات الاقتصادية، وهذا يتطلب ضرورة الاقتداء بهدي الرسول ﷺ، في بناء المسلم الفقيه في أحكام المعاملات، وتنمية قدراته ليكتسب أنواع المهارات، في شئون المعاملات الشرعية المالية، وتصير لديه ملكة راسخة في الفصل بين الحلال، والحرام وعدم الخلط بينهما، وبذلك يحقق التميز المحمود في تجارته، وكسبه، واستثماره، وإنفاقه، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ عَامَ خَيْرِ بَقْلَادَةٍ فِيهَا ذَهَبٌ وَخَرْزٌ - قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَابْنُ مَنِيعٍ فِيهَا خَرْزٌ مُعَلَّقَةٌ بِذَهَبٍ - ابْتَاعَهَا رَجُلٌ بِتِسْعَةِ دَنَانِيرَ، أَوْ بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَتَّى تَمِيزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ»، فَقَالَ إِنَّمَا أَرَدْتُ الْحَجَارَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَتَّى تَمِيزَ بَيْنَهُمَا، قَالَ فَرَدَّهُ حَتَّى مِيزَ بَيْنَهُمَا»^(١)، قال الخطابي رحمه الله: «نهى عن بيع الذهب بالذهب مع أحدهما شيء غير الذهب»^(٢)، وقال الشوكاني رحمه الله: «الحديث استدل به على أنه لا يجوز بيع الذهب، مع غيره بذهب، حتى يفصل من ذلك الغير ويميز عنه،

١ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب بَيْعِ الْقِلَادَةِ ٥/ ٤٦، ح ٤١٦٠ وأبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في حَلِيَةِ السَّيْفِ ٣/ ٢٥٤، ح ٣٣٥٤ والترمذي في سننه، كتاب البيوع، باب ما جاء في شراء القلادة ٣/ ٥٥٦، ح ١٢٥٥ واللفظ لأبي داود.

٢ - معالم السنن للخطابي ٢٨٨، ٣/ ٧١.

ليعرف مقدار الذهب المتصل بغيره، ومثله الفضة مع غيرها بفضة، وكذلك سائر الأجناس الربوية؛ لاتحاديها في العلة، وهي تحريم بيع الجنس بجنسه متفاضلاً^(١)، فحرص ﷺ على تصفية معاملة بيع الصحابي رضي الله عنه، من شوائب الربا المحرم، وتنمية لشعوره بضرورة تحري الحلال في معاملاته، لما لها من أثر في صلاح قلبه، وجوارحه، ومحبة الطيب وكراهة الخبيث، وقد عمل النبي ﷺ، على صناعة التميز في حسن إدارة الموارد الطبيعية والمكتسبة، وتنمية المهارات في الإنتاج الدنيوي، والأخروي، وحسن استغلال الموارد، فقال ﷺ: لَعَمْرُؤُ ابْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا عَمْرُؤُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيَغْنَمَكَ اللَّهُ، وَيُسَلِّمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ رَغْبَةً صَالِحَةً مِنَ الْمَالِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ أُسَلِّمْ رَغْبَةً فِي الْمَالِ، وَلَكِنْ أُسَلِّمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: يَا عَمْرُؤُ نَعَمْ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(٢)، فدعا ﷺ إلى العناية بتنمية المال الطيب، والمهارة في استثماره في أوجه البر، وفي المقابل ذم الرسول ﷺ من اتخذ المال هدفاً لذاته، ووسيلة للغش، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، مَرَّ عَلَى صُبْرَةَ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بِلَالاً فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَمَا يَرَاهُ النَّاسُ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣)، إن الرسالة الإعلامية والدعوية، يجب أن تحوي برامجهما على أسلوب الترويج في الصدق المعاملات، والترهيب من الغش فيها، وهذا التحذير الشمولي، يعتبر قاعدة جامعة لكل غش في جميع مجالات الحياة، وينمي مشاعر اليقظة ويذكي المراقبة الذاتية في جميع المعاملات، وإن من واجب الدعاة والإعلاميين، مسؤولية الدعاية والإعلام الاقتصادي المركز، لهذا

- ١- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار - للشوكاني ٥/ ٢٥٨.
- ٢- أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١١٢، ح ٢٩٩، والإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٩٧، ح ١٧٧٩٨، وصححه إسناده الحافظ العراقي في المغني ٢/ ٨٩٢٣٢٥٣.
- ٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ١/ ٦٩، ح ٢٩٥، والترمذي، في سننه، كاب البيوع باب ما جاء في كراهية الغش ٣/ ٦٠٦، ح ١٣١٥.

التطبيق النبوي في استغلال الفرص المناسبة لتقديم النصح، والتوجيه، والدعوة والإعلام بالأحكام الشرعية بالتفصيل، في عمليات الملكية، والإنتاج والاستثمار، والإنفاق، والتبادل، والاستهلاك، التي بينها الرسول ﷺ ووضح مشكلاتها، كما في حديث حزام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه، قال: «ابْتَعْتُ طَعَامًا مِنْ طَعَامِ الصَّدَقَةِ، فَرَبِحْتُ فِيهِ قَبْلَ أَنْ أَقْبِضَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: لَا تَبِعْهُ حَتَّى تَقْبِضَهُ»^(١)، وفي نهْي النَّبِيِّ ﷺ، تنمية لمصالح عظيمة من ضمان حقوق البائع في الثمن، والمشتري في السلعة، وحفظ عقد البيع، وتحقيق الثقة في الملكية والتراضي، كما هدف ﷺ، منع الضرر، والضرار، إما بأن يتخذ ذريعة للتوصل إلى الربا، أو غرر انفساخ العقد، على تقدير الهلاك قبل القبض، أو بغلاء السلعة لكثرة التداول عليها فيتضرر المشتري المحتاج لها، وفق ما قرره العلماء^(٢)، فحرص ﷺ على صنع الاستقرار، ومحو المنازعات في المعاملات المالية، وبذلك يؤسس الرسول ﷺ للمسلمين، العقائد الصحيحة، والأخلاق الحسنة، والقواعد الشرعية، في كافة منظومة المعاملات، لكي يتميزوا بها في علاقاتهم الاقتصادية، وتنمو مهاراتهم الفكرية، والقلبية، والسلوكية في كافة أنشطتها، على أساس من الدقة التحري والضبط لأحكام الحلال والحرام فيها، والحيطه للأموال المشتبهة بينهما، وفي ذلك سبيل لتحقيق كمال الورع والإخلاص والصدق، وحيث تتجلى آثارها؛ في النفس، والعقل، والعلم، والعمل؛ والفرد، والمجتمع .

١- أخرجه النسائي في، السنن الكبرى، كتاب البيوع، بيع الطعام قبل أن يستوفي ٥٦/٦، ح ٦١٥٢، والإمام أحمد في مسنده ٤٠٢/٣، ح ١٥٣٥١، وابن أبي شيبة في، مصنفه، ٣٦٥/٦، ح ٢١٧٤٣. قال الألباني: صحيح، أنظر صحيح سنن النسائي ٢٨٦/٧.
٢- انظر بالتفصيل: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ١٥١/٥، الملخص الفقهي، صالح الفوزان ٣١/٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله، بعثه الله رحمة للعالمين، وألف به بين قلوب المؤمنين، على الهدى، ودين الحق، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد: في ختام هذا البحث الموسوم بـ: «التطبيقات النبوية لصناعة التميز، وتنمية المهارات»، يطيب لي إبراز أهم النتائج التي توصلت إليها:

١- التعريف بمصطلحات البحث، وإبراز مدلولاتها، ومقاصدها اللغوية، والشرعية.

٢- أبان البحث الأدلة من القرآن الكريم، على التطبيقات النبوية لصناعة التميز، وتنمية المهارات، والتي تعتبر المنابع، والمنطلقات لهذه التطبيقات.

٣- جاء البحث مسهماً، في إيضاح التطبيقات النبوية لصناعة التميز، وتنمية المهارات، من خلال مرتكزات العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والعلم، والعمل، والمعاملات، وبيان أثرها العظيم في بناء منظومة متكاملة في مجال الدعوة، والإعلام.

٢- إن الثمرة الجامعة، والمزايا الجليلة لهذه التطبيقات النبوية، تتجلى في تخريج كفاءات دعوية وإعلامية مؤصلة، وصياغة شخصيات متميزة، ذوي ملكة علمية متميزة، وجودة في المهارات وكفاءة في التفكير الإبداعي، والمنهجي في جميع مجالات الحياة، وقدرة على التعامل مع المستجدات، والتطورات العالمية، وتوظيف النصوص الشرعية في كافة ميادين، ومجالات العمل الدعوي والإعلامي، ومواكبة المعطيات الحديثة.

٣- اشتملت التطبيقات النبوية، على نماذج راقية في توجيه، وتنمية المهارات

للصلاح، والخير، والهدى، والرشد.

٤- ضرورة استغلال التطبيقات النبوية، في تنمية أركان العملية الدعوية والإعلامية، وتأصيلها، وصبغها بالصبغة التطبيقية.

٥- المهارات الفطرية، والمكتسبة من نعم الله التي سخرها لنا، وقد جاءت التطبيقات النبوية مُوجَّهة لها أكمل توجيه، ومقومة لها على، وجه التمام، والكمال، وهكذا ينبغي للدعاة والإعلاميين، أن يسلكوا منهج النبي ﷺ، في اكتشاف ما لدى الشباب، من مواهب، واستعدادات، والعمل على تنميتها، وتوجيهها لمسالك رشيدة.

٦- الإبداع المتميز من صفات الله قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ إِِنَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ﴾^(٢).

٧- جاءت التطبيقات النبوية بالهدى، والرشاد، في تنمية القوى العلمية، والتعليمية لدى المسلم.

أهم التوصيات:

١- يوصي الباحث، أن تتبنى الجامعات الإسلامية في دول العالم الإسلامي، خطة منهجية شاملة؛ لاستثمار الكنوز التطبيقية في السنة النبوية المطهرة، وتفعيلها من خلال صياغة برامج، ومشاريع تنموية، ومهارية، وفق الأصول الشرعية الشاملة.

٢- تزخر التطبيقات النبوية، برصيد ضخم، وثروة هائلة، في صناعة التميز،

١- سورة البقرة الآية: ١١٧.

٢- سورة النمل الآية: ٨٨.

وتنمية المهارات، مما يستدعي ضرورة إنشاء مركز متخصص، يعنى بتوظيف الذخائر النبوية، في جميع النواحي العلمية، والفنية، والإدارية للدعوة والإعلام، ووضع الخطط المناسبة لذلك.

وإن مما يحمد لكلية الدراسات الإسلامية بدبي العريقة، اختيارها الموفق، بطرح هذا الموضوع للمناقشة، والمدارسة، والأبحاث العلمية، مما ينبىء بأهميته الكبرى، التي تتطلبه المرحلة الراهنة، والمستقبلية بإذن الله، شكر الله سعي المسؤولين فيها، وبارك في جهودهم.

سائلاً الله تعالى أن يجمع كلمة المجتمعات المسلمة، على هذه الأصول، وأن يوحد صفوفهم على عقيدة التوحيد الخالص، إنه سميع مجيب.

قائمة المراجع

- القرآن الكريم.
- ٣٠ طريقة لخدمة الدين، رضا أحمد صمدي، دار الخلفاء الراشدين، القاهرة، ١٤٢٦.
- الإدارة والإشراف التربوي، أحمد الخطيب، وجيه الفرخ، رداح الخطيب، دار الأمل، الأردن، ط الثالثة.
- الملخص الفقهي، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- الفقه الإسلامي وأدلته، أ.د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط الرابعة.
- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت، د-ت.
- أخبار المدينة، أبو زيد عمر بن شبة النميري، ت: علي محمد دندل وياسين سعد الدين، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد بن عبدالعزيز الحداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه مصر، ١٩٦٨.
- أصول الدعوة، الدكتور عبد الكريم زيدان، مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠١ هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار

- الشنقيطي، دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد بن الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٩٨٧.
- أطفال عند القمة، زكريا الشربيني، يسرية صادق، دار الفكر، القاهرة، ١٤٢٢ هـ.
- الإبداع العلمي، د. أحمد بن علي القرني، دار عالم الفوائد، مكة، ٢٠٠٧.
- الإعلام الإسلامي المبادئ - النظرية - التطبيق، محمد منير حجاب، دار الفجر للنشر، القاهرة، ط الثانية، ٢٠٠٣.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- المشابهة بين المعتزلة الأوائل والمعتزلة الجدد، الداعية فؤاد الشلهوب، موقع صيد الفوائد، تاريخ الإضافة، ٨-١٢-١٤٢٤ هـ.
- المنهاج النبوي في دعوة الشباب، سليمان بن قاسم العيد، دار العاصمة، الرياض، ط الأولى، ١٤١٥ هـ.
- المنهاج في شعب الإيمان، الحسين بن الحسن الحلبي، ت: حلمي فوده، دار الفكر، د. م، ط الأولى، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- النهاية في الفتن والملاحم، إسماعيل بن كثير، ت ٧٧٤ هـ، تحقيق خليل شيحا، محمد خير حلبي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط الثانية، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي أبو الفضل عياض بن موسى، ت: د. أحمد محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، د - ت.

- تفسير القرآن الحكيم تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- التفسير القرآني للقرآن، الدكتور، عبد الكريم الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، ١٩٧٦.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، ت: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب: ١٣٨٧ هـ.
- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، مطبعة المدني، القاهرة، د-ت .
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠١ م.
- جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، تحقيق صدقي العطار، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥ م.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٦.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
- جمهرة اللغة، أبو بكر بن دريد دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٦هـ.
- الْجَوَابُ الْكَافِي لِمَنْ سَأَلَ عَنِ الدَّوَاءِ الشَّافِي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر

- ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ط الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- دائرة معارف الأسرة المسلمة، علي بن نايف الشحود، موقع صيد الفوائد، تاريخ الإضافة، ١٥ / ٣ / ١٤٣٠.
- دلائل النبوة، أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد البيهقي تحقيق: عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٨هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، ط الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣هـ، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت - د-ت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت ٢٩٧هـ، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ت.
- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط الأولى ١٣٤٤هـ.

- شرح الأربعين النووية، عطية بن محمد سالم، رابط الصفحة / http://www.islamhouse.com/p/5124، تاريخ الإضافة: ٢٠٠٦
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، ط الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان، ت ٧٣٩هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثالثة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، ط ١، ١٤٢١هـ.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- صحيح سنن النسائي، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م،
- صناعة التميز، محمد سرار اليامي، مؤسسة الريان، بيروت.
- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي، دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ-١٩٩٨م بيروت.

- عبقرية محمد ﷺ، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩١ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، جمع جمال الشقيري، مكتبة دار السلام، الرياض، ط الثالثة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- في النفس والدعوة، رفاعي سرور، دار هادف للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٤٢٩ هـ.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت - القاهرة، ط العاشرة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد بعبد الرؤوف المناوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- قبسات من الرسول، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط الخامسة، ١٣٩٨ هـ.
- قرارات المجمع الفقهي الإسلامي، التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، الدورة الأولى ١٣٩٨ هـ - الدورة التاسعة عشرة ١٤٢٨ هـ، جمع وترتيب: الباحث جميل أبو سارة.
- كتاب الصناعتين: الكتابة و الشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، موقع الوراق، ٢٠٠٠-٢٠١٢.
- كتاب العلم، الحافظ أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.
- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، الناشر: دار

ومكتبة الهلال، ٢٠٠٠-٢٠١٢.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الناشر: إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٢٢ هـ.
- المجتبي من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله الحاكم ٣٢١ هـ - ٤٠٥ هـ، ط الأولى، ١٤٢٧ هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، إشراف وتحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ٢٠٠٩ م.
- مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير، مختصر فيض القدير شرح الجامع الصغير للإمام عبد الرؤوف المناوي، إعداد وترتيب: أبو أحمد معتز أحمد عبد الفتاح، مكتبة صيد الفوائد ٢٤ - ٥ - ١٤٢٩.
- معالم السنن، أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي، المطبعة العلمية، حلب، ط الأولى، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق عوض الله، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري

- الأندلسي أبو عبيد، الناشر: عالم الكتب - بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- المغازي للواقدي، مُحَمَّد بن عُمَر الواقدي، ت: مارسدن جونس، دار الأعلمي - بيروت، ط الثالثة - ١٤٠٩ / ١٩٨٩.
- مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب المسلم، أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٦م.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، السَّخاوي، عبد الرحمن، الناشر: دار الكتاب العربي، ط الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائفها، أبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي، مكتبة الرشد سنة ٢٠٠٦ م
- المنتقى شرح الموطأ، سليمان بن خلف الباجي، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، ط الأولى، ١٣٣٢ هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط الثانية، ١٣٩٢هـ.
- مهارات الاتصال، محمد عبد الغني، ١٩٩٩، القاهرة، مركز تطوير الأداء والتنمية.

- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد الشهير بالشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، ط الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- نواذر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، الناشر: دار الجيل - بيروت ١٩٩٢م.
- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي ابن محمد الشوكاني، الناشر: إدارة الطباعة المنيرية.
- المجلات: مجلة الجامعة الإسلامية العدد ١٨٠ ١٤١٩هـ.

التطبيقات النبوية في صناعة التميز
وتنمية المهارات: المال والأعمال نموذجاً

أ.د. سيد حسن عبد الله
جامعة الأزهر - مصر

من أبرز فقرات البحث

«توجب السنة النبوية رفع مستوى المعيشة بالوسائل المتنوعة، بتوجيه الطاقات لاستخراج كنوز الأرض والإفادة من مدخرات الكون لتحقيق الكفاية الإنتاجية، وذلك من خلال العمل الدائب المستمر، إذ يحرم على المسلم أن يعطل قواه أو يوجه طاقته إلى غير ما يفيد، أو يركن إلى العجز والكسل، أو يقنع بالدون، إذا كان قادراً على الكمال، وتحقيقاً لهذه الفريضة أمر النبي - ﷺ - المسلم أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ولا يعجز، وألا يستسلم لليأس عند العقبات ومدح اللقمة التي يكسبها الإنسان بجهد وعمله. كل ذلك على أساس من الأخلاق والقيم الراشدة، فلا فصل في الإسلام بين الاقتصاد والأخلاق، والدين والدولة، وذلك في الشأن الاقتصادي كله، في الإنتاج والتوزيع والتداول والاستهلاك».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الباحث المنصف الأمين يجزم بيقين أن بالسنة النبوية المطهرة مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، من شأنها أن تستوعب كافة القضايا السياسية والمالية والاجتماعية، وغيرها مما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع مجتمعاتنا الإسلامية.

وتحقيقاً لهذه الوظيفة التنموية في إطار المنهج النبوي الراشد ظهر لنا جلياً الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق في كل الحالات الاقتصادية في الإنتاج والتوزيع والتداول والاستهلاك، وذلك بإنتاج ما يكفي المجتمع كماً ونوعاً، وترشيد استخدام الموارد وخفض نفقات الإنتاج، وإلغاء هامش الربح الراجع إلى الوساطة والمخاطرة، وإلغاء نفقات الدعاية والإعلان، وغيره كثير مما دلت عليه السنة النبوية.

كما أرشدت السنة النبوية إلى أن صلاح الأمة في صلاح الأئمة، فالإنسان في أي زمان ومكان مولع دائماً بتقليد الأئمة والأمراء في أحوالهم العامة والخاصة، فإذا كان الإمام مقتصداً معتدلاً في نفقاته كان أغلب المسلمين كذلك، فإن أسرف وتعدى، كان هذا هو دأب الناس جميعاً شاء ذلك أم أبى، من أجل هذا كان رسول الله - ﷺ - حريصاً على أن يكون القدوة المثالية للأغنياء والفقراء في آن واحد، فلا يسرف الأغنياء ولا يتحسر الفقراء.

وزيادة على ما تقدم فإن منهج صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة

النبوية ليس قاصراً على زمن معين، بل هو حكم قائم في كل حين وأن، يتجلى ذلك بوضوح في مطالبته - ﷺ - المسلم بالاستمرار في الغرس، حتى ولو كانت فرصته في الحصول على ثمار غرسه منعدمةً.، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا فَلْيَفْعَلْ»^(١)، وفي هذا دليل على إرادة الشرع الإسلامي الاستمرار في عمارة الكون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

مشكلة البحث:

السنة النبوية ليست مجرد مصدر للتشريع في المجالات التعبدية فحسب، بل هي مصدر شامل لكل ما لا تتم الحياة إلا به، لها في مختلف المجالات واقع وتطبيق، تصنع المعجزات في معترك الحياة، وتضع في كل بناء لبنة.

هذه الصفات نجدها علامات مضيئة، وقوانين راشدة في مجال المال والأعمال، تصنع التميز في كل زمان ومكان بما يناسبه، وتنمي المهارات الفردية والجماعية، بل تزيد من درجة نمو الاقتصاد من اقتصاد متخلف إلى اقتصاد نامٍ ومتقدم.

أهمية البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان شمولية منهج السنة النبوية لكل ما من شأنه أن يصنع التميز، ويسمو باقتصاديات الفرد والجماعة نحو مكانة رائدة، تكفل تحقيق المستوى المعيشي اللائق، وتدبير الموارد المالية اللازمة لتحقيق سياسة الاكتفاء الذاتي، وتنمية المهارات، وتحويل الطاقات العاطلة إلى طاقات إنتاجية، واليد الآخذة إلى يد معطية، وتحويل الأموال المكتنزة إلى قوة شرائية تضمن تحقيق

١ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب البيان، باب اصطناع المال (ص، ١٦٨)، والإمام أحمد في مسنده، (٣ / ١٩١) رقم (١٣٠٠٤) وصححه الألباني. انظر: صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، (١ / ١٩٥).

التنمية الشاملة والتوازن العام .

الدراسات السابقة:

بالبحث في المكتبة الإسلامية المتخصصة، لم أقف على دراسة متخصصة في مثل هذا الموضوع، سوى الدراسات الاقتصادية الخاصة بمدى تميز النظام الاقتصادي الإسلامي عن غيره من الاقتصاديات الرأسمالية أو الاشتراكية، كتلك التي كتبها أستاذنا الدكتور / محمد شوقي الفنجري - رحمه الله تعالى - وما كتبه فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، والأستاذ الدكتور / محمد عبد المنعم عفر، وغيرهم، وهي دراسات عامة تستوعب كافة قضايا الاقتصاد الإسلامي، مما كان له عظيم الأثر في إظهار الكثير من أوجه تميز الاقتصاد الإسلامي عن غيره، في ضوء المنهج النبوي الراشد .

مبحث تمهيدي: في بيان أن صناعة التميز وتنمية المهارات فريضة شرعية .

من الثابت أن المنهج الإسلامي في مختلف جوانب الحياة قائم على صناعة التميز وتنمية المهارات بما لا يخالف قصداً من مقاصد الشريعة، ويعد ذلك فريضة شرعية، ومظهراً من مظاهر مرونة التشريع وكماله، ووجه من وجوه وسطية الإسلام، وقد دلت على ذلك الكثير من النصوص الشرعية، قرآناً وسنة .

فمن القرآن الكريم آيات كثيرة، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَآيَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠] . قال أبو جعفر الطبري: «فمعنى الآية: وإذا قيل لهؤلاء الكفار: كلوا مما أحلّ الله لكم، ودعوا خطوات الشيطان وطريقه، واعملوا بما أنزل الله على نبيه - ﷺ - في كتابه - استكبروا عن الإذعان للحق وقالوا: بل نأتم بآبائنا فننتبع ما وجدناهم عليه، من

تحليل ما كانوا يُحلُّون، وتحريم ما كانوا يحرمون^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ أَنْتَ كَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [سورة التوبة: ٣١] وفي الآية دليل على فساد التقليد، وفي هذا يقول الإمام ابن عبد البر: «قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه»، وذكر هذه الآية، ثم قال: «وروي عن حذيفة وغيره، قال: «لم يعبدوهم من دون الله ولكن أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم»^(٢). واذم التقليد وفتح باب الاجتهاد بضوابطه المعتبرة شرعا يفتح الباب أمام العقول الراشدة أن تضع من القوانين ما يضبط سلوكيات المجتمع، وصناعة حالة من التميز، وتنمية المهارات وحينئذ لا يلفظها الشرع بل يؤيدها؛ لأنه من الثابت أن الشرع لا يناقض قضايا العقول الراجحة بل يؤيدها.

أما من السنة النبوية: فقد أرشدت السنة النبوية إلى وجوب تميز المسلم في كل سلوك من شأنه أن يسهم في صناعة مجد أو يدفع سهام النيل من مسيرة التقدم والبناء، نجد ذلك واضحا في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جَحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ! قَالَ: «فَمَنْ»^(٣).

- ١- جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، (٣/ ٣٠٧).
- ٢- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (٣/ ٢٠٩). وقريب منه ما ذكره الإمام الشوكاني في كتابه "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد" (ص ٤١).
- ٣- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الأنبياء، باب ما ذكر في بني إسرائيل، (٣/ ١٢٧٤) رقم (٣٢٦٩). ومسلم في صحيحه من كتاب العلم، باب إتباع سنن اليهود والنصارى، (٨/ ٥٧) حديث رقم (٦٩٥٢)

ومن الثابت أن السنن الواردة في الحديث يراد بها: السبل والمناهج والعتادات، وقوله - ﷺ - : «شبراً بشبر» كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم، رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية لله تعالى ومخالفة لشرعه. وقوله ﷺ : «جحر ضب» أي ثقبه وحفرته التي يعيش فيها. والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه وردائه وبتن ريحه وخبثه^(١). وما أروع هذا التشبيه الذي صدق معجزة لرسول الله - ﷺ - فنحن نشاهد تقليد أجيال الأمة لأهم الكفر في الأرض فيما هي عليه من أخلاق ذميمة وعادات فاسدة، تفوح منها رائحة النتن وتمرغ أنف الإنسانية في مستنقع من وحل الرذيلة والإثم، وتندرب بشر مستطير. وقوله - ﷺ - (فمن) معناه: مَنْ يكون غيرهم إذا لم يكونوا هم، وهذا واضح أيضاً فإنهم المخطئون لكل شر والقدوة في كل رذيلة^(٢).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «والمراد: الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله - ﷺ - فقد وقع ما أخبر به - ﷺ -»^(٣).

كما نهى النبي - ﷺ - أن يكون المسلم «إمعة» بل أوجب عليه أن يكون صاحب رؤية ثابتة، وعين بصيرة ناقدة، فعن حذيفة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»^(٤).

١- يقول ابن حجر في الفتح: "إنما وقع لجحر الضب لشدة ضيقه وردائه، ومع ذلك فإنهم لاقتنائهم آثارهم واتباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضيق الرديء لتبعوهم". فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (٤٩٨/٦).

٢- ينظر: فتح الباري، ابن حجر (٤٩٨/٦)، شرح النووي على مسلم، أبو زكريا يحيى النووي (٢٢٠/١٦).

٣- شرح النووي على مسلم، أبو زكريا يحيى النووي (٢٢٠/١٦).

٤- أخرجه الترمذي في سننه من كتاب باب الإحسان والعفو (٣٦٤/٤) رقم (٢٠٠٧)، قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب"، وقال الشيخ الألباني: ضعيف. انظر: ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، (ص ٢٢٦).

ونقل المباركفوري أقوال العلماء في «الإمعة»، منها أنه الذي يتابع كل ناعق، ويقول لكل أحد أنا معك؛ لأنه لا رأي له يرجع إليه. ومعناه المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا رؤية ولا تحصيل برهان... وفيه إشعار بالنهي عن التقليد المجرد حتى في الأخلاق فضلاً عن الاعتقادات والعبادات^(١).

أهمية الاجتهاد الشرعي في مجال تنمية المال والأعمال وضوابطه:

من الثابت بيقين أن المبادئ والأصول المالية التي وردت بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مبادئ عامة ومحدودة، ومن ثم فقد استلزم الإسلام الاجتهاد في تطبيقها بما لا يخالف القرآن والسنة والعمل على ملاءمة تطبيقها باختلاف ظروف الزمان والمكان، فعمل الباحث في المالية الإسلامية شأن أي باحث في كافة المجالات الإسلامية، هو تطبيقي لا إنشائي؛ ذلك لأنه لا ينشئ حكماً من عنده، وإنما هو يظهر ويكشف عن حكم الله تعالى في المسألة المطروحة.

إن الباحث في الاقتصاد الإسلامي لا يكفي أن يكون ملماً بالدراسات الاقتصادية الفنية، وإنما أيضاً الإمام وعلى نفس المستوى بالدراسات الفقهية والأصولية والتمييز بين النصوص الشرعية. ومن أمثلة ذلك: ما ورد في السنة النبوية من قوله - ﷺ - : «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُزْرِعْهَا أَوْ فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ وَلَا يُكَارِهَا بِثُلْثٍ وَلَا بِرُبْعٍ وَلَا بِطَعَامٍ مُسَمَّى»^(٢). فقد اعتبر الإمام ابن حزم أن هذا النص هو تشريع عام يلتزم بحكمه المسلمون في كل زمان ومكان، ومن ثم فهو يمنع بصفة مطلقة كراء الأرض أي تأجيرها، ويقرر في عبارات صارمة بكتابه

١- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، (١٢٣/٦) بتصرف.

٢- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب البيوع، باب في التشديد في ذلك، (ج٣/١٤٧٦) رقم (٣٣٩٥). قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني (٣٩٥/٧) رقم (٣٣٩٥).

المحلى: «إن الأرض لمن يزرعها»^(١). بينما يذهب أغلب علماء الفقه الإسلامي إلى أن هذا النص هو تشريع خاص موقوف بتوافر شروط معينة، واستدلوا على ذلك بأنه حين هاجر الرسول - ﷺ - إلى المدينة وكانت تتمثل الثروة العامة في الأرض وزراعتها، وكانت يومئذ في يد الأنصار وحدهم، ومنهم من كان يملك فوق حاجته ويعجز عن زراعة ما كان يملكه فيؤجره لغيره، فرأى الرسول - ﷺ - أن المصلحة تقضي بالنهي عن كراء الأرض، وأشار على من عنده فوق طاقته أو حاجته أن يمنح أخاه ما زاد عن حاجته؛ ليقوم على زراعتها دون أن يأخذ منه نظير لذلك، وذلك توسعة على المهاجرين بإيجاد عمل لهم يرتزقون منه حتى إذا تغيرت المصلحة واستقرت الأمور ووجد الفقراء من المهاجرين رزقاً، أباح - ﷺ - لأصحاب هذه الأرض كراءها لغيرهم كما هو الحال قبل مقدمه المدينة^(٢).

ومن هنا يتبين أن الخلاف حول فهم الأدلة الشرعية أدى إلى خلاف خطير في المجال الاقتصادي، ولا يحسمه سوى الدراية الدقيقة بأصول الفقه ومعرفة سبب نزول النص أو أحوال تطبيقه، وهذا وجه من وجوه تميز الاقتصاد الإسلامي عن غيره من الاقتصاديات الأخرى.

المبحث الأول

مقومات وأسس صناعة التمييز في إدارة المال والأعمال كما طبقها النبي - ﷺ -

السنة النبوية المطهرة حافلة بكثير من المقومات التي تصنع التمييز في مختلف المجالات؛ لأنها مصدر من مصادر التشريع، سأذكر بعضها في مجال إدارة المال والأعمال؛ للتدليل على صحة هذا الوصف، وذلك كما يلي:

١- ابن حزم، المحلى بالآثار، الجزء التاسع، المسألة (١٢٩٧).
٢- انظر: الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام، الشيخ على الخفيف (ص ١٢٨).

أولاً: صلاح الأمة في صلاح الأئمة:

وبيانه أن الإنسان في أي زمان ومكان مولع دائماً بتقليد الأئمة والأمراء في أحوالهم العامة والخاصة، فإذا كان الإمام مقتصداً معتدلاً في نفقاته كان أغلب المسلمين كذلك، فإن أسرف وتعدي، كان هذا هو دأب الناس جميعاً شاء ذلك أم أبى، من أجل هذا كان رسول الله - ﷺ - حريصاً على أن يكون القدوة المثالية للأغنياء والفقراء في آن واحد، فلا يسرف الأغنياء ولا يتحسر الفقراء، وفي هذا يروى عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - نَارٌ. قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةَ فَمَا كَانَ يُعْيِشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَاهُ»^(١).

وتحقيقاً لهذا المعنى كان - ﷺ - عليه يتنزه عن الشبهات، ولا يأتيها، ففي صحيح البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال: «مَرَّ النَّبِيُّ - ﷺ - بِتَمْرَةٍ مَسْقُوطَةٍ، فَقَالَ: «لَوْ لَا أَنْ تَكُونَ مِنْ صَدَقَةٍ لَأَكَلْتُهَا»^(٢)، جاء في فتح الباري ما نصه: «لعله - ﷺ - كان يقسم الصدقة ثم يرجع إلى أهله فيعلق بثوبه من تمر الصدقة شيء فيقع في فراشه، وإلا فما الفرق بين هذا وبين أكله من اللحم الذي تصدق به على بريرة، قلت: - أي ابن حجر - ولم ينحصر وجود شيء من تمر الصدقة في غير بيته حتى يحتاج إلى هذا التأويل، بل يحتمل أن يكون ذلك التمر حمل إلى بعض من يستحق الصدقة ممن هو في بيته وتأخر تسليم ذلك له أو حمل إلى بيته فقسمه فبقيت منه بقية»^(٣).

- ١ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها (٢/٩٠٧) رقم (٢٤٢٨)، ومسلم في صحيحه من كتاب الزهد والرقائق، باب (٨/٢١٨) رقم (٤٦٧٢).
- ٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما يتنزه من الشبهات (٧/٣) رقم (٢٠٥٥).
- ٣ - فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر، كتاب البيوع، باب ما يتنزه من الشبهات (٤/٢٥١).

وحمل بعضهم تركه - ﷺ - على التورع لا الوجوب؛ لأن الأصل أن كل شيء في بيت الإنسان على الإباحة حتى يقوم دليل على التحريم^(١).

ثانياً: مقام رئيس الدولة في المال العام هو مقام الخازن:

وصف النبي - ﷺ - نفسه في شأن مقامه من المال العام بأنه قاسم لا معط، ففي الصحيحين عن معاوية - رضي الله عنه - أنه قال: إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطَى اللَّهُ»^(٢). والحديث واضح الدلالة في أن مقام الإمام أو الحاكم في المال العام هو مقام القاسم بالحق والعدل، وأن المعطي هو الله عز وجل، يقول ابن بطال: «قوله - ﷺ -: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ» يدل على أنه لم يستأثر من مال الله دونهم»^(٣)، وفي هذا دليل على أن عطية الإمام للرعية ليست منةً منه لها، فهو كآحاد الرعية لا يملك من أمره شيئاً. كما يدل على أن الإمام في التزام الأحكام كواحد من الأنام، ومن شأن هذا كله تطيب النفوس، وحفز الهمم، وتقوية الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الحاكم والمحكوم.

ثالثاً: وجوب استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء:

أرشدت السنة النبوية المطهرة إلى وجوب استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء في تقلد الولايات العامة والخاصة؛ ذلك لأن بطانة السوء مصدر شؤم، وفي الركون إليها من الضرر ما هو أشد في الركون إلى الأعداء، فما أسهل أن تقع البلاد في قبضة الأعداء بمشورة خائن، لا يرقب الله - عز وجل - في مصلحة البلاد، وأمن العباد. ولقد كان - ﷺ - يختار عماله من أهل الدين، والرشد، والعلم،

- ١- فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر، كتاب البيوع، باب ما ينتزه من الشبهات، (٤ / ٢٥١).
- ٢- أخرجه البخاري في صحيحه من العلم باب قول النبي ﷺ "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" (٣٩ / ١) رقم (٧١)، ومسلم في صحيحه من كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (٣ / ٩٥) رقم (٢٤٣٩).
- ٣- شرح البخاري، ابن بطال (١ / ١٤٩).

والصلاح، والتقوى، ومن الأحاديث الواردة في هذا المقام:

١- عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال النبي - ﷺ -: «كلكم راع، ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتهما، والخدام في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته»^(١).

قال الطيبي في شرحه لهذا الحديث: «إن الراعي ليس مطلوباً لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه، وهو تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه»^(٢).

٢- عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله - ﷺ - رجلاً من الأسد يقال له ابن اللثبية - قال عمرو وابن أبي عمير على الصدقة - فلما قدم قال هذا لكم وهذا لي أهدى لي قال فقام رسول الله - ﷺ - على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أهدى لي. أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه بغير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر». ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال «اللهم هل بلغت». مرتين^(٣).

٣- عن عدي بن عميرة الكندي أن رسول الله - ﷺ - قال: «يا أيها الناس من عمل

١- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (١ / ٣٠٤) رقم (٨٥٣)، ومسلم في صحيحه من كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل (٦ / ٧) رقم (٤٨٢٨).

٢- فتح الباري، ابن حجر، (١٣ / ١٠٠).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الهبة وفضلها، باب من لم يقبل الهدية لعلة، (٢ / ٩١٧) رقم (٢٤٧٥)، ومسلم في صحيحه من كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (٦ / ١١) رقم (٤٨٧٣). وقوله ﷺ (رغاء) صوت ذوات الحف. (خوار) صوت البقر. (تيعر) من البعار وهو صوت الشاة. انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٣ / ١٦٦)، شرح البخاري، ابن بطال (٥ / ٤٤٧).

مِنْكُمْ لَنَا عَلَى عَمَلٍ فَكْتَمْنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

٤- عن معقل بن يسار -رضي الله عنه- قال سمعت رسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرَعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحْطُهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(٢).

والغش ونفي النصيحة يحصل بظلم الإمام أو الوالي للرعية بأخذ أموالهم أو سفك دمائهم، أو انتهاك أعراضهم، وحبس حقوقهم، وترك تعريفهم ما يجب عليهم في أمر دينهم ودنياهم، وياهمال إقامة الحدود فيهم، وردع المفسدين منهم، وترك حمايتهم ونحو ذلك. ذكره ابن حجر في الفتح^(٣).

قال ابن بطال: «هذا وعيد شديد على أئمة الجور فمن ضيَّع منهم من استرعاه الله أو خانهم أو ظلمهم، فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة، ومعنى «حرم الله عليه الجنة» أي نفذ الله عليه الوعيد ولم يرض عنه إلا المظلومين»^(٤)، وفي الحديث: أن الله تعالى إنما ولاه على عباده ليديم لهم النصيحة لا ليغشهم حتى يموت على ذلك، فلما قلب القضية استحق أن يُعاقب»^(٥).

والأحاديث في مجملها دالة على الأسس التي تحكم عمل ولاة الأمر في إدارة الأموال والأعمال، وهي كثيرة، أهمها:

١- إبطال كل طريق يتوصل بها من يأخذ المال إلى محاباة المأخوذ منه والانفراد بالمأخوذ.

١- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (٦/ ١٢) رقم (٤٨٤٨)، وأبو داود في سننه من كتاب الأقضية، باب هدايا العمال (٣/ ٣٢٧) رقم (٣٥٨٣).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، (٨/ ٤٤٧) رقم (٧١٥١).

٣- فتح الباري، ابن حجر، (١٣/ ١١٣).

٤- شرح البخاري، ابن بطال، (١٥/ ٢٣٤).

٥- فتح الباري، ابن حجر (١٣/ ١١٤).

- ٢- أن هدايا العمال حرام وغلول؛ لأنهم خانوا في ولايتهم وأمانتهم.
- ٣- أن هدايا العمال يجب أن تجعل في بيت المال، وأنه ليس لهم منها شيء إلا أن يستأذوا الإمام في ذلك.
- ٤- أن الهدايا التي تهدي للقضاة ونحوهم هي من الرشوة؛ لأن المهدي إذا لم يكن معتاداً للإهداء إلى القاضي قبل ولايته لا يهدي إليه إلا لغرض، وهو إما التقوي به على باطله، أو التوصل لهديته له إلى حقه، والكل حرام^(١).

رابعاً: الاعتماد على الذات في تدبير معاش البلاد والعباد، وجعله فريضة إيمانية:

ومن ذلك ما تم أثناء الحصار الذي ضربه النبي -ﷺ- على مدينة الطائف بعد أن لجأ إليها المشركون المنهزمون من معركة «حنين»، وكانت تلك المدينة منيعة التحصين، ولديها من التموين ما يكفيها لمدة طويلة بحيث إن أحد قادتها وهو «عبد ياليل» أعلن حين دعاهم خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، أن ينزلوا إليه من حصنهم للمبارزة - أعلن قائلاً: «لا ينزل إليكم منا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإن به من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقيمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسياقنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا...»^(٢)، وهنا نصب النبي -ﷺ- المنجنيق على الطائف، قال ابن هشام: «الرَسُولُ -ﷺ- أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِالْمَنْجَنِيقِ^(٣)، ... حَدَّثَنِي مَنْ أَثَقُ بِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- : «أَوَّلُ مَنْ رَمَى فِي الْإِسْلَامِ بِالْمَنْجَنِيقِ رَمَى أَهْلَ

١- في مجمل هذه الأحكام ينظر: فتح الباري، ابن حجر (١٣ / ١٦٧)، شرح النووي على مسلم، النووي، (١٢ / ٢١٩)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي، (٩ / ٣٦١).

٢- السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي، (٣ / ٨٠).

٣- المنجنيق ويكسر الميم، آلة ترمى بها الحجارة كالمجنوق، معربة وقد تذكر فارسيتها من جه نيك أي، أنا ما أجودني. ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (ص، ١١٢٦)، باب القاف، فصل الجيم.

الطائف^(١). قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الشَّدْحَةِ^(٢) عِنْدَ جِدَارِ الطَّائِفِ، دَخَلَ نَفْرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - تَحْتَ دَبَابَةٍ^(٣) ثُمَّ زَحَفُوا بِهَا إِلَى جِدَارِ الطَّائِفِ لِيُخْرِقُوهُ، فَأَرْسَلَتْ عَلَيْهِمْ ثَقِيفُ سَكِّ الحَدِيدِ^(٤) مُحَمَّاتٌ بِالنَّارِ فَخَرَجُوا مِنْ تَحْتِهَا، فَرَمَتْهُمُ ثَقِيفُ النَّبْلِ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ رِجَالًا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِقَطْعِ أَعْنَابِ ثَقِيفٍ، فَوَقَعَ النَّاسُ فِيهَا يَقْطَعُونَ^(٥).

ولكن، كيف تم للنبي ﷺ - الحصول على هذه الآلة الحربية أثناء حصاره للطائف؟ «أرشدته إليه سلمان الفارسي - ﷺ - جاء في المغازي للواقدي: «وقال سلمان الفارسي يومئذ: يا رسول الله أرى أن تنصب عليهم المنجنيق، فإننا كنا بأرض فارس نصب المناجيق على الحصون، فنصيب من عدونا، وإن لم يكن منجنيق طال المقام، فأمره رسول الله ﷺ - بعمل منجنيقا بيده، فنصبه على حصن الطائف، ويقال: قدم بالمنجنيق يزيد بن ربيعة، وقيل: غيره»^(٦).

وفي حصار الطائف أيضاً -بالإضافة إلى صنع المسلمين للمنجنيق - صنعوا سلاحاً آخر هو «سلاح الحَسَكِ» وهو سلاح دفاعي يصنع على هيئة ثمرة الحَسَكِ^(٧) من الحديد، أو القصب، أو العيدان له رؤوس كالشوك، وينشر هذا السلاح على الأرض حول معسكر العدو، أو في طريقه بقصد إحكام الحصار

- ١ - سيرة ابن هشام، ابن هشام، (٢/ ٤٨٣).
- ٢ - إشارة إلى غزوة رسول الله ﷺ هوازن بحنين، وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة. ينظر: تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، (٢/ ١٧٢) والمقصود بالشدخة ما حدث من شدخ جدار الطائف في ذلك اليوم.
- ٣ - الدَّبَابَةُ، آلة تُتَّخَذُ لِلْحُرُوبِ فَتُدْفَعُ فِي أَصْلِ الحِصْنِ فَيَنْقُبُونَ وَهُمْ فِي جَوْفِهَا. ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (ص، ١٠٦) باب الباء، فصل أَدَال.
- ٤ - السَّكَّةُ، حديدة تحرث بها الأرض. ينظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، (ص، ٣٢٦).
- ٥ - سيرة ابن هشام، ابن هشام، (٢/ ٤٨٣)، الطبقات الكبرى، ابن سعد، (١/ ٣١٢).
- ٦ - المغازي، الواقدي (١/ ٩٢٧)، نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الأملعي في تخريج الزيلعي، الزيلعي (٣/ ٣٨٣).
- ٧ - الحَسَكُ، شوكة أداة للحرب من حديد أو قصب فيلقي حول العسكر ويسمي باسمه. ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ص، ١٢٠٩) بَاب الكاف فصل الحاء.

على المحاصرين، أو بهدف عرقلة تقدم القوات المعادية، إذ تنشب أشواك هذا السلاح في أرجل المقاتلين المشاة أو الخيول، فتعيق تقدم تلك القوات، كما يصلح هذا السلاح الدفاعي لنشره حول معسكر المسلمين لمنع العدو من اختراقهم على حين غرة.

وقد صنع الجيش الإسلامي هذا السلاح، ونثره حول حصن الطائف أثناء الحصار لمنع أي تسلل يقوم به العدو كما ذكر ذلك «ابن سعد» في الطبقات^(١). وهذا وجه من وجوه التميز العسكري في صناعة أسلحة دفاعية أو وقائية.

المبحث الثاني

منهج السنة النبوية في وجوب ربط القيم والأخلاق بالنشاط الاقتصادي المنتج

من يطالع نصوص السنة النبوية المطهرة يجد أنها تؤسس النشاط الاقتصادي سواء في مجال المال أو الأعمال على أساس إظهار دور الأخلاق والقيم في النشاط الاقتصادي، وأنه لا فصل في الإسلام بين الاقتصاد والأخلاق والدين والدولة، وذلك في كل الحالات الاقتصادية في الإنتاج والتوزيع والتداول والاستهلاك، وهو وجه من وجوه التميز وتنمية المهارات وخلق الحافز على الإنتاج، وهذا يحتم علينا ألا ندرس قضايا المال والاقتصاد بمعزل عن غيرها من التشريعات، وكذا ألا ندرس قضايا الاقتصاد في الإسلام بمعزل عن أرضيتها الطبيعية وإطارها العام واعتبارها جزءاً من منهج حياة، تحكمه العقيدة وتنظمه. ومن أظهر هذه الوجوه ما يلي:

أولاً: مطالبة المنتج بإنتاج ما يكفي المجتمع كما ونوعاً:

المعروف في الفكر الاقتصادي الرأسمالي أن المنتج يختار مجالات النشاط

١ - ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ج ٢ / ١٥٨.

الأكثر ربحية، ويحدد حجم الإنتاج بما يتعلق وهدفه من الإنتاج، وهو تحقيق أقصى ربح ممكن، حتى إن المشروعات العامة التي يحتاجها عامة الشعب لا تترجم نفسها في صورة طلب، أي حاجة مشفوعة بالقدرة على الشراء لا تجد من ينتجها، والحال ليست كذلك في الاقتصاد الإسلامي في إطار المنهج النبوي، إذ إن هدف المنتج لا ينحصر في تحقيق أقصى ربح ممكن، وإنما يتزوج هذا الهدف الفردي مع أهداف اجتماعية جماعية أكثر سمواً، تتمثل بصفة خاصة في الالتزام الديني والوجداني بمراعاة المصلحة العامة، استهدافاً للمثوبة والجزاء الإلهي في الدنيا والآخرة، والأحاديث الواردة في هذا المقام كثيرة، منها:

١- عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرُسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(١).

وفي رواية أخرى عن جابر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشَّرِ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ أَمْسَلَمَ أَمْ كَافِرٌ؟». فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ. فَقَالَ: «لَا يَغْرُسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٢).

قال ابن حجر: «مقتضاه أن أجر ذلك يستمر ما دام الغرس أو الزرع مأكولاً منه، ولو مات زارعه أو غارسه ولو انتقل ملكه إلى غيره. وظاهر الحديث أن الأجر يحصل لمتعاطي الزرع أو الغرس ولو كان ملكه لغيره؛ لأنه أضافه إلى أم مبشر ثم سألها عن غرسه..»^(٣).

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الأدب، باب باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (٢٢٣٩ / ٥) رقم (٢١٩٥) ومسلم في صحيحه من كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (٢٧ / ٥) رقم (٤٠٥٠) وقوله ﷺ (ولا يرزوه) أي ينقصه ويأخذ منه.
- ٢- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الأدب، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، (٢٢٣٩ / ٥) رقم (٥٦٦٦) ومسلم في صحيحه من كتاب المساقاة باب فضل الغرس والزرع، (٢٧ / ٥) رقم (٤٠٥١)
- ٣- فتح الباري، ابن حجر (٤ / ٥)

وقال النووي في شرحه على مسلم: «في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغرس والزرع وما تولد منه إلى يوم القيامة...»^(١).

٢- عن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «مَنْ بَنَى بُيْتًا مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اِعْتِدَاءٍ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اِعْتِدَاءٍ كَانَ لَهُ أَجْرٌ جَارٍ مَا انْتَفَعَّ بِهِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٢).

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ تَعَالَى وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَعْلَاهَا ثَمَنًا. قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَجِدْ؟ قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ. وَقَالَ: فَإِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ؟ قَالَ كَفَّ أَذَاكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَنْ نَفْسِكَ»^(٣).

وفي قوله - ﷺ - : «مَنْ بَنَى بُيْتًا مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اِعْتِدَاءٍ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اِعْتِدَاءٍ». وقوله - ﷺ - : «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ..» دليل على أن الدولة شأنها شأن الأفراد مطالبة شرعاً بتدبير كل ما يلزم من أدوات عينية أو نقدية لازمة لإنتاج السلع والخدمات التي يحتاجها المجتمع فعلاً، وخاصة تلك السلع التي تحقق سعادة الناس في الدارين، ومن ثم يجب على الدولة أن تتدخل لمنع من يقوم بإنتاج السلع الحرام، أو سلع الترفيه التي تؤدي إلى هلاك المجتمع، وأن تتخذ من الإجراءات ما يمنع تدفق الموارد إلى هذا القطاع، وذلك من خلال السياسات المالية والنقدية المتعارف عليها في الاقتصاديات الراشدة، وتوجيه

١- شرح النووي على مسلم (١٠/٢١٣).

٢- أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) قال الهيثمي، رواه أحمد وفيه زيان، وثقه أبو حاتم، وفيه كلام... مجمع الزوائد، الهيثمي، (٣/٣٢٦) رقم (٤٧٣٩).

٣- أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٣٨٨/٢) رقم (٩٠٢٦) وقال الهيثمي، رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد، الهيثمي، (٣/٣٢٧) رقم (٩٠٢٦).

الموارد المالية والحقيقة لإنتاج السلع والخدمات الضرورية.

ثانياً: ترشيد استخدام الموارد وخفض نفقات الإنتاج:

تعتبر قاعدة الاعتدال في الإنفاق التي تستهدف البعد عن الإفراط والتفريط قاعدة عامة تقتضى ترشيد الإنفاق الاستهلاكي والاستثماري، بل تشمل المعنويات والأخلاقيات والسلوكيات، دلت عليها السنة النبوية في أكثر من موضع. ويأتي في مقدمة هذه النصوص: نهيه - ﷺ - عن الإسراف في وجوه الانفاق المعتبرة شرعاً، ولو كان ذلك في الصدقة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَابْسُوا، وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ»^(١).

وفي سبيل ذلك صاغ المنهج النبوي مجموعة من السياسات والمبادئ التي من شأنها ترشيد استخدام الموارد، وخفض نفقات الإنتاج، وهو ما لا نجده في الأنظمة الاقتصادية الأخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة:

أ- إلغاء هامش الربح الراجع إلى الوساطة والمخاطرة:

يرفض الإسلام الكسب من كل الأعمال الطفيلية، مثل السمسرة والوساطة، ما لم يكن هذا الكسب راجعاً إلى إضافة منفعة حقيقية للسلعة. ولهذا السبب فإن العائد الراجع إلى المخاطرة وحدها لا يبيحه الإسلام أيضاً، ومن ثم إلغاء السلسلة الطويلة من الوسطاء والمقامرین الذين يحصلون الآن على هامش كبير من الربح دون إضافة حقيقية في منفعة السلعة.

ومن الأمثلة على ذلك في المجال التجاري، ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال نهى رسول الله ﷺ - أن تتلقى الركبان، وأن

١- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب اللباس، (٥/ ٢١٨٠)، والحاكم في المستدرک ج٤/ ١٣٥ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وعلق الذهبي في التلخيص: «صحيح».

يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ. قَالَ: فَقُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَا قَوْلُهُ «حَاضِرٌ لِبَادٍ» قَالَ: لَا يَكُنْ لَهُ سَمْسَارًا»^(١).

قال ابن حجر: «وهو في الأصل القيم بالأمر والحافظ له، ثم استعمل في متولي الشراء والبيع لغيره، وقال بعضهم: صورته أن يجيء غريب إلى البلد بسلعته يريد بيعها بسعر الوقت في الحال، فيأتيه بلدي فيقول له: ضعه لأبيعه لك على التدرج بأعلى من هذا السعر»^(٢).

ومعنى ذلك ألا يسعى التجار أو الوسطاء في أطراف المدينة لمقابلة قافلة التجارة قبل وصولها إلى الأسواق، حتى لا يكون في ذلك منع التفاعل الحقيقي بين قوى العرض والطلب، أو التفرير بالتجار، وألا يقوم تجار الحضر بالبيع نيابة عن تجار البدو، وذلك لعدم حجب السلعة في أيام جلبها، ولما فيه من ارتفاع تكلفتها، واتساع هامش الربح الذي يطلبه الوسيط، أو السمسار دون أن يضيف إضافة حقيقية إلى الإنتاج.

ب- إلغاء نفقات الدعاية والإعلان:

إن معظم صور الدعاية والإعلان في الوقت الحاضر هي نوع من التفرير بالمستهلك، وإيهامه بإقبال الجماهير على السلع، وبمزايها غير موجودة فيها ولما كان الإسلام قد حرم النجش^(٣)، والغش، وكل بيع غرر فإن جزءاً هاماً من نفقات الدعاية والإعلان يمكن توفيره في المنشأة الإسلامية.

١- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب البيوع، باب هل يبيع حاضر لباد (٧٥٧/٢) رقم (٢٠٥٠)، ومسلم في صحيحه من كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، (٥/٥) رقم (٣٩٠٠)، والترمذي في سننه (٥١٧/٣) رقم (١٢٢٣).

٢- انظر: فتح الباري، ابن حجر (٣٧١/٤).

٣- النجش: أن يزيد في ثمن السلعة لا لرغبة فيها بل ليخدع غيره ويغره ليزيد ويشترها. وهذا حرام بالإجماع والبيع صحيح، والإثم مختص بالناجش إن لم يعلم به البائع، فإن واطأه على ذلك أثماً جميعاً ولا خيار للمشتري إن لم يكن من البائع مواطأة. شرح النووي على مسلم، النووي (١٥٩/١٠) وهذه مسألة مبسوطة في كتب الفقه الإسلامي.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «الْحَلْفُ مُنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ مُحِقَّةٌ لِلْبُرْكََةِ»^(١).

قال ابن حجر: «أوضح الحديث أن الحلف الكاذب وإن زاد في المال فإنه يحق البركة، فكذلك قوله تعالى ﴿يُمَحِّقُ اللَّهُ الرَّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦] أي يحق البركة من البيع الذي فيه الربا، وإن كان العدد زائداً، لكن محق البركة يفضى إلى اضمحلال العدد في الدنيا»^(٢).

وقال النووي: «فيه النهي عن كثرة الحلف في البيع، فإن الحلف من غير حاجة مكروه، وينضم إليه هنا ترويح السلعة، وربما اغتر المشتري باليمين»^(٣).

وعن ابن أبي أوفى - رضي الله عنه - أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سَلْعَةً، وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطَ؛ لِيُوقَعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران ٧٧]»^(٤).

قال ابن بطال في شرحه: «هو وعيد شديد في اليمين الغموس، وذلك قوله تعالى: أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [آل عمران ٧٧]..» فجمع الله هذه العقوبات كلها في هذه اليمين الغموس لما جمعت من المعاني الفاسدة، وذلك كذبه في اليمين بالله - تعالى - وهو أجل ما يحلف به، ومنها غروره في سلعته من يقع فيها من أجل يمينه تلك، ومنها استحلاله ماله بالباطل، وهو الثمن القليل الذي لا يدوم له في الدنيا لتسمية الله له قليلاً عوضاً مما كان يلزمه من تعظيم حق الله - تعالى - والوفاء

١ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (٢ / ٧٣٥) رقم (١٩٨١)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع، (٥ / ٥٦) رقم (٤٢٠٩).

٢ - فتح الباري، ابن حجر (٤ / ٣١٦).

٣ - شرح النووي على مسلم، النووي (١١ / ٤٤).

٤ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (٢ / ٧٣٥) رقم (١٩٨٢).

بعهده، والوقوف عند نهيه وأمره، فخاب تجره، وخسرت صفقته»^(١).

وفي الحديثين دليل على أن السلعة قد تروج بالدعاية والإعلان، وهي لا تكون كذلك إلا إذا كان المنتج قد خرج عن الحد المطلوب شرعاً لإنتاج السلعة، وجزاء ذلك عند الله هو ذهاب البركة، والحزبي في الحياة الدنيا والآخرة.. ومع ذلك فإنه يمكن تنظيم الإعلان والدعاية للسلعة، وتبصرة المستهلك بها، لاسيما إذا كانت السلعة في بداية ظهورها، ولم يكن المستهلك على علم بها^(٢).

ثالثاً: المشاركة في التمويل مصدر أساس في تنمية الأموال والأعمال:

السنة النبوية حافلة بكثير من النصوص الشرعية القاطعة بأن الربا مصدر العديد من الأزمت التي عصفت بالكثير من الاقتصاديات، ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرَّبَا. قَالَ: قِيلَ لَهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ؟ قَالَ: مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ.»^(٣).

ومن يطالع حال الكثير من الدول الفقيرة يجد أنها تحمل على ظهورها ديوناً لا تعد ولا تحصى، وتكون النتيجة أنها تضطر لدفع كل دخلها فوائد لهذه الديون، ثم لا تجد ما تنفقه على ما يحتاجه شعبها من مشروعات التنمية أو حتى الغذاء، وهذا يعني الدخول في حلقات فقر تزداد كل عام.

والنتيجة التي وصلت إليها العقول الراشدة هي أن الدول الغنية أصبحت تدين الدول الفقيرة ببلايين الدولارات، وكلما مر عام زادت فقراً حتى تصبح

١- شرح البخاري، ابن بطال (١١/ ٢٢٦).

٢- قال ابن الحاج المالكي "وينبغي أن لا يمدح سلعته، ولا يثنى عليها بلفظ، ولا كتابة، ويكفي في ذلك المشاهدة من المشتري وغيره؛ لأنه إن فعل ذلك فالغالب عليه الخروج عن الحد في الأخبار بخلاف ما هي عليه". المدخل في الفقه المالكي، ابن الحاج ج٤ ص١٠٦.

٣- أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة، (٢/ ٤٩٤)، والحاكم في المستدرک على الصحيحين مع تعليقات الذهبي في التلخيص، كتاب البيوع، ج ٢/ ص ١٣، رقم ٢١٦٢، قال الذهبي في التلخيص: "سماع الحسن من أبي هريرة بهذا صحيح".

عاجزة عن الدفع ، وأصبح العالم يبحث عن حل لجدولة الديون، أو غير ذلك، أو إسقاط جزء منها وليس هناك حل - كما قال خبراء الاقتصاد في العالم - إلاّ يجعل سعر الفائدة صفرًا. وكل التجارب التي مرت بها الشعوب أكدت أن الربا لم يأت لها إلاّ بالأزمات.. فالصانع يقترض من البنوك الربوية بفائدة ثابتة مشروطة، ويقوم بإضافة هذه الفائدة إما إلى ثمن الآلات، أو إلى ثمن المواد الخام المشتراة، وغير ذلك، ومن شأن ذلك تضخم تكاليف الإنتاج بمقدار تلك الفائدة؛ لأنه يسعى إلى زيادة ربحه، أو على الأقل تثبيته، وعلى ذلك فإن الفائدة الربوية تضاف إلى السعر مباشرة^(١).

المبحث الثالث

منهج السنة النبوية في تنمية المهارات وخلق حافز التحرر من الجوع

من الثابت بيقين أن الإسلام حريصٌ على أن تكون الأجساد صحيحة، إذ هي مكان مزوالة النشاط البشري؛ ولما كان الأمر كذلك، وكان الجوع يؤثر عليها ويعوقها عن أداء واجبها، ذمه الإسلام ونفر منه، وندب إلى تناول ما يحفظ على الإنسان حياته ويوفر للجسد نشاطه، وهذا مظهر من مظاهر التميز ودعت إلى تنمية المهارات وجعل ذلك فريضة شرعية؛ لأنه من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والسنة النبوية حافلة بكثير من النصوص التي توجب التحرر من الجوع والاجتهاد في دفعه بما أمكن من الوسائل، وبخاصة إذا وصل بالإنسان إلى حد الضرر ببدنه، وكان سبباً في تقصيره في أداء الواجب عليه لله ولنفسه ولأسرته ووطنه وكل من عليه التزامات نحوهم. وليس أدل على ذلك من تعوذ النبي ﷺ - من الجوع، فعن أبي هريرة قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي

١ - ينظر: بحوث في الربا، الشيخ محمد أبو زهرة، (ص ١٣).

أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بَسَسَ الضَّجِيعُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بَسَّتِ الْبِطَانَةَ»^(١).
قال الطيبي: «الجوع يضعف القوى، ويشوش الدماغ، فيثير أفكاراً ردية،
وخيلات فاسدة، فيخل بوظائف العبادات والمراقبات؛ ولذلك خص بالضجيع
الذي يلزمه ليلاً ومن ثم حرم الوصال»^(٢).

كما أنكر النبي - ﷺ - ما عزم عليه الذين سألوا عن عبادته فتقالوها، فعَنْ
أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ - ﷺ - عَنْ
عَمَلِهِ فِي السَّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ
بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ. فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا
وَكَذَا لَكِنِّي أَصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي سُنَّتِي
فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣). وإنما أنكر النبي - ﷺ - عليهم ذلك؛ لأنها مسالك تضر بالصحة
وتتعد الإنسان عن أداء واجبه.

والمأمل في مسلك النبي - ﷺ - في بيته يجد أنه كان يتحمل الجوع أحياناً،
ولو شاء لشبع؛ وذلك لبيان أن المربي أو القائد أو الحاكم قد يكون على حال
من اعتدال النفس ولكنه يؤثر الجوع ليقتدي به من هم في المرحلة الأولى من
الترويض النفسي، أو لانصرافه إلى ما هو أهم من الإقبال على الطعام، أو على
وجه التواضع ولين الجانب وسماحة النفس ورقة القلب. وكان - ﷺ - يضطر
للصيام إذا لم يجد ما يأكله، وإذا وجد - ﷺ - أكل بعد أن يعزم على الصوم،
فَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَاتَ

١- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، سنن أبي داود (١/٥٦٧) رقم (١٥٤٩)
قال الألباني: حسن. انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، (٤/٤٧)
رقم (١٥٤٧).

٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، (٤/٢٨٤).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، (٥/١٩٤٩) رقم (٤٧٧٦)،
ومسلم في صحيحه من كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاق نفسه إليه ووجد مؤنة (٤/١٢٩)
رقم (٣٤٦٩).

يَوْمَ: «يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ». قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ. قَالَ: «فَإِنِّي صَائِمٌ». قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَأَهْدَيْتُ لَنَا هَدِيَّةً - أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ - قَالَتْ: «فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْدَيْتُ لَنَا هَدِيَّةً - أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ - وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا. قَالَ: «مَا هُوَ». قُلْتُ: حَيْسُ. قَالَ: «هَاتِيهِ». فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ ثُمَّ قَالَ: «قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا». قَالَ طَلْحَةُ: فَحَدَّثْتُ مُجَاهِدًا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ: ذَاكَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يُخْرِجُ الصَّدَقَةَ مِنْ مَالِهِ فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا»^(١).

معالم المنهج النبوي في التحرر من الجوع:

أولاً: النهي عن الشبع المفرط: ودليله ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ - قَالَ: «الْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءَ وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعِي وَاحِدٍ»^(٢). وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - ضَافَهُ ضَيْفٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِشَاةٍ فَحَلَبْتُ فَشَرِبَ حَلَابَهَا ثُمَّ أُخْرِي فَشَرِبَهُ ثُمَّ أُخْرِي فَشَرِبَهُ حَتَّى شَرِبَ حَلَابَ سَعِ شِيَاهِ ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِشَاةٍ فَشَرِبَ حَلَابَهَا ثُمَّ أَمَرَ بِأُخْرِي فَلَمْ يَسْتَمِّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : «الْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مَعِي وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءَ»^(٣). وقوله - ﷺ - (سبعة أمعاء) كناية عن الشره والرغبة في متاع الدنيا وملذاتها والحرص على التشبع من شهواتها التي من جملتها تنوع المآكل والمشارب والامتلاء منها.

والحديث يفيد أن الحالة النفسية لها دخل كبير في التأثير على رغائب الجسد،

١ - أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال وجواز فطر الصائم نفلا من غير عذر، (٣/ ١٥٨) رقم (٢٧٧٠).

٢ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد (٥/ ٢٠٦١) رقم (٥٠٧٨)، ومسلم في صحيحه من كتاب الأشربة، باب المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء (٦/ ١٣٢) رقم (٥٤٩٣).

٣ - أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب الأشربة، باب المؤمن يأكل في معي واحد (٦/ ١٣٣) رقم (٥٥٠٠).

فإذا وجد الإيمان والقناعة واطمئنان النفس كفى القليل من الطعام لسد الحاجة، وإفادة الجسم منه، وبالعكس يؤثر الحرص والشهه والقلق على الأجهزة المختلفة للجسم فيكون لها وضع آخر عند تناول الطعام وتقبله والإفادة منه.

أولاً: المحافظة على الصحة: ويتلخص ذلك في مبادئ ثلاثة:

المبدأ الأول: العناية بتقوية الجسم بالغذاء الصحي والشراب النقي والنوم الكافي والرياضة البدنية، وذلك كله تحقيقاً لقوله - ﷺ - فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما -: «قَالَ كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ - قَالَ - فِيمَا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - وَإِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَيَّ فَاتَيْتُهُ فَقَالَ لِي: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ». قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَلَمْ أَرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ «فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ «فَإِنَّ لِرِجَالِكَ حَقًّا وَلِرِجَالِكَ حَقًّا وَلِرِجَالِكَ حَقًّا»^(١).

المبدأ الثاني: البعد عن كل ما يضر البدن، تحقيقاً لقوله - ﷺ - فيما رواه عبادة بن الصامت أنه - ﷺ - قال: «لا ضرر ولا ضرار...»^(٢).

المبدأ الثالث: المبادرة بالعلاج عند المرض، فإن لكل داء دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، فعن أسامة بن شريك قال: أتيت النبي - ﷺ - وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير فسلمت ثم قعدت فجاء الأعراب من هنا وهناك

١ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الصيام، باب حق الجسم في الصوم (٦٩٧ / ٢) رقم (١٨٧٤) ومسلم في صحيحه من كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا (١٦٢ / ٣) رقم (٢٧٨٧).

٢ - أخرجه ابن ماجه في سننه من كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (٧٨٤ / ٢) رقم (٢٣٤٠)، والإمام أحمد بن حنبل في المسند (٣١٣ / ١) رقم (٢٨٦٧)، والحاكم في المستدرک على الصحيحين، (٦٦ / ٢) رقم (٢٣٤٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه». وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٣٤٠ / ٥) رقم (٣٢٤٠).

فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ دَاوَى؟ فَقَالَ: «تَدَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءِ وَاحِدٍ الْهَرَمُ»^(١). ويلاحظ أن جميع هذه الإرشادات جعلها الدين تشريعاً، يثاب فاعلها ويعاقب من خالفها.

ثانياً: رفع مستوى المعيشة بالوسائل المتنوعة: فعن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - كان يدعو في صلاته قبل التحلل منها بالسلام فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ». قَالَتْ: «فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ مِنَ الْمَغْرَمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان إذا آوى إلى فراشه يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ... أَقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»^(٣). وعلم علياً - رضي الله عنه - أن يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عن سواك»^(٤). وكان النبي - ﷺ - يستعيز من شر الغنى والفقير على السواء، كما رواه الترمذي وحسنه من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله - ﷺ - يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وعذاب القبر وفتنة القبر ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر.. اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم والمأثم والمغرم»^(٥).

- ١- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الطب، باب الرجل يتداوى (١ / ٤) رقم (٣٨٥٧)، وابن ماجه في سننه من كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، (٢ / ١١٣٧) رقم (٣٤٣٦)، والترمذي في سننه من كتاب الطب، (٤ / ٣٨٣) رقم (٢٠٣٨) قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن».
- ٢- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الصلاة، باب الدعاء قبل السلام (١ / ٢٨٦) رقم (٧٩٨)، ومسلم في صحيحه من كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٢ / ٩٣) رقم (١٣٥٣). و(المأثم): ما يسبب الإثم الذي يجزى إلى الذم والعقوبة. و(المغرم): الدين الذي لا يجد وفاءه أو الدين مطلقاً.
- ٣- أخرجه مسلم في صحيحه، من كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٨ / ٧٨) رقم (٧٠٦٤).
- ٤- أخرجه الترمذي في سننه من كتاب الدعاء، باب (١١١) (٥ / ٥٦٠) رقم (٣٥٦٣)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب».
- ٥- أخرجه الترمذي في سننه من كتاب الدعاء، باب رقم (٧٧) (٥ / ٥٢٥) رقم (٣٤٩٥)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه في سننه من كتاب فضل الدعاء، باب ما تعوذ منه النبي - ﷺ (٢ / ١٢٦٢) رقم (٣٨٣٨).

فهو لا يحب الفقر الذي تذلل به النفس ويمرض الجسم، ويعوق عن أداء الواجب ويغري بالسوء، كما يستعيز من الغنى الذي يبطر ويصرف عن الخير ويدعو إلى الفساد.

ثالثاً: مضاعفة القوت: أرشدت السنة النبوية إلى وجوب توجيه الطاقات لاستخراج كنوز الأرض والإفادة من مدخرات الكون لتحقيق الكفاية الإنتاجية، وذلك من خلال العمل الدائب المستمر، إذ يحرم على المسلم أن يعطل قواه أو يوجه طاقته إلى غير ما يفيد، أو يركن إلى العجز والكسل، أو يقنع بالدون، إذا كان قادراً على الكمال، وتحقيقاً لهذه الفريضة أمر النبي ﷺ - أن يحرص المسلم على ما ينفعه وأن يستعين بالله ولا يعجز، وألا يستسلم لليأس عند العقبات ومدح اللقمة التي يكسبها الإنسان بجهدته وعمله، فعن المقدم - ﷺ -: عن رسول الله ﷺ - قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده»^(١).

وقوله - ﷺ - يأكل من عمل يده أي: من كسبه ونتيجة صنع يده. قال ابن حجر: «وفي الحديث: فضل العمل باليد، وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره. والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصره في أكله على ما يعمل به يده لم يكن من الحاجة؛ لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ - قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد، وهذا بعد تقرير أن شرع من قبلنا شرع لنا ولا سيما إذا ورد في شرعنا مدحه وتحسينه مع عموم قوله تعالى «فبهذا هم اقتده» وفي الحديث أن التكسب لا يقدر في التوكل»^(٢).

١ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله ويده، (٧٣٠/٢) رقم (١٩٦٦).

٢ - فتح الباري، ابن حجر (٣٠٦/٤).

والإسلام لا يقبل أن تكون في المجتمع قوى معطلة أو طبقة تعيش على أكتاف غيرها، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»^(١).

ولما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة عرض عليهم الأنصار أن يقاسمونهم أموالهم بغير مقابل، قياماً بواجب التعاون على الخير، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه المهاجرون أبوا إلا أن يكون عيشتهم بكفاحتهم وسعيهم، فنزل بعضهم إلى ميدان التجارة، وبعضهم إلى ميدان الزراعة في حقول الأنصار، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال لما قدم المهاجرون المدينة من مكة وليس بأيديهم يعني شيئاً وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار فقاسمهم الأنصار على أن يعطوهم ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمثونة^(٢)، وغيره كثير.

وقد كره النبي -صلى الله عليه وسلم- من المسلم أن يجلس بجوار عين الماء، يشرب منها وينقطع للعبادة قانعا بذلك عن السعي والعمل، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه فيستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»^(٣).

رابعاً: توسيع قاعدة العمل وتعدد المجالات: ويتجلى ذلك بوضوح في حث السنة النبوية على النشاط الزراعي والإفادة من قوة الأرض الإنتاجية وعدم تعطيلها، ومن ذلك ما رواه مسلم عن جابر -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على أم

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه من الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، (٥٣٥ / ٢) رقم (١٤٠١).
- ٢- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الهبة وفضلها، باب فضل المنيحة (٩٢٦ / ٢) رقم (٢٤٨٧)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائهم، (١٦٢ / ٥) رقم (٧٤٠٢).
- ٣- أخرجه الترمذي في سننه من كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة (٦٤ / ٣) رقم (٦٨٠) قال أبو عيسى: «حسن صحيح غريب».

مُبَشِّرُ الْأَنْصَارِيَّةِ - رضي الله عنها - في نَخْلٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ - : «مَنْ عَرَسَ هَذَا النَّخْلَ أَمْسَلِمَ أَمْ كَافِرٌ». فَقَالَتْ: «بَلْ مُسْلِمٌ». فَقَالَ: «لَا يَغْرَسُ مُسْلِمٌ عَرَسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»^(١)، والنبى ﷺ - بهذا يرغب في تكثير الأيدي العاملة في الزراعة، ويشجع على الإقامة في الريف لمباشرة هذه المهنة الشريفة، والخبراء الآن يشكون من قلة العمال الزراعيين وكثرة سكان المدن الذين يترفعون عن الاشتغال بالزراعة.

المبحث الرابع

منهج السنة النبوية في حفظ الأصول المنتجة عقارية كانت أو منقولة

السنة النبوية حافلة بكثير من النصوص التي توجب الاهتمام بتوازن سوق السلع والخدمات الاستثمارية، واستمرار الإنتاج، وذلك من خلال محاربة كل تصرف ينتج عنه تحويل رأس المال المنتج إلى سلعة استهلاكية، سواء في مجال العقار أو المنقول.

ومن الأحاديث الواردة في هذا المقام، ماروي عن سعيد بن حريث - رضي الله عنه - أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ - : «من باع داراً أو عقاراً فلم يجعل ثمنه في مثله كان قمناً لأن لا يبارك له فيه»^(٢). وبرواية أخرى عن حذيفة ابن اليمان أن سول الله ﷺ - قال: «لا يبارك في ثمن أرض أو دار إلا أن يجعل في أرض أو دار»^(٣).

- ١ - أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، (٥ / ٢٧) رقم (٤٠٥١).
- ٢ - أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠ / ١١٨) رقم (١٦٥٠)، والدارمي في السنن، من كتاب البيوع، باب فيمن باع داراً فلم يجعل ثمنها في مثلها (٢٧٣ / ٢) رقم (٢٦٢٥)، وابن ماجه في السنن، من كتاب الرهون، باب من باع داراً أو عقاراً فلم يجعل ثمنه في مثله (٢٠ / ٨٣٢) رقم (٢٤٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى، من كتاب البيوع، باب ما جاء في بيع العقار، (٦ / ٣٣ / ٣٤)، رقم (١٠٩٥٩). قال الشيخ الألباني: "حسن". انظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، الألباني، (٥ / ٤٩٠) رقم (٢٤٩٠)، والسلسلة الصحيحة، الألباني، الحديث رقم (٢٣٢٧).
- ٣ - أخرجه ابن ماجه في السنن، من كتاب الرهون، باب من باع داراً أو عقاراً فلم يجعل ثمنه في مثله (٢٠ / ٨٣٢) رقم (٢٤٩١)، والإمام أحمد في مسنده (١ / ١٩٠) الحديث رقم (١٦٥٠) قال الهيثمي: «رواه أحمد وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وغيرهما، وقد ضعفه ابن معين وأحمد وغيرهما». مجمع الزوائد، الهيثمي، (٤ / ١٩٩) رقم (٦٥٣٩).

وقوله - ﷺ - : «فلم يجعل ثمنه في مثله» أي من باع داراً ينبغي أن يشتري بثمنها مثلها أي داراً أخرى. وإن لم يشتري داراً بعد أن باع داره. كان حقيقاً أن لا يبارك له فيه. وقوله - ﷺ - (قَمِنًا) أي جديراً وخليقاً. من فتح الميم جعله مصدرًا ومن كسرهما جعله وصفاً وهو الأقرب.

وقال سفيان بن عيينة: «من باع داراً ولم يشتري من ثمنها داراً لم يبارك له في ثمنها». قال سفيان: «إن الله يقول ﴿وَبَارِكْ فِيهَا وَقَدَّرْ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [سورة فصلت: ٩] يقول فلما خرج من البركة ثم لم يعدها في مثلها لم يبارك له»^(١).

والحديث يدل على أهمية المحافظة على رأس المال في المجتمع، ورفع معدلات تكوينه، فالرسول ﷺ يوجه صاحب العقار «رأس المال» إلى أن يحافظ عليه، فإن باعه يجب أن يحصل مثله، أو أفضل منه. أما أن ينفق ثمنه في الأغراض الاستهلاكية فذلك يمقته رسول الله - ﷺ - ويبين أن تصرفه لا يحقق بركة، أي التنمية الاقتصادية، وعليه فليس للدولة أن تبيع ممتلكاتها المثلة لجزء من عناصر المال العام وتستهلك أثمانها، وإنما الواجب عليها أن تبنى بها رأس مال جديد أفضل منها في الصناعة والتجارة، حتى يتحقق التراكم الرأسمالي، وتناى بهذه الموارد عن الاقتراض الداخلي أو الخارجي.

والسنة النبوية تدعو كذلك إلى ضرورة المحافظة على الاستثمارات المنقولة كما في دعوة الرسول - ﷺ - بالنهي عن ذبح ذات الدَّر أو الحلوب يؤيده ما روي عن أبي هريرة - رضيه الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - أتى رجلاً من الأنصار. فأخذ الشفرة ليذبح لرسول الله - ﷺ - فقال له رسول الله - ﷺ - : «إياك والحلوب»^(٢).

١- السنن الكبرى، البيهقي، (٦ / ٣٤).

٢- أخرجه ابن ماجه في السنن، من كتاب الذبائح، باب النهي عن ذبح ذات الدَّر، (٢ / ١٠٦١ / ١٠٦٢) رقم (٣١٨٠ / ٣١٨١). قال الشيخ الألباني: "صحيح". انظر: صحيح وضعيف. سنن ابن ماجه، الألباني (٧ / ١٨٠) رقم (٣١٨٠).

وفي موضع آخر نهى النبي - ﷺ - أبا الهيثم بن التيهان الأنصاري - رضى الله عنه -
وكان رجلاً كثيراً النخل والشاء - عن ذبح ذات الدّر^(١) .

ففي الحديث نهى عن ذبح ذات الدّر، أي التي تدر لبناً، وهو بمعنى المحافظة
على الأصول المنتجة؛ لما يترتب من المحافظة عليها استمرارية الإنتاج، على نحو
يضمن تحقيق التوازن بين الأجيال المتلاحقة.

إذا كان ذلك كذلك فلنا أن نتساءل عن موقف السنة النبوية مما يعرف في
الأديان الاقتصادية بـ «الخصخصة أو التخصيصية» بمعنى تحويل الملكية الخاصة
إلى الملكية العامة بضوابط وشروط مخصوصة تخدم الاقتصاد القومي؟

المنظور الشرعي للخصخصة من خلال المنهج النبوي:

من يطالع نصوص السنة النبوية المطهرة يجد أن الرسول - ﷺ - قد أقر الملكية
الخاصة بقوله وفعله، كما دلت عليه الكثير من الأحاديث، ومنها:

أ- عَنْ أَبِي بَكْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ فِي خُطْبَةِ حِجَّةِ الْوُدَاعِ: «... فَإِنَّ
دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسَبُهُ قَالَ - وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ
كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا...»^(٢).

ب- عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا
تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.
الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا». وَيُشِيرُ

١- الحديث بتمامه أخرجه الترمذي في سننه من كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ
(٥٨٣/٤) رقم (٢٣٦٩)، وقال عنه: "هذا حديث حسن صحيح غريب . وأخرجه أيضاً الحاكم في
المستدرک على الصحيحين مع تعليقات الذهبي في التلخيص (١٤٥/٤) رقم (٧١٧٨) وقال: "هذا
حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه .

٢- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب قول النبي - ﷺ - "رب مبلغ أوعى من السامع" (٣٧/١)،
حديث رقم (٦٧)، ومسلم في صحيحه من كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال
(١٠٧/٥) رقم (٤٤٧٧).

إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ أَمْرِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ»^(١).

والواقع أن إقرار الشريعة الإسلامية لحق الملكية الخاصة أو الملكية الفردية أمر معروف من الدين بالضرورة، إذ لولا هذا الإقرار لما كان هناك معنى لما شرعه الإسلام من أنظمة الزكاة والنفقات الخاصة وعقود المعاوضات والتملكيات وغيرها من الأنظمة والعقود المتعلقة بالمال؛ لأن هذه التشريعات تستلزم بالبداية الاعتراف بحق الملكية الخاصة؛ لأن هذا الحق محله المال^(٢).

وأيضاً تحريم الإسلام للسرقة والغش والغصب، وفي إيجابه أداء الأمانات لأصحابها ورد المال إلى صاحبه ومعاقبة السارق، والغاصب والغاش والخائن مما يدل كذلك على حماية الإسلام للملكية الخاصة^(٣).

أما عن مدى تحويل هذه الملكية الخاصة إلى الملكية العامة من خلال المنهج النبوي فنجد ذلك واضحاً في أكثر من موضع:

١- عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَجْلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - لَمَّا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَرَ أَرَادَ إِخْرَاجَ الْيَهُودِ مِنْهَا، وَكَانَتْ الْأَرْضُ حِينَ ظَهَرَ عَلَيْهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ فَأَرَادَ إِخْرَاجَ الْيَهُودِ مِنْهَا فَسَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - أَنْ يَقْرَهُمْ بِهَا عَلَى أَنْ يَكْفُوا عَمَلَهَا وَلَهُمْ نِصْفُ الثَّمْرِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - «نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى

١- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله. (١٠ / ٨) رقم (٦٦٠٧).

٢- القيود الواردة على الملكية الفردية للمصلحة العامة في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، (ص ٩).

٣- قيود الملكية العامة، د. عبد الله عبد العزيز مصلح، (ص ١٨١).

ذَلِكَ مَا شِئْنَا». فَفَرُّوا بِهَا حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمُرٌ إِلَى تَيْمَاءَ وَأَرِيحَاءَ»^(١). ويظهر لنا من التطبيق النبوي تجاه أرض خيبر ما يلي:

أ- أن الإسلام لا يمنح من أن يمنح للأجانب حق استغلال مورد وطني نظير جزء معين من الناتج، طالما كانت إمكانيات استغلاله غير متاحة للمسلمين، على أن يكون هذا الاستغلال تحت هيمنة الدولة سواء في مراقبة الإنتاج أو في تحديد مدة الاستغلال، وشريطة أن يكون المورد ضروريا للأمة ولتقدمها، ولا يمكن تأجيل استغلاله للمستقبل.

ب- إذا توافرت الإمكانيات فمن الواجب أن يباشر المسلمون بأنفسهم في استغلال كل مورد وطني يزيد في تقدم الأمة ورفيها^(٢).

٢- عن أنس - رضي الله عنه - «أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرَّ بقوم يُلقِحُونَ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصُلِحَ». قَالَ فَخَرَجَ شَيْصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ «مَا لِنَخْلِكُمْ». قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(٣).

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملات بجزء من الثمر والزرع، (ج٥ / ٤٧٥) رقم (١٥٥١). و تيماء: مدينة بين الحجاز والشام. معجم البلدان، ياقوت الحموي، (ج١ / ٤١). وأريحاء: هي مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام. معجم البلدان، ياقوت الحموي، (ج١ / ١٠٨).

٢- الإسلام والتنمية الاقتصادية، دراسة مقارنة، أحمد شوقي دنيا، (ص٢٠١).

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره - صلى الله عليه وسلم من معاش الدنيا على سبيل الرأي، (٨ / ١٢٨) حديث رقم (٢٣٦٣).

هذا الحديث يفيدنا أن الشؤون الدنيوية قابلة للتغيير حسب متطلبات المصلحة وسياسات الدولة، وقد سماها الفقهاء بالمعاملات ووسعوا بها، حيث إنهم وضعوا عدة قواعد في هذا الشأن، منها: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان^(١). ومنها تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة^(٢). والأصل في العقود الإباحة ما لم تخالف نصاً شرعياً، ومعنى ذلك أن العقود والاتفاقات لا تنحصر فيما كان سائداً في عهد الرسول - ﷺ - أو فيما أورده الفقهاء في كتبهم، إنما تمتد لتشمل كافة الصيغ والأساليب الحديثة التي تتفق مع مقاصد الشريعة في تحقيق المصالح ودرء المفاسد. وهذا من أظهر وجوه صناعة التميز وتنمية المهارات والقدرات الانتاجية.

١ - شرح القواعد الفقهية، أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، (ص ٢٢٩).

٢ - الأشباه والنظائر، زين الدين بن إبراهيم بن نجيم، (ص ١٢٣). والواقع العملي للأمة الإسلامية يؤكد حقيقة أهم، وهي أن الإسلام يؤكد على رفض ما نسميه اليوم بفساد القطاع العام، مما يعطينا سنداً قويا على أهمية القول بجواز الخصخصة في ظل الضوابط الإسلامية للملكية الخاصة، فالإمام علي بن أبي طالب ؑ كان قد وافق الخليفة عمر بن الخطاب ؓ على عدم قسمة الأراضي المفتوحة في الشام والعراق ومصر، وجعل ملكية رقبتهما للدولة وإقرار أهلها عليها لزراعتها وعمارتها، ومع ذلك فإن موقف سيدنا علي ؑ تغير في زمن خلافته، وذلك لتغير الظروف، وهذا ما نقله القرشي في الخراج عن الإمام علي بن أبي طالب أنه قال: "أعينوا على أنفسكم فإن السبعة أو قال التسعة يكونون في القرية فيحيونها بإذن الله عز وجل، ولولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت هذا السواد بينكم". الخراج ليحيى بن آدم، (ص ٤٦). وجاء في كتاب تحرير المقال للبلاطيسي (ص ٢٤٠ ٢٤١) ما نصه: "هل يجوز للإمام ومن قبله أن يبيع أراضي بيت المال، ينظر إن كان محل ضرورة جاز، ومثاله، أن ينزل قحط ومجاعة تفضي على هلاك الفقراء فيجوز بيع قطعة منه لبقاء المهجة الدم أو دم القلب والروح وكذلك لو أحاط الكفار بالمسلمين ولم يقدر الإمام على دفعهم لضعف الجنود وقلة المقاتلة ورأى أنه إذا باع منها شيئاً تقوى الشوكة ويقوى على دفعهم وحفظ الدار، هذا إذا لم يقدر على الاستقراض إلى أن يحصل في بيت المال ما يعوض المقرض. أما إذا لم يكن في محل الاضطرار، ولكن طرأت حاجة وإن لم يكن في بيت المال شيء، مثل أن يحتاجوا إلى بناء المساجد والقناطر وعند الإمام فقراء ومساكين ولا يخشى عليهم الهلاك ويعيشون بالمسألة والاستقراض إلى أن يحصل في بيت المال فلا يجوز البيع؛ لأن أراضي بيت المال في معنى الوقف؛ لأنه يتعلق به حق جميع المصالح في جميع الأعصار. ويفهم من النص أن الخصخصة لا تجوز إلا بشرطين، الأول: أن تكون هناك ضرورة للبيع. الثاني: عدم القدرة على الحصول على موارد مالية أخرى تغطي الضرورة الموجبة للبيع كالأستقراض على بيت المال.

المبحث الخامس

منهج السنة النبوية في تنمية المهارات وحفز همم المتعطلين عن العمل

ورد في السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي تحث على عمل اليد، وترغب الناس إلى السعي في طلب الرزق، والتحذير من البطالة والكسل، والنهي عن القعود والتواكل والاستسلام للفقر، ومن هذه الأحاديث ما رواه رافع بن خديج - رضي الله عنه - عن أبيه قيل: يا رسول الله أي الكسب أطيب؟ قال: كسب الرجل بيده و كل بيع مبرور^(١). والحديث يرشد إلى أن كل قادر على العمل مطالب بأن يسعى سعيه، وأن يأخذ مكانه في موكب العاملين، وبهذا يستغل الإسلام كل سواعد أبنائه القادرين على العمل في بناء مجتمعهم وزيادة إنتاجهم.

وتعترف الدولة الإسلامية بحقوق العاطلين، وتسعى جاهدة إلى تدبير العمل لهم ولا تتركهم إلى التسويف والمماطلة، وتزودهم بما يلزمهم، وتؤهلهم نفسياً ومادياً للعمل.

وهذه المعاني كلها جمعها الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام أبو داود في سننه عن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - يسأله فقال: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه من الماء. قال: «أنتني بهما». فاتاه بهما فأخذهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده وقال: «من يشتري هذين». قال رجل: أنا أخذهما بدرهم. قال: «من يزيد على درهم». مرتين أو ثلاثاً قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فأنبذه إلى أهلِكَ واشتر بالآخر

١ - أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، من کتاب البيع (١٣/٢) رقم (٢١٦٠) وسکت عنه الذهبي في التلخیص. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب في کتاب البيع وقال: "رواه أحمد والبخاري ورجال إسناده رجال الصحيح خلا المسعودي". انظر: صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، (١٤١/٢) والحديث صحيح لغيره.

قَدْ وَمَا فَاتَنِي بِهِ». فَاتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عُوْدًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اِذْهَبْ فَاحْتَطَبْ وَبِعْ وَلَا أَرِيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشْرَ يَوْمًا». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ لَزِي فَقَرٍ مُدْفِعٍ أَوْ لَزِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ أَوْ لَزِي دَمٍ مُوَجِعٍ»^(١).

والحديث يشتمل على الكثير من المبادئ والسياسات التي تلتزم بها الدولة الإسلامية تجاه العاطلين، أهمها^(٢):

١- أن العاطلين كانوا يرون لهم حقوقاً على الدولة فيذهبون إلى ولي الأمر باسم هذه الحقوق، ليدبرهم أمرهم بما يراه، وكانوا يذهبون بملء الكرامة والعزة؛ لأن صاحب الحق لا يكون ذليلاً، وحق العمل كحق الطعام، فالعمل زكاة الأرواح والأجسام، وعبادة من عبادات الإسلام، التي يجب أن تقيمها الدولة وتهيئ لها السبل، حتى يتم للجميع الاكتفاء في ظل الكرامة والعزة والاستقلالية عن الغير.

٢- أن الدولة تقر العاطلين على هذه الحقوق، وتعترف لهم بها، ولا تنكرها عليهم، بدليل أن رسول الله ﷺ - استمع إلى شكاية الرجل ولم يزرجه، وأقره على حضوره إليه ولم يطرده فلعن الذين يضيعون بالعمال ويزجرونهم

١- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، (٢ / ٤١) رقم (١٦٤٣)، والترمذي في سننه من كتاب البيوع باب بيع من يزيد (٣ / ٥٢٢) رقم (١٢١٨) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث الأخضر بن عجلان، قال يحيى بن معين: صالح، وقال الرازي: يكتب حديثه". قال الألباني: "ضعيف". انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٤ / ١٤١) قال الهيثمي: "رواه أبو داود وغيره من حديث أنس عن رجل، رواه أحمد، وقد حسن الترمذي سنده"، مجمع الزوائد، الهيثمي (٤ / ١٥٠).

٢- انظر: العمل والعمال في الفكر الإسلامي، د. إبراهيم النعمة، (ص ٨٧، ٩٠)، الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية، د. البهي الخولي، (ص ٧٩، ٨١)، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، (ص ٤٧)، نظام الإسلام الاقتصادي، الشيخ محمد المبارك، (ص ٣٨، ٣٩)، معركة الإسلام مع الرأسمالية، سيد قطب، (ص ٢٥).

يتعظون بهذا الهدي النبوي ويعملون به.

٣- أن الدولة لا تكتفي فقط بالاعتراف بحقوق العاطلين، بل تدبر لهم العمل فوراً، ولا تتركهم إلى التسويف والمماطلة، فقد رأينا رسول الله - ﷺ - لم يأمر الرجل بالانصراف إلا بعد أن دبر له العمل والمكان الذي يعمل فيه، وهذا أقصى ما تطمح إليه أنظار العمال في العالم.

٤- اطمئننا الدولة على يسر العامل ورخائه، فقد رأينا الرسول - ﷺ - لم يكتف بإيجاد العمل للعاطل، بل طلب أن يعرف ما صارت إليه حالته ليطمئن عليه.

٥- ولي الأمر عليه أن يزوده العامل بألة العمل، فللنجار آلة النجارين، وللحداد آلة الحدادين، وهكذا؛ لأن الرسول - ﷺ - جهز الرجل بألة العمل، إذ أحضر القدوم ووضع لها اليد ودفعها إليه.

٦- تأهيل النبي - ﷺ - العاطل تأهيلاً نفسياً ومادياً للعمل، أما تأهيله نفسياً فيحث أمره - ﷺ - بتزويد الأهل بالطعام كي يفرغ من التفكير في شأنهم لبعض الوقت، وينقطع إلى العمل، وأما تأهيله مادياً فكان بتزويده بألة العمل الصالحة للإنتاج بعدما شد عوداً في القدوم بيده الكريمة.

٧- اهتمامه - ﷺ - بالتصرف على نتيجة تدبيره له حيث قال - ﷺ - «اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً» فكأنه - ﷺ - أعطاه فرصة خمسة عشر يوماً للعمل بموجب تدبيره، فإن استفاد من هذا التدبير فنعمة وإلا ينظر له حلاً آخر. وهذا الحديث لم يكن مختصاً بالاحتطاب فقط، بل يشمل الأعمال المباحة التي يستطيع العامل القيام بها كلها.

والمثير للعجب في هذه القصة: أن الحلس والقعب وهما من أخص الضرورات المنزلية آنذاك راس المال الذي مول الرسول - ﷺ - بثمانهما ما يتطلبه

العمل من أدواته بعد تأمين الأسرة على ضروراتها العاجلة من الطعام بذلك لم يكتب الرسول -ﷺ- أمام تلك المشكلة بمجرد التوجيه والتوصية، ولكنه إلى جانب ذلك تقدم بمجهوده وخبرته فشارك صاحبه نسج الخطة التي تبتدىء بها حياة العمل والكفاح والاستثمار، فأعد له القدوم بيده، ووضع له ضوابط العمل ليأتي بثماره المرجوة من حشد طاقاته للعمل المتاح.

ومن الهدي النبوي -أيضاً- حرص النبي -ﷺ- على العمالة الكاملة لكافة أفراد قوة العمل المتاحة بشرط أن توجه نحو الجهود الإنتاجية المفيدة لجميع المسلمين، والنافعة للفرد المسلم حتى يزداد قوة بجماعة المسلمين، وتزداد قدرة المجتمع الإسلامي في الإنتاج والتنمية، وأن احتراف أي عمل مهما كان صغيراً وبسيطاً، خير من البطالة وسؤال الناس، يؤيده ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- : «لَأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا يُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ»^(١).

والمأمل في فقه هذا الحديث يجد أنه يظهر مدى حرص المنهج النبوي على العمل وتشغيل القادرين عليه، لكسب قوتهم وحاجتهم من عمل أيديهم، ولو أدى ذلك على تجشم العناء وتحمل المتاعب.

ورغبة من الإسلام في القضاء على البطالة والتخلص من العاطلين، منع إعطاء الصدقة للقادر على العمل، حتى يستغل جهده وقوته في عمل منتج يستفيد منه ويفيد الآخرين، فقد أخرج أبو داود في سننه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبيد الله بن عدي بن الحيار قال أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي -ﷺ- في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرأنا جلدتين

١- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الزكاة، باب كسب الرجل صحيح البخاري، (٢/ ٧٣٠) رقم (١٩٦٨)، ومسلم في صحيحه من كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس، (٣/ ٩٧) رقم (٢٤٤٩).

فَقَالَ: «إِنْ شِئْتُمَْا أَعْطَيْتُكُمْمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ»^(١).

قال الصنعاني: «والحديث من أدلة تحريم الصدقة على الغني والقوي المكتسب؛ لأن حرفته صيرته في حكم الغني»^(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيضَ^(٣) لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(٤).

قال ابن حجر: «قال العلماء الحكمة في إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقتها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقتها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم»^(٥).

وارتقت السنة النبوية بالعمل إلى منزلة العبادة، بل إلى درجة أعظم العبادات وأشرفها إذ بينت أن العامل كالمجاهد في سبيل الله فعن كعب بن عجرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً فرأى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من جلده ونشاطه،

- ١- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى، (٣٧/٢) رقم (١٦٣٥)، والإمام أحمد في مسنده، (٤٨٦/٢٩) رقم (١٧١٩٢).
- ٢- سبل السلام، الصنعاني (١٤٦/٢).
- ٣- قراريض: جمع قيراط، وهو جزء من النقد. وقيل: قراريض اسم موضع قرب جباد بمكة. فتح الباري، ابن حجر (٤/٤٤١).
- ٤- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الإجارة، باب رعي الرجل الغنم على قراريض (٧٨٩/٢) رقم (٢١٤٣).
- ٥- فتح الباري، ابن حجر (٤/٤٤١)، ونحوه في شرح البخاري، ابن بطال (١١/٤٠٠).

فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبيوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»^(١).

وفي سنن ابن ماجه عن المقدم بن معد يكرب الزبيدي عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة»^(٢). هذا الحديث - وغيره كثير - من شأنه أن يحفز همم الناس إلى العمل المثمر، وبذل الجهد في سبيل الإنتاج والوصول به إلى أقصى حد ممكن، كما أنه دليل على أن مجتمع المسلمين هو مجتمع العاملين المنتجين الذي ينبذ البطالة ويكره العاطلين، ولا يركن فيه أحد إلى الكسل والعود؛ لأنه يعلم أن العمل واجب عليه مادام قادراً على أدائه.

المبحث السادس

منهج السنة النبوية في تنمية الأموال وعدم تعطيلها بالاكتناز، ودعوتها إلى التقدم التكنولوجي

أرشدت السنة النبوية إلى تنمية الأموال وعدم تعطيلها بالاكتناز^(٣)، مؤكدة

- ١- (٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٩/١٩) رقم (٢٨٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٩٦/٤) رقم (٧٧٠٩): "رواه الطبراني في الثلاثة ورجال الكبير رجال الصحيح".
- ٢- أخرجه ابن ماجه في سننه من كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، (٧٢٣/٢) رقم (٢١٣٨). قال عنه الألباني: "صحيح". انظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١٣٨/٥) رقم (٢١٣٨).
- ٣- الاكتناز: هو المال الذي جمع وحبس ومنعت منه حقوقه كالزكاة والصدقة. وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة التوبة، ٣٤]. انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٢٨/١٤)، شرح ابن بطال (٤٤٧/٥). وقد عَنُون البخاري له باباً باسم: "باب ما أدي زكاته فليس بكنز". قال الإمام العيني: "علل البخاري بهذا الحديث حيث ذكره بلام التعليل صحة ترجمته بقوله باب ما أدي زكاته فليس بكنز لأن شرط كون الكنز شيئاً أحدهما أن يكون نصاباً والثاني أن لا يخرج منه زكاته فإذا عدم النصاب لا يلزمه شيء فلا يكون كنزاً". عمدة القاري، العيني (٢٣٤/١٣).

أن صفة الاكتناز ليست قاصرة على مال بعينه، وأنه لا فرق في ذلك بين الأموال العينية والنقدية؛ ذلك لأن لكل نوع دوره في النشاط الاقتصادي، ومن الأحاديث الواردة في هذا الباب:

١- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مَثَلٌ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠ الآية]»^(١).

٢- عن الأحنف بن قيس - رضي الله عنه - ، قال: «جَلَسْتُ إِلَى مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَجَاءَ رَجُلٌ خَشَنُ الشَّعْرِ وَالثِّيَابِ وَالْهَيْئَةِ، حَتَّى قَامَ عَلَيْهِمْ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِرُضْفٍ يَحْمِي عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُوَضَّعُ عَلَيَّ حَلْمَةٌ تَذِي أَحَدَهُمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتْفِهِ، فَيَتَزَلُّزَلُ، ثُمَّ وُلِّيَ، فَجَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ، وَتَبَعْتُهُ وَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، وَلَا أَدْرِي مَنْ هُوَ، قُلْتُ: لَا أَرَى الْقَوْمَ إِلَّا قَدْ كَرِهُوا مَقَالَاتِكَ، قَالَ: إِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا، قَالَ لِي خَلِيلِي رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتُبْصِرُ أَحَدًا؟» قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى الشَّمْسِ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ النَّبِيَّ، - صلى الله عليه وسلم - ، يُرْسِلُنِي فِي حَاجَةٍ، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَحَبُّ أَنْ لِي مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا أَنْفَقَهُ كُلَّهُ إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرٍ»، وَإِنَّ هَؤُلَاءَ لَا يَعْقِلُونَ، إِنَّمَا يَجْمَعُونَ الدُّنْيَا، لَا وَاللَّهِ لَا أَسْأَلُهُمْ دُنْيَا، وَلَا أَسْتَفْتِيهِمْ عَنْ دِينٍ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ»^(٢).

قال ابن بطال في شرحه للحديث: «اتفق أئمة الفتوى على قول عمر، وابن عمر، وابن عباس - وهو تفسير الكنز بأنه كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته

١- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة، (٢/ ٥٠٨) رقم (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، من كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، (٣/ ٧٣) رقم (٢٣٤٣) بلفظ: "وَلَا صَاحِبُ كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، يَتَّبِعُهُ فَاتِحًا فَاهُ فَإِذَا آتَاهُ فَرَمَنَهُ، فَيَنَادِيهِ خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ، فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ..."

٢- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، (٢/ ٥٠٨) رقم (١٣٣٨).

- واحتج له الطبري بنحو ما نزع به البخاري، فقال: الدليل على أن كل ما أدت زكاته فليس بكنز إيجاب الله تعالى على لسان رسوله - ﷺ - في خمس أواق ربع عشرها، فإذا كان ذلك فرض الله تعالى على لسان رسوله، فمعلوم أن الكثير من المال، وإن بلغ ألوفاً إذا أدت زكاته فليس بكنز، ولا يحرم على صاحبه اكتنازه، لأنه لم يتوعد الله عليه بالعقاب، وإنما توعد الله بالعقاب على كل مال لم تؤد زكاته، وليس في القرآن بيان كم ذلك القدر من الذهب والفضة الذي إذا جمع بعضه إلى بعض استحق جامعه الوعيد، فكان معلوماً أن بيان ذلك إنما يؤخذ من وقف رسول الله - ﷺ - وهو ما بيناه أنه المال الذي لم يؤد حق الله منه من الزكاة دون غيره من المال»^(١).

٣- عن زيد بن وهب، قال: مررت بالريذة^(٢)، فإذا أنا بأبي ذر، فقلت: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها فكثر علي الناس، حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت ننحيت، فكننت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا علي حبشياً لسمعت وأطعت»^(٣).

ومن الثابت أن مقولة أبي ذر - ﷺ - هذه كانت صرخة مدوية في الآفاق، مبعثها الإخلاص في فهم مقاصد الشريعة، وهي استثارة همة الأغنياء بإخراج ما وجب في أموالهم من حقوق، حتى لاتذهب حقوق الفقراء سدى، وإظهار ذلك واجب شرعي؛ ولذلك لم ينكر عليه أحد من الصحابة - ﷺ - قال ابن بطال:

١- شرح صحيح البخاري، ابن بطال (٥/ ٤٥٢).

٢- (الريذة) موضع على ثلاث مراحل من المدينة فيه قبر أبي ذر - ﷺ.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢/ ٥٠٨) رقم (١٣٤١).

«وفيه: جواز الاختلاف والاجتهاد في الآراء، ألا ترى أن عثمان - رضي الله عنه - ومن كان بحضرتيه من الصحابة لم يردوا أبا ذر عن مذهبه، ولا قالوا له: إنه لا يجوز لك اعتقاد قولك، لأن أبا ذر نزع بحديث النبي، - صلى الله عليه وسلم -، واستشهد به، وذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: «ما أحب أن لى مثل أحدٍ ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»^(١).

ومما يستدل به على عدم جواز تعطيل الموارد في ضوء نصوص السنة النبوية، ما ذكره الإمام القنوجي صاحب الروضة الندية «... من وضع مالاً في مسجد أو مشهد لا ينتفع به أحد، جاز صرفه إلى أهل الحاجات ومصالح المسلمين. ومن ذلك ما يوضع في الكعبة ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُوا عَهْدَ بَجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ - لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَعَلْتُ بِأَبْهَا بِالْأَرْضِ وَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحَجَرِ». ^(٢) قال النووي في شرحه لهذا الحديث: «وفيه دليل لتقديم أهم المصالح عند تعذرهما... وفيه دليل لجواز إنفاق كنز الكعبة ونذورها الفاضلة عن مصالحها في سبيل الله»^(٣).

فهذا يدل على جواز إنفاق ما في الكعبة إذا زال المانع، وهو حداثة عهد الناس بالكفر، وقد زال واستقر بالإسلام. فإذا كان هذا هو الحكم في الأموال التي في الكعبة، فالأموال التي في غيرها من المساجد أولى بذلك بفحوى الخطاب»^(٤).

وتفريعاً على هذا الحكم ذكر الإمام الشوكاني ما نصه: «فمن وقف على مسجده - صلى الله عليه وسلم - أو على الكعبة أو على سائر المساجد شيئاً يبقى فيها لا ينتفع به

١ - شرح صحيح البخاري، ابن بطال (٥/ ٤٥٣).

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها (٤/ ٩٧) رقم (٣٣٠٧).

٣ - شرح النووي على مسلم (٩/ ٩٠).

٤ - الروضة الندية، القنوجي، (٢/ ١٦٠ / ١٦١).

أحد، فهو ليس بمقترب ولا متصدق بل هو كانز^(١)، ويؤكد هذا ما تقرر من أن الأموال إنما خلقت لإعانة العباد على عبادة الله^(٢) وتنفيذ أمره سبحانه وتعالى بتعمير الأرض عن طريق استثمارها في النشاط الإنتاجي وليس عن طريق اكتنازها في دور العبادة.

ومجمل ما تقدم - وغيره كثير - دليل قاطع على تحريم الاكتناز، وأن حكمة هذا التحريم تظهر جلية في كونه عملاً يقوم على تعطيل الأموال واستثمارها وتداولها قصد جلب المنافع، وذلك أن هذا التداول هو الذي يولد الرخاء الاقتصادي بين أفراد المجتمع؛ لأن دوران المال في الأيدي يعود بالنفع على الجميع، خلافاً للكنزه الذي يحجب منفعته عن الآخرين، ولا يستفيد منه الكانز؛ لأنه دفنه في خزائنه فلم يحقق به منفعة، وإنما نال إثماً وارتكب معصية^(٣).

هذه التوجيهات الكريمة تعتبر من أسس الاقتصاد الإسلامي، الذي لا يقبل بأي حال من الأحوال، أن تحتكر الأموال وتُعطل عن مهامها في بناء المجتمع ورفقيه، إذ إن في تكديسها وتعطيلها تعطيلاً للأيدي العاملة، وبالتالي حصول الضرر وسط المجتمع، بانتشار الفقر كنتيجة لفقدان العمل. هذا من ناحية.

المنهج النبوي في إحياء الموات:

ترفض الشريعة الإسلامية تعطيل الموارد كما ترفض تبديدها، وبخاصة إذا كانت هذه الموارد في صورة أرض زراعية، وأصل هذه المسألة ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ الْمُرْتَبِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - أَقْطَعَ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ

١- انظر: نيل الأوطار، الإمام الشوكاني (٣٨ / ٣٦ / ٨).

٢- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الله إنما خلق الأموال إعانة على عبادته؛ لأنه خلق الخلق لعبادته". انظر: السياسة الشرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، (ص ٢٢).

٣- ينظر: المال في الإسلام، د. محمود محمد البابلي، (ص ٥٧).

الْمُزْنِيِّ مَعَادِنَ الْقَبَلِيَّةِ جَلَسِيَّهَا^(١) وَعَوْرِيَّهَا^(٢) - وَقَالَ غَيْرُ الْعَبَّاسِ جَلَسَهَا وَعَوْرَهَا -
 -وَحَيْثُ يَصْلُحُ الزَّرْعُ مِنْ قُدْسٍ وَلَمْ يُعْطِهِ حَقَّ مُسْلِمٍ وَكَتَبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ -
 «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزْنِيِّ
 أَعْطَاهُ مَعَادِنَ الْقَبَلِيَّةِ جَلَسِيَّهَا وَعَوْرِيَّهَا»^(٣).

وفي الخراج ليحيى بن آدم عن عبد الله بن أبي بكر، قال: «جاء بلال بن الحارث المزني إلى رسول الله ﷺ، فاستقطعه^(٤) أرضاً، فأقطعها^(٥) له طويلة عريضة»، فلما ولي عمر قال له: يا بلال إنك استقطعت رسول الله ﷺ - أرضاً طويلة عريضة، فقطعها لك، وإن رسول الله ﷺ - لم يكن يمنع شيئاً يسأله، وأنت لا تطيق ما في يديك، فقال: أجل، فقال: فانظر ما قويت عليه منها، فأمسكه، وما لم تطق، وما لم تقو عليه، فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين، فقال: لا أفعل والله شيئاً أقطعنيه رسول الله ﷺ -، فقال عمر: والله لتفعلن، فأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسمه بين المسلمين^(٦).

وعن عمرو بن شعيب - رضي الله عنه - قال: أقطع رسول الله ﷺ - أناساً من مزينة أو جهينة أرضاً، فعطلوها، فجاء قوم فأحيوها، فقال عمر: «لو كانت قطعة مني، أو من أبي بكر لرددتها، ولكن من رسول الله ﷺ -، قال: وقال عمر: «من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها، فجاء غيره، فعمرها، فهي له، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي»^(٧).

- ١- المجلس: المرتفع.
- ٢- الغور: المنخفض.
- ٣- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الخراج، باب إقطاع الأراضين (١٣٨/٣) رقم (٣٠٦٤) قال الألباني: "حسن".
- ٤- استقطعه، طلب منه أن يملكه.
- ٥- أقطعته، ملكه.
- ٦- الخراج، يحيى بن آدم (١/٢٦٣).
- ٧- الأموال، القاسم بن سلام (٢/١٦٨) رقم (٦١٢) الخراج، يحيى بن آدم (١/٢٥٦).

وتكمن الحكمة في عدم جواز تعطيل الأراضي الزراعية، أن الأراضي الزراعية من أهم موارد الثروة الاقتصادية، وأنها من هبات الخالق جل شأنه إلى البشر، ونحن البشر.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ - قال: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ، وَلَيْسَ لِعَرَقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»^(٨).

والأرض الميتة هي: الأرض التي لم يظهر أنه جرى عليها ملك لأحد، فلم يظهر فيها تأثير شيء من إحاطة أو زرع أو عمارة أو نحو ذلك، ولا يوجد من يملكها، وإحيائها هو جعلها صالحة للانتفاع.

قال أبو عبيد: «جاءت الأحكام في الإحياء على ثلاثة أوجه، أحدها: أن يأتي الرجل الأرض الميتة فيحييها ويعمرها، ثم يثبت عليها رجل آخر، فيحدث فيها غرسا أو بنيانا ليستحق ما كان أحيا الذي قبله والوجه الثاني: أن يقطع الإمام رجلا أرضا مواتا، فتصير ملكا للمقطع، إلا أن يفرض في إحيائها وعمارتها حتى يأتيها آخر فيحييها ويعمرها، وهو يحسب أنه ليس لها رب والوجه الثالث: أن يحتجر الرجل الأرض، والاحتجار: أن يضرب عليها منارا أو يحفر حولها حفيرا، أو يحدث مسناة، وما أشبه ذلك، مما تكون به الحيازة ثم يدعها مع هذا فلا يعمرها، ويمتنع غيره من إحيائها لمكان حيازته واحتجاره»^(٩).

ومما لا شك فيه أنه إذا طبقت تلك المبادئ السامية، فإن النتيجة حينما تكون زيادة الإنتاج الزراعي نتيجة لاتساع الرقعة الزراعية وتحل بذلك مشكلة الأمن الغذائي التي تقف عقبة أمام العالم الإسلامي.

٨- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضا ميتة (٢/ ٨٢٢). قوله ﷺ (لعرق

ظالم): أي ليس لمن غرس في أرض غيره بدون إذنه حق في إبقاء ما غرس؛ لأنه ظالم ومتعد في غرسه.
٩- الأموال، القاسم بن سلام (٢/ ١٥٧)، والأموال، ابن زنجويه (٢/ ٣٨٠).

وقد روى جابر بن عبد الله، وأبو هريرة، ورافع بن خديج، وعبد الله بن عمر وغيرهم من الصحابة - رضي الله عنهم - من أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حرم كراء الأرض بجعل ثابت، ونصه: «أَنَّهُ كَانَ لِرَجَالٍ فُضُولٌ أَرْضِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ كَانَتْ لَهُ فَضْلُ أَرْضٍ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ فَإِنْ أَبِي فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ»^(١). وفي رواية لأبي عن رافع بن خديج - رضي الله عنه - قال: «كُنَّا نَخَابِرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ عُمُومَتِهِ أَتَاهُ فَقَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَنْ أَمْرٍ كَانَ لَنَا نَافِعًا وَطَوَاعِيَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْفَعُ لَنَا وَأَنْفَعُ . قَالَ: قُلْنَا وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ فَلْيَزْرَعْهَا أَخَاهُ وَلَا يُكَارِبْهَا بِثُلْثٍ وَلَا بِرُبْعٍ وَلَا بِطَعَامٍ مُسَمًّى»^(٢).

وعن جابر قال: «كُنَّا نَخَابِرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَنُصِيبُ مِنَ الْقُصْرِيِّ^(٣) وَمَنْ كَذَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ فَلْيُحْرِثْهَا أَخَاهُ وَإِلَّا فَلْيَدَعْهَا»^(٤).

والواضح من هذا الحديث أن عقد المزارعة قد اشترط فيه شرط يقتضي فسادها. ولذلك نهى - صلى الله عليه وسلم - عنه، فالمزارعة في هذه الصورة لا يختلف الفقهاء في فسادها.

وعن نافع عن ابن عمر قال: «أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ

- ١- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب البيوع، باب كراء الأرض، (١٩ / ٥) رقم (٣٩٩٩). وقوله (فضول أرضين): أي أراضي فاضلة عن حاجتهم.
- ٢- أخرجه أبو داود في سننه من كتاب البيوع، باب التشديد في المزارعة، (٢٦٩ / ٣) رقم (٣٣٩٩) واللفظ له، وابن ماجه في سننه من كتاب الرهون، في المزارعة بالثلث، (١١٩ / ٢) رقم (٢٤٥٢) قال الألباني، "صحيح". انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣٩٥ / ٧).
- ٣- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب البيوع، باب كراء الأرض (١٩ / ٥) رقم (٤٠٠٥).
- ٤- القصري: ما بقي من الحب في السنبل بعد درسه.

مَنْ ثَمَرَ أَوْ زَرَعَ فَكَانَ يُعْطَىٰ أَرْوَاجَهُ كُلَّ سَنَةٍ مِائَةَ وَسَقٍ^(١) ثَمَانِينَ وَسَقًا مِنْ ثَمَرٍ وَعَشْرِينَ وَسَقًا مِنْ شَعِيرٍ فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قَسَمَ خَيْرَ أَرْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنْ يُقَطَعَ لَهُنَّ^(٢) الْأَرْضُ وَالْمَاءُ أَوْ يُمِضَىٰ لَهُنَّ الْأَوْسَاقُ كُلَّ عَامٍ فَاخْتَلَفْنَ فَمِنْهُنَّ مَنْ اخْتَارَ الْأَرْضَ وَالْمَاءَ وَمِنْهُنَّ مَنْ اخْتَارَ الْأَوْسَاقَ كُلَّ عَامٍ فَكَانَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ مِمَّنْ اخْتَارَتَا الْأَرْضَ وَالْمَاءَ^(٣).

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن عقد المزارعة على النحو دلت عليه الأحاديث السابقة^(٤) عقد يعمل على زيادة الإنتاج ونموه، كما أن من شأنه أن تستغل من خلاله طاقات وجهود وقوى قد تكون عاطلة ولا تجد من الأعمال ما تقوم عليه، فيفتح هذا العقد باباً واسعاً لكل هذه الطاقات والقوى لكي تشارك في الإنتاج وتسهم فيه بنصيب وافر، فيتحقق بذلك الرخاء وزيادة الدخل لكل من الفرد والمجتمع على السواء. هذا من جانب.

١- الوسق: مكيلة معلومة وهي ستون صاعاً، والصاع خمسة أرتال وثلث. المعجم الوسيط، د. إبراهيم مصطفى (٢/ ١٠٣٢).

٢- قوله: (يقطع لهن) يعطينهن نصيباً من الماء والأرض.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب البيوع باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (٥/ ٢٦) رقم (٤٠٤٥).

٤- بسط الفقهاء القول في أحكام المزارعة في كتب الفقه الإسلامي، ويضيق المقام عن ذكرها على وجه التفصيل، وقد توصل فقهاء الإسلام إلى أن الإسلام لا يبيح إلا صورتين اثنتين من صور استغلال الأراضي الزراعية، وهما:

إما أن يزرع صاحب الأرض أرضه ببذر وسخه وماشيته وآلته وعمله، وله في ذلك أن يستعمل من العاملين من شاء على أن يدفع لكل أجير أجره بما يعادل أجر المثل ودون أن يؤخر دفع الأجر عن الموعد المتفق عليه.

وإما أن يشرك معه غيره في العملية الإنتاجية، فيجوز أن يكون البذر والسماد من صاحب الأرض، ويجوز أن يزيد عليهما ما يتفق عليه الطرفان من ماشية وآلة ومبيدات للحشرات، وأن يكون العمل من قبل غيره (المزارع أو المحاقل أو المخابر) ويجوز للمزارع في هذه الحالة أن يقتصر على تقديم العمل اللازم من قبله، كما يجوز أن يقرن ذلك بتقديم البذر كله أو بعضه، أو بتقديم أي عنصر آخر من عناصر الإنتاج.

في مذاهب الفقهاء ينظر: المبسوط، السرخسي (٢٣/ ١٧)، مواهب الجليل، الخطاب (٥/ ١٧٦)، مغني المحتاج شرح المنهاج، الخطيب الشربيني (٢/ ٣٢٣)، المغني، ابن قدامة (٥/ ٤١٦)، نيل الأوطار، الشوكاني (٥/ ٢٧٥).

ومن جانب آخر: فإن تحريم كراء الأرض بجعل ثابت- كما دلت عليه الأحاديث النبوية- يتفق مع حكمة الشريعة الإسلامية وفلسفة أحكامها، إذ لا يقبل منصف أن يعهد المالك لأرض غيره بالفلاحة، ويشترط لنفسه غنما دون غرم، فيقتضي أن يدفع الفلاح كراء قل أم كثر، وسواء توافر المحصول أو انعدم، إذ يكون مثله كمثل من أقرض مالا لأخيه، واقتضاه (فائدة) علاوة على أصل ما أقرض، فالفائدة ربا، والكراء بجعل ثابت أشبه ما يكون به.

وبديهي حينما يحرم الإسلام الكراء بجعل ثابت، إنما يرسم للناس سبل استغلال الأرض الزراعية الأمثل، فمن كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، وبذلك تنعدم طبقة الملاك الذين يعيشون على الكراء (الإيجار) فيسكنون الحضر، وتفسدهم البطالة، وبهذا ينتفي الظلم، كما أن ذلك المبدأ الإسلامي العظيم يحول دون شراء الأرض الزراعية إلا لمن له إمام بالزراعة، ومن يقبل تحمل مخاطرها، ومن ثم نجد أعداداً غفيرة من أصحاب الأراضي الزراعية المقيمين في المدن والمشتغلين بغير الزراعة في بيع أراضيهم إلى الفلاحين الراغبين في الحرث والاستثمار الزراعي، وبهذا تكبر المساحة التي تخص الفلاح الواحد مما يعينه على التوسع الزراعي، واستعمال الفنون الحديثة في استخدام الأراضي الزراعية.

منهج السنة النبوية في تشجيع التقدم التكنولوجي:

يرحب الإسلام بالتقدم العلمي والمادي، ولا يجفل من التطور الآلي والرقى الصناعي، مع المحافظة على العقيدة والمبادئ التي يقوم عليها كيان الأمة المعنوي، وذلك لأن الإسلام لا يهمله أن تحرث الأرض بمحراث يجره ثوران، أو بمحراث آلي يدار بالبخار أو بالكهرباء، ولا يهمله أن ينسج الثوب على منوال يدوي أو آخر ميكانيكي، بل يهمله تحقيق المصلحة للإنسان ودرء الضرر عنه، وتيسير الحياة، ومن

ثم كان مبنى الشريعة على المصلحة لا على المفسدة، والحكمة لا على العيب^(١).
وفي سبيل هذا أرشدت السنة النبوية المطهرة إلى أهمية الفصل بين التقنية أو
التكنولوجيا وبين العقيدة، ترتيباً على أن هذا العلم منشؤه هو ملاحظة الإنسان
لما حوله من أشياء وإدراكه للعلاقات القائمة بينها سلباً وإيجاباً وللقوانين التي
تحكم كل شيء من الأشياء في ذاته، أو في علاقته بغيره، ومن بين هذه الأمور
حادثة تأبير النخل أي تلقيح النخل، فقد روى مسلم عن رافع بن خديج قال:
قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ - الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ: يُلْقِحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ:
مَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا» فَتَرَكُوهُ
فَنَفَضْتُمْ أَوْ فَتَقَصْتُمْ. قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ
مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ». وفي رواية ثانية
عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله ﷺ - بِقَوْمٍ عَلَى رُؤُوسِ
النَّخْلِ فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: يُلْقِحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقِحُ.
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - مَا أَظُنُّ يُعْنِي ذَلِكَ شَيْئًا قَالَ: فَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأَخْبَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِذَلِكَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا
فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ
عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -. وفي رواية ثالثة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وعن
ثابت عن أنس أن النبي ﷺ - مَرَّ بِقَوْمٍ يُلْقِحُونَ فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ. قَالَ
فَخَرَجَ شَيْصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «أَنْتُمْ

١ - وفي هذا يقول ابن القيم: "إن الشريعة هي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العيب، فليست من الشريعة في شيء وإن أدخلت فيها بالتأويل". أعلام الموقعين (٣/ ١٤).

أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(١).

كما أرشدت السنة النبوية إلى أهمية الخبرة الفنية الأجنبية في تلبية متطلبات التنمية، بصرف النظر عن عقيدة مصدرها، مادامت آمنة راشدة، ويؤيده ما ثبت في الصحيح أن النبي - ﷺ - استعان بهادياً من بنى الدليل - عبد الله بن أريقط - على دين قريش وأسلم إليه أمر النفاذ إلى آمن الطريق فقام الرجل بالمهمة، وفي هذا تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - استأجر النبي - ﷺ - وأبو بكر رجلاً من بنى الدليل، ثم من بنى عبد بن عدى هادياً - الماهر بالهداية - قد غمَسَ يمين حلف في آل العاص بن وائل^(٢)، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فاتاهما براحتيهما صبيحة ليال ثلاث، فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل الدليلي، فأخذ بهم أسفل مكة، وهو طريق الساحل^(٣). وقد كان الرجل ماهراً في العمل، ولم يحل شركه أو كفره دون الاستفادة بخبرته النادرة في هذه المهمة الخطيرة.

قال ابن حجر: «وفي الحديث استئجار المسلم الكافر على هداية الطريق إذا أمن إليه»^(٤).

وقال المهلب: «وفيه من الفقه ائتمان أهل الشرك على السر والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة، كما استأمن النبي - ﷺ - هذا الدليل المشرك، وهو من الكفار

- ١ - أخرجه مسلم في صحيحه، من كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ، رقم (٦٢٧٧). «يأبرون» معناه إدخال طلع الذكر في طلع الأنثى فتعلق بإذن الله. أما قوله: ﷺ فنقضت أو فنقضت» فمعناه، أسقطت ثمرها. وقوله: «فخرج شيباً»، هو بكسر الشين المعجمة وإسكان الياء هو البسر الرديء الذي إذا يبس صار حشفاً. وقيل: تمر رديء وهو متقارب. انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (أبر) ج٤ / ص ٣١٧ / مادة (شيص) وج٣ / ص ٣١٤، مادة (نفض).
- ٢ - «غمس يمين حلف» دخل في جملتهم. والحلف العهد، وكانوا يغمسون أيديهم في الماء ونحوه عند التحالف.
- ٣ - أخرجه البخاري في صحيحه، من كتاب الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أحد من أهل الإسلام، (٢ / ٧٩٠) رقم (٢١٤٤).
- ٤ - فتح الباري، ابن حجر (٤ / ٤٤٢).

الأعداء المطالبين له، لكنه علم منه مروءة ووفاء ائتمنه من أجلهما على سره في الخروج من مكة، وعلى الناقتين اللتين دفعهما إليه ليوافيهما بهما بعد ثلاث في غار ثور»^(٥).

وطلب الخبرة الفنية هنا في شكلها التقني أو التكنولوجي من باب التعاون المطلوب شرعاً.

وما أجمل تشبيه النبي - ﷺ - للمؤمن بأنه تارة كالنخلة لا يسقط ورقها، فعن عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله - ﷺ - : «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ». فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبُؤَادَى. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ». قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ قَالَ لَأَنْ تَكُونَ قَلْتِ هِيَ النَّخْلَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا^(٦). وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أخذت منها من شيء نفعك»^(٧).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «قال العلماء: وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى يبس، وبعد أن يبس يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وورقها وأغصانها، فيستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومخاصر وحصرأً وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها، وينتفع به علفاً للإبل، ثم جمال نباتها، وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها، وخير وجمال، كما

٥ - شرح البخاري، ابن بطال (٤٠١ / ١١).

٦ - أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب (٣٤ / ١) رقم (٦١) ومسلم في صحيحه من كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة، (١٣٧ / ٨) الحديث رقم (٧٢٧٦).

٧ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٧ / ١) رقم (٢٧٢): "رواه البزار ورجاله موثقون". ورواه الطبراني عن ابن عمر في المعجم الكبير (٤١١ / ١٢) رقم (١٣٥١٤).

أن المؤمن خير كله من كثرة طاعته..»^(١)

والمؤمن في مجال أعمال الفكر وتحديد غاياته حريص على ما ينفعه وينفع غيره . ولقد كانت حياة المسلمين حافلة بالتقدم والازدهار حينما أعملوا عقولهم وأفكارهم، وكانوا الأساس الذي بُنيت عليه النهضة والمدنية الحديثة، ومن المؤسف حقاً أن الفهم غير السليم للإسلام ترتب عليه نتيجة مؤلمة تظهر بوضوح في اعتماد المسلمين على غيرهم في استيراد معظم ما يلزمهم من الآلات والمعدات والأسلحة والطائرات وغيرها...!!

١ - شرح النووي على مسلم، النووي (١٧ / ١٥٤).

الخاتمة

النتائج والتوصيات:

الحمد لله الذي رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين، وبعد.

فإن صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية جزء لا ينفك عن عقيدة المؤمن، وركيزة أساسية من أساس البناء والتنمية الشاملة في المجتمع الإسلامي، دلت عليها الكثير من الأحاديث النبوية؛ وذلك حتى يتم بناء الذات وفق منهج إسلامي أصيل. ويأتي في مقدمة هذه الوجوه:

١- صناعة القيادة الراشدة في مجال إدارة الأموال والأعمال.

٢- ربط النشاط الاقتصادي بمنظومة القيم والأخلاق الإسلامية.

٣- تنمية المهارات لأجل التحرر من الجوع.

٤- حفظ الأصول المنتجة عقارية كانت أو منقولة.

٥- تنمية المهارات وحفز همم المتعطلين عن العمل.

٦- تنمية الأموال وعدم تعطيلها بالاكتناز.

٧- تشجيع التقدم التكنولوجي.

وزيادة على ما تقدم وضع الإسلام ضماناً لاستخدام ثمرات الملكية العامة في تحقيق التنمية الاقتصادية، التي هي من أهم مصالح المسلمين وأوصد الباب أمام الأزمات المالية أو الاقتصادية التي كان الربا واستغلال النفوذ وتهريب الأموال من أهم عواملها. وهو أمر يعنى فقدان الرقابة الذاتية التي يتميز بها الاقتصاد

الإسلامي، ولهذا كتب باحثان من الباحثين الفرنسيين مقالاً سنة ١٩٤٦م قالاً فيه: «حاولنا كل النظم الاقتصادية، حاولنا النظم الرأسمالية، حاولنا النظم الإدارية وفشلنا، ومن أهم ما فشلنا فيه عدالة التوزيع والرقابة، وأعلنا أن في الإسلام عجباً، لأن الرقابة فيه لا تأتي من شخص على شخص، ولا من هيئة على هيئة، وإنما الرقابة التي جاء بها الإسلام هي مراقبة الإنسان لربه، ونضج الضمير الديني، وهذا وحده قوة كامنة في الإسلام»^(١).

التوصيات:

١- تخصيص أكبر قدر ممكن من المال العام للنهوض بالبحث العلمي، وتنمية المهارات الفردية لكافة الطاقات العاطلة، بهدف تحويلها إلى طاقات عاملة. كما يجب حفز همة الأغنياء على بذل فضول أموالهم في هذا المجال، أو تخصيص جزء من مصرف في سبيل الله الزكوي بما يضمن تحقيق هذا الهدف.

٢- نشر كافة البحوث المقبولة هذا العام، وما سبقه من أعوام، في صورة موسوعة علمية حديثة، وتوزيعها على كافة بلدان العالم العربي والإسلامي، وعمل ملخص لها باللغات الأجنبية ليقف الآخر على هذا الوجه من وجوه تميز السنة النبوية في كافة المجالات، وهذا صورة بالغة في تبليغ دعوة الإسلام، والزود عنه نصره لنبينا الكريم ﷺ - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١- انظر: الأعمال المصرفية في الإسلام، د. مصطفى عبدالله الهمشري، (ص ٢٠٢).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم وتفسيره:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- أحكام القرآن، الجصاص، دار المصنف-القاهرة.
- ٣- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- ٤- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- ٥- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

الحديث النبوي الشريف وشروحه:

- ١- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١-١٩٩٠، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- ٢- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين-القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ٣- المعجم الصغير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المكتب الإسلامي، دار عمار-بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج.

- ٤- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم-الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤-١٩٨٣ م، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
- ٥- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى النووي، طبعة دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ..
- ٦- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية-بيروت.
- ٧- جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، دراسة وتحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان- دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣هـ.
- ٨- سنن أبي داود، تحقيق: د. عبد القادر عبد الخير، د. سيد محمد سيد، دار الحديث القاهرة.
- ٩- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز- مكة المكرمة، ١٤١٤-١٩٩٤ م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
- ١٠- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.
- ١١- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة ببيروت، الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ.

- ١٢- شرح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك الشهير بابن بطلال.
- ١٣- صحيح الأدب المفرد، الإمام البخاري، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصدّيق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ١٤- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض.
- ١٥- صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني.
- ١٦- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، دار الفكر.
- ١٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط ١٤١٥هـ.
- ١٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي.
- ١٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت- ١٤١٢هـ.
- ٢٠- المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة-القاهرة.
- ٢١- نصب الراية، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

الكتب التخصصية في الفقه والمال والأعمال:

- ١- الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية، د. البهي الخولي، مكتبة الفلاح بالكويت.
- ٢- الإسلام والتنمية الاقتصادية، دراسة مقارنة، أحمد شوقي دنيا، دار الفكر

- العربي-القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م.
- ٣- الأشباه والنظائر، ابن نجيم، تحقيق: عبد العزيز محمد، الناشر مؤسسة الحلبي، ١٣٨٧هـ-١٩٦٨ م.
- ٤- الروضة الندية، القنوجي، دار الطباعة المنيرية-مصر.
- ٥- السياسة الشرعية، ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٧هـ.
- ٦- العمل والعمال في الفكر الإسلامي، د.إبراهيم النعمة، الدار السعودية، جدة ١٤٠٥هـ.
- ٧- القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، الإمام الشوكاني، دار القلم- الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- ٨- المال في الإسلام، د.محمود محمد البابلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠ م.
- ٩- المبسوط، السرخسي، دار المعرفة-بيروت.
- ١٠- المحلى بالآثار، ابن حزم، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت.
- ١١- الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، د.محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨ م.
- ١٢- الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام، الشيخ على الخفيف، بحث مقدم لمؤتمر علماء المسلمين الأول المنعقد بالقاهرة في مارس سنة ١٩٦٤ م، كتاب المؤتمر المذكور لناشره مجمع البحوث الإسلامية بمشيخة الأزهر الشريف.
- ١٣- الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية، د.أحمد فراج حسين، مؤسسة

الثقافة الجامعية، شركة الطباعة الفنية المتحدة.

- ١٤- بحوث في الربا، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- ١٥- تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال، الحافظ تقي الدين أبي بكر محمد ابن محمد البلاطنسي، تحقيق ودراسة: فتح الله محمد غازي الصباغ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة أولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
- ١٦- شرح القواعد الفقهية، أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- ١٧- مشكلة الفقر وكيف عاجلها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.
- ١٨- الخراج، يحيى بن آدم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- ١٩- نظام الإسلام الاقتصادي، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت ١٣٩٤هـ.

كتب التراجم والسير:

- ١- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ، بيروت.
- ٢- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد أبو عبد الله البصري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ٣- المغازي، محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٤- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية-

بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

كتب اللغة العربية:

- ١- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آىبادي.
- ٢- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى.
- ٣- المعجم الوسيط: د / إبراهيم مصطفى أحمد الزيات حامد عبد القادر محمد النجار، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

قواعد التمييز في النظام الاقتصادي
والمالي الإسلامي من خلال السنة النبوية
دراسة تحليلية

د. هيثم عبد الحميد خزنة
الجامعة الأسمرية - ليبيا

من أبرز فقرات البحث

«وضع النبي ﷺ قاعدة مالية ذهبية تؤسس لمنهج مالي وقائي؛ وهو في نهيه ﷺ عن ربح ما لم يضمن، وعن بيع ما ليس عندك، فتطبيق هذه القاعدة في التعاملات والتعاقدات المالية يمنع من ظهور الثروات غير الحقيقية، والاقتصاد الوهمي، وما يتبعها من إشكالات وأزمات مالية، فكانت من أصدق أوجه التميز المالي للسنة النبوية.

كما يعد منع الغرر في عقود المعاوضات دليلاً من أدلة الإعجاز التشريعي النبوي وصورة من أجود صور التميز للسنة النبوية في التشريع الاقتصادي والمالي، ومما يجلي هذا التميز للسنة النبوية أنها استقلت في تشريع هذه القاعدة حيث لم ترد في القرآن الكريم، ومع ذلك أجمع الناس على اعتبارها حتى غدت هذه القاعدة أحد الأركان الأربعة التي يقوم عليها باب المعاملات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فقد أثبتت الأزمات المالية العالمية المتوالية أن النظام الاقتصادي والمالي العالمي يحمل في طياته أسباب ضعفه وعوامل انهياره، ولذا دعا علماء الاقتصاد في الغرب إلى معالجات قد يصل الأمر ببعضها للوصول إلى معالجة الأصول الفكرية للمذهب الرأسمالي، فتنادى الكثير منهم إلى مراجعة نظريات الفائدة التي يقوم عليها النظام الاقتصادي والمالي، كما دعوا إلى مراجعة كثير من أسس التعامل المالي والنقدي وتقييدها بقيود صارمة حتى يتلافوا مثل هذه الأزمات في المستقبل.

وتعد هذه الدعوات في حقيقة أمرها مقارنة لأسس النظام المالي الإسلامي وقواعده المنظمة للتعاملات المالية الذي يقي من مثل هذه الأزمات وغيرها، سواء أقرّ بهذه المقاربة أصحاب هذه الدعوات أو لم يقرّوا، إضافة إلى دعوة بعضهم إلى دراسة النظام المالي الإسلامي والاستفادة منه، بل قام بعضهم بالتعامل بأدوات مالية مقارنة لمبادئ التمويل الإسلامي وطرحها في الأسواق المالية العالمية.

ومن هنا نجد أن النظام المالي الإسلامي قد أثبت تميزه - وإن كان الأمر في حد ذاته ثابتاً- وأقر الغير بهذا التميز، سواء أكان هذا الإقرار بالقول أو بالدعوة إلى الأخذ بمبادئه أو بالعمل بأدواته المالية.

والغاية من هذا البحث بيان قواعد التميز في النظام المالي الإسلامي من

خلال جمع ما أمكن منها واستعراضها وبيان أوجه تميزها، فمنها القواعد المتعلقة بنظرة الإسلام إلى المال وملكيته، ومن القواعد أيضاً المتعلقة بانتقال المال وتداوله كتشريع وسائل رواجه ومنع وسائل تكدسه، ومنع المتاجرة بالنقد وجعله محلاً للتداول؛ لأنه وسيلة لا غاية، ومن قواعد التمييز منع الظلم والغرر في التصرفات المالية، ومنها وضع نظام للأمن الاقتصادي والمالي، وغير ذلك من قواعد التمييز المالي الإسلامي.

ويعرض البحث هذه القواعد من خلال ربطها بالسنة النبوية إذ إنها المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في تشريعها ووضعها، فيعرض البحث الأحاديث الواردة في موضوع هذه القواعد بجمعها وتحليلها وبيان كيفية استخراج القواعد منها واستنباطها. ولا أدعي جمع واستقصاء جميع القواعد، إذ إن ذلك متعذر في بحث معدود الصفحات، إلا أنني أورد أهم القواعد التي تظهر التمييز المالي للسنة النبوية.

ويعرض البحث أيضاً وجهاً آخر من أوجه التمييز وهو التمييز اللفظي للسنة النبوية في باب المال والمعاملات، حيث كانت الصنعة اللفظية والصياغة النصية للسنة النبوية متميزة إلى حد الإبداع.

وقد تطرقت بعض الدراسات السابقة إلى بعض جوانب هذا البحث، ومن هذه الدراسات:

- موسوعة القواعد والضوابط الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية في الفقه الإسلامي، د. علي أحمد الندوي (كتاب مطبوع).
- النصوص الاقتصادية من القرآن والسنة، د. منذر قحف، (بحث منشور، مركز الاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز).

- موسوعة أحاديث أحكام المعاملات المالية، د. همام سعيد، د. محمد همام سعيد (كتاب مطبوع).
- استثمار الأموال في القرآن الكريم والسنة النبوية: مفهومه ومجالاته وسبل حمايته، د. نايل ممدوح أبو زيد (بحث منشور في مجلة جامعة دمشق).
- مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، د. عز الدين بن زغبية (كتاب مطبوع).

وما يميز هذا البحث عن غيره إظهار أوجه التميز الاقتصادي والمالي للسنة النبوية على وجه الخصوص، إذ إن جل الأحكام الفقهية المالية مأخوذة ومستنبطة من السنة النبوية، إما نصاً أو قياساً، فتميزت السنة النبوية باشتغالها على أهم القواعد الفقهية المالية المنظمة لهذه الأحكام، وظهر من خلال ذلك وجه جديد من أوجه الإعجاز وهو الإعجاز الاقتصادي، فسعى البحث إلى إظهار هذا التميز ووجه الإعجاز فيه بإيراد أهم القواعد المالية المنظمة لباب المعاملات من خلال أحاديث السنة النبوية.

وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى.

مدخل: نظرة الإسلام إلى المال وملكيته.

إن المال عصب الحياة، ووسيلة قوام الأبدان وبقاء الأمم واستقرارها، وأداة جلب المصالح ودفع المضار، لذا تنافس البشر عليه تنافساً كبيراً حتى وصل بهم الأمر إلى صراعات أهلكت الحرث والنسل.

فلما جاء الإسلام شرع أحكامه لتنظيم تعاملات الناس به ومن ثم يقل الصراع عليه والتنافس فيه، فاعتنى بجمال الأفراد ومال الأمة ونظم العلاقة بينهما، وبين طرق اكتسابه وتحصيله وكيفية إنفاقه، وشرع وسائل تداوله ورواجه، وقعد قواعد تنظم

صيغ تبادله وانتقاله، فضبطت بذلك كله أحكامه وبان الحلال والحرام.

لكن قبل ذلك كله أبان الشارع عن نظرتة للمال ومعنى ملكية الإنسان له، حيث كانت الغاية من هذه النظرة التوطئة لتشريع أحكامه وتقبل الناس لها والتزامهم بها التزام راض.

وتقوم نظرة الإسلام للمال على أنه مال الله تعالى وأن ملكيته لله تعالى يتصرف فيه تصرف المالك على الحقيقة، وأن الإنسان مستخلف فيه، يقول الله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ويقول تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فالإنسان وكيل في المال الذي بيده لا مالك على الحقيقة، وهو وإن سُمي مالكا وأقر الشرع ملكيته له، فهو مالك مجازاً، وهذا المعنى أكدته النبي ﷺ في أحاديث كثيرة لترسيخه في قلوب الناس وتثبيتته في عقولهم، ومن هذه الأحاديث قول النبي ﷺ: «إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، فالمال مال الله تعالى، وما يناله العباد منه لا يحل منه إلا ما كان بوجه صحيح شرعاً، ومن أراد غير هذا الطريق كانت له النار يوم القيامة كما توعدّه النبي ﷺ.

ومن تميز التشريع النبوي عدم الاقتصار على تأكيد هذه النظرة، بل زاد فيها تعقيداً وتأسيساً بوجه متعددة، زيادة في تقبلها ورسوخها، فقام النبي ﷺ بوضع مجموعة من القواعد في التعامل مع المال هي في حقيقتها استخدام أساليب تربوية وترسيخ مفاهيم إيمانية، الغاية منها إيجاد التكامل بينها وبين الأحكام التشريعية حتى يتم الالتزام بها التزاماً تاماً، وتتحقق المقاصد التشريعية لتلك الأحكام على الوجه الأكمل.

١ - صحيح البخاري، كتب الخمس، باب قول الله تعالى: (فَأَنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ، وَالرَّسُولِ) [الأنفال: ٤١]. حديث رقم (٢٩٥٠).

وأورد طرفاً من هذه الأساليب التربوية والمفاهيم الإيمانية النبوية:

١- إثبات البركة في مال من أخذه بحق، والتوعدُّ بالعذاب والنار لمن أطلق لنفسه العنان في التحوُّص في المال دون النظر في وجه أخذه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضْرَاءُ حُلْوَةٌ مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَرُبَّ مُتَحَوِّصٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ»^(١).

٢- كبح جماح النفس البشرية في المغالاة في حب المال وطلبه حيث وصف الله تعالى رغبة البشر في المال بقوله: ﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فوجه النبي ﷺ الناس توجيهاً آخر في طلب الغنى، فقال ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنِ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى عَنِ النَّفْسِ»^(٢). أي ليس الغنى بكثرة متاع الدنيا بل بغنى النفس وقناعتها ورضاها بما قسم الله تعالى وأعطى. كما حدد النبي ﷺ الغاية من طلب المال والرغبة فيه إلى حد تحقيق الحاجات لا الشهوات، فقال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ أَمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»^(٣)، فغاية الغنى تحقق الأمن والصحة للإنسان وتوفر قوته، وهذه هي حاجته، فإن طلب الإنسان أكثر من ذلك فهو من باب الشهوات والرغبات التي قد لا تُمنع شرعاً، لكن قد يصل الحد في طلبها والسعي فيها إلى ما هو ممنوع شرعاً، خصوصاً إذا كان ذلك بوسائل غير مشروعة أو أثرة على الناس.

٣- وُصِفَ من سيطر عليه طلب المال بالعبودية له، وتوَعَّدُ بالخذلان والخسران،

١- سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال، حديث رقم (٢٣٧٤)، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

٢- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، حديث رقم (٦٠٨١). صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، حديث رقم (٢٤٦٧).

٣- سنن الترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم (٢٣٤٦)، قال أبو عيسى: حديث حسن غريب. سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب القناعة، حديث رقم (٤١٤١).

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الحَمِيصَةِ إِنَّ أُعْطِيَ رَضِي وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»^(١)، فوصف الإنسان بالعبودية وصف منفرد؛ لأنه مرتبط بالذل والصغار، ينأى بصاحبه عن الكرامة الإنسانية وعليا الحرية، ولا ينجو من ذلك إلا من كان متحكماً في المال وسيداً عليه لا العكس.

٤- التحذير من فتنة المال والتنافس فيه إلى حد الهلاك، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَيَّ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(٢)، فالمال إذا أصبح الغاية تنافس الناس فيه تنافساً شديداً إلى حد يصل بهم إلى الصراع وإهلاك بعضهم بعضاً؛ لأنه يصبح حينئذ وسيلة للسلطة والقوة لا لتحقيق الحاجات والرغبات والشهوات، وهو بهذه الغاية لا حد لطلبه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَاوَدِيًّا مَلَأً مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ تَابَ»^(٣).

هذا طرف من الأساليب التربوية، وبعض المفاهيم الإيمانية النبوية، وغيرها كثير لا يسع جمعها في هذا البحث، ويكفيها منها التمثيل، حيث كان المقصد النبوي منها ومن أمثالها تحقيق التكامل التشريعي بين تربية الفرد وتشريع الأحكام وإلزامه بها، فيأخذها ويعمل بها عن رضى وقناعة.

وبعد هذا البيان لنظرة الإسلام إلى المال، وتميز السنة النبوية في تعييدها وترسيخها تربوياً وإيمانياً، أشرع في المبحث الآتي في بيان القواعد التشريعية

- ١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (٢٧٣٠).
- ٢- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدر، حديث رقم (٣٧٩١). صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (٧٦١٤).
- ٣- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم (٦٠٧٤).

المنظمة لانتقال المال وتداوله، حيث جاءت السنة بوضعها، فتميزت بذلك وكانت دليلاً على الإعجاز التشريعي للسنة النبوية.

المبحث الأول: القواعد المالية المتعلقة بانتقال المال وتداوله

بعد أن بين الشارع الحكيم نظرتة إلى المال وملكيته وضع أسساً وقواعد عامة تنظم التعاملات القائمة على هذا المال وكيفية انتقاله بين الناس وتداوله فيما بينهم، وقد وردت هذه القواعد والأسس في القرآن الكريم على وجه الإجمال وجاءت السنة النبوية بالبيان والتفصيل وتشريع الأحكام.

وتمثل هذه القواعد والأسس المالية الإعجاز الاقتصادي للقرآن الكريم والسنة النبوية، وهو بدوره أحد أوجه الإعجاز التشريعي أو أحد أوجه الإعجاز العلمي^(١)، فالإعجاز الاقتصادي غدا حقيقة لا جدال فيها.

وإليك بيان هذه القواعد والأسس التي تنظم التعاملات والتعاقدات:

أولاً: الأصل في العقود والتعاملات الجواز والصحة

تعد هذه القاعدة من أهم الأسس والقواعد العامة العاملة في باب المعاملات، وقد صاغها ابن تيمية بقوله: «الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة ولا يحرم منها ويبطل إلا ما دل الشرع على تحريمه وإبطاله نصاً أو قياساً»^(٢).

ولتوضيح هذا المعنى يمكن إعادة صياغة هذه القاعدة بالقول: إن الشارع لم يحدد شكلاً محدداً من العقود ولم يلزم بصور معينة منها، بل وضع أطراً واسعة لصور التعاقدات والمعاملات، وهذه الأطر تسع وقائع زمن التشريع كما تسع

١- يرى البعض أن الإعجاز الاقتصادي هو أحد أنواع الإعجاز العلمي وهذا ما ذكره د. رفيق المصري في أحد مقالاته على الإنترنت، ولعل ذلك عائد إلى اعتبار أن علوم الاقتصاد تتبع العلوم التطبيقية التجريبية لا الإنسانية، ولا مشاح في الاصطلاح، فهو إعجاز سواء تشريعي أو علمي.

٢- مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٢٩ / ١٣٢.

الوقائع اللاحقة في أزمنة أخرى مهما تطور الزمان وتبدلت صور العقود وأنظمة التعامل المالي، بل ولو تغيرت أغلب أشكال العقود والتعاملات كما هو الحال في الشركات إذ تبدل مضمونها وصورها، واختلفت اختلافاً جذرياً من شركة عنان ومفاوضة ومضاربة وغيرها إلى الشركات المساهمة العامة وشركة التوصية البسيطة والشركة ذات المسؤولية المحدودة وغيرها، وكما تغيرت صور النقود وتبدلت من سلع نقدية وذهب وفضة إلى نقود ورقية وأوراق مالية ووحدات إلكترونية، وغير ذلك من التعاملات والتعاقدات التي أحدثها الناس وتعاملوا بها. فالغاية من هذه القاعدة تنظيم معاملات المسلمين مهما تغيرت أعرافهم وأزمانهم، فتبقى في دائرة الشرع وموافقة لأحكامه ومقاصده، ولذا لم يرد عن النبي ﷺ إلزام الناس بصورة من صور العقود المتداولة ولا أمر ﷺ بشكل معين منها.

وقد دلت النصوص الصريحة واضحة الدلالة من السنة النبوية على أن اختيار شكل العقود واستحداثها وإنشاء التعاملات المختلفة يعود إلى أمرين:

الأول: عرف المتعاقدين: فما تعارفه الناس في إجراء العقود بأشكالها وصورها وما استحدثوه وتعاملوا به وفق عرف جار وعادة مستفيضة، فإن الشرع مقر له وحاكم به، وهذا ما أثبتته إمام الحديث محمد بن إسماعيل في ترجمته لأحد أبواب صحيحه فقال: باب الأسواق التي كانت في الجاهلية فتبايع بها الناس في الإسلام، ثم أورد قول ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةٌ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ تَأَثَّمُوا مِنَ التَّجَارَةِ فِيهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة: ١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ»^(١)، فهذا يدل على أن الشارع يصحح العقد إن كان ناشئاً عن عرف المتعاملين، ولو لم يكن وارداً في

١ - صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب الأسواق التي كانت في الجاهلية فتبايع بها الناس في الإسلام، حديث رقم (١٩٩٢).

نصر تشريعي، بل جَرِي العرف به سبب كاف في إباحته وتصحيحه.

والأدلة على ذلك من السنة كثيرة منها أن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم تعاملوا بالتجارة وفق ما تعاملت العرب به في الجاهلية من عقود ومشاركات وتعاملات، وفي ذلك يقول أبو هريرة: «إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ»^(١)، فكل منهم عمل بما تعارف عليه أهل بلده، وسار فيه وفق عرفه.

فلما جاء النبي ﷺ وأقرهم عليها وتعامل معهم بها، لم يكن ذلك مجرد إباحة لتلك الصور من العقود تستند على إقرار النبي ﷺ، بل إن إقراره ﷺ دل على معنى أشمل وأبعد من ذلك وهو أن الإقرار يشمل الصورة وسببها، فالصورة مشروعة كبيع وإجارة ومشاركة ومضاربة وغير ذلك من الصور، كما أن سببها مشروع أيضاً وهو عرف المتعاقدين.

الثاني: توافق المتعاقدين: إذا تراضى أطراف العقد أو المعاملة على صورة عقد ناشئ جديد أو على شكل معاملة مستحدثة، فليس هناك ما يمنع شرعاً إذا تم عن تراض وتوافق بين المتعاقدين، وهو سبب كاف في إباحته وصحته، ولا يلزم المتعاقدين إجراء معاملتهم على شكل محدد من العقود التي ورد إقرارها في نصوص الشرع. وهذا الأمر مقرر في السنة النبوية حيث قرر النبي ﷺ هذه القاعدة بقوله: «الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ»^(٢). وفي قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ

١- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم، حديث رقم (١١٨).

٢- أورده البخاري معلقاً في صحيحه، كتاب الإجارة، باب أجر السمسة، والحاكم النيسابوري في المستدرک ٥٧/٢ بلفظ «المسلمون عند شروطهم» حديث رقم (٢٣١٠)، وأورده غيرهما بلفظ «المسلمون على شروطهم». انظر: سنن أبي داود، كتاب الأفضية، باب في الصلح، حديث رقم (٣٥٩٦). المستدرک، الحاكم النيسابوري، ٥٧/٢، حديث رقم (٢٣٠٩)، سنن الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما ذكر في الصلح بين الناس، حديث رقم (١٣٥٢). وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

تَرَاضٍ»^(١).

فهذان النصفان يدلان بشكل واضح وجلي على أن العقد ينشأ عند وجود الرغبة به والحاجة إليه، فالرضى والتوافق أساس وجود العقد عند وجود الحاجة إليه، وما يتم الاتفاق عليه بين الأطراف فهو لازم، وحينئذ يكون هذا كافياً في إباحته وصحته ما لم يشتمل على وجه من أوجه التحريم.

فهذان السببان - كلاهما أو أحدهما - كاف في استحداث صورة عقد ومعاملة جديدة، ومن هنا نخرج بتلك القاعدة الذهبية في العقود والتعاملات المالية: أن الأصل في العقود والشروط الصحة والإباحة، وهي قاعدة مستنبطة ومستخرجة من أحاديث نبوية عدة منها ما ذكر وما ورد أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه قال: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ الْعَافِيَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا»^(٢)، فسكوت الشرع عن صور العقود المستحدثة سكوت إباحة لا نسيان.

وتعد هذه القاعدة المستنبطة من الأحاديث النبوية صورة من صور الإعجاز الاقتصادي للسنة النبوية، حيث وسع الفقه الإسلامي الصور والتعاملات الحديثة بشتى أنواعها وصورها ومن ذلك: إثبات مالية بعض الحقوق المعاصرة كحق الاختراع والتأليف والاسم التجاري، وعقود التأمين التكافلي الجاري العمل بها في مؤسسات وشركات التأمين التكافلي، والشركات المعاصرة على اختلاف أنواعها كالشركة المساهمة العامة والشركة ذات المسؤولية المحدودة، والأوراق

١ - سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب بيع الخيار، حديث رقم (٢١٨٥). قال الكفاني: «إسناد صحيح رجاله ثقات»، انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ١٧/٣، وقال الألباني: «إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات»، إرواء الغليل ٥ / ١٢٥.

٢ - المستدرک، الحاكم النيسابوري ٤٠٦ / ٢، حديث رقم (٣٤١٩)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وعلق الذهبي في التلخيص: «صحيح». وقال البزار: «إسناده صالح»، انظر: البحر الزخار، حديث رقم (٤٠٨٧).

المالية والتجارية على اختلاف أنواعها وصورها كالأسهم والصكوك الإسلامية، والأسواق المالية (البورصات)، والمصارف الإسلامية ومعاملاتها كالحوالات المصرفية والاعتمادات المستندية وعقود المرابحة والإجارة المنتهية بالتملك والمشاركة المنتهية بالتملك، وغير ذلك من العقود والتعاملات التي تظهر وتطراً في تعاملات الناس وعقودهم.

فكان استيعاب الفقه الإسلامي لهذه الصور المعاصرة من التعاملات دليلاً على صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان وخلودها، وهذا دليل على تميز السنة النبوية وإعجازها إذ بها ثبتت هذه القاعدة وتوضحت.

ثانياً: تحريم المتاجرة بالنقد (تحريم الربا)

من القواعد المقررة في الإسلام تحريم الربا، ومعلوم أن الربا نوعان: ربا النسئة (أو ربا الديون)، ورتبا الفضل (أو ربا البيوع)، وأكثر صور الربا انتشاراً وأعظمها خطراً هو ربا النسئة، وهو الأصل في التحريم، أما ربا الفضل فهو أقل خطراً وشيوعاً، وتحريمه جاء تبعاً وسداً للذريعة كما هو مقرر ومعلوم.

وقد جاء تحريم ربا النسئة في القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وغيرها من الآيات، وقد وجاءت السنة النبوية مؤكدة هذا الحكم ومقررة له بالترهيب منه وتوعد آكله والمتعامل به، كقول النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكَ بِاللَّهِ، وَالسُّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١)،

١- صحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رمي المحصنات، حديث رقم (٦٤٦٥).
صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٢٧٢).

فقرن النبي ﷺ الربا بالشرك والسحر وقتل النفس بغير حق وغيرها من الكبائر العظمى، كما لعن رسول الله ﷺ كل متعامل بالربا بما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَ الرَّبَا وَمَوَكَلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيَهُ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ»^(١)، بل إن النبي ﷺ شدد عليه بأن جعل حرمة مشددة تبقى حتى أقله بقوله ﷺ: «دِرْهِمٌ رَبًّا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْبَةً»^(٢).

وَلَسْتُ أَبْتَغِي الإِطَالَةَ فِي مَسْأَلَةِ تَحْرِيمِ الرَّبَا وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ إِعْجَازِ تَشْرِيْعِي وَاقْتِصَادِي، نَظْرًا لِكَبْرِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَعَدَمِ إِمْكَانِ إِيفَائِهَا حَقًّا فِي الْبَحْثِ إِلَّا أَنِّي أَطْرُقُ مَسْأَلَتَيْنِ مِنْهَا تَدْلَانِ عَلَى الإِعْجَازِ التَّشْرِيْعِيِّ وَالتَّمْيِيزِ لِلْسُنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

المسألة الأولى: من حكم تحريم الربا منع المتاجرة بالنقد والأصول المالية والنقدية، فهذه النقود - سواء كانت ذهباً أو فضة أو أوراقاً نقدية أو مالية - تعارف الناس على اعتبار الثمنية فيها لتسهيل المعاملات والتعاقدات وتبادل الأصول العينية من سلع وخدمات، فوظيفتها الأساسية أن تكون أداة للتبادل ووسيلة لتسهيل التجارة وبالتالي تحقيق التنمية الاقتصادية الحقيقية، ولذا جاء تحريم الربا ليمنع المتاجرة بها إذ إن ذلك يؤدي إلى أمرين خطيرين، أولهما: تغيير وظيفة النقد الحقيقية، فبدلاً من جعله وسيلة انقلب إلى مادة للتجارة، وهذا بدوره لا يحقق تنمية اقتصادية حقيقية. ولم يتم إدراك هذه الحقيقة الخطيرة للربا بصورة جلية وواضحة إلا في زماننا حيث تحولت الأصول المالية والنقدية إلى سلعة للتجارة والمقامرة بها بل أصبح الأمر غاية في التعقيد إذ تحولت المتاجرة بها إلى التلاعب

١ - صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، حديث رقم (٤١٧٧).

٢ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٢٥، حديث رقم (٢٢٠٠٧). قال المنذري والهيثمي: «رجال أحمد رجال الصحيح»، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/٥٠، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٤/٢١٠. وقال الألباني: «إسناده عندي صحيح»، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، ١٤/٥٨١. وقال د. علي الصبيح: «هذا الإسناد رجاله ثقات وهو أقوى طريق يروى للحديث»، انظر: أحاديث تعظم الربا على الزنا دراسة نقدية، ص ١٢٤.

بها واستخراج أوراق مالية مشتقة منها، ثم المتاجرة بتلك الأوراق المالية المشتقة أيضاً ومن ثم الاشتقاق مرة أخرى أوراقاً مالية والمتاجرة بها، وهكذا دواليك حتى أصبحت موجات متتالية من الأوراق المالية، فأصبحت الاستثمارات العالمية تتجه نحوها دون الأصول العينية والموارد الطبيعية التي تحقق التنمية الاقتصادية الحقيقية.

أما الخطر الثاني الذي تحقق من عملية المتاجرة بالنقد أن الأوراق النقدية والمالية تضاعفت أضعافاً كثيرة، فبعد أن كانت ميزانية الدول قبل عقود تحسب بملايين الدولارات ثم بمئات الملايين ثم بالمليارات ثم بمئات المليارات أصبحنا الآن نتحدث عن ميزانيات تفوق الترليونات، وهذا كله نتيجة المتاجرة بالنقد والأوراق المالية واشتقاقها، وهذا بدوره أدى إلى تكديس الأموال في يد فئة قليلة من الناس فزاد الغني غنى، وزاد الفقير فقراً، بل لا ينال الدول الفقيرة والفقراء من ذلك إلا تراكم الديون ومضاعفاتها فحققوا بذلك قول الله تعالى: ﴿أَضْعَفْنَا مِصْرَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، إضافة إلى ذلك فقد ترتب على مضاعفة الأوراق النقدية والمالية زيادة معدلات التضخم وضعف القدرة الشرائية للعملة وارتفاع الأسعار، فأى بلاء أعظم من هذا البلاء.

ورغم إدراك الغرب لحقيقة هذه المخاطر إلا أن كبراءهم يرفضون ترك تلك المتاجرة لما تدره عليهم من ثروات يملكون بها المال والسلطة ويتحكمون بالبلاد والعباد غير أبهين بأثرها على الأمم الأخرى أو على الطبقات الفقيرة من مجتمعاتهم.

ولذا فإن هذا التشديد الذي وجدناه في القرآن الكريم والسنة النبوية على الربا وأهله لم ندرك غايته على وجه الكمال إلا بعد أن وجدنا التعامل به في زماننا في أبشع صورته، وآثاره الماثلة أمامنا، فكان هذا إعجازاً اقتصادياً أشار إليه القرآن وجاءت السنة مفصلة فيه ومشددة بأقصى صور التهيب والوعيد، ولولا خشية

الإطالة لأوردت بالحقائق والأرقام آثار الربا الخطيرة، والأحاديث المتوعدة، ولكن يكفي في ذلك الإشارة والإحالة بعد أن ثبت لنا تميز السنة النبوية في هذا الجانب^(١).

المسألة الثانية: ورد في القرآن الكريم نوع واحد من الربا وهو ربا النسيئة حتى سمي بربا القرآن^(٢)، وقد أضافت السنة النبوية نوعاً آخر وهو ربا الفضل، وهذه الإضافة إعجاز تشريعي للسنة النبوية، إذ لو كان ربا الفضل مباحاً لكان ذلك أشبه بالذي يحرم الزنا ويبيح النظر والخلوة وكشف العورات، لكن لما كانت وسائل مفضية إلى الزنا غالباً جاء الشرع بتحريمها لإفضائها إليه، وكذلك الحال في ربا الفضل فلو أجاز الشارع بيع دينار بدينارين؛ لتساهل الناس في التسارع إلى التقابض، وتراخوا فيه قليلاً قليلاً حتى يقعوا في ربا النسيئة، كما إن وضع معيار ثابت في سرعة التقابض وعدم تأخير القبض متعذر بل مستحيل عادة، وهذا بدوره يؤدي قطعاً إلى الوقوع في ربا النسيئة، ولذا جاءت السنة النبوية حاسمة لمادة النزاع في ذلك فجاءت بتحريمه، وقد علق ابن القيم على هذا الحكم النبوي بقوله: «فهذه حكمة معقولة مطابقة للعقول وهي تسد عليهم باب المفسدة»^(٣).

ولم يقف الإعجاز التشريعي للسنة النبوية وتميزها عند هذا الحد في هذه المسألة، بل تجاوز ذلك إلى إحداث تفرقة في الأحكام العملية لهذين النوعين من الربا، نظراً لافتراق وجه الحرمة فيهما، حيث فرق النبي ﷺ بينهما من وجهين:

الوجه الأول: يجري ربا النسيئة في عموم الأموال أو يكاد على اختلاف بين المذاهب بناء على اختلافهم في علة تحريم ربا النسيئة، وإن كان الراجح في ذلك

- ١- ما كتب في أحاديث الربا وآثاره الاقتصادية والاجتماعية مصنغات كثيرة يصعب حصرها، لكن أورد منها على سبيل المثال: تحريم الربا تنظيم اقتصادي، محمد أبو زهرة. وضع الربا في البناء الاقتصادي، د. عيسى عبده. الربا وآثاره الاقتصادية، د. عبد المجيد دية.
- ٢- انظر هذه التسمية في: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١/ ١٤٠٧، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٢ / ٥٨.
- ٣- إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢ / ١٥٥.

أن ربا النسئئة يجري في كل الأموال، أما ربا الفضل فلا يجري في عموم الأموال بالاتفاق، وإن كانت المذاهب الفقهية مختلفة فيما بينها فيما يجري فيه بناء على اختلافهم في تعليل حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه المشهور من جهة، ومن جهة أخرى اختلاف من قال بتعليله في علة التحريم، أما حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه فهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالمَلْحُ بِالمَلْحِ مَثَلًا بِمِثْلٍ سَوَاءٍ بِسَوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»^(١).

الوجه الثاني: حرمة التحايل في ربا النسئئة وجوازه في ربا الفضل، حيث ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك نصان، أما الأول فما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الجِهَادَ؛ سَلَطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذَلَا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٢). والعينة هي «أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بالنقد بأقل من الثمن الذي باعها به»^(٣).

وأما الثاني فما ورد عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرٍ فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيْبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ تَمْرٍ خَيْبَرٍ هَكَذَا؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللهِ،

١- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، حديث رقم (٤١٤٧). وانظر فيما يجري فيه كل من ربا النسئئة و ربا الفضل من الأموال والاختلاف بينهما: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الحن، ٤٩٥-٥٠١، الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٢ / ٦٢-٧٣.

٢- سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العينة، حديث رقم (٣٤٦٤). قال ابن حجر العسقلاني: «رواه أبو داود من رواية نافع عنه، وفي إسناده مقال، ولأحمد نحوه من رواية عطاء ورجاله ثقات وصححه ابن القطان»، انظر: سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ١٢٥ / ٥. وقال أيضاً: «إسناده ضعيف وله عند أحمد إسناد آخر أجود وأمثلة منه»، الدراية في تخريج أحاديث الهداية، ١٥١ / ٢. وقال الألباني: «حديث صحيح لمجموع طرقه»، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤٢ / ١، حديث رقم (١١).

٣- النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير الجزري، ١ / ٦٧٥

إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ، وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ. فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، بَعْ الْجَمْعَ بِالْدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَعْ بِالْدَّرَاهِمِ جَنِيًّا»^(١).

فيلاحظ من هذين الحديثين أن النبي ﷺ ينهى عن العينة باعتبارها تحايلاً على الشرع للوصول إلى الزيادة الربوية المحرمة عن طريق إجراء عقود بيع على سلعة صورية، فيشتري المقترض سلعة من المقرض بثمن مؤجل ثم يبيع المقترض السلعة نفسها إلى المقرض بثمن حال أقل من الثمن المؤجل، ويلاحظ أن كلاهما لا يبتغي السلعة ولا نقل ملكيتها، وإنما حصول المقترض على المال من المقرض ورده إليه مع زيادة ربوية، فكان هذا تحايلاً نص النبي ﷺ على حرمة.

أما النص الثاني فهو توجيه من النبي ﷺ إلى عامله في خبير إلى الخروج من ربا الفضل، فلا يشتري الصاع من التمر الجيد بالصاعين من رديئه، وإنما يجعل الثمن واسطة بينهما، فيبيع الصاعين من رديء التمر بالدرهم، ثم يشتري بتلك الدرهم صاعاً من جيد التمر، فهذا توجيه نبوي إلى التحايل على ربا الفضل بإيجاد واسطة النقد وهو صوري بلا شك، ومع ذلك جاز وصححه النبي ﷺ، وهذا بخلاف ربا النسيئة الذي حرمه الشرع ومنع النبي ﷺ التحايل فيه، وهذا من الإعجاز الاقتصادي والتميز النبوي في التشريع المالي، فالتفريق بين التحايلين موافق لحكمة تحريم النوعين، فربا النسيئة محرم لذاته والتحريم فيه أصيل، فلا يجوز التحايل فيه لمفاسده الجمة، فأية صورة من صور التحايل التي يبتغي فيها المتعاقدون الحصول على الزيادة الربوية فإنها محرمة كما هو حال بيع العينة، لأن علة تحريم العينة ليست في صورة العينة بل لاتحاد الجهة في المقرض واتحاد الجهة في المقرض أيضاً، أي أن من دفع ثمن السلعة الصورية هو عينه آخذ الزيادة المؤجلة مع أصلها (الثمن) وهو المقرض، والآخذ للثمن والدافع للزيادة مع أصلها (الثمن) متحد أيضاً وهو المقرض، فكانت حيلة أراد أن يتوصل بها كل من

١ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب استعمال النبي ﷺ على أهل خبير، حديث رقم (٤٠١).

المقرض والمقترض إلى القرض الربوي، ولما كانت هذه العلة موجودة في التورق المنظم كان حكمه الحرمة بخلاف التورق الفقهي^(١) الذي تعدد فيه طرفا المقرض: الدافع للثمن والآخذ للزيادة فهما مختلفان.

وهذا الأمر مختلف في ربا الفضل، لأنه غير فاسد في نفسه بل لكونه وسيلة تفضي إلى ربا النسيئة كما ذكرت سابقا، وحينئذ كان التحريم متعلقاً في صورة العقد وشكله فقط، دون حقيقته ومضمونه، فجاز التحايل فيه لأجل الخروج من الصورة المحرمة إلى صورة مباحة وذلك بتوسيط النقد بين العوضين المتحدين جنساً.

ويعد هذا التفريق النبوي في الأحكام العملية بين نوعي الربا من أبداع دقائق التشريع النبوي وأحكامها، وأصدق دليل على تميز التشريعات المالية الواردة في السنة النبوية، بل تكفي هذه منفردة على صدق استقلال السنة النبوية في وصفها بالإعجاز التشريعي.

ثالثاً: منع الغرر وبطلانه

إن منع الغرر وبطلانه في عقود المعاوضات من القواعد المالية المقررة شرعاً، وقد استفاضت الأحاديث النبوية في تأكيد هذه القاعدة وتثبيتها، ورغم اختلاف ألفاظ هذه الأحاديث وتنوع موضوعاتها، إلا أنها تتفق جميعاً على منع الغرر وتحريمه، ومن ذلك:

١- التورق الفقهي: أن يشتري المتورق سلعة نسيئة لأجل بيعها نقداً لغير البائع الأول بأقل مما اشتراها به؛ ليحصل بذلك على النقد. أما التورق النظم أو التورق المصرفي فهو أداة تمويلية استحدثتها المصارف الإسلامية بغية توفير السيولة النقدية لعملائها، وتقوم فكرته على توافق بين المصرف والعميل على أن يشتري المصرف سلعة دولية أو محلية، ليقوم المصرف ببيعها للعميل بسعر أعلى مؤجل على أقساط، على أن يوكل العميل المصرف في قبضها وبيعها في السوق، ثم تسليمه الثمن نقداً بإدراجه في حساب العميل. انظر: التورق المصرفي وتطبيقاته في المصارف الإسلامية، د. هيثم خزنة، مجلة المعارف، القسم الأول، السنة السابعة، العدد ١٢٥، ٦٥.

- ١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ بَيْعِ حَبْلِ الْحَبْلَةِ»^(١)، وكان بيعاً يتبايعه أهل الجاهلية، وكان الرجل يتباع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها»^(٢).
- ٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الْمَلَامَسَةِ وَالْمُنَابَذَةِ»^(٣).
- ٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ وَعَنْ بَيْعِ الْغُرْرِ»^(٤).

فهذه الأحاديث وغيرها، أفادت منع الغرر وتحريمه وبطلان ما وقع منه، وتعد هذه القاعدة من أهم القواعد المالية في باب المعاملات، وقد أثبتت تجربة البشر الاقتصادية أن الغرر أحد أهم عوامل نشوء الأزمات المالية العالمية، فالعمليات التي تقوم في الأسواق المالية وصناديق الاستثمار وصناديق التحوط^(٥) ما هي

- ١- حبل الحبلة: الحبل الأول يراد به ما في بطون النوق من الحمل، والثاني حبل الذي في بطون النوق، النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ١ / ٨٧٨.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الغرر وحبل الحبلة، حديث رقم (٢٠٣٦).
- ٣- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع المنابذة، حديث رقم (٢٠٣٩).
- الملامسة: أن يلمس المتاع من وراء ثوب ولا ينظر إليه ثم يوقع البيع عليه. والمنابذة: أن يقول الرجل لصاحبه: انبذ إلي الثوب أو أنبذه إليك ليجب البيع. وقيل: هو أن يقول: إذا نبذت إليك الحصاة فقد وجب البيع فيكون البيع معاطاة من غير عقد ولا يصح. يقال: نبذت الشيء أنبذه نبذاً فهو منبوذ إذا رميته وأبعده. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري ٤ / ٥٥١، ٥ / ١٥.
- ٤- صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر، حديث رقم (٣٨٨١).
- ٥- صندوق التحوط أو المحفظة الوقائية: هو صندوق استثمار يستخدم سياسات وأدوات استثمارية متطورة؛ لجني عوائد تفوق متوسط عائد السوق أو معيار ربحي معين دون تحمل نفس مستوى المخاطر. ومن الأدوات التي تستخدمها هذه الصناديق: المشتقات المالية، والعقود الآجلة، والمقايضات. ومن سياساتها الاستثمارية: الرفع المالي، والبيع المكشوف. ورغم أن اسم هذا النوع من الصناديق يوحي بأنها تهدف إلى تقليل المخاطر، إلا أن واقعها يهدف إلى تحقيق أقصى ربح ممكن، والاسم ليس إلا أثر تاريخي فقد ارتباطه بالواقع. وتقوم فلسفة الصندوق على ضمان تحقيق ربح للمستثمر بصرف النظر عما قد يحدث في أسواق العالم من تقلبات. وليس هناك أي قيود على مدير الصندوق من الجهات المنظمة، وهذه من النقاط القوية التي تؤخذ عليها. ويبلغ عدد هذه الصناديق التي ظهرت فكرتها في وول ستريت في أربعينيات القرن الماضي ثمانية آلاف صندوق تجوب شتى أسواق العالم. انظر: المحفظة الوقائية <http://ar.wikipedia.org/wiki>

إلا أشد صور الغرر، إذ تقوم على المخاطر والاحتمالات والتلاعب بالأسعار والأوراق المالية.

لذلك فإن منع الغرر في عقود المعاوضات دليل من أدلة الإعجاز التشريعي النبوي وصورة من أجود صور التميز للسنة النبوية في التشريع الاقتصادي والمالي، وما يجلي هذا التميز للسنة النبوية أنها استقلت في تشريع هذه القاعدة حيث لم ترد في القرآن الكريم^(١)، ومع ذلك أجمع الناس على اعتبارها حتى غدت هذه القاعدة أحد الأركان الأربعة التي يقوم عليها باب المعاملات^(٢).

وعليه فإن تميز السنة النبوية هنا متمثل في تشريع هذه القاعدة واختصاص السنة في وضعها، إضافة إلى اعتبارها ضرورة اقتصادية ملحة في اقتصادنا المعاصر.

ورغم المضار الاقتصادية الجسيمة للغرر إلا أن الرأسمالية متمسكة به في عقودها وتعاملاتها، ويعود ذلك إلى الجشع والطمع الذي يستولي على القلوب والعقول لتحصيل أعلى الأرباح وأسرعها، وهو السبب عينه الذي يبقي الربا رغم إضراره باقتصاديات العالم.

رابعاً: تحريم أكل الأموال بالباطل

أساس هذه القاعدة قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ويقول ابن العربي في تفسير هذه الآية: «هذه الآية من قواعد المعاملات وأساس المعاوضات»^(٣).

- ١- لم يرد تحريم الغرر في القرآن الكريم، لكن يمكن القول إنه يدخل في بعض ألفاظه المجملة كأكل المال بالباطل.
- ٢- وصف ابن العربي قاعدة منع الغرر بأنها أحد القواعد الأربعة التي يبنى عليها باب المعاملات. انظر: أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي ١/ ١٣٧.
- ٣- أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ١٣٧.

والباطل هو أخذ مال الغير على وجه غير مشروع^(١)، وقد جاءت السنة النبوية ففصلت كل الأوجه الباطلة غير المشروعة، كالسرقة والغصب والاختلاس والرشوة والغش وشهادة الزور وأجرة المحرمات، وما جرى مجراها.

وقد تعددت مجالات تميز السنة النبوية وتنوعت في تأصيل هذه القاعدة، وأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة، إذ بها يتحقق الغرض:

أولاً: تحقيق الأمن المالي بتشريع منع أكل أموال الناس بالباطل وتحريمه وإيقاع العقوبات الرادعة على مرتكبي الجرائم المالية، ويعد الأمن المالي من الضروريات الاقتصادية إذ لا يمكن للتعاملات والتعاقدات المالية أن تتم بدون الأمن المالي، لذلك جعل النبي ﷺ حرمتها كحرمة البيت الحرام والشهر الحرام، وفي ذلك يقول ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»^(٢)، وقد نذب النبي ﷺ إلى أن يقاتل الرجل دون ماله حتى يُقتل أو يُقتل فيكون شهيداً بذلك فقال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٣). مع العلم أن حفظ النفس مقدم على حفظ المال في مراتب المقاصد الضرورية، إلا أن للمسألة هنا وجهاً آخر وهو أن قتال المعتدي ليس لأجل المال، بل لأن ضرره عام لا يختص بالمعتدي عليه، فجاز قتله وقتاله.

ففي هذه النصوص إشارة واضحة على أن الأمن المالي من الضروريات، توازي حرمة حرمة البيت الحرام والشهر الحرام بل تزيد حرمة عن حرمة النفس البشرية كما في حديث المقتول دون ماله.

-
- ١- تفسير آيات الأحكام، محمد علي السائيس، ١ / ١٧٩.
 - ٢- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٦٥٢).
 - ٣- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، حديث رقم (٢٣٤٨). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم، حديث رقم (٣٧٨).

وفي هذا إعجاز تشريعي وتميز نبوي إذ بات من المقرر والمعلوم أن الأمن المالي ضرورة من الضروريات الاقتصادية، يوجب على الدولة إقامته وتحقيقه ولو ترتب على ذلك اعتداء على ما هو أعلى رتبة من المال في مراتب الضروريات.

ثانياً: حصر النبي ﷺ أوجه أكل المال بالباطل وبينها، وأعلنها للناس ثم ألزمهم وكلفهم بها بعد إسلامهم، ولم يعاقب النبي ﷺ على الجرائم المالية وغيرها التي وقعت قبل إسلام المكلفين وعلمهم بالتحريم، وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك فقالوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنْوَ أَخَذُ بَمَا عَمَلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤْخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ»^(١). وقال لعمر بن العاص عندما أراد اشتراط الغفران عند مبايعة النبي ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»^(٢).

ففي هذه النصوص وغيرها إشارة إلى مبدأ راسخ في القوانين الوضعية وهو مبدأ الشرعية ومفاده: أن تجريم الفعل يكون قبل وقوعه، وتشريع عقوبته قبل إيقاعها، وسواء كان ذلك في الجرائم المالية أو غيرها من الجرائم، فثبت هذا المبدأ في السنة النبوية قولاً وعملاً، وأجمع الفقهاء عليه^(٣).

فتميزت السنة النبوية على القوانين الوضعية بوضع هذا المبدأ والعمل به منذ بداية التشريع الإسلامي، بينما لم تعمل به القوانين الوضعية إلا في أعقاب القرن الثامن عشر الميلادي، حيث أدخل في التشريع الفرنسي باعتباره من نتائج الثورة الفرنسية، وقرّر لأول مرة في إعلان حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٨٩ م، ثم انتقل من التشريع الفرنسي إلى غيره من التشريعات الوضعية^(٤).

١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب هل يؤخذ بأعمال الجاهلية، حديث رقم (٣٣٤).

٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، حديث رقم (٣٣٦).

٣- انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، عبد القادر عودة ٧٠ وما بعدها.

٤- الجريمة والعقاب في الفقه الإسلامي، يونس عبد القوي الشافعي ٣٢.

ثالثاً: وَضَعُ النَّبِيِّ ﷺ لِكُلِّ وَجْهِ مِنَ الْأَوْجِهِ الْبَاطِلَةَ غَيْرَ الْمَشْرُوعَةِ مَعْيَاراً وَاضِحاً يَتَحَدَّدُ فِيهِ وَجْهُ التَّحْرِيمِ وَيَتَمَيَّزُ الْفِعْلُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ النَّظَائِرِ، وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي تَحْرِيمِ هَدَايَا الْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ وَالْقَضَاةِ وَنَحْوِهِمْ، حَيْثُ تَشْتَبِهُ الْهَدِيَّةُ الْمُبَاحَةُ بِالرِّشْوَةِ الْمَحْرَمَةِ، لِاسْتَوَاءِ صُورَتَهُمَا فِي الظَّاهِرِ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ مَعْيَاراً وَاضِحاً يُمَيِّزُ بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ فِيمَا وَرَدَ أَنَّ ابْنَ اللَّتْبِيَّةِ عَامِلَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الزَّكَاةِ قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ جَمْعِ الزَّكَاةِ قَائِلاً: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي لِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: «مَا يَأُلَّ عَامِلٌ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟»^(١).

فيلاحظ من الحديث أن معيار التفريق بين الهدية والرشوة النظر في حال المهدي إليه، أي ينظر في أمره إن كان ممن يهدى إليه في وضعه الطبيعي قبل توليه أية ولاية أو لا. وهذا ما سارت عليه القوانين الوضعية في هدايا الموظف العام حيث وضعت معياراً لها، وإن اختلفت في توصيف المعيار وما وضعت من أركان وشروط فيه.

فالتمييز النبوي هنا تميز في التقنين والتشريع، فمما هو معلوم ومقرر عند مقنني التشريعات الوضعية، أن المقنن ملزم ببيان الفعل المُجْرَمِ وذلك بتحديد نوعه وأركانه وشرائطه، حتى يتميز ويخرج عن نظائره وأشكاله المشابهة، وقد كانت السنة النبوية سبّاقة في اعتماد هذا المبدأ، وقد سار فقهاؤنا على أثر النبي ﷺ، فأخذوا بهذه السمة في المصنفات والأبواب الفقهية، حتى غدت سمة عامة في الشريعة الإسلامية، وأصل هذا الأمر يعود للسنة النبوية حيث تميزت في التشريع والتقنين.

١- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، حديث رقم (٤٨٤٣). صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب من لم يقبل الهدية لعله، حديث رقم (٢٤٥٧). واللفظ لمسلم.

خامساً: استثمار الأموال والموارد المتاحة

من القواعد المالية استثمار الأموال والموارد المتاحة للدولة وتنميتها وفق أقصى درجة ممكنة، وقد تميزت السنة النبوية في تحفيز الاستثمار فيها حيث نجد أن النبي ﷺ يسر للناس سبل التنمية والاستثمار وأزال المعوقات التي قد تعيقهم أو تقعدهم عن بذل الجهد في كسب الرزق بما أعطاهم الله تعالى من مواهب وقوى، وقد تعددت وسائل تحفيز استثمار الأموال والموارد في السنة النبوية وتنوعت، وفيما يأتي إيراد موجز لها:

١- جعل الاستثمار عبادة

جعل النبي ﷺ الاستثمار عبادة يجازى عليها المسلم بالثواب الأخروي فوق ما يناله من المصلحة المادية الدنيوية، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرَسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»^(١). ويقول ﷺ: «إِنْ قَامَتْ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»^(٢). ويقول ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٣).

فهذه النصوص وغيرها تفيد أن الاستثمار والعمل وطلب الرزق عبادة، وفي هذا الأمر تحفيز للأمة على العمل واستثمار الأموال والموارد المتاحة، فيقبل العامل على عمله بهمة وإخلاص وإتقان، بل تعدى ذلك إلى اعتبار الإتيان عبادة أيضاً، حيث يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا

١- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث رقم (٢١٩٥).

صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، حديث رقم (٤٠٥٥).

٢- مسند الإمام أحمد ٣/١٨٣، حديث رقم (١٢٩٢٥). قال الألباني: «وهذا سند صحيح على شرط

مسلم»، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١/٣٨، حديث رقم (٩).

٣- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، حديث رقم (١٩٦٦).

أَنْ يَتَّقَنَهُ»^(١).

٢- الثناء على المستثمرين والدعاء لهم بالبركة

أثنى النبي ﷺ على مستثمري الأموال ودعا لبعضهم بالبركة، ومن ذلك ما روي أن النبي ﷺ أعطى عروة بن أبي الجعد البارقي ديناراً يشتري به أضحيةً أو شاةً، فاشترى شاتين فباع إحداهما بدينار، فأتاه بشاةٍ ودينارٍ، فدعا له بالبركة في بيعه، فكان لو اشترى تراباً لربح فيه»^(٢).

فثناء النبي ﷺ على فعل عروة والدعاء له بالبركة دليل على أن الاستثمار أمر مرغوب شرعاً، وعبادة يثاب عليه صاحبه.

٣- الدعوة إلى استثمار عناصر الإنتاج

من المعلوم أن عناصر الإنتاج ثلاثة: الأرض والعمل ورأس المال، وقد دعا النبي ﷺ إلى الاستثمار فيها جميعاً، وقد استفادت الأحاديث في ذلك حيث دعا بعضها إلى استغلال الأرض وإعمارها ومنع إهمالها، ودعا البعض الآخر إلى استثمار الأموال وعدم اكتنازها، ودعا البعض الأخير منها إلى العمل والاستفادة من القدرات البشرية المكنونة.

أما الدعوة إلى استثمار الأرض وإعمارها فأحاديثها كثيرة منها قول النبي ﷺ: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ»^(٣). فأمر النبي ﷺ بتمليك الأرض لمعمريها دليل على الحث على توسيع دائرة الاستثمار والاستفادة القصوى من الموارد المتاحة المعطلة.

١- شعب الإيمان، البيهقي ٤ / ٣٣٤ حديث رقم (٥٣١٢). ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ونقل ما ورد عليه من نقد وتضعيف ثم مال إلى تصحيحه وذكر شواهد له تقويه، انظر ٣ / ١٠٦، حديث رقم (١١١٣).

٢- سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في المضارب يخالف، حديث رقم (٣٣٨٦).

٣- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً، حديث رقم (٢٢١٠).

كما دعا النبي ﷺ إلى إعمار أرض من عجز عن إعمارها بإعطائها لمن يزرعها، فلا يحل للمالكها تعطيل إنتاجها حيث قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَزْرَعْهَا وَعَجَزَ عَنْهَا، فَلْيَمْنَحْهَا أَخَاهُ الْمُسْلِمَ وَلَا يُؤَاغِرْهَا إِيَّاهُ»^(٤).

ومن ذلك أيضاً فعل النبي ﷺ حينما أقر لليهود بقاءهم على أرض خيبر بعد استحقاقهم الجلاء، فعاملهم وزارعهم على أن لهم شطر ما يخرج منها^(٥). وقد كان النبي ﷺ يهّم بإجلائهم بعد أن جعل الأرض للمسلمين، لكن يهود خيبر فاضوا على البقاء بقولهم: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِالْأَرْضِ»^(٦)، فرجحت عند النبي ﷺ كفة الجانب الاقتصادي بمعاملتهم على نصف الثمار رغم توافر دواعٍ سياسية وأمنية لإجلائهم.

وهذا يدل على أن لولي الأمر ترجيح الجانب الاقتصادي على الجانب السياسي وربما الأمني في بعض الأحيان خصوصاً إذا ما كان الجانب الاقتصادي أعلى رتبة، فبالمال تتقوى الدول ويثبت كيانها ويستقر ويتعاضم، ولما انتهت مصلحة بقاء اليهود في أرض خيبر واستثمار موردها للدولة من خلالهم أوصى النبي ﷺ بإجلائهم في آخر أيامه ﷺ، فأجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٧).

وأما الدعوة إلى استثمار الأموال فالأحاديث فيها كثيرة أيضاً منها قول النبي

٤- صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب كراء الأرض، حديث رقم (٤٠٠١). إجارة الأراضي للزراعة وغير ذلك جائزة عند الجمهور الأعظم من الفقهاء وأصحاب المذاهب الأربعة، أما النهي الوارد في الحديث فمحمول على المؤاجرة التي تكون الإجرة فيها ثمار جزء من الأرض، ووجه آخر للنهي أنه محمول على الكراهة للحث على هبة ناتج الأرض لمن يزرعها.

٥- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر، حديث رقم (٤٠٠٢).

٦- سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في المساقاة، حديث رقم (٣٤١٢). سنن ابن ماجه، كتاب الزكاة، باب خرص النخل والعنب، حديث رقم (١٨٢٠).

٧- ورد في الموطأ عن عمر بن عبد العزيز قوله: كان من آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: "قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يقين دينان بأرض العرب"، كتاب الجامع، باب ما جاء في إجلاء اليهود، حديث رقم (١٥٨٣)، فإشارة الحديث واضحة في أن المقصود هم اليهود لا المشركين بدليل ذكرهم في السياق، وقد فطن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذا المعنى فأجلاهم. قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير، حديث رقم (٨٧٤٦).

ﷺ: «أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»^(١). فمعلوم أن اكتناز الأموال تعطيل لها، كما أن فيه إضراراً بالمجتمع بمنع إدارة المال في دورة استثمارية، فتحرم أطراف عدة من الاستفادة من هذا المال.

وأما الدعوة إلى العنصر الثالث من عناصر الإنتاج وهو العمل فأحاديثه كثيرة أيضاً منها قول النبي ﷺ: «لَا نَ يَحْتَطَبُ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»^(٢). وقوله ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطَّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٣). وقوله ﷺ: «خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ»^(٤).

ولم يقف الأمر عند حد الدعوة إلى العمل بل سعى النبي ﷺ إلى البحث عن الطاقات البشرية المعطلة والطاقات المكنونة وتحفيزها للعمل والإنتاج، وإزالة ما يعوق عملها، وإرشادها إلى ما يناسبها من أفضل سبل العمل، ومن ذلك عن أنس ابن مالك: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى حَلْسٌ»^(٥) نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ^(٦) نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: أَتُنَنِي بِهِمَا. فَتَأَهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَيَّ

١- سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب زكاة مال اليتيم، حديث رقم (٦٤١)، قال أبو عيسى: في إسناده مقال. قال النووي: «رواه الترمذي وضعفه هو وغيره»، انظر: خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، حديث رقم (٣٨٤٤). وضعفه ابن الملقن، انظر: البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، ٤٦٦/٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، حديث رقم (١٩٦٨).

٣- سبق تخريجه في هامش رقم ٤٢.

٤- مسند الإمام أحمد، ٢/ ٣٣٤، حديث رقم (٨٣٩٣). قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله ثقات»، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب البيوع، باب أي الكسب أطيب، حديث رقم (٦٢١٣). وقال الألباني: حسن، انظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير، حديث رقم (٥٥٩٤).

٥- حلس: هو الكساء الذي يلي ظهر البعير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ١٠٢٩.

٦- قعب: القعب: القدح الضخم الغليظ. وقيل: قدح من خشب مقعر. انظر: تاج العروس، المرتضى الزبيدي ٤/ ٦٣.

دَرَهُمْ؟ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذُهُمَا بِدَرَهُمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرَهُمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَنَبِّذَهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرَ قَدُومًا فَأَتِنِي بِهِ فَاتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُوْدًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطَبْ وَبِعْ، وَلَا أَرِيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ، وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحِيَّءَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ»^(١).

٤ - مراقبة عمليات الاستثمار ومتابعة أحوالها

من وسائل تحفيز استثمار الأموال والموارد المتاحة مراقبة عمليات الاستثمار ومتابعة أحواله حتى لا يقع ما يضر به، فقد يستغل بعض الناس الفرص بغية الحصول على مكاسب سريعة فيقع الغش والتلاعب بالأسعار، وقد وجدنا في السنة ما يدل على هذا الأمر حيث كان النبي ﷺ نفسه يقوم بهذه العملية، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بِلَلًا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

كما حرم النبي ﷺ ما يفعله بعض التجار من التلاعب بالأسعار والتحكم بالسلع واحتكارها بغية رفع أسعارها فقال رضي الله عنه: «لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِيٌّ»^(٣)، فهذان

- ١- سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، حديث رقم (١٦٤٣). وسنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب بيع المزايدة حديث رقم (٢١٩٨). واللفظ لأبي داود. ضعفه الألباني، انظر: ضعيف سنن أبي داود ٢/١٢٥، وانظر أوجه تضعيفه عند ابن الملقن في البدر المنير ٦/٥١٤.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: من غشنا فليس منا، حديث رقم (٢٩٥).
- ٣- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، حديث رقم (٤٢٠٧).

الحديثان وغيرهما يدلان على جواز تدخل الدولة في عمليات الاستثمار بمراقبتها ومتابعة أحوالها ومنع ما يضر منها بالمصلحة العامة.

ومع جواز تدخل الدولة ومراقبة عمليات الاستثمار إلا أن ذلك مقيد بتحقيق المصلحة العامة وعدم الإضرار بالتجار وأكل أموالهم بدعوى حماية المستهلك، كما يحدث أحياناً عند ارتفاع الأسعار لعوامل طبيعية وفق قاعدة العرض والطلب، ودليل ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه بقوله: «غَلَا السَّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَعَّرْنَا. فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسْعَرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ»^(١).

فهذا الحديث يشير بوضوح إلى اعتماد قاعدة العرض والطلب في تحديد الأسعار، ويشير أيضاً إلى أن الأصل عدم تدخل الدولة في عمليات الاستثمار بل ترك الأمر وفق قاعدة العرض والطلب، وأن التدخل هو صفة عارضة عند خروج الاستثمار عن غايته والتلاعب به. وهذه الأمور هي من المبادئ الاقتصادية المعاصرة التي ثبت صحتها، وفي هذا كله دلالة واضحة على التميز المالي للسنة النبوية.

سادساً: تحقيق مصالح مشروعة بالعقود والمعاملات

بعد أن تقرر شرعاً أن الأصل في عقود الناس ومعاملاتهم الإباحة أورد الشارع على هذه القاعدة بعض القيود، فمنع الربا والغرر وأكل الأموال بالباطل، -وقد سبق بيانها- ثم أخيراً أوجب الشارع على المتعاملين تحقيق مصالح مشروعة بعقودهم ومعاملاتهم، أي أن الشارع اشترط اشتغال التصرف على مصلحة

١- سنن الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في التسعير، حديث رقم (١٣١٤)، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

حقيقية معتبرة شرعاً، أما المصلحة الفاسدة المناقضة للشرع فهي غير معتبرة ويبطل التصرف باشماله عليها، إضافة إلى ذلك اشترط الشارع عدم معارضة التصرف لمصلحة عامة كلية ولو كان مشتملاً على مصلحة معتبرة.

وقد استنبطت هذه القاعدة من السنة النبوية حيث وردت أحاديث كثيرة تفيد هذا المعنى وتقرره، ومن الأمثلة على اشتراط اشتمال التصرف على مصلحة معتبرة شرعاً ما ورد عن النبي ﷺ قوله: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ. وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^(١). فإضاعة المال بالتبذير والسرف خال عن أية مصلحة سوى الإفراط في طلب الشهوات وتتبع الرغبات، وهي غير معتبرة شرعاً فكانت ممنوعة ومحرمة في الكثير من صورها؛ لما فيها من ترك الواجبات وفوات الحقوق.

أما اشتراط عدم معارضة التصرف لمصالح عامة كلية ولو كان مشتملاً على مصلحة معتبرة، فأمثلتها في السنة النبوية أكثر مما تحصى، منها قوله ﷺ: «لَا تَلْقُوا الرُّكْبَانَ، وَلَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلَا تَتَاجَشُوا، وَلَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ»^(٢)، فرغم أن حرية التصرف بالبيع والشراء مكفولة شرعاً إلا أن ذلك يصبح ممنوعاً شرعاً إذا ما كان مضراً بالغير ومفسداً لعلاقة المسلم بأخيه المسلم.

وقد وردت في السنة النبوية أحكام كثيرة تتعلق بهذه القاعدة وتبنى عليها، أذكر منها على وجه الإجمال: تشريع الشفعة، وتقييد الوصية، والحجر على المفلس، وغيرها.

وبذلك كانت السنة النبوية المصدر الأساس في تشريع هذه القاعدة وتفصيل أحكامها.

١- صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال، حديث رقم (٢٢٧٧).

٢- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب النهي للبايع أن لا يحفل الأبل، حديث رقم (٢٠٤٣).

وتعد هذه القاعدة من أهم أوجه تميز النظام الاقتصادي الإسلامي عن باقي الأنظمة الاقتصادية الوضعية وعلى وجه الخصوص النظام الرأسمالي، فمع أن النظام الاقتصادي الإسلامي أقر الملكية الفردية وأعطى للإنسان حرية العمل والتجارة وطلب الرزق، كما هو الحال في النظام الرأسمالي، إلا أن النظام الاقتصادي الإسلامي قيد حرية التملك والتصرف بوجود تحقيق مصلحة مشروعة في هذا التصرف إضافة إلى وجوب مراعاة مصلحة الجماعة حيث قدمها في أوجه كثيرة .

وقد أقر أرباب النظرية الرأسمالية بأن الحرية المطلقة في التملك والتصرف غير ممكنة وأن التقييد ضرورة اقتصادية حتمية، فأقروا بقصور نظريتهم، وأدخلوا عليها الكثير من التقييدات ووضعوا الكثير من الضوابط التي تحد من حرية التملك والتصرف في الأموال، وأضرب مثلاً على ذلك من العهد القريب، فقد وضعت الدول الغربية الكثير من القيود على إصدار السندات وتداولها على فترات متتالية، حيث وجدوا أن إطلاق حرية الإصدار أفضى إلى أضرار جسيمة، مما دفعهم إلى تقييده ومنعه في صور كثيرة .

وعليه فإن قاعدة تقييد التعاقدات والتعاملات المالية وفق مصالح مشروعة باتت قضية اقتصادية حتمية حتى في اقتصاديات العالم المتحضر، وبذلك يثبت أن هذه الاقتصاديات انتهت إلى حيث بدأ الاقتصاد الإسلامي، إلا أن الفرق يكمن فيمن يضع القيود ويشرعها، ولن يقرروا بالحق الذي أتى من عند الله تعالى على لسان رسوله الكريم ﷺ لأنهم لا يزالون في مرية منه .

وبهذا يثبت وجه آخر من أوجه الإعجاز التشريعي والتميز الاقتصادي والمالي للسنة النبوية .

سابعاً: تجنب الاقتصاد الوهمي ومنع الثروات غير الحقيقية

إن من أهم أسباب الأزمات المالية والنكسات الاقتصادية التي وقعت بها كثير من الأسواق المالية العربية والعالمية إجراء العقود والمعاملات الوهمية وبناء الثروات غير الحقيقية، وهو عبارة عن اقتصاد ليس له وجود على الحقيقة والواقع، وهو أشبه بالبناء الورقي الهش، فإذا سقط أحد أطرافه وأفلس تتابع الساقطون وتوالوا في الترددي إلى هاوية الإفلاس، بل وصل الأمر إلى انقلاب عدد كبير من الأثرياء أصحاب الملايين إلى مفلسين فقراء جازت عليهم الصدقة خلال أيام معدودة وربما ساعات.

إن السير على المنهج النبوي في التعاقدات والتعاملات المالية يعصم المتعاملين من الوقوع في مثل هذه الأزمات، فقد وضع النبي ﷺ قاعدة مالية ذهبية تؤسس لمنهج مالي وقائي وهو نهيه ﷺ عن ربح مال لم يضمن وعن بيع مال ليس عندك^(١).

فتطبيق هذه القاعدة في التعاملات والتعاقدات المالية يمنع من ظهور هذه الثروات غير الحقيقية والاقتصاد الوهمي وما يتبعها من إشكالات وأزمات مالية، فكانت من أصدق أوجه التميز المالي للسنة النبوية.

وفي ختام هذا المبحث وبعد استعراض أهم القواعد المالية المستنبطة من السنة النبوية والمنظمة لباب المعاملات في الفقه الإسلامي أشير إلى أن التميز الاقتصادي والمالي للسنة النبوية حقيقة ثابتة لا مرية فيها، وهو يمثل الإعجاز الاقتصادي الذي نتحدى به النظريات الاقتصادية على اختلافها وتنوعها وعلى رأسها النظام الرأسمالي الذي هيمن على العالم وأصبح نظاماً اقتصادياً عالمياً، إلا أنه أخفق وظهرت عيوبه وعدم قدرته على حل المشكلات الاقتصادية، بل أوقع

١- سنن الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في كراهية بيع مال ليس عندك، حديث رقم (١٢٣٤)، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

العالم في أزمات مالية متوالية، فما تكاد الدول تتعافى من أزمة حتى تدخل في أختها، وقد كانت الأزمات المالية العالمية تظهر مرة كل بضعة أعوام إلا أن الأمر استفحل وبدأت الأزمات المالية تتتالي في كل عام تقريباً، فما كاد عام ينقضي بعد أزمة الرهن العقاري الأمريكية، حتى ظهرت أزمة ديون دبي، ثم تبعها الأزمة الإسبانية ثم اليونانية، والله تعالى أعلم بما هو قادم من أزمات مالية عالمية.

وإن الناظر في هذه الأزمات المالية العالمية وأسبابها يجد عند عرضها على القواعد المالية التي أتت بها السنة النبوية يدرك أن النظام الاقتصادي والمالي الإسلامي يقي من مثل هذه الأزمات لما اشتملت عليه هذه القواعد من مصالح متوازنة ومبادئ عادلة، وهذا هو عين التميز المالي للسنة النبوية والإعجاز الاقتصادي لها.

المبحث الثاني: القواعد المالية من جوامع كلم النبي ﷺ

بعد هذا التجوال في التميز المالي للسنة النبوية من حيث تشريع القواعد المالية ووضعها لتنظيم طرق انتقال المال وتداوله، لا بد من الإشارة إلى نوع آخر من التميز في السنة النبوية وهو التميز اللفظي للسنة النبوية بشكل عام وفي باب المال والمعاملات بشكل خاص، حيث كانت الصنعة اللفظية والصياغة النصية للسنة النبوية متميزة إلى حد الإبداع.

وقد ورد في السنة النبوية ما يدل على هذا التميز واختصاص النبي ﷺ بذلك دون سائر الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم حيث قال ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...» أي أن الله تعالى جمع لنبيه الكريم ﷺ في الألفاظ اليسيرة المعاني الكثيرة^(١).

١ - شرح النووي على صحيح مسلم ٥/٥.

فاستلهم الفقهاء إيجاد القواعد الفقهية وصياغتها صياغة قاعدية في عبارات موجزة محكمة من جوامع كلم النبي ﷺ، وأخص بالذكر هنا باب المعاملات، حيث كان الكثير من القواعد الفقهية المالية المنظمة لباب المعاملات مستخرجاً من لفظ النبي وجوامع كلمه ﷺ، فاستخلصها الفقهاء من السنة النبوية وألفاظها، وأوردوها في كتب القواعد الفقهية وبنوا عليها الفروع الفقهية، وكانت هذه القواعد المستخلصة إما لفظ النبي ﷺ نفسه، وإما مقاربة له في اللفظ ومطابقة له في المعنى.

وقد كانت هذه القواعد الفقهية المالية جامعة لفروع فقهية كثيرة تنتظم تحت لواء قواعدها، ومن هذه القواعد:

١ - الأعمال بالنيات (الأمور بمقاصدها)

تعد قاعدة (الأمور بمقاصدها) من القواعد الفقهية الكلية الكبرى، ومن أعظم القواعد وأكثرها انتشاراً وتطبيقاً، وصيغة هذه القاعدة مأخوذة ومستنبطة من قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات». ويرى تاج الدين السبكي أن لفظ الحديث وصياغته أفضل من صياغة الفقهاء، فيقول عند بدء عرض القاعدة: «القاعدة الخامسة: الأمور بمقاصدها: وأرشق وأحسن من هذه العبارة قول من أوتي جوامع الكلم ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)»^(١). وقال الحافظ العراقي عن هذا الحديث ولفظه: هذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام^(٢).

وقد جرى إعمال هذه القاعدة في باب المعاملات بشكل كبير حتى تفرعت عنها قاعدة خاصة بالمعاملات والعقود وهي: العبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني.

١ - الأشباه والنظائر، السبكي، ١ / ٥٤.

٢ - طرح التثريب في شرح التقريب، الحافظ العراقي ٢ / ٥.

٢- لا ضرر ولا ضرار

وهي من القواعد الفقهية الكلية الكبرى، وهي بلفظها ونصها حديث نبوي من جوامع كلم النبي ﷺ^(١)، إلا أن للفقهاء صيغة أخرى للقاعدة وهي (الضرر يزال)، ورغم أن الصيغة الثانية أكثر انتشاراً إلا أن الفقهاء ينصون على أن صيغتهم مأخوذة ومستنبطة من لفظ الحديث النبوي.

وأجد أن الصياغة النبوية أليق وأفقه من صياغة الفقهاء إذ إن في لفظ الحديث معنى زائداً عن صياغة الفقهاء، فالحديث يوجب منع الضرر ورفع بقوله ﷺ: (لا ضرر) فهو نفي للجنس يفيد العموم، فيوجب منعه قبل وقوعه ورفع أيضاً بعد وقوعه، كما يمنع مقابلة الضرر بالضرر وذلك بقوله ﷺ: (ولا ضرار).

أما صياغة الفقهاء فلم تفد إلا وجوب رفع الضرر بعد وقوعه حيث أوجبت إزالته بقولها: (الضرر يزال) ولم تنص على منعه ابتداءً، كما أن في النص النبوي إبداعاً بلاغياً فقد «سيق ذلك بأسلوب نفي الجنس؛ ليكون أبلغ في النهي والزجر»^(٢)، فكانت بذلك الصنعة اللفظية في السنة النبوية أكثر بياناً وأعظم جمعاً للكلم.

وقد بُنيت على هذه القاعدة الكلية فروع كثيرة في باب المعاملات، منها ثبوت الشفعة ومحلها والقيود الواردة عليها، والخيارات بأنواعها وتنظيمها وما يشرع منها وما لا يشرع، وتقييد تصرفات الشركاء وقسمة الأموال المشتركة، وجواز فسخ العقود اللازمة للضرر الواقع على أحد طرفي العقد، ولزوم العقود الجائزة للضرر الواقع على أحد طرفي العقد، وتقييد تصرف المالك فيما يجوز له

١- المستدرک ٢/ ٥٧، حدیث رقم (٢٣٤٥). الموطأ، کتاب الأفضیة، باب القضاء فی المرفق، حدیث رقم (١٤٢٩). سنن ابن ماجه، کتاب الأحكام، باب من بنی فی حقه ما یضر بجاره، حدیث رقم (٢٣٤١).

قال الحاکم: «هذا حدیث صحیح الإسناد علی شرط مسلم»، ووافقہ الذہبی. قال النووی: «حدیث حسن... وله طرق یقوی بعضها بعضاً»، شرح الأربعین النوویة، ص ٨٨.

٢- شرح القواعد الفقهیة، أحمد الزرقا، ١٦٥.

في ملكه، وغير ذلك من الأحكام المتعلقة باب المعاملات حيث كان منع الضرر ورفعه أساس ثبوت تلك الأحكام.

ورغم إثبات الفقهاء لهذه الأحكام بناء على هذه القاعدة الفقهية الثابتة بالسنة النبوية لفظاً ومعنى إلا أن مراجعة هذه الأحكام وأمثالها وفق المعطيات الجديدة والنظر فيها للمتغيرات الحادثة واجب شرعاً، ولا يجوز البقاء على أقوال الفقهاء إذا ما تغير مناط الحكم وانقلبت كفة الضرر من راجحة إلى مرجوحة.

وأضرب لذلك مثلاً: فالفقهاء متفقون على أن عقد المضاربة من العقود الجائزة لا اللازمة؛ لأن في ذلك إضراراً برب المال في تقييد تصرفه في ملكه فلا يجوز، وهذا إذا ما كان الأمر قبل شروع العامل في المضاربة، أما بعد الشروع فهو من العقود الجائزة أيضاً عند الجمهور للعلة نفسها.

وإذا أردنا تطبيق قول الفقهاء في وقتنا المعاصر في أن عقد المضاربة من العقود الجائزة لأدى ذلك إلى إخلال كبير في المعاملات والتعاقدات، إذ من المعلوم أن كثيراً من العقود الجارية في التعاملات بين الأفراد والشركات والمؤسسات المالية يقوم أساساً على تكييفها عقود مضاربة، وهذا بدوره يناقض الأساس الذي قام عليه قول فقهاء المذاهب في عدم اللزوم لمنع الضرر، فالصحيح حينئذ الرجوع إلى الأساس التشريعي والقاعدة النبوية في أنه (لا ضرر ولا ضرار)، فقول فقهاء المذاهب بعدم لزوم عقد المضاربة صحيح لما كان الضرر على المالك راجحاً، واليوم رجحت كفة الضرر الأخرى فوجب القول باللزوم على أن للمسألة تفصيلات لا يحسن عرضها حتى لا يخرج البحث عن غايته.

وخلاصة الأمر: أن دعوى التمييز في السنة النبوية وإبداعها في التقعيد يوجب الرجوع إلى القواعد الفقهية الكلية الثابتة بالسنة النبوية وعدم التمسك والبقاء على أقوال الفقهاء إذا ما تغير المناط وتبدل الحال، رغم أن أقوالهم مبنية

على تلك القواعد، إلا أن مناطها تغير وتبدل فوجب حينئذ الرجوع إلى السنة وقواعدها والاجتهاد في تحقيق مناطها في الوقائع المعاصرة.

٣- المسلمون عند شروطهم

هذه القاعدة أصل عظيم من أصول المعاملات والتعاقدات، وهي من نص النبي ولفظه ﷺ^(١)، قال ولي الله الدهلوي: «هذا الحديث أحد الأصول في باب المعاملات»^(٢)، وقد صاغ الفقهاء هذا الحديث صياغة أخرى فنصوا على أن الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة.

وقد سبق بيان هذه القاعدة ووجه تميز السنة النبوية فيها من حيث التشريع والوضع، ثم أضافت الصنعة اللفظية للقاعدة الحديثية تميزاً إضافياً للسنة النبوية.

٤- إنما البيع عن تراض

هذه القاعدة أصل عظيم من أصول المعاملات والتعاقدات، وهي من نص النبي ولفظه ﷺ^(٣)، وقد ورد في السنة حديث آخر يؤيد هذه القاعدة الحديثية وهو قول النبي ﷺ: «دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ»^(٤)، ويقول ابن عبد البر في تأكيد معاني هذه النصوص: «كل تجارة عن تراض لم يأت عن النبي ﷺ النهي عنها ولا كانت في معنى ما نهى عنه فجائز»^(٥).

وقد سبق بيان هذه القاعدة الحديثية ووجه تعلقها بقاعدة الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة، ووجه التميز فيها، ثم كانت الصنعة اللفظية للقاعدة الحديثية تميزاً إضافياً.

- ١- انظر تخريجه في هامش رقم ١٢ من هذا البحث.
- ٢- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي ٦٦٣.
- ٣- انظر تخريجه في هامش رقم ١٣ من هذا البحث.
- ٤- صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، حديث رقم (٣٩٠٢).
- ٥- الاستذكار، ابن عبد البر ٦/٣٩٨.

٥- الخراج بالضمان

تعد هذه القاعدة من القواعد المهمة في باب المعاملات إذ إنها تتعلق بأكثر مباحثه، وهي تعبر عن أهم المبادئ في باب المعاملات المالية وهو مبدأ العدل، وهي بنصها ولفظها من جوامع كلم النبي ﷺ^(١)، فتلقفها الفقهاء وأوردوها في كتبهم ومصنفاتهم بصيغتها النبوية، حتى غدت أصلاً متفقاً عليه، فكان هذا من أجل صور تميز الصنعة اللفظية للسنة النبوية.

ومن التميز النبوي في هذا الحديث أن الفقهاء استخرجوا منه أصولاً أخرى وقواعد عامة غير اعتبار الخراج بالضمان، ومن ذلك تقسيم الأيدي إلى يد ملك ويد أمانة ويد ضمان^(٢)، وأن الضمان أحد أسباب استحقاق الربح^(٣)، وهما -أي هذين الأصلين المستخرجين- من أهم القواعد العاملة والمنظمة في باب المعاملات المالية.

وبذلك نجد أن هذا الحديث يعد من أجلى الصور وأوضحها على تميز السنة النبوية في الجانب اللفظي، فنص الحديث لم يتجاوز كلمتين إلا أن الفقهاء استخرجوا منه قواعد فقهية وأصولاً عامة إضافة إلى الأحكام الفقهية^(٤)، وما ذلك إلا لما اختص به الله تعالى نبيه الكريم بما أعطاه من جوامع الكلم.

إضافة إلى ذلك فإن لهذه القاعدة الفقهية أثراً كبيراً في قضايا الاقتصاد

١- سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الخراج بالضمان، حديث رقم (٢٢٤٣). سنن الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء فيمن يشتري العبد ويستغله ثم يجد به عيباً، حديث رقم (١٢٨٥)، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

٢- أثبت الحديث إحدى هذه الأيدي وهي يد الضمان، واستفيدت اليدان الأخرى من نصوص أخرى. أثبت الحديث أحد هذه الطرق وهو الضمان، أما الطرق الأخرى لاستحقاق الربح فهي المال والعمل، وقد استنبطت من نصوص أخرى.

٤- استخرج الفقهاء أحكاماً أخرى من لفظ الحديث غير ما ذكر، ومن ذلك: استحقاق الخراج بالضمان بعد القبض لا قبله، ولولا خشية الإطالة وخروج البحث عن مبتغاه لأوضحت هذا الحكم ووجه تعلقه بالنص النبوي.

الإسلامي المعاصر، وخصوصاً في جانب عمليات الاستثمار، فهي تعمل على ضبطها ومعالجتها فكانت من أهم المعايير الشرعية الواجب مراعاتها فيها.

٦- البينة على المدعي واليمين على من أنكر

هذه القاعدة أصل عظيم من أصول المعاملات والتعاقدات، وهي تختص بالمنازعات وطرائق الإثبات في القضاء، والكثير من تطبيقاتها تجري في الأموال، وهي من نص النبي ولفظه ﷺ^(١)، قال النووي: «هذا الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع»^(٢). وليس فيها خلاف بين الفقهاء في المجمل.

وبعد عرض أهم القواعد المالية من جوامع كلم النبي ﷺ يمكن القول: إن الصنعة اللفظية للسنة النبوية كانت متميزة إلى حد الإبداع، وقد كانت سبباً مباشراً لوضع القواعد الفقهية عند الفقهاء حيث استرشدوا بها في تقعيد الفقه وتنظيمه في أصول جامعة.

وتعد هذه الميزة دليلاً على أسبقية السنة النبوية في اعتماد مبدأ تقنين الأحكام وتنظيمها في أصول جامعة، وهذا تميز إضافي للسنة النبوية.

١- السنن الكبرى، البيهقي، كتاب الدعاوى والبيّنات، باب البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه، حديث رقم (٢١٧٣٣). ورواه الترمذي في سننه بلفظ: «البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه» كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه، حديث رقم (١٣٤١). قال النووي في شرح صحيح مسلم: «إسناده حسن أو صحيح» ٣/١٢.

٢- شرح النووي على صحيح مسلم، ٣/١٢.

الخاتمة

بعد الفراغ من بيان أوجه التميز المالي للسنة النبوية أورد أهم نتائج البحث، ثم أورد بعض التوصيات التي ظهرت من خلال البحث.

أولاً: النتائج

- ١- بعد أن بين القرآن الكريم والسنة النبوية نظرة الإسلام إلى المال جاءت السنة فوضعت مجموعة من القواعد في التعامل مع المال لترسيخ هذه النظرة، وهي في حقيقتها استخدام أساليب تربوية وترسيخ مفاهيم إيمانية، الغاية منها إيجاد التكامل بينها وبين الأحكام التشريعية.
- ٢- التميز الاقتصادي والمالي للسنة النبوية حقيقة ثابتة لا مرية فيها، وهو يمثل الإعجاز الاقتصادي.
- ٣- تعد قاعدة الأصل في العقود والتعاملات الجواز والصحة قاعدة نبوية متميزة، إذ بها استطاع الفقه الإسلامي أن يسع صور العقود وأنظمة التعامل المالي المعاصرة رغم اختلافها جذرياً عن صور العقود والتعاملات في التراث الفقهي الإسلامي.
- ٤- تميزت السنة النبوية بإثبات تحريم ربا الفضل لكونه ذريعة حتمية إلى ربا النسئة، لكن السنة النبوية فرقت بينهما في بعض الأحكام لكون التحريم في ربا الفضل متعلق بصورة العقد بخلاف ربا النسئة، وهذا من أدق صور التميز والإبداع للسنة النبوية.
- ٥- إن منع الغرر في عقود المعاوضات دليل من أدلة الإعجاز التشريعي النبوي وصورة من أبعاد صور التميز للسنة النبوية في التشريع الاقتصادي والمالي، حيث أثبتت تجربة البشر الاقتصادية أن الغرر أحد أهم عوامل نشوء

الأزمات المالية العالمية.

- ٦- تعددت مجالات التميز للسنة النبوية في تشريعات الأمن المالي والاقتصادي.
- ٧- تميزت السنة النبوية بتحفيز الاستثمار في الأموال والموارد المتاحة ويسّرت للناس سبل التنمية والاستثمار وأزالت المعوقات التي قد تعيقهم أو تقعدهم عن بذل الجهد في كسب الرزق بما أعطاهم الله تعالى من مواهب وقوى.
- ٨- يُعد تقييد حرية التملك والتصرف بتحقيق مصالح مشروعة من أبين أوجه التميز المالي والإعجاز الاقتصادي للسنة النبوية إذ أصبح ذلك قضية اقتصادية حتمية في اقتصاديات العالم المتحضر.
- ٩- أسست السنة النبوية لمنهج مالي وقائي يمنع من ظهور الثروات غير الحقيقية والاقتصاد الوهمي.
- ١٠- تميزت السنة النبوية بالصنعة اللفظية والصياغة النصية.

ثانياً: التوصيات

يوصي الباحث بالآتي:

- ١- دعوة الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى استيعاب دراسة القواعد المالية المستنبطة من السنة النبوية.
- ٢- دعوة الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى إجراء دراسات مقارنة تظهر الإعجاز الاقتصادي للقرآن الكريم والسنة النبوية.
- ٣- دعوة الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى إجراء دراسات في الصنعة اللفظية والصياغة النصية للسنة النبوية التي كانت متميزة إلى حد الإبداع.

٤- ضرورة التفريق بين الحيل الجائزة والحيل الممنوعة خصوصاً في المعاملات المالية المعاصرة، ووضع معايير واضحة للتفرقة بينها.

وختاماً أسأل الله تعالى أن يكون جهدي خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به وأن يجنبني فيه الزلل والخطأ، وما كان فيه من حسن فتوفيق من الله عز وجل، وما كان فيه من تقصير أو خطأ فلقله بضاعتي وقصر باعي، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

- أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الخن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٩٨ م.
- أحاديث تعظم الربا على الزنا دراسة نقدية، د. علي بن عبد الله الصيَّاح، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.
- أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.
- الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.
- الأشباه والنظائر، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م.
- إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣ م.
- البحر الزخار بمسند البزار، أبو بكر البزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ-٢٠٠٤ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، دار الهداية.

- تحريم الربا تنظيم اقتصادي، محمد أبو زهرة، الدار السعودية للنشر، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.
- التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- تفسير آيات الأحكام، محمد علي السائس، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.
- التورق المصرفي وتطبيقاته في المصارف الإسلامية، د. هيثم خزنة، مجلة المعارف، تصدر عن جامعة أكلي محند أولحاج، البويرة، الجزائر، السنة السابعة، العدد ١٢، القسم الأول، جوان ٢٠١٢ م.
- الجريمة والعقاب في الفقه الإسلامي، يونس عبد القوي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ-١٩٩٧ م.
- الدراية في تخريج أحاديث الهداية، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
- الربا وآثاره الاقتصادية، د. عبد المجيد دية، بحث منشور على الانترنت.

- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، محمد بن إسماعيل الصنعاني، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وبذيله الجوهر النقي لابن التركماني، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.
- شرح الأربعين النووية، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المكتب الإسلامي، بيروت، ومكتبة دار الفتح، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م.
- شرح القواعد الفقهية، أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

- شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الجيل، بيروت.
- صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- ضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- طرح الثريب في شرح التقريب، الحافظ العراقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
- مجموع الفتاوى، أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد النجدي.
- المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، دار العربية، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
- الموطأ، مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير الجزري، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩ م.
- وضع الربا في البناء الاقتصادي، د. عيسى عبده، دار الاعتصام، الطبعة الثانية.
- <http://ar.wikipedia.org/wiki>

معالم توظيف الذكاء العاطفي
في السنة النبوية وآفاق تحصيله

د. عبد القادر عثمان إسماعيل
جامعة ملایا - ماليزيا

من أبرز فقرات البحث

«لم تعد الحصيعة العلمية العالية كافية في تحقيق النجاح المرجو في العصر الحاضر، فكلما ازداد المجتمع الإنساني تعقيداً، تزايدت الحاجة إلى اكتساب مهارات جديدة، فلا بد من براعة وقدرة على ملاحظة المشاعر لتقييمها، ثم توجيهها وإدارتها للحصول على أفضل النتائج. وتلك مهارة تؤهل المرء لأن يكتسب المعرفة من شعوره وشعور الآخرين ليكون أكثر نجاحاً في أعماله الحالية والمستقبلية. وهي تكسب المرء التوازن والتعادل ليحصل على الطمأنينة في علاقته مع ربه سبحانه وتعالى ونفسه ومجتمعه، فيكون إنساناً منتجاً. وهو ما يعرف اليوم بالذكاء العاطفي، وهو فن سبق إلى ممارسته رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، وبلغ فيه أرقى الدرجات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله على ما أسبغ من العطاء، وأسبل من الغطاء، نستهديه لما فيه صلاح أمة الإسلام والعالم، ونسترشده إلى ما فيه العصمة من البلايا والزلل والانحراف، نعوذ به من مضلات الفتن والأهواء، وانحرافات الأفكار والأخطاء، نشكره على آلائه ونعمه الجسيمة، جعلنا خير أمة أخرجت للناس، وهدانا إلى الدين القويم، وسهل لنا سبل الهداية والرشاد، نسأله أن يفقهنا في الدين إذ هو دليل الخير والاستقامة، ويلهمنا السداد والفهم إذ بدون توفيقه لن يكون ولا محالة. صلوات ربي وسلامه على من بعثه رحمة للعالمين، أعليت درجته في عليين، وقلت عنه في محكم التنزيل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وبعد: فحينما يزداد المجتمع الإنساني اليوم تعقيدا تزداد الحاجة إلى اكتساب مهارات جديدة وعدة إلحاحا مع التنمية المستمرة لها، فلم تعد الحصيلة العلمية العالية كافية في تحقيق النجاح المرجو في العصر الحاضر، بل لا بد من قدرة على دقة الإدراك وتقييمها، ومهارة التعبير عن العاطفة، والقدرة كذلك على الوصول إلى المشاعر أو توليدها لدى الآخرين، وبراعة في فهم الانفعال ونتائجها. هذا الفن الذي يتبلور اليوم معاملة بوضوح، ويزداد الاهتمام إليه بشغف، هو ما يعرف بالذكاء العاطفي.

الذكاء العاطفي براعة وقابلية، مهارة وقدرة على ملاحظة الشعور لتقييمها ثم توجيهها وإدارتها للحصول على أفضل النتائج، سواء أكان هذا الشعور للشخص نفسه أم لغيره؟ الذكاء العاطفي مهارة تؤهل المرء على أن يكتسب المعلومات من شعوره ومن شعور الآخرين ليكون أكثر نجاحا وأكثر اقترابا إلى الفوز في أعماله الحالية والمستقبلية. الذكاء العاطفي يسعى إلى إكساب المرء التوازن والتعادل

ليحصل على الاطمئنان الداخلي مع نفسه والخارجي مع المجتمع ومع ربه سبحانه وتعالى .

يَتَّصِرُ الكثير بأن النجاح مرتبط بغياب العاطفة، ومراعاة عواطف الناس جزء من محاسن الأخلاق الذي أرسل النبي صلى الله عليه وسلم لإتمامه، وهو أنجح رجل عرفه تاريخ البشرية، فهل دقة الإدراك للمشاعر والتعبير عنها بمهارة والتأثير في الناس من خلالها مناقض لعوامل النجاح؟ وإذا كان الجواب بالسلب فهل معالم هذا الفن بارزة في السنة النبوية؟ وإذا كانت بارزة فهل بالإمكان اكتسابه أم هو هبة من الله لا طريق إلى تحصيله؟ وما مدى جدواه في الدعوة إلى الله واكتساب القلوب واختيار الرسل إلى أقوام والتعامل مع عظماء قوم أو بلدان في القديم والحديث؟

لقد أضحي هذا الفن جزءاً مهماً في المؤسسات الربحية وغير الربحية، ولقد وصل به الأمر أن يكون مدروساً في الكنائس - كما بينه القس تيم لحايي - في كتابه «Why You Act The Way You Do» وغيره كذلك، وذلك لتسهيل إيصال الدعوة النصرانية إلى غير النصارى في شتى بقاع الأرض. ولا شك إن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، فكيف إذا كانت موجودة في تراثه الإسلامي، بل من أهم ركائز دينهم الذي جاء خاتم الرسل ﷺ لتتمته، فكان من الأهمية بلورة معالم هذا الفن في السنة النبوية للاقتداء والتأسي.

هذا البحث يهدف إلى أمور منها:

أولاً: إثبات وبلورة جوانب من اهتمام السنة النبوية بمسألة التأثير والتأثر في المشاعر، للقيام بمسئولية الخلافة، والحصول على التوازن الداخلي للفرد والخارجي مع المجتمع .

ثانياً: إطلائاً على مهارات اكتساب الذكاء العاطفي من السنة النبوية، وآفاق توظيفه في العمل الدعوي والتواصل مع الآخرين .

ثالثاً: دعوةً إلى إتقان التعامل مع العواطف، كي يتم إيجاد حلول مناسبة للقضاء على المشاكل المكتظة في الحياة الأسرية والعائلية والعملية.

لقد كتب جمع من العلماء المسلمين عن الذكاء العاطفي بمفهومه الحديث كتباً، منهم الدكتور ياسر العيتي وهو أكثر من اعتنى بهذا الجانب -فيما أعلم- فله كتاب «الذكاء العاطفي: نظرة جديدة في العلاقة بين الذكاء والعاطفة»، أثبت فيه جذور هذا الفن في ثنايا العقيدة الإسلامية وتعاليم دين الفطرة . وله: «كتاب الذكاء العاطفي والأسرة»، و «الذكاء العاطفي في الإدارة والقيادة»، و«ما فوق الذكاء العاطفي - حلاوة الإيمان، والحرية العاطفية». وللأستاذ مأمون مبيض كتاب «الذكاء العاطفي والصحة العاطفية»، عرّف فيه طبيعة الذكاء العاطفي ورسم صورته وبين عناصره وطرق تنميته وتطبيقاته في الجوانب المختلفة لحياة الفرد والأسرة والمجتمع . وهناك كتب أخرى مهمة في هذا المجال ككتاب «الذكاء الوجداني» لقم روينس وجين سكوت، ترجمة الأستاذ الدكتور صفاء الأعسر والأستاذ الدكتور علاء الدين كفاي . وكتاب «الذكاء العاطفي» لدانيال كولمان، ترجمة ليلي الجنائي .

ويضيف هذا البحث إلى ما تقدم بيان جذور هذا الفن من السنة النبوية، ويضع نقاطاً بارزة على معالم توظيف الذكاء العاطفي من الحديث النبوي، ويبيّن كيفية تحصيل ذلك من خلال النظر إلى الإرشادات الحكيمة المبثوثة في ثنايا كتب السنة في تعامل النبي ﷺ مع الصحابة ومع غير المسلمين .

يعتبر الذكاء العاطفي فناً حديثاً -نسبياً- في علم النفس، وليس جديداً بالمعنى الأدق، لكنه لم يشتهر اشتهار سائر جوانب علم النفس .

وقد كان لكتاب دانيال كولمان - The Emotional Intellegence: Why - it Matter More than IQ - الفضل في تشهير هذا الفن وتشهير اسم الذكاء العاطفي.

المبحث الأول: ماهية الذكاء العاطفي وأهميته

المطلب الأول: تعريف الذكاء لغةً واصطلاحاً.

الذكاء ممدود من قولك قلبٌ ذكيٌّ وصبيٌّ ذكيٌّ إذا كان سريعَ الفطنة، وقد ذكيَ بالكسر يذكي ذكاً ويقال ذكاً يذكو ذكاً وذكو ذكيٌ. وهو شدة وقوة للنفس معدة لاكتساب الآراء وسرعة استخراج النتائج^(١).

أما الذكاء عند علماء النفس: فهناك اختلاف في تعريفه عندهم على أقوال يمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام: منهم من اعتبر جانب القدرة على تكيف الفرد مع الظروف التي يعيش فيها كما في تعريف شترن. أو القدرة على التعلم كما في تعريف جوردرد. أو القدرة على التفكير كما في تعريف ترمان أو أنه مجموعة من الوظائف العقلية التي يتسم بها السلوك الذكي. كما في تعريف وكسلر وستودارد: ومنهم من عرفه تعريفاً إجرائياً كما قال بورنج: «الذكاء هو ماتيقيسه اختبارات الذكاء»^(٢). وتعود جل تعريفات علماء النفس المسلمين إلى تعريفات علماء النفس من غيرهم. إلا أن بعضهم اختار أن يعرف الذكاء: بالقدرة على التفكير السليم المنطقي واستنباط المعنى والاستفادة من الخبرات والحكم على الأمور ببعده نظر^(٣). وهو تعريف دائر في فلك ما تقدم غير خارج عنه. وعلى ذلك يمكن القول بأن الذكاء

١- انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ١٤ / ٢٨٧، وتاج العروس من جواهر القاموس، محمد ابن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي، ٣٨ / ٩٤، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري ٢ / ٨٩.

٢- موقع أكاديمية علم النفس: <http://www.acofps.com/vb/showthread.php?t=1114>

٣- شبكة النبأ المعلوماتية - بتاريخ ٢٢ / حزيران / ٢٠٠٧م:

<http://www.annabaa.org/nbanews/64/121.htm>

مفهوم مركب ومتعدد المعاني والأنواع، شامل للقدرات العقلية على التحليل والتخطيط والتفكير المجرد، وجمع الأفكار وتنسيقها، وملاحظة المشاكل مع إبداء الحلول لها، وسرعة المحاكمات العقلية، وسرعة التعلم والتقاط اللغات، كما يشمل كذلك نصاعة الإحساس، وإبداء المشاعر وفهم مشاعر الآخرين. وهو بذلك شامل لجوانب العقل والنفس والمجتمع.

المطلب الثاني: تعريف العاطفة لغةً واصطلاحاً.

العاطفة مصدرها: عَطَفَ يَعْطِفُ عَطْفًا انصرف. ورجل عَطُوفٌ وَعَطَّافٌ يَحْمِي المُنْهَزِمِينَ. وَعَطَفَ عَلَيْهِ يَعْطِفُ عَطْفًا رَجَعَ عَلَيْهِ بما يكره، أو له بما يريد، وتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، وَصَلَهُ وَبَرَّهُ. وتَعَطَّفَ عَلَى رَحِمِهِ رَقًّا لَهَا^(١). فالعاطفة منبع الأحاسيس ومركز الميول والعواطف والرغبات، ونقاؤها مصدر السعادة للإنسان وفسادها مصدر لشقائه. وللعقل دور الإدراك والتقييم، وكما للعاطفة دور اتخاذ المواقف والقرارات ولديها زمام الأمور.

المطلب الثالث: تعريف الذكاء العاطفي باعتباره مركباً إضافياً.

مصطلح الذكاء العاطفي مثل غيره من المصطلحات الحديثة، يحاول العلماء تعريفه حسب ما وصل إليه البحث ريثما يتبلور ثم يتحدد، ونجد العلماء قد عرفوه بتعريفات، من هذه التعريفات:

١- تعريف سَلُوفِي وَمَايَرُ: يقولان بأن «الذكاء العاطفي يشمل القدرة على دقة الإدراك، والتقييم والتعبير على العواطف، وكذلك ملكة جمع المعلومات وتوليد الشعور بأيسر طرق للتفكير، وهو القدرة على فهم وإدراك المشاعر، وهو القدرة على ضبط المشاعر لتعزيز العواطف وتطوير العقل»^(٢).

١- لسان العرب، مرجع سابق ٩/ ٢٤٩.

2- Salovey , and Mayer «Emotional Development and Emotional Intelligence». Bantom Books Publishing Co; NY, 1997. P 6

٢- تعريف سِتَيْفِ هَيْنُ: حيث عرفه بـ: «الجمع بين العاطفة الحساسة الفطرية والعاطفة الإدارية المكتسبة معاً للحصول على السعادة الدائمة والبقاء»^(١).

٣- دانيال كولمان: عرفه: «بالمملكة التي تشتمل على ضبط النفس والحماسة والإصرار مع القدرة على حفز النفس»^(٢).

٤- بلاك جانيس. ب. يقول بأن: الذكاء العاطفي يشتمل على كل من الكفاءة الشخصية (القدرة على إدارة النفس) والكفاءة الاجتماعية (قابلية التواصل مع الآخرين). الكفاءة الشخصية تحتوي على الإدراك الشخصي والتحكم على الذات والحث، وينعكس في السلوك بمظهر الثقة بالنفس ومعرفة مكامن القوة والمحدودية وضبط المشاعر، وكونه جديراً بالثقة والمرونة والارتياح مع تغير الآراء الجديدة، والابتكار والطموح والتعهد والتأثير وإلهام الآخرين وإدارة التغيرات وحل المشاكل وجمع الآخرين لجعلهم متعاونين للحصول على نتائج مشتركة^(٣).

والتعريفات السابقة متفقة على أن الذكاء العاطفي يشتمل على اتخاذ خطوات ذكية في إدارة النفس وتقييمها، وإتقان طرق التأثير الإيجابي على الآخرين، وتجاوز العقبات من خلال ملاحظة المشاعر وضبطها للحصول على أحسن النتائج بأقل كلفة ومشقة.

المطلب الرابع: أهمية الذكاء العاطفي.

الذكاء العاطفي يسعى إلى إيجاد انسجام بين الإنسان ونفسه وبينه وبين الآخرين. ويعتبر الذكاء العاطفي عاملاً قوياً في التنظيم والإدارة الشخصية التي تكسب المرء مهارة تدفعه إلى التفوق في الحياة بشكل أعم بحيث تؤهله لأن يكون

١- المرجع السابق.

٢- الذكاء العاطفي، دانيال كولمان، ص ١١.

3- Bellack, Janis P. Journal of Nursing Education , V. 38 no. 1 (Jan 99).

إنسانا سويا. فالإنسان السوي هو الذي أوجد تناغما بينه وبين نفسه ومع الآخرين كذلك، ولا يتم ذلك إلا باكتشاف المرء لنفسه أولا فالسعي على تطويرها وإتقان فن التواصل مع الآخرين بمختلف أشكالهم وميولهم ورغباتهم بحيث يكون له حضور في القلب، وذكر بالقلب لدى الناس الذي يتعامل معهم.

المبحث الثاني: مجالات الذكاء العاطفي ومعالجه في السنة النبوية

لقد حاول بعض علماء النفس المعنيين بهذا الجانب حصر الذكاء العاطفي في مجالات خمس، وجعلوها أساسا لقياس الذكاء العاطفي، وهذه المجالات هي:

- معرفة المشاعر والعواطف (الوعي بالذات).
- إدارة المشاعر والعواطف.
- تنمية المشاعر والعواطف.
- تحديد المشاعر والعواطف لدى الآخرين.
- التحكم على العلاقات الفردية والعائلية والمؤسسية^(١).

المطلب الأول: مراقبة النفس للوعي بأحوالها وطبائعها.

هو أن يعرف الإنسان عواطفه وما يجول في خلدته من أحاسيس وأفكار ودوافع. إن معرفة الإنسان لنفسه ما لها وما عليها، ومحاسبتها لتزكو وتطهر من أهم دعائم الذكاء العاطفي، فإن القلب مقلب، والنفس أمانة بالسوء، وتفقد الذات بالوقوف على حقيقتها ثم المحاسبة الصحيحة لها. «فالوعي بالنفس، والتعرف على شعور ما وقت حدوثه، هو الحجر الأساسي للذكاء العاطفي. والقدرة على رصد المشاعر من لحظة لأخرى، عاملا حاسما في النظرة السيكولوجية الثابتة

١- انظر: الذكاء العاطفي، دانيال كولمان ص ٦٧-٦٩.

وفهم النفس، كما أن عدم القدرة على ملاحظة مشاعرنا الحقيقية تجعلنا نقع تحت رحمتها»^(١).

ولقد أفاض علماء المسلمين قديما في الكلام عن النفس وضرورة معرفتها وتهذيبها، ومراقبتها وتقييمها بما فيه الغنية عن التكرار في هذا المجال. والنفس هي مركز العواطف والأحاسيس، فبتهديبها وتقييمها يحصل الفلاح والفوز، ويهاهماها وتفويتها يتحقق الحبية والعطب. والنفس ميالة بالطبع - كما قال الإمام الماوردي: «على شيم مهملة وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب، لأن محمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبية، فإن أغفل تأديبها تفويضا إلى العقل أو توكلنا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا؛ لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة، ولكل قوم مواضعة. وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة، ثم يكون العقل عليه قيما وزكي بالطبع إليه مسلما، ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين، وبعقولهم مكتفين»^(٢).

وهذا الذي أشار إليه الإمام الماوردي هي الدعامة الأولى في الذكاء العاطفي، وقد أسماه دانيال بـ «الوعي بالذات» التي تشتمل على معرفة الحالات الداخلية التي يعيشها الإنسان. فإن الإنسان إذا عجز عن معرفة ما بنفسه من محاسن ومساوئ فهو لملاحظة محاسن غيره أعجز، وهو إذا لم يحترم نفسه ويحبها، فهو لأن يحترم غيره ويحبه أضعف. فالسعيد هو الذي يستطيع نشر السعادة بين الناس، والتعيس غاضب من كل ما حوله.

١- المرجع السابق ص ٦٧.

٢- أدب الدنيا والدين، الإمام أبي الحسن الماوردي، ص ٢٤١.

ويتم الوعي بالذات من خلال عاملين أساسيين:

أ- ملاحظة المرء لنفسه وأحاسيسها

ب- ملاحظة تعليق الناس عليها

أما الأول فقد أشار النبي ﷺ إلى أهميته حيث قال: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(١). فإذا صدق الإنسان في استفتاء نفسه أفتته، وفي مثل هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۗ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ۗ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] وقلما تكذب النفس الإنسان حينما يصدقها عند الاستفتاء.

أما الطريقة الثانية فهي طريقة ملاحظة «شهادة الناس» عليها. فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم بأن الناس شهداء الله على الأرض. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِنِي عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ». وَمَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِنِي عَلَيْهَا شَرٌّ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ». قَالَ عُمَرُ فَدَىٰ لَكَ أَبِي وَأُمِّي مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِنِي عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتُ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُتِنِي عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتُ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(٢).

لكن قد يخطئ الناس في الشهادة إما عمدا وإما خطأ فعند ذلك يرجع الإنسان إلى الأصل، وهو معرفته بخبايا نفسه وطبائعها، وبالرغم من ذلك فإنه لا تخلو شهادتهم من فائدة وعبرة، سواء مدح بحق أو باطل أو ذم بحق أو باطل. فإن المدح بالحق عاجل بشرى المؤمن كما ورد في الحديث، وإن كان باطل فإن

١- الجامع الصحيح، المسمى بصحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم (ح ٦٦٨٠) ٦/٨.

٢- صحيح مسلم، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، (ح ٢٢٤٣) ص ٥٣/٣.

ذلك سببا لدى العاقل من اجتناب ما نسب إليه، وكذلك الذم^(١).

وضع الطبيب النفسي -الذي كان لكتابه أثرا في التقدم المفاجئ في التعامل مع النفس- م. سكوت وريك أربع أنظمة لعلاج المشاكل النفسية والحصول على السعادة الداخلية، وبمراقبتها وحسن التعامل معها يمكن للمرء أن يحظى بالسعادة لنفسه ثم ترجمة ذلك في واقعه وعلى من حوله^(٢).

أ- تأجيل الإشباع، أو تأخير المسرة: بمعنى أن يبدأ بعمل ما مع احتضار آخره في ذهنه. وهذا الجانب وردت إرشادات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مراعاته، من ذلك قوله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٣). وأظهر منه قوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ إِلَّا أَبَدَلَهُ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(٤).

ب- تحمل المسؤولية: وذلك لأننا إذا لم نتقبل المسؤولية ونتحملها لن نستطيع معالجتها، ومهما حاولنا إلقاء اللوم على الآخرين تبقى المشكلة عالقة، ونتائجها السلبية بارزة علينا. وقد أرشد الرسول ﷺ إلى اتباع خطوات رشيدة في كل أمر يراه الإنسان نافعا له في حياته ومماته فقال: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(٥). ففي نهيه عن قول «لو» إبعادا لإلقاء اللوم على غيره في إخفاقه وإسنادا

١- انظر: الأخلاق والسير، ابن حزم، علي بن أحمد ص ١٧.

٢- The Road Less Travelled، م. سكوت بيك. ص ١٥-٦٥.

٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، الإمام البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (ح ٦٤٧٤) ٨ / ١٢٥.

٤- انظر: الزهد، هناد بن السري، (ح ٩٣٧) ٢ / ٤٩٩، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، ٢ / ١٩٦، وصححه الشيخ الألباني في تحقيقه حجاب المرأة المسلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٤٦.

٥- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، (ح ٦٩٤٥) ٨ / ٥٦.

للسبب إلى غير مسببه، وقول «لو» مطلب للشيطان حريص على اغتنامه. ولذلك قال الله تعالى للمؤمنين يوم أحد لما تساءلوا عن سبب ما أصابهم أهو من غيرهم أم من أنفسهم فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِكًا وَقَدْ صَبَبْتُمْ مِثْلَهَا لَقُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قَوْلُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥)

ج- تفران في الحق: بقدر وضوح رؤيتنا للحقائق، بقدر ما يمكن لنا التجهز له، وبقدر جهلنا للحقائق بقدر ما يربك عقولنا بالأكاذيب والتحليلات الخاطئة والأوهام. لذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكثير من خطأ بني آدم من تفريطهم في طلب الحق لا من العجز التام»^(١). وقد بين النبي ﷺ في حديث آخر بان الإصابة منوطة بالاجتهاد حيث قال: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٢). فالاجتهاد بذل الوسع في بلوغ الغرض والمقصود من العلم ليحصل له. وقد وردت أحاديث كثيرة في قصة أناس تفرانوا في طلب الحق وتحروا في تحصيله حتى حصلوه فكانت لهم المنزلة العليا في الآخرة؛ من هؤلاء علي بن أبي طالب وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر، فقد تفرانوا في تحري الحق حتى كانت لهم آفاق ومنارات لا يدرك شأوها. فقال الرسول ﷺ فيهم: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إِلَيَّ ثَلَاثَةَ عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ»^(٣). ومن تتبع قصصهم في ذلك رأى العجب العجائب. وقد كان زيد بن عمرو ممن ساح في أرض الشام يتطلب الدين القيم، وقد مات قبل البعثة لكنه حصل على شهادة النبي ﷺ إذ قال عنه: «يَأْتِي أُمَّةً وَحَدَهُ»^(٤).

- ١- جامع الرسائل، (رسالة التوبة) ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، ١ / ٢٤١.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب الأفضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب، (ح ٤٥٨٤) ٥ / ١٣١.
- ٣- الجامع الصحيح أو سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب مناقب سلمان الفارسي رضي الله عنه (ح ٣٧٩٧) ٥ / ٦٦٧. وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع (١٥٩٨)، تحقيقه على المشكاة (٦٢٢٥)، السلسلة الضعيفة (٣٥٣ / ٥).
- ٤- الأحاد والمثاني، أحمد بن عمرو الشيباني، (ح ٢٥٧) ١ / ٢٥٥. قال الهيثمي: رواه أبو يعلى وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٩ / ٤١٥. وذكره الحافظ في المطالب العالية ولم يضعفه، ١٦ / ٣٥٤.

د- التوازن: وهذا يقتضى وضع كل شيء في موضعه اللائق به، فيعرف متى يقول ومتى يسكت، متى يفعل ومتى يكف عن العمل، متى يجد النشاط للعبادة ومتى يجد الفتور، وبالجملة أن يكون مرنا كما بين ذلك النبي ﷺ من حديث إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ^(١). وقد أقر النبي ﷺ سلمان على ذلك فقال: «صَدَقَ سَلْمَانٌ». وكذلك حديث عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْهُدَى الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالِاِقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(٢). والاقتصاد شامل لكل جوانب الحياة من مأكَل ومشرب وفي كلام ومشى والنفقة وغير ذلك، وعلى المسلم الأخذ بما يطيق من الأعمال ولا يتكلف أو يجهد نفسه حتى تملَّ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

وهذه الأمور الأربعة التي اقترحها وريك للصحة النفسية لها جذور أبعد في السنة النبوية، نأخذ بعضها منها لنرى مدى تأثيرها في معرفة النفس ومن ثم تحصيل الاطمئنان الداخلي والسعادة كذلك. وأولى هذه الأمور هو الرضا. فالرضاء يبعث الاطمئنان في القلب، ويحصل التوازن بين الداخل والخارج، فيحقق انسجام بين الإنسان ومحيطه، وفقدانه يحتم العكس. وقد أثبتت الدراسات الحديثة في مجال الصحة النفسية بأن كثيرا من الأمراض النفسية مردها عدم الرضا الداخلي الذي يترجم إلى الخارج فيحصل الاضطراب العصبي والاختلال العقلي.

فالإنسان الذي حرم شيء من هذه الأمور الأربعة المذكورة إما أن يعجل الاشباع فتكون النتيجة كما في القاعدة: «من عجل الشيء قبل أوانه عوقب

١- صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع (ح ١٩٦٨) ص ٤٩/٣.

٢- سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جاء في التأنى والعجلة بنحوه (ح ٢٠١٠) ٤/٣٦٦، سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، كتاب الأدب، باب في الوقار، (ح ٤٧٧٨) ٤/٣٩٤. وقال الترمذي: حسن غريب.

بحرمانه»، أو يتهرب من المسئولية أو لا يسعى للحق ويطلبه، بل يعيش على السطحية مما يقوده حتماً أن يحاط بالسخط .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "عَظُمَ الْجَزَاءُ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ" (١).

فالأصل في الحياة الكبد، ومن ثم يجب مواجهته وتقبله، وعدم إلقاء اللوم على الآخرين بأنهم مصدر التعاسة التي يجد المرء نفسه فيها، ثم على الإنسان أن لا يستسلم لها باليأس والقنوط، بل يقبلها ويكون متوازناً في تصرفته تجاهها، كما فعل النبي ﷺ حين مات ابنه إبراهيم، فدمعت عيناه، وقال: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ» (٢). فهنا توازن حقيقي في دمج الحزن مع رد الأمر إلى الخالق بالتصرف كما يحب ويرضى .

لذلك ورد عن النبي ﷺ قوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٣). والحياة إما سرور أو حزن، سقم أو عافية، قال أو وامق، اجتماع أو فرقة، ميت أو مولود، يسر وعسر، وهكذا، فالرضا إما بالشكر عما من الله به على العبد أو الرضا بما قضى الله على عبده. فيحظى العبد السكينة والطمأنينة في الدنيا والآخرة .

ومن لم يرض بما قسم الله له وحكم عاش في هم، ولو سلك السبل كلها باحثاً عن السعادة لم يلف إلا نكد العيش وهمه. قال ابن حزم - رحمه الله -:

- ١- سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصبر على البلاء (ح ٢٣٩٦) / ٤ / ٦٠١، سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد يزيد القزويني، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، (ح ٤٠٣١) / ٥ / ١٥٩. قال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال الألباني: حسن صحيح.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، (ح ٦١٦٧) / ٧ / ٦٧.
- ٣- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، (ح ٧٦٩٢) / ٨ / ٢٢٨.

«الناس كلهم متفقون على طرد الهم مذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالناس طلاب للسعادة، لأن في السعادة سرور النفس وطيب العيش وصفاء الحياة، ولكل وجهة هو سالكها لنيل هذه السعادة، غير أن سلامة القلب من الأحقاد وبراءته من الضغائن، وصيانته من الشحناء أعظم ما يدرك به السعادة ويطرد بها الهم. وجل الآفات الكائنة ذوات النتائج السيئة مردها إلى خوف منافس، أو طعن حاسد أو اختلاس راغب، أو اقتناء عدو مع الذم والإثم»^(١).

وهذا يرشدنا إلى أهمية التفطن إلى ما أجاب به الرسول ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمرو السائل حين سأل: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ». قَالُوا: صَدُوقِ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدًا»^(٢).

فلا غرو إذاً أن يحذر النبي ﷺ من الصفات التي تزلزل الاستقرار الداخلي للمرء، وتترك آثارا سيئة على غيره. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَاجَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(٣).

والأصل الكلبي في هذا الجانب هو قوله ﷺ: «وَأَنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٤). فبالمعرفة يتم صلاح النفس، وإذا صلحت النفس خرج منها ما ينفع فيقع في القلب فيؤثر، وإلا بقيت الحروف عارية عن المضمون فاقدة للتأثير.

وبما أن الطبائع منها ما يجب مداواتها والإقلاع عنها، فإن منها ما لا يمكن

١- الأخلاق والسير، مرجع سابق ص ١٥.

٢- سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، (ح ٤٢١٦) ٥ / ٢٩٩، وقال الألباني: صحيح.

٣- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، (ح ٦٠٦٦) ص ٨ / ٢٣.

٤- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (ح ٤١٧٨) ص ٥ / ٥٠.

الإنسان أن ينفك منها، بل إنها تكون أحيانا ذات حدين، من ذلك صفة الغضب وحب المدح وكرهية الذم والفرح والحزن والحياء والسمو والتواضع ونحوها، فهي إذاً تحتاج إلى إدارة وملاحظة وحسن توظيف.

المطلب الثاني: إدارة العواطف .

إن التعامل مع المشاعر لتكون مشاعر ملائمة، قدرة تنبني على الوعي بالذات. فإدارة العواطف هي القدرة على تهدئة النفس والتخلص من القلق الجامح والتهجم وسرعة الاستشارة وتنبؤ النتائج. فإتقان فن إدارة العواطف مهم أهمية معرفة الإنسان نفسه، لأن المعرفة إذا لم يصحبها عمل لم تقع في المحل اللائق بها. وإنما يمكن إدارتها بعد معرفتها ثم تقييمها، لأن ما لا يمكن تقييمه لا يمكن إدارته.

هناك طبائع سيئة منع النبي صلى الله عليه وسلم من اقترافها، وهناك طبائع جبلية - ذكرنا بعضها - أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى طرق إدارتها. لنأخذ الغضب مثالا لذلك.

يرى الطيب م. ريك؛ «بأن الغضب كمثال من بين الأمثلة الكثيرة؛ عاطفة ولدت فينا لضمان استمراريتنا. لأن الغضب عبارة عن عاطفة انفعال حيال كل كائن يحاول الانقضاض علينا جغرافيا أو نفسيا أو عن أي طريق آخر، فيقودنا الغضب إلى محاربتة والحيلولة دون نيته مراده. فبدون الغضب - يرى بيك - ستصير الحياة غير ذات جدوى، وإنما جبلنا على عاطفة الغضب كي نتمكن من الاستجابة للتحديات التي تواجهنا في الحياة، وإلا بقينا أبداً ممن يداس عليه»^(١).

وقد يكون لقوله جانبا كبيرا من الصواب، وقد سبقه إلى مثل هذا القول الإمام ابن العربي حيث قال: «والغضب يهيج الأعضاء؛ اللسان أولاً ودواؤه

السكوت. والجوارح بالإستطالة ثانياً ودواؤه الاضطجاع. وهذا إذا لم يكن الغضب لله، وإلا فهو من الدين، وقوة النفس في الحق: فبالغضب قوتل الكفار، وأقيمت الحدود، وذهبت الرحمة عن أعداء الله من القلوب، وذلك يوجب أن يكون القلب عاقداً، والبدن عاملاً بمقتضى الشرع^(١). ويتبلور هذا الجانب حينما نأخذ جولة في بعض أسباب غضب النبي ﷺ، ومنها:

أ- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ». فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ. فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ. فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ - ثَلَاثًا». ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَاتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ: أَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا. فَاتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ. فَجَعَلَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ - مَرَّتَيْنِ -. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي - مَرَّتَيْنِ -. فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا^(٢).

ب- عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَجُلٌ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟». فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَى عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - غَضِبَهُ قَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ. فَجَعَلَ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى سَكَنَ غَضَبُهُ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ بِنِ يَصُومُ الدَّهْرُ كُلَّهُ. قَالَ: «لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ - أَوْ قَالَ - لَمْ يَصُمْ وَلَمْ يَفْطُرْ». قَالَ: كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمِينَ وَيُفْطِرُ يَوْمًا؟ قَالَ: «وَيُطِيقُ ذَلِكَ

١- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام عبد الرؤوف المناوي، ١ / ٤٠٧.

٢- صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ، (ح ٣٦٦١) / ٥

أَحَدٌ». قَالَ: كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا؟ قَالَ: «ذَلِكَ صَوْمٌ دَاوُدَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ»^(١).

ج- عن أَبِي مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لِأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ
مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا. فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ
يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنْفِرِينَ؛ فَايُكْمُ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمْ
الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»^(٢).

د- عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يَجَامِعُوهُنَّ
فِي الْبُيُوتِ. فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ». فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا:
مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ. فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ
وَعَبَادُ بْنُ بَشْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَلَا لُجَامِعَهُنَّ
فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَّنَا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا
هَدِيَّةً مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا، فَسَقَاهُمَا فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ
عَلَيْهِمَا»^(٣).

فعند التأمل في هذه الأحاديث نجد أن النتائج التي قد تترتب على عدم
إبداء الغضب قد تبدو وخيمة ومؤسفة، وهي كذلك، لذلك تحتم إظهار الغضب
لتفادي النتائج السيئة. فإعطاء ذي الحق حقه والحيلولة دون التنطع في الدين
والتيسير على الناس كل هذه مطالب أساسية في التعامل معهم، وهي مما تحفز على

١- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء
والإثنين والخميس، (ح ٢٨٠٣) ٣ / ١٦٧.

٢- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود، (ح ٧٠٢)
١٨٠ / ١.

٣- صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، (ح ٧٢٠) ١ / ١٦٩.

ازدياد في عمل الخير والديمومة عليه.

لكن حينما تكون النتيجة المترتبة على إظهار الغضب سلبية فعند ذلك يمنع منها. وقد أبدت الدراسات الحديثة بأن الحوادث المؤلمة التي نواجهها في كثير من معاملاتنا اليومية - وخاصة عند الغضب - نسبة مساهمة الحادث هو عشر في المائة وبقية التسعين في المائة تتوارد علينا إثر فقداننا لاتزاننا وما نتج عنه من تصرفاتنا إثر الحادث. وفي ذلك وضع أحد البارزين في التنمية البشرية قاعدة ١٠ / ٩٠، وهو سيتفن ر. كوفي. وبيان ذلك كما وضحه بقوله: «معنى هذا الكلام أننا في الواقع ليس لدينا القدرة على السيطرة على ال ١٠٪ مما يحدث لنا، فنحن لا نستطيع منع السيارة من أن تتعطل أو الطائرة من الوصول متأخرة عن موعدها (مما سيؤدي ذلك إلى إفساد برنامجنا بالكامل) أو سائق ما قطع علينا حركة المرور أو السير. فنحن في الواقع ليس لدينا القدرة على التحكم بـ ١٠٪ ولكن الوضع مختلف مع ال ٩٠٪، فنحن من يقرر كيف يمكن أن تكون ال ٩٠٪. كيف ذلك؟ عن طريق ردود أفعالنا... نحن لا نستطيع التحكم في إشارة المرور الحمراء، ولكن نستطيع السيطرة على ردة فعلنا، لا تدع الآخرون يجعلونك تتصرف بحماقة، أنت تستطيع أن تقرر ماهي ردة فعلك المناسبة..... دعونا نستخدم هذا المثال: كنت تتناول طعام الإفطار مع عائلتك وفجأة أسقطت ابنتك الصغيرة فنجان القهوة على قميص عمك. لم يكن لك دور فيما حدث هنا. ولكن ماسوف يحدث لاحقا سيتقرر حسب ردة فعلك... بدأت بالصراخ والشتيم وقمت بتوبيخ ابنتك.. فأخذت الطفلة في البكاء، ثم استدرت إلى زوجتك موبخا إياها لوضعها الفنجان على حافة الطاولة، وبعد مشادة لفظية قصيرة بينكما، اندفعت إلى الطابق العلوي وقمت بتغيير قميصك، ومن ثم عدت إلى الطابق السفلي، فوجد أن ابنتك قد انشغلت بالبكاء عن إنهاء فطورها والاستعداد للمدرسة، ونتيجة لذلك فاتها باص المدرسة وزوجتك كان لا بد أن تغادر لعملها.. اضطرت إلى إيصال

ابنتك بسيارتك الخاصة إلى المدرسة، وبما أنك متأخرت قدت سيارتك بسرعة ٤٠ ميل في الساعة من أصل ٣٠ ميل في الساعة كحد أقصى .. وبعد ١٥ دقيقة تأخير و دفع مخالفة مرورية بقيمة ٦٠\$، وصلت إلى المدرسة .. ركضت ابنتك إلى مبنى المدرسة دون أن تقول لك مع السلامة .. وبعد وصولك إلى المكتب متأخراً ٢٠ دقيقة، وجدت أنك قد نسيت حقيبتك ... فهذا هو يومك بدأ بصورة سيئة واستمر من سيء إلى أسوأ .. بعد عودتك إلى المنزل تجد توترا في العلاقة بينك وبين زوجتك وابنتك .. لماذا؟ بسبب ردود أفعالك منذ الصباح»^(١).

فهذه القاعدة وإن لم تكن جديدة، لكنها موضحة ومفيدة. فقد وردت إرشادات نبوية في ضبط ردود الأفعال منها حديث الصوم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الصَّيَّامُ جَنَّةٌ فَلَا يَرْفُثُ وَلَا يَجْهَلُ؛ وَإِنْ أَمْرٌ قَاتَلَهُ، أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ»^(٢).

وفي السنة النبوية إرشادات دقيقة لاحتواء عاطفة الغضب التي ينتج منها نتائج سلبية، فلنعتبر الأحاديث الآتية مثلاً:

- عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»^(٣).

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»^(٤).

- عن سليمان بن صرد قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا

١- ستنف ر. كوفي، قاعدة ١٠/٩٠. بتصرف انظر الرابط:

<http://www.motivateus.com/stories/stephen-covey.Htm>

٢- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، (ح ١٨٩٤) ٣/ ٣١.

٣- الأدب المفرد، البخاري، باب العفو والصفح عن الناس، (ح ٢٤٥) ١/ ٩٥. وصححه الألباني.

٤- الأدب المفرد، باب المسلم فسوق، (ح ٤٣٤) ١/ ١٥٥. وصححه الألباني.

فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ». فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. قَالَ: أَتَرَى بِي بَأْسًا؟ أَمْجُنُونُ أَنَا أَذْهَبُ^(١).

الخطوة الأولى: أن يحاول الإنسان الابتعاد عن الغضب مهما استطاع «لا تغضب».

الخطوة الثانية: إذا وقع الغضب، فهنا يحتاج الإنسان إلى السكوت. قال ابن رجب: «لأن الغضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه كثيرا من السباب وغيره مما يعظم ضرره، فإذا سكت زال هذا الشر كله عنده»^(٢). وقال المناوي: «لأن الغضب يصدر عنه من قبيح القول ما يوجب الندم عليه عند سكون سورة الغضب: ولأن الانفعال ما دام موجودا فنار الغضب تتأجج وتتزايد فإذا سكت أخذت في الهدوء والخمود، وإن انضم إلى السكوت الوضوء كان أولى، فليس شيء يطفىء النار كالماء»^(٣).

الخطوة الثالثة: إن خاف أن لا يستطيع السكوت وكان قائما فليجلس، أو قاعدا فليضطجع. قال ابن العربي: «والغضب يهيج الأعضاء؛ اللسان أولا ودواؤه السكوت. والجوارح بالاستطالة ثانيا ودواؤه الاضطجاع»^(٤). ويقول الملا علي القاري: «لأن المعالجة بالأضداد والقوة الغضبية الناشئة من الوسوسة الشيطانية تقتضي الخفة والتعلية التي من خواص النار، والقيام لأجل الانتقام فمخالفته بالجلوس المشير إلى القعود عن الفتنة نافعة جدا، فإن ذهب عنه الغضب أي أثر حرارته وقوة مرارته بالجلوس فيها ونعمت، وإلا أي وإن لم يذهب به

١- جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد، ص ١٤٦.

٢- فيض القدير، المناوي، ص ٤٠٧.

٣- المرجع السابق، ص ٥٢٢.

٤- المرجع السابق، ص ٥٢٢.

فليضطجع ، مبالغة في المعالجة المذكورة ما فيه من الإشارة إلى رجوع الإنسان إلى مأخذه من التربة المناسبة للتواضع في مقابلة عمل الشيطان بمقتضى جبلته من الشعلة النارية المقتضية للتكبر، وكل شيء يرجع إلى أصله هذا. وفي شرح السنة إنما أمره بالعود والاضطجاع لئلا يحصل منه في حال غضبه ما يندم عليه، فإن المضطجع أبعد من الحركة والبطش من القاعد والقاعد من القائم^(١).

الخطوة الرابعة: الاستعاذة.

فهذه الإرشادات الحكيمة ترمي إلى احتواء عاطفة الغضب عندما تكون عاقبته سلبية.

المطلب الثالث: ترغيب النفس وتخفيفها.

وهو أن توجه العواطف في خدمة ما هو أجدى وأنفع من الأهداف. لأن التحكم في الانفعالات بمعنى تأجيل الإشباع، ووقف الدوافع المكبوتة التي يصعب مقاومتها أساس مهم لكل إنجاز، وكذلك القدرة على الانغماس في تدفق العواطف حين يستلزم ذلك التوصل إلى أعلى أداء.

والإسلام مبني على ذكر الجزاء الأخروي، وكذلك الجزاء الدنيوي بتأخير بعض المسرات العاجلة للفوز بالمسرة الآجلة الدائمة. ولنعد مرة ثانية إلى حديث أنس بن مالك، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "عَظْمُ الْجَزَاءِ مَعَ عَظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ"^(٢). فإنه يتجلى لنا الأمران معا؛ تأجيل المسرة الدنيوية والأخروية والجزاء على ذلك. فحينما يتقبل الإنسان الامتحان الذي لا مفر له منه، يحصل على جزاء الرضا، والجزاء العظيم، والفوز بمحبة الرحمن، ففيه تخفيف للنفس على تحمل المصاب،

١ - مرقاة القاري شرح مشكاة المصابيح، علي الملا القاري، ٣٠٢/٧.

٢ - تقدم تخريجه.

ثم العمل الذي يبعثه الرضا، بخلاف ما لو اعتلاه السخط فإنه حينئذ يكون فريسة لعمل الشيطان كما جاء في حديث أبي هريرة مرفوعا: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

لقد سبق في «الوعي بالذات» بيان أن تأخير الإشباع أو تأخير المسرة عامل أساسي في خلق الصحة النفسية لدى الفرد، وإنما يتم ذلك حينما يتيقن الفرد بأن عاقبة تأخير الإشباع مشجع، وأحسن من الحال الذي عليه المرء في الوضع الحالي. وقد أرشد الرسول ﷺ المؤمن إلى طرق ووسائل لتحفيز نفسه، وحثها على استدامة ما يعود لها بالنفع في الآجل والعاجل من ذلك:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَأَسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِّنَ الدُّجَّةِ»^(٢). قال الحافظ: «وأبشروا أي بالثواب على العمل الدائم وإن قل أو المراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنعه لا يستلزم نقص الأمر وأبهم المبشر به تعظيما وتفخيما»^(٣). قال الملا علي القاري: «وأبشروا أي بالجنة والسلامة وبكل نعمة وكرامة، فإن الله يعطي الجزيل على العمل القليل»^(٤).

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَقَ دَرَهُمْ مِائَةٌ أَلْفَ دَرَهُمْ». قَالُوا وَكَيْفَ؟ قَالَ: «كَانَ لِرَجُلٍ دَرَهُمَا تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَأَنْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَيَّ عَرَضٍ

١- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (ح ٦٩٤٥) ٨ / ٥٦.

٢- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (ح ٣٩) ١ / ١٦.

٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١ / ٩٥.

٤- مرآة القاري، القاري، ٣ / ٢٨٨.

مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا»^(١).

ففي هذين الحديثين حث على نقل البُشرى إلى النفس بما قامت به من العمل، سواء اعتبرته قليلا بالمقارنة إلى فعل غيرها، أو ليس على المستوى المتوقع أو المرجو منها، والمؤمن يستبشر ويبشر غيره بما قام به من الخير، وحديث عدم احتقار هدية الكراع من شاة، أو هدية المرق اليسير داخل في هذا الإطار. فالنبي ﷺ يرشد المسلم على أن لا يحقر القليل من العمل الذي يقوم به، بل عليه أن يبشر نفسه بقبول الله لعمله لا لعظمتها وكبرها، بل لأنه جل وعلا يقبل القليل ويعطي به الأجر الجزيل. ومن هذا المنطلق يجد المرء في نفسه باعثا على القيام بأعمال ولو كانت قليلة، ويسترضي نفسه بها إذا كانت حسنة ونافعة، ولا ينظر إلى عجزه وتفوق غيره عليه على وجه التذمر واحتقار الذات، فإن ذلك مدعاة إلى بعث عدم الرضا بالنفس ومن ثم الوقوع في المشاكل النفسية العديدة.

فإذا أتقن المرء هذا الجانب انحلت مشكلته مع المستحيل، لأن المشكلة مع كثير من الأفراد والمجتمعات ليست في المستحيلات بل مع الممكن الذي لا يقوم به الأفراد في المجتمع تلهفا وأسفا على المستحيل. فَبِالتَّعْتُعِ يَصْبِحُ الْإِنْسَانُ مَاهِرًا فِي الْقُرْآنِ، وَبِالتَّحْلُمِ يَصْبِحُ الْمَرْءُ حَلِيمًا، وَبِالتَّصْبِرِ يَصْبِحُ صَابِرًا، وَمَنْ يَجْمَعُ الْقَلِيلَ يَصْبِحُ يَوْمًا مَا كَثِيرًا. وفي حديث سهل بن سعد إيماء إلى ذلك حيث قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ»^(٢). فإذا كان هذا في التحذير من الأعمال السيئة فقد وردت أحاديث محفزة للإنسان بالقيام بأعمال حسنة مهما قلت، قال ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِهِ»

١- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، كتاب الزكاة، باب جهد المقل (ح ٢٥٢٧) ٥ / ٥٩. وقال الألباني: حسن.

٢- مسند أحمد، (ح ٢٢٨٠٨) ٣٧ / ٤٦٧. وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، (ح ٣٨٩) ١ / ٧٤٤.

طَلَّقُ»^(١).

وإذا لم يستطع الإنسان القيام بالشيء واستطاع أن يرشد فله مثل أجر فاعله كما قال ﷺ فيما رواه أبو مسعود الأنصاري قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنِّي أَبْدَعُ بِي فَاحْمِلْنِي فَقَالَ «مَا عِنْدِي». فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(٢).

وإذا لم يحصل كل هذا فليتمن في نفسه أن يكون من أحسن الناس فيكون له أجر في ذلك. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ لَيْتَنِي أُوتِيَتْ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ فَقَالَ رَجُلٌ لَيْتَنِي أُوتِيَتْ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»^(٣).

وإذا اعتبرنا بما في هذه الأحاديث السالفة الذكر نجد أنها تشتمل على أمور منها:

- ١- عدم اليأس والقنوط والأمر بالقيام بأعمال خيرية قدر الاستطاعة مهما اعتبرت قليلة.
- ٢- السعي إلى إسعاد الآخرين بالفعل الخيري، ولو بطلاقة وجه عند اللقاء.
- ٣- تعويد النفس على الخير ولو بالتمني، وهو جزء من الإيجابية التي يفقدانها ينهار فن الذكاء العاطفي.

فتحفيز النفس، وحسن توجيه العواطف، وتأجيل الإشباع الذي عبارة عن

١- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، (ح ٦٨٥٧) ٣٧/٨.

٢- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمرکوب وغيره، (ح ٥٠٠٧) ٦/٤١.

٣- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، (ح ٥٠٢٦) ٦/٢٣٦.

تحمل ألم قليل عاجل للفوز بمسرة وإشباع كثير أجل من ركائز هذا الدين، ومن صميم تعاليم الرسول ﷺ، وكم تجلى ذلك في حياة صحابة رسول الله ﷺ وفي دعواتهم وجهادهم مع الأعداء.

المطلب الرابع: التعرف على عواطف الآخرين.

ويسمى أيضا التقمص الوجداني. فالأشخاص الذين يتمتعون بملكة التقمص الوجداني يكونون أكثر قدرة على التقاط الإشارات الاجتماعية التي تدل على أن هناك من يحتاج إليهم، ومما يجعلهم ذلك أكثر استعدادا لأن يتولوا المهمة التي تتطلب رعاية مثل مهن التعليم والتجارة والإدارة^(١). وهذا باب واسع جدا، ومتشعب الجوانب. وقد بينت السنة النبوية أساسيات التعرف على مشاعر الآخرين في أحاديث عدة.

فالأطفال الصغار يحتاجون إلى عاطفة الرحمة «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا»^(٢). لأن الأعمال التي تصدر عنهم ليس المقصود منها الإساءة في المقام الأول أو التعجيز، بل هي من باب التجربة والتعلم. والبنات الصغار أكثر احتياجا إلى العطف والرحمة لأنهن أضعف من البنين. وكبار السن يحتاجون إلى التوقير فهم يرون أنهم قد قاموا بأدوار في الحياة يستحقون به شكرا وتقديرا، فكان أمره صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا... وَيُوقَّرُ كَبِيرَنَا»^(٣). والنساء يغلب عليهن التصرف بالعواطف والأحاسيس على التصرف بالعقول والأفكار فهي بذلك: «لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ...»^(٤).

والرجل الحسن الخلق يحتاج أحيانا إلى إشعار واعتراف من قبل الآخرين له

- ١- الذكاء العاطفي، ص ٦٦.
- ٢- سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة الصبيان، (ح ١٩١٩) ٤ / ٣٢١. وضححه الألباني.
- ٣- المصدر السابق والصفحة.
- ٤- صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، (ح ٣٧١٩) ٤ / ١٧٨.

بذلك: «إِنَّ فِيكَ خَصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ...»^(١). والرجل الذي عرف بسوء أخلاقه يعامل بالمداراة بقدر ما يدفع به شره: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَعَهُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»^(٢).

وقد كان الصحابة على دراية تامة بعواطف بعضهم البعض؛ فهذه عائشة رضي الله عنها تقول في أبي بكر رضي الله عنه: «إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ»^(٣). والنسوة اللاتي حضرن مجلس عائشة يقلن في عمر رضي الله عنه: «أَنْتَ أَفْظُ وَأَعْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٤). وَكَانَ الْعَبَّاسُ رَجُلًا مُجْرَبًا^(٥). وكان عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه «رَجُلًا فِيهِ دُعَابَةٌ»^(٦). وانظر إلى قول عائشة رضي الله عنها: «فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيَّ قَتْلَهُ»^(٧). «وَكَانَ بَدْمَشَقَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ وَكَانَ رَجُلًا مُتَوَحِّدًا قَلَّمَا يُجَالِسُ النَّاسَ»^(٨).

وهكذا تجد أمثلة كثيرة في الأحاديث النبوية، مما ينبئ عن ملاحظة دقيقة من

- ١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه، (ح ١٢٦) / ١ / ٣٦.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقى فحشه، (ح ٦٧٦١) / ٨ / ٢١.
- ٣- صحيح البخاري، كتاب صلاة الجماعة والإمامة، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، (ح ٦٧٨) / ١٧٢ / ١.
- ٤- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، (ح ٣٢٩٤) / ٤ / ١٥٣.
- ٥- سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، باب النهي أن ينفر صيد الحرم، (ح ٢٨٩٢) / ٥ / ٢١١. وصححه الألباني.
- ٦- شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، (ح ١٦٢١) / ٤ / ٣٠٥. من حديث محمد بن علي بن داود عن عفان بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن عمرو الحكم عن أبي سعيد الخدري فذكره. ومحمد بن عمرو قال الحافظ: صدوق له أوهام، وبقية رجاله ثقات غير عمرو بن الحكم وهو صدوق.
- ٧- صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الافك وقبول توبة القاذف، (ح ٧١٩٦) / ٨ / ١١٢.
- ٨- سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار، (ح ٤٠٩١) / ٤ / ١٠١، ومسنند أحمد (ح ١٧٦٢٢) / ٢٩ / ١٥٨. قال ابن حجر: هذا حديث حسن. انظر: الأمالي المطلقة، ابن حجر، ص ٣٦.

الصحابة لبعضهم البعض، ومعرفة طبائع وعواطف بعضهم البعض، ثم التعامل معهم بما يصلح. ولا يتم التقمص الوجداني إلا بعد دراية لعواطف الشخص المعني، ومحاولة التأثير فيه.

وقوله ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتَهُ مَنِيَّتَهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١). يعتبر أصلا في التقمص الوجداني.

والمشاعر قد تحتاج تارة إلى تحريك، فالنبي ﷺ يحرك الوجدان بحيث يجعل الصحابة يتقمصون أنفسهم في موقف من المواقف إما محببة أو مبغضة. ففيما رواه عن الحارث بن سويد مثال لذلك حيث قال عبد الله قال: النبي ﷺ: «إِيكُمْ مَالٌ وَارِثَةٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟». قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثَةٌ مَا أَخَّرَ»^(٢).

ومن هذا الباب ما روى عمر بن الخطاب أنه قال: قَدَّمَ عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِسَبِيٍّ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ». قُلْنَا لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(٣).

فانظر كيف أخذ النبي ﷺ من مشهد هذه الأم من السبي منطلقا لجعل الصحابة يستحضرون حنان الأم وشفقتها لولدها، ثم جعلهم ثانية يتصورون هذه الأم طارحة فلذة كبدها في النار. فاستساغوا الموقف الأول وقبلوه، واستبعدوا

١- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، (ح ٤٨٨٢) ٦/ ١٨.

٢- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، (ح ٦٤٤٢) ٨/ ١١٦.

٣- صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (ح ٧١٥٤) ٨/ ٩٧.

الموقف الثاني واستنكروه ، وبعد تحريك المشاعر يأتي الدرس بعده مباشرة .

ومن دقيق ملاحظته ﷺ ما روت عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال: «نبي الله ﷺ يا عائشة ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو»^(١). فهم قوم فيهم «غزل» كما في بعض الروايات، ويحبون اللهو، ولعل ذلك يعود إلى كونهم قوم يشتغلون طول النهار في الحرث، منكبين على العمل، بخلاف التجار من أهل مكة الذين هم طول النهار في حركة وقول ورد ونحو ذلك. فاستحسن استصحاب اللهو أثناء زفاف أهل المدينة مراعاة لمشاعرهم.

وتصور فورة الشهوة عند الشاب وخاصة المراهق، كيف يجد نفسه مقاوما لرغبة عارمة، وكيف يمكن ثنيها عن نيل الشهوة التي لا تحل له. عن أبي أمامة، أن غلاماً شاباً أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أئذن لي في الزنا، فصاح الناس فقال: «مه»، فقال رسول الله ﷺ: «أقروه أذن»، فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أحبُّه لأمك؟». قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبُّونه لأمهاتهم. أحبُّه لابنتك؟». قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبُّونه لبناتهم. أحبُّه لأختك؟». قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبُّونه لأخواتهم. أحبُّه لعمتك؟». قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبُّونه لعماتهم. أحبُّه لخالتك؟». قال: لا. قال: «وكذلك الناس لا يحبُّونه لخالاتهم». فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم كفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»^(٢). فانظر إلى مخاطبته ﷺ لعاطفة الغيرة في هذا الشاب، فإنه كما يجد الشهوة تسيطر عليه، يجد الغيرة تكتنفه من كل الجوانب، فجعله النبي يتقمص وجدان أهل الفتاة، وكيف وجد نفسه يستنكر أن يفعل بأهله ما أراد فعله بأهل غيره .

١ - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها، (ح ٥١٦٢) ٧/ ٢٨.
٢ - مسند أحمد، (ح ٢٢٦٥) ٥/ ٢٥٦. وقال الشيخ الأرنؤاط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح.

وفي السنة تجد الوصف الدقيق حتى لمشاعر الأمم وطبائعهم. فعن المُستوردِ القرشيَّ قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ «تقومُ السَّاعةُ والرُّومُ أكثرُ النَّاسِ». قالَ فبلغَ ذلكَ عمرو بنَ العاصِ فقالَ ما هذه الأحاديثُ التي تُذكرُ عنكَ أنك تقولُها عن رسولِ الله ﷺ فقالَ له المُستوردُ قلتُ الذي سمعتُ من رسولِ الله ﷺ قالَ فقالَ عمرو لئنُ قلتُ ذلكَ إنهم لأحلمُ النَّاسَ عندَ فتنةٍ وأجبرُ النَّاسَ عندَ مُصيبَةٍ وخيرُ النَّاسِ لمساكينهم وضعفائهم»^(١). وهكذا نجد في السنة معالمَ وأفاقَ لمعرفةِ مشاعرِ النَّاسِ، واهتمامِ الصحابةِ بمعرفةِ ذلكِ، ولا غرو أن تكون خطاهم صائبةً في تصرفاتهم، وأن يكونوا معالمَ يستنار بهم في ضياحي الليل البهيم.

المطلب الخامس: توجيه العلاقات الإنسانية.

إن فن العلاقات بين البشر معظمه يقوم على إتقان مهارة تطويع عواطف الآخرين. فالكفاءة الاجتماعية هي القدرات التي تكمن وراء التمتع بالشعبية، والقيادة، والفعالية في عقد الصلات مع الآخرين^(٢). والأصل النبوي في ذلك حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ يألفُ ويؤلفُ، ولا خيرَ فيمن لا يألفُ ولا يؤلفُ، وخيرُ النَّاسِ أنفعهم للنَّاسِ»^(٣).

ولا ريب أن جميع تصرفات النبي ﷺ مع الآخرين تتصف بالكفاءة والقدرات والمهارات البالغة في التعامل وبدرجة عالية من الإقناع والتأثير، فما من أحد خالطه معشرة إلا وأحبه، ولما فطنت قريش ذلك في أول البعثة منعوا الناس من لقائه ﷺ. وقد تجلت معالم لتوجيهه العلاقات ومهارة عقد الصلات مع الآخرين في تصرفاته ﷺ. لنأخذ من ذلك مثالا في صلح الحديبية:

١ - صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقوم الساعة والرُّوم أكثر الناس، (ح ٧٤٦٢) ١٧٦/٨.

٢ - الذكاء العاطفي، مرجع سابق، ص ٦٩.

٣ - السلسلة الصحيحة، الشيخ ناصر الدين الألباني، (ح ٤٢٦) ١ / ٧٨٧.

أ- الرسالة الأولى مع بديل بن ورقاء الخزاعي. قال ﷺ: «إِنَّا لَم نَجِي لِقَتَالَ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جُنَّا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَا دَدْتَهُمْ مَدَّةً، وَيَخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُوا؛ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَّوْا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ». فالرسالة هادفة تخاطب المشاعر والعواطف والأحاسيس لذوي العقول، وهي كافية لثني قريش عن القتال، ولعلها هي التي أثرت فيها فأثروا التفاوض بإرسال الرسل لمناقشة الموقف. فبلغهم بديل الرسالة فوقع في قلوب الخاصة دون السفهاء، لكنهم تجلدوا بإرسال الرسول.

ب- بعثت قريش مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم.

ج- الحليس بن علقمة (رجل من كنانة): «دَعُونِي آتِهِ». فَقَالُوا: آتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوا لَهُ». فَبَعَثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ». فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: «رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِدَتْ وَأُشِعِرَتْ فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ». (بذلك حصل انشقاق في صفوف قريش).

د- قال عروة بن مسعود الثقفي: «وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا». (أثر فيه القول والرسل لكنه يريد التأكيد) «دَعُونِي آتِهِ» قَالُوا: آتِهِ. فَاتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبَدِيلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ مُحَمَّدٍ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ

قَوْمِكَ، (أراد التأثير في عواطفه النبي ﷺ وأصحابه) هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاكَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فِإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وَجُوهَهَا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ. (تثبيط عاطفة الهمة بدعوى عدم ثبات الأصحاب) فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْضُصْ بَطْرَ اللَّاتِ أَنْحُنْ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ؟ (عاطفة الغضب ممن لا يتوقع منه) فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدُ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي، لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبِتُكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يَكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمَغِيرَةَ بِنُ شُعْبَةَ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ الْمُغْفَرُ، فَكَلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةَ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخْزَيْدِكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (عاطفة العزة والسمو من ابن أخيه) فَرَفَعَ عُرْوَةَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَغِيرَةُ ابْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ: أَيُّ غُدْرٍ! أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غُدْرَتِكَ؟

استبطاء مقصود لعروة للتأثير في أحاسيسه وإعاقتها عن التأثير المناوي: ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم له.

النتيجة: فَرَجَعَ عُرْوَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمَلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكَسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتَ مَلَكًا قَطُّ يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعْظُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَّكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَّضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةً رُشِدٍ فَاقْبَلُوهَا»^(١).

١- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (ح ٢٧٣١ و ٢٧٣٢) ٣/ ٢٥٢، ومرويات غزوة الحديبية، جمع وتخريج ودراسة، حافظ محمد الحكي، ١١٦/١.

المثال الثاني: بعد أن انتصر المسلمون في يوم حنين قسم النبي ﷺ الغنائم فأعطى المؤلفه قلوبهم دون من أبلوا البلاء الحسن في الغزوة، تمشياً مع قاعدته صلى الله عليه وسلم الذي لها جذور عميقة في الذكاء العاطفي: «إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةً أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ»^(١). فلم يعط الأنصار من الغنيمة شيئاً فوجدوا عليه في ذلك.

والحادثة كما رواها أبو سعيد الخدري قال: لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَاتِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَمَّا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عَظَمًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ. قَالَ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا. قَالَ: «فاجتمع لي قَوْمُكَ فِي هَذِهِ الْحُظِيرَةِ». قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحُظِيرَةِ. قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا آتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ: فَاتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةَ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ وَجَدَةَ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ». قَالُوا: بَلَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ. قَالَ: «أَلَا تُحِبُّونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟». قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكْذِبًا فَصَدَقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا

١- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، (ح ٢٧) / ١ / ١٣.

فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لِعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتِ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ». قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقْنَا»^(١).

أ- عرف النبي ﷺ أحاسيس القوم من خلال إخبار سعد رضي الله عنه له، واستعلم عمق القضية بزيادة الاستفسار.

ب- الاجتماع للأنصار ولهم خاصة، دخول النخبة من المهاجرين لا يزيد ذلك إلا تشريفًا، ومنع البعض الآخر من المهاجرين دلالة واضحة على تخصيصهم بذلك.

ج- استهلاله ﷺ مخاطبتهم بقوله: «مَا قَالَةَ بَلَّغْتِنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ». كأنه يريد أن يقول لا ينبغي أن يصدر هذا من مثلكم، فأنتم أرفع من أن يتصور صدور ذلك منكم.

د- اعترافه بما قاموا به من النصرة والتأييد لهذا الدين مما يعطيهم إحساسًا بالسمو والمكانة في هذا الدين.

هـ- يفضلون الحصول على الشاة والبعير على الرجوع برسول الله ﷺ الذي كان شعوره أنه جزء لا يتجزأ منهم؟

و- النتيجة: بكاء القوم، والرضا برسول الله قسما وحقا. وانتهت القضية.

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، (ح ٤٣٣٠) / ٥ / ٢٠٠، مسند أحمد، (ح ١١٧٣٠) / ١٨ / ٢٥٣، واللفظ لأحمد.

المثال الثالث: عَنْ جَرِيرٍ قَالَ مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْذُ اسْلَمْتُ وَلَا رَأَى إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ . بل زاد على ذلك بالدعاء له لما شكى إليه حيث قال: «أَنْتَى لَا أَتَّبِتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضْرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي» . وَقَالَ «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا» .^(١) وجرير هذا سيد في الجاهلية بل وفي الإسلام ، وقد جعله الرسول ﷺ رسولا إلى ذي كلاع وذي رعين باليمن . ومن ذكائه وحسن تصرفه رضي الله عنه: أن عمر رضي الله عنه وجد في مجلسه رائحة من بعض جلسائه فقال عمر: «عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ» . فقال جرير بن عبد الله: «علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم» . قال: «عليكم كلكم عزمت» . ثم قال: «يا جرير ما زلت سيذاً في الجاهلية والإسلام»^(٢) . فانظر إلى هذا الذكاء وسرعة التقمص الوجداني ، وحسن تخليص أخيه مما هو فيه .

وهناك أناس صعبى المراس ، لا يروقهم شيء إن خالف هواهم ، ومنهم آخرون لا يتوانون في صناعة المشاكل للناس حتى صار لزاما على الناس - والعيش معهم لا مفر منه - اتقاء فحشهم وشهرهم بإتقان التعامل معهم . ومن هولاء مخرمة: عَنْ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْبِيَةً وَلَمْ يُعْطَ مَخْرَمَةَ مِنْهَا شَيْئًا فَقَالَ مَخْرَمَةُ يَا بَنِيَّ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَقَالَ ادْخُلْ فَادْعُهُ لِي قَالَ فَدَعَوْتُهُ لَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْهَا فَقَالَ خَبَانًا هَذَا لَكَ قَالَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ رَضِيَ مَخْرَمَةُ . وفي لفظ: «فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَقَالَ ادْعُهُ لِي فَسَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ فَأَخَذَ قَبَاءً فَتَلَقَّاهُ بِهِ وَاسْتَقْبَلَهُ بِأُزْرَارِهِ فَقَالَ يَا أَبَا الْمُسَوَّرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ يَا أَبَا الْمُسَوَّرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ وَكَانَ فِي خُلُقِهِ شِدَّةٌ»^(٣) . قيل كان نزقا سريع الغضب .

١- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل جرير بن عبد الله، (ح ٦٥١٩) ٧/ ١٥٧ .

٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ص ١٢٠ .

٣- صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب من قاتل للمغرم هل ينقص من أجره، (ح ٣١٢٧) ٤/ ١٠٥ .

وهؤلاء ممن إذا أعطوا رضوا وإن لم يعطوا سخطوا، ومع ذلك انظر كيف كان تعامل النبي ﷺ معه، مع ما ثبت عنه: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(١).

وأخرون بلغ من فحشهم أن لا بد للإنسان من مجاملتهم كما فعل النبي ﷺ مع أحدهم. عن عائشة أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اُذْنُوا لَهُ فَلَبَسَ ابْنُ العَشِيرَةِ أَوْ بئسَ رَجُلٌ العَشِيرَةِ». فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلَانَ لَهُ القَوْلَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ لَهُ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ القَوْلَ. قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنْ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ وَدَعَهُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ فُحْشِهِ»^(٢).

ونجد مثل هذا الذكاء الفارط في إحدى صحابيات رسول الله ﷺ، أم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أم سليم الأنصارية زوج أبي طلحة الأنصاري، يموت ابن لها من أبي طلحة الأنصاري، ولا يدري أبو طلحة بذلك، وقد تركه مريضا فخرج، وهي تعرف أنه سيثور ويغضب فكانت هي التي أرادت اتخاذ القرار. القرار الذي يقول عنه العالم النفسي وريك: «بأن أحسن الناس في اتخاذ القرار هم الناس الذين يستعدون لمعاناة أكثر بسبب القرار الذي اتخذه، ومع ذلك يتمتعون بالقدرة على المضي قدما بقرارهم»^(٣).

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَاتَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمَّ سُلَيْمٍ فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: «لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِأَبْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحَدُهُ». قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عِشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ. فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَعْتَ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا. فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ

١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، (ح ٢٨٨٧) ٤ / ٤١.

٢- تقدم تخريجه.

٣- The Road Less، ص ٧٦.

فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمُ اللَّهُمَّ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ. قَالَ فَغَضِبَ وَقَالَ: تَرَكْنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي بِابْنِي. فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرٍ لَيْلَتُكُمَا». قَالَ فَحَمَلَتْ. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لَا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا، فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ فَضْرَبَهَا الْمَخَاضُ فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ وَأَنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبِّ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أُخْرَجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ وَأَدْخَلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ وَقَدْ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى. قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ أَنْطَلِقُ. فَاَنْطَلَقْنَا. قَالَ: وَضْرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنْسُ لَا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَعْدُو بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتَهُ فَاَنْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مَيْسَمٌ فَلَمَّا رَأَى قَالَ «لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَوَلَدَتْ». قُلْتُ نَعَمْ. فَوَضَعَ الْمَيْسَمَ. قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ فَلَاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انظُرُوا إِلَيَّ حُبِّ الْأَنْصَارِ التَّمْرِ». قَالَ: «فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ»^(١).

المبحث الثالث: فوائد الاهتمام بالذكاء العاطفي وطرق إنمائه

المطلب الأول: فوائد توظيف الذكاء العاطفي في الحياة اليومية في العصر الحاضر.

ومع هذا العرض السريع الموجز يمكن إبراز بعض فوائد الذكاء العاطفي في النقاط الآتية:

١- النجاح في اتخاذ القرارات الصائبة في حالات مربكة ومحيرة

١- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري، (ح ٦٤٧٦) ٧ / ١٤٥.

٢- التواءم والانسجام بين العواطف والمبادئ والقيم مما يبعث في الداخل الرضا والاطمئنان

٣- النجاح في المجال العملي والأسري والدعوي بإحراز نتائج أحسن واحترام أفضل

٤- اكتساب الصحة النفسية والجسدية

٥- تكوين علاقات وصدقات جديدة مع الحفاظ عليها

٦- زيادة الإقناع والتأثير فيمن حول الإنسان، مع التأقلم مع الظروف.

المطلب الثاني: معالم إثماء الذكاء العاطفي لدى الفرد من السنة النبوية

يمكن استخلاص بعضا من معالم إثماء الذكاء العاطفي من السنة النبوية في النقاط الآتية:

١- إن توظيف الذكاء العاطفي في التأثير على الغير فيما يكون عائده خيرا عبادة

٢- إصلاح الباطن والإيجابية والحرص على تحصيل الخير ونشره

٣- الكياسة والفتانة في معرفة اختلاف الطبائع والأمزجة وحسن التعامل معها وتوظيفها

٤- تقييم الأمور قبل إصدار الحكم عليها

٥- وضع الأشياء في موضعها اللائق بها، حتى لو أدى ذلك إلى تقديم المفضل على الفاضل خشية على المفضل أو منه.

٦- مخاطبة الناس والتعامل معهم بما تبلغه عقولهم وتستسيغه طبائعهم آخذا بالاعتبار المصلحة العاجلة أو الآجلة إذا لم يخالف ذلك الشرع

٧- الحياة الزوجية والأسرية تتحسن أكثر باعتبار العواطف ورعاية الأحاسيس
والرغبات

المطلب الثالث: الذكاء العاطفي بين الموهبة والاكْتساب.

لا يُنكر تأثير الوراثة في طبائع الناس، ولا يمكن كذلك التغافل عن تأثير البيئة في تشكيل بعض الطبائع في الناس، إلا أن كلا الأمرين، ومع بالغ تأثيرهما، قابلان لإعادة التكيف مرة ثانية، أو التوجيه إلى ما هو أحسن تارة أخرى. كان أبو بكر رضي الله عنه رقيق القلب، وكان عمر عكس ذلك كما تقدم. لكن عند استعراض التاريخ نجد أن أبا بكر الرقيق القلب انقلب إلى أشد صرامة من عمر رضي الله عنه في حادثة الردة. وعمر رضي الله عنه الذي كان يوصف بأنه أفظ انقلب حين صار خليفة رقيق القلب سريع التأثر.

لذلك يمكن القول بأن السنة النبوية قد أكدت الأمرين، العاطفة الجبلية والمكتسبة. فانظر إلى قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلأَشَجِّ أَشَجَّ عَبْدُ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ». سَأَلَهُ الأَشَجُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا قَالَ «بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا». قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ^(١). فهنا إثبات للعاطفة المكتسبة والجبلية.

لذلك ورد عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وأبي الدرداء قوله: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(٢). وقال في حديث آخر: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ

١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه، (ح ١٢٧) ٥٢٥/١، والزيادة من سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب قبلة الرجل (ح ٥٢٢٧) ٥٢٥/٤، وقال الألباني: حسن.

٢- مسند الشاميين، سليمان بن أحمد الطبراني، (ح ٢١٠٣) ٣/٢٠٩، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (ح ٣٤٢) ١/٣٤١.

الله، وَمَا أَجْدُ لَكُمْ رِزْقًا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

فتبين أن الطبايع يمكن تعلمها إذا حرص المرء على تعلمها، ومع التحري والتكرار ستكون عادة ثانية بالنسبة له. ومن أحسن ما كتب في ذلك «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» للإمام ابن حزم رحمه الله وكتاب «أدب الدنيا والدين» للإمام الماوردي رحمه الله. ومن الكتب الأجنبية كتاب: Why You Act theWay You Do لتيم لهايي، وكتاب Please Understand Me لديفيد كيرسي وميريلن م. بيتس.

خلاصة البحث:

إن الاهتمام البالغ بمقاييس درجات معامل الذكاء قد أسفر تراجعاً في الآونة الأخيرة، وطفق الاهتمام بالذكاء العاطفي كعامل مهم ومكمل للذكاء العلمي أو بديل عنه في العلوم النفسية الاجتماعية الحديثة ينمو ويزداد. وهو فن له بالغ الأهمية في النجاح الفردي والأسري والدعوي والمؤسسي والاجتماعي، والسنة النبوية حافلة ببيان معالم هذا الفن، غير أن الدراسات المنبثقة من السنة النبوية في هذا الجانب شحيحة بل شبه معدومة. لذلك حاولت أن أقوم بإطلالة مع وضع خطوط عريضة لإبراز السبق الحديثي في هذا الفن، ورسم صورة على جناح السرعة لهذا الفن من منظور إسلامي منطلقاً من الأحاديث النبوية.

هذا وإن كان هذا البحث يعتبر إشارات سريعة إلا أنه يرجى من ذلك أن يكون طفرة نوعية تفتح آفاق للبحث لدى الخبراء والمتمكنين في السنة النبوية، والله ولي التوفيق والسداد.

١- أخرجه أحمد في المسند، (ح١١١٠٦) ٣/١٢، وأبو داود، كتاب الزكاة، باب في الاستغفار، (ح١٦٤٦) ٢/٤٢، وصححه الشيخ الألباني والشيخ الأرنؤاط.

نتائج البحث

- ١- أن مراعاة الذكاء العاطفي في التعامل مع الناس في الأعمال الخيرية عبادة لا ينبغي التهاون بها
- ٢- تبين من خلال البحث أن الذكاء العاطفي عامل مهم في النجاح الدعوي والتوازن النفسي، والتواصل مع الآخرين
- ٣- التطبيق العملي لمهارات الذكاء العاطفي في العهد النبوي بارز بروز الشمس في وضوح الضحى في التعامل مع الأفراد واختيار العمال والقيادات والرسول
- ٤- السنة النبوية أوضحت معالم اكتساب الذكاء العاطفي، وبينت أن منها ما كان جبليا ومنه ما كان مكتسبا
- ٥- المشاكل في الحياة الأسرية والعائلية يقضى على كثير منها عند إتقان فن التعامل مع العواطف والأحاسيس وهم معلم حاضر في تعامل الصحابة
- ٦- أن الذكاء العاطفي لا يعني التساهل والتسامح في جميع الأمور، بل يعنى الحزم في موقف الحزم، والتغافل في محل التسامح

التوصيات:

- ١- هناك ضرورة ملحة وعاجلة لدراسة معالم الذكاء العاطفي في السنة النبوية ليتم توظيفها في الأعمال الدعوية والإنسانية واليومية
- ٢- تكريس الجهود في استخراج معايير وضوابط من السنة النبوية ودمجها ضمن المناهج الدراسية الإسلامية في جميع مراحل الدراسة
- ٣- دراسة متأنية للموضوع لتنتقيحهما تعلق به من أفكار مادية غربية التي قد تنحرف به عن الجادة السوية إلى أغراض فاسدة ومدمرة.

هذا، فإن غاية ما في هذا البحث محاولة لوضع النقاط على الحروف، وهو جهد من مقل يـرجو التصويب من المختصين الضالعين في هذا الفن والحديث النبوي، وإثراءه بما يعود نفسه إلى الكاتب عسى الله أن ينتفع به وينفع به غيره. وجزى الله من كان سببا في البحث في هذا الموضوع، وجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم الدين. والله المستعان وعليه التكلان.

المراجع

- الأخلاق والسير في مداواة النفوس، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد. طبع: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
- الآحاد والمثاني، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، طبع: دار الراية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١.
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي طبع: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ مذيلة بأحكام الألباني عليها.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، طبع: دار الإعلام - الأردن، الطبعة الأولى: سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- الأمالي المطلقة، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي طبع: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٦ - ١٩٩٥.
- أدب الدنيا والدين، للإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تعليق: محمد كريم راجح، طبع: دار اقرأ - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، طبع: دار الهداية (بدون).

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، طبع: دار الشعب - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، طبع: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- جامع الرسائل، ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، طبع دار العطاء - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- حجاب المرأة ولباسها في الصلاة، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني، طبع: المكتب الإسلامي - بيروت، الخامسة - ١٤٠٣.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني طبع: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، تحقيق: عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، طبع: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى سنة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- الذكاء العاطفي، دانيال كولمان، ترجمة ليلى الجبالي، مراجعة، محمد يونس،

- طبع : عالم المعرفة - الكويت ، سنة ١٩٩٨ م .
- الزهد، هناد بن السري الكوفي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي،
طبع : دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ.
 - السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض
(بدون).
 - سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، طبع : مكتبة
أبي المعاطي.
 - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني طبع : (بدون) دار
الكتاب العربي بيروت.
 - سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق:
د. عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن، طبع : دار الكتب
العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١.
 - السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري
أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، طبع : دار الجيل - بيروت الطبعة:
الأولى، ١٤١١.
 - السيرة النبوية، الامام أبي الفداء اسماعيل بن كثير، - تحقيق: مصطفى عبد
الواحد طبع : دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان سنة ١٣٩٦
هـ - ١٩٧١ م.
 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل
العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، طبع المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، طبع: دار صادر - بيروت والطبعة الأولى. (بدون).
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الشيخ علي الملا القاري، تحقيق: الشيخ جمال عيتاني، طبع: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٠٦هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، طبع: مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- مسند الشاميين، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، طبع: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٤.

المواقع والمراجع الأجنبية

موقع أكاديمية علم النفس:

<http://www.acofps.com/vb/showthread.php?t=1114> -

Salovey. and Mayer «Emotional Development and Emotional Intel- -

ligence». Bantom Books Publishing Co; NY، 1997

.(Bellack. Janis P. Journal of Nursing Education، V. 38 no. 1 (Jan 99 -

Published byA Touchstone . م . سكوت بيك . The Road Less Travelled -

Book Simon & Schuster New York • London •Toronto • Sydney

مهارة صناعة القرار وتنميتها

في السنة النبوية

د. محمد امنو البوطيبي

مركز مهن التربية والتكوين - المملكة المغربية

من أبرز فقرات البحث

«إن مجالات صناعة القرار تتعدد بحسب الحاجة إلى التغيير والتجديد والإنتاج والمواجهة، والقرارات أنواع مختلفة بحسب اهتمامات المنظومة المجتمعية التي ينتمي إليها الأفراد وهم يصنعون قرارا، أو يساهمون في صناعته، فقد صَنَعَ الرسول ﷺ بمهارة متميزة قرارات حيوية واستراتيجية ومصيرية بنفسه، وأشرف على صناعة أخرى، ودرب صحابته على كيفية صنعها، غير مجرى التاريخ، وجددت العقول وأنماط الفكر التقليدي السلبي في التعامل مع الحياة والكون، ونَشَّطت تنمية الإنسان فكرا وسلوكا وإنتاجا وتواصلا. وَصَنَعَ قرارات المواجهة لحمية العقيدة والشريعة ونُظِمَ الإسلام. وحقوق الإنسان، وامتدت آثار مهارة صناعة القرار إلى صحابته وخلفائه من بعده».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فإن صناعة القرار أمر في غاية الأهمية، خاصة إذا كان يتعلق بمواجهة تحد، أو إنجاز مشروع يمتد آثاره إلى الأفراد والجماعات، لأن صناعته يتطلب الدربة على معالجة الأمور بحكمة وروية، وإشراك ذوي الخبرة في الصناعة، ومراعاة الأسس التي يقوم عليها، والخطوات التي يجب سلوكها، ثم الاحتياط مما يجب التحرز منه.

فهذا الموضوع يطرح معالجة الإشكالات المتعلقة بصناعة القرار على ضوء سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته العطرة، وكم نحن بحاجة إلى الاقتداء بهديه عليه الصلاة والسلام في مهارة صناعة القرار واستكشاف هذه المهارة والاهتداء بها، خاصة عند صناعة القرارات الحيوية والاستراتيجية والمصيرية التي لا ينفع معها في الغالب ذكاء شخص واحد مهما كان موقعه ومستواه، ما لم يستعن بغيره من الخبراء والمستشارين كما كان يفعل عليه الصلاة والسلام مع صحابته فيما لم يرد فيه نص من الوحي، ويتعلق أمره ببناء المجتمع الإسلامي وتحصين جبهته الداخلية بكل ما يلزم، وتقوية جبهته الخارجية لتعزيز مكانته من بين الأمم، فهذا الأمر بحاجة إلى صناعة العديد من القرارات للنهوض بهذا البناء في أبعاده السياسية والدفاعية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية وغير ذلك.

يأتي هذا الموضوع في هذا السياق لإبراز مهارة صناعة القرار في السنة

النبوية الشريفة وللأجابة عن هذه الأسئلة: ما المقصود بصناعة القرار النبوي؟ وما أسسه التي ينبني عليها؟ وما خطوات صناعته؟ وما المحاذير والاحتياطات التي يتجنبها حتى يحقق نجاحه؟ الإجابة عن هذه الأسئلة من شأنه:

- أن يزيل إشكالاً مقتضاه أن السنة النبوية لا تُعنى بخلق المهارات من هذا النوع، والتي من شأنها أن تنمي من قدرات الإنسان، وترفع من مقومات وظائفه.

- وأن يرسخ عقيدة مفادها أن السنة النبوية الشريفة يمكن الاستمداد منها لكل ما يصلح أن ينمي من مهارة التميز خاصة في مجال صناعة القرار.

وقد حرص هذا الموضوع أن يأخذ من السيرة العطرة نماذج عملية حقيقية، تبرز المهارة النبوية في صناعة القرار، للاهتمام بها والبناء عليها، وأن يقتبس من السنة النبوية الشريفة نصوصاً داعمة لهذه النماذج التطبيقية، وهذا هو الجديد في الموضوع، والإضافة النوعية التي يمكن ملامستها بالمقارنة مع ما كتب في موضوع القرار بصفة عامة - رغم قلته حسب اطلاعي الخاص - وما يروج فيه من مبادئ جملها مستمد من أفكار نظرية مبثوثة في مراجع لا علاقة لها بهذا المنبع النبوي الثري.

التمهيد

يتناول هذا التمهيد قضايا لها صلة وثيقة بعنوان هذا البحث الذي اختيرت له صيغة: «مهارة صناعة القرار وتنميتها في السنة النبوية».

أي إن هذا التمهيد يشرح مفردات العنوان الثلاث وهي: «المهارة»، و«الصناعة»، و«القرار»، إضافة إلى بيان أهمية صناعة القرار ومجالاته، والمقصود بصناعة القرار النبوي، ثم آثار مهارة صناعة القرار النبوي على مسؤوليات الصحابة في إدارتهم للشأن العام، فهذه أمور أعالجها تباعاً على النحو الآتي:

أولاً: تعريف المهارة:

المهارة في اللغة: الحَذَقُ، من مَهَرَ يَمَهِّرُ مَهْرًا ومُهَوَّرًا ومَهَارًا ومَهَارَةً^(١)، يقال: مَهَّرْتُ بِهِذَا الأَمْرَ أَمَهَّرُ بِهِ مَهَارَةً: أَي صَرْتُ بِهِ حَادِقًا^(٢)، والمَاهِرُ: الحَادِقُ بِكُلِّ عَمَلٍ^(٣).

وعلى هذا المعنى سُمِّيَ صَانِعُ القَرَارِ مَاهِرًا لِحَذَقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ، ولما يتوفر عليه من مؤهلات لا توجد عند غيره ممن لا دراية له بموضوع القرار، وصار الأمر مقتصرًا عليه لتوفر الحذاقة فيه.

ثانياً: تعريف الصناعة:

الصناعة في اللغة: مأخوذة من: «صَنَّعْتَهُ أَصْنَعُهُ صِنْعًا، والاسم: الصَّنَاعَةُ، والفاعل: صَانِعٌ، والجمع صُنَّاعٌ، والصنعة: عمل الصانع»^(٤)، أو: حرفة الصانع^(٥).

وفي الاصطلاح: يقول الجرجاني: «ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية»، أو هي: «كل علم، أو فن مارسه الإنسان حتى يمهر فيه ويصبح حرفة له»^(٦).

فالصناعة بناء على هذا: ملكة نفسانية، أي صفةٌ راسخةٌ في النفس^(٧)، أو استعدادٌ عقليٌّ خاصٌ لتناول أعمالٍ معينةٍ بحذقٍ ومهارة^(٨)، وهذا قيد يخرج به من لا دُرْبَةَ لَهُ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ، وَلَا يَتَأْتَى صِنْعُهُ لَدَيْهِ بِيسْرٍ. أو هي علم: لأنها

- ١- تاج العروس، الزبيدي ١٤ / ١٥٧.
- ٢- لسان العرب، ابن منظور ٥ / ١٨٤.
- ٣- المحيط في اللغة، ابن عباد ١٥٨ / ٣٠٨.
- ٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الحموي ٥ / ٢٦٦.
- ٥- ينظر: المصباح المنير، الحموي ١ / ٣٤٨، المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون ١ / ٥٢٥.
- ٦- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ١ / ٥٢٥.
- ٧- التعريفات، الجرجاني ٢٩٦، وينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٥ / ٣٥١.
- ٨- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ٢ / ٨٨٦.

تُكتسب بالتعلم والتدريب، وهذا قيد يخرج به من لا يعرف أصول الصناعة، أو هي فن: بمعنى أن الصناعة تشتمل على القواعد الخاصة بها، تُسهّل هذه القواعد ممارسة فعل الشيء على حقيقته وطبيعته بمهارة، كما يقال للماهر في الشيء: فنّان، وهذا قيد يخرج من لا يعرف أساليب فعل الشيء وفق قواعده.

وقوله: من غير روية: أي من غير تفكير^(١)، وهو قيد يخرج به من لا دربة له في الصنعة، ولم يكن مؤهلاً ولا مدرباً، ويصعب عليه فعل الشيء.

وعلى هذا المفهوم للصناعة المقيّد بهذه الشروط، يصح القول بأن القرار صناعة يحتاج إلى ملكة نفسانية راسخة لا يتأتى لمن لا يملك هذه الملكة. وهو علم لأنه مبني على التعلم والتدريب. وهو فن لأنه يحتاج إلى اتباع خطوات صناعته بمهارة وإتقان، والتحري عن كل ما يعكر هذه الخطوات.

ثالثاً: تعريف القرار: القرار في اللغة له ثلاثة معان:

١- السكون: يقال: قرّ فلان يقرّ قراراً وقروراً، ومعناه: السكون^(٢). ومنه حديث ابن مسعود الموقوف: ﴿قاروا الصلاة﴾، يعني اسكنوا فيها^(٣)، «وقرّرت في المكان أقرّ قراراً وقروراً: أي سكنت فيه وتبتت... فأنا قارٌّ فيه، والمكان مقررٌ فيه»^(٤). قال ابن السكيت: «وقد قرّرت في الموضع مثلها»^(٥)، وعلى هذا المعنى سمي القرار قراراً لأنه يُشعرُ صاحبه بالسكون والثبات بعد صناعته.

٢- البرّد: قال الهروي: «وقرّرت به عيناً»^(٦) - بكسر الراء - أقرّ - بفتح القاف - قرّة

١- التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ٤٦٣.

٢- غريب الحديث، ابن سلام ٧٥ / ٤.

٣- أخرجه: عبد الرزاق، المصنف ٢ / ٢٦٥، ح ٣٣٠٥، ابن أبي شيبة، المصنف ٢ / ٣٤٠، ح ٧٣٢٣، الطبراني، المعجم الكبير ٩ / ٢٦٩. قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد ٢ / ١٣٦.

٤- إسفار الفصيح، الهروي، باب فعلت وفعلت باختلاف المعنى ٤١٣.

٥- إصلاح المنطق، ابن السكيت ٢١٣.

٦- قرّرت: بفتح الراء وكسرهما كما في إصلاح المنطق، ابن السكيت ٢١٣.

وَقُرُوراً - بضمها فيهما- ، ومعناه: بردت به عيني: أي سررت به، وهو من القر^(١)، ومعناه: البرد، وهو نقيض سخنت، وعيني به قريرة، أي باردة. وإذا أمرت من هذا قلت: قر به عينا -بفتح القاف-، وأما الرء ففتح وتكسر، وإذا أمرت المؤنث قلت: قرِّي، ومنه قوله تعالى لمريم -عليها السلام-: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي﴾^(٢)«^(٣). وعلى هذا المعنى يكون صانع القرار بعد الانتهاء من صناعته، قد سُرَّ بقراره وبردت أعصابه بعد تحقيق مراده.

٣- المستقر من الأرض: قال الأزهري حكاية عن الليث: «القرار: المستقر من الأرض»، لكنه ينقل عن ابن شميل أن القرار: «بطون الأرض... لأن الماء يستقر فيها»^(٤). «وقال غيره: القرارُ مستقرُ الماءِ في الرَّوْضَةِ»^(٥)، قال الفيومي: «والاستقرارُ: التمكن، وقرارُ الأرض: المستقر الثابت»^(٦). وعلى هذا المعنى يكون القرار بعد الفراغ من صناعته كأنه قد استقر في النفوس، واطمأن إليه الناس الذين يهمهم أمره، ويمكن تنفيذه والعمل بمقتضاه، أو أدَّى إلى تحقيق نتائج طيبة بعد تنفيذه ولقي استحسانا، بمثابة الماء المستقر في باطن الأرض، أو في الروضة.

صناعة القرار من حيث المصطلح: المقصود بهذا التركيب الوصفي «صناعة القرار»: توفر شروط العمل وآلياته عند من يشتغل في صناعة القرار، والمكونة من العناصر الآتية:

- ١- وعن اشتقاق هذه الكلمة يقول المبرد: "فيه قولان: أحدهما للأصمعي، وكان يقول: لا يجوز غيره، يقال: قرت عينه وأقرها الله، وقال: إنما هو بردت من القر، وهو خلاف قولهم: سخنت عينه وأسخنها الله، وغيره يقول: قرت: هدأت، وأقرها الله: أهدأها الله، وهذا قول حسن جميل، والأول أغرب وأطرف". انظر: الكامل ١ / ٢٦٠.
- ٢- سورة مريم، الآية: ٢٦.
- ٣- إسفار الفصح، الهروي ٤١٣.
- ٤- تهذيب اللغة، الأزهري ٢٢٧ / ٨.
- ٥- تهذيب اللغة، الأزهري ٢٢٧ / ٨.
- ٦- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الحموي ٤٩٦ / ٢.

الأول: ملكة نفسية راسخة تمكن من إنتاج أفكار عملية مقبولة عند الحاجة إليها، وبذل جهد فكري للوصول إلى خطة قابلة للتنفيذ، وذلك لمعالجة المستجدات والطوارئ التي تحتاج إلى المعالجة، أو لإنجاز مشروع.

الثاني: العلم بالشيء موضوع القرار، والدربة على إنجاز بناء على تجربة سابقة، أو الاستعانة بمن لهم دربة وخبرة بموضوع صناعة القرار، على أساس أن صناعة القرار عمل جماعي يشترك فيه الخبراء وأهل المعرفة، وهنا يجب التفريق بين صانع القرار وهو الخبير، وصاحب القرار الذي يجب عليه أن يقرر في النهاية، وقد لا يكون خبيراً بكل جزئيات صناعة القرار.

الثالث: مهارة تسيير وفق خطوات محددة يلزم اتباعها بالضرورة لصناعة القرار، تفادياً لكل عرقلة محتملة تنتج عن الإخلال بخطواته، أو الوقوع في محاذيره.

وحتى لا يقع اللبس بين الصانع بمعنى مزاولة الحرفة وصانع القرار، أشير إلى الفرق بينهما، فالصانع الحرفي يسير في صناعته على مثال سابق لا يدخل عليه تحديثاً إلا بعد فترة من الزمن قد تطول غالباً، أما صانع القرار فيواجه تحدياً مباشراً عليه مواجهته بكل ما يتطلبه الأمر من كفاءة وحزم، وبخطوات عملية منضبطة، قد يستفيد - وهو يصنع قراره - في أجزاء من قراره من نماذج مماثلة سابقة، لكنه يبذل جهداً مهماً من فكره وخبرته لصياغة أجزاء أخرى متعددة ومتداخلة لصناعة القرار.

ومن جهة أخرى فالصانع الحرفي يخلق منتجاً عينياً يمكن الاستفادة منه مباشرة بعد صنعه، أما صانع القرار فهو ينتج خطة عمل قابلة للتطبيق والتجريب، لا يظهر أثرها وأهميتها إلا بعد التنفيذ.

رابعاً: صناعة القرار النبوي وأهميته:

المقصود من هذا البحث هو التركيز على مهارة صناعة القرار في السنة النبوية في المجال الحيوي والاستراتيجي والمصيري الذي تتمخض عنه آثار واضحة، وتنعكس تلك الآثار على الأفراد والمجتمع في المحيط الداخلي للمجتمع الإسلامي، وتنعكس كذلك على العلاقات مع الآخرين بقوة القرار الذي تمت صناعته على تصدير نتائجه خارج المحيط والمجال المألوف، ويتحصل من وراء تلك النتائج تحقيق منافع مباشرة أو غير مباشرة، وإبعاد مكاره واقعية أو محتملة.

هذا النوع من القرار هو الذي يهمننا في هذا الموضوع، والسعي من ورائه إلى استجلاء المهارة النبوية في الصناعة، والتَّميُّز في الأداء، وهو الذي لا تتم صناعته إلا ببذل جهد خاص فيه أكثر من غيره من القرارات العادية والمألوفة؛ لأنه يعتمد على التحضير والإعداد، والمعرفة والخبرة، ودراسة الأهداف المراد تحقيقها.

لقد جاءت السنة النبوية لتبرز بشكل واضح أن صناعة القرار يندرج من الناحية العقدية والإنسانية والمنطقية في باب الأخذ بالأسباب، فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(١)، فالحديث دليل على ضرورة الأخذ بأسباب الرزق، والرزق بمفهومه الواسع: «ما ينتفع به»^(٢)، ويلحق به كل ما يُتَّقَى به بأسٌ، ولتوفير ذلك في إطار عمل المؤسسات، لا بد من صنع قرارات حيوية واستراتيجية ومصيرية لتحقيقه، وهو ما عبرت عنه السنة بالتوكل، وهو الأخذ بالأسباب على مستوى تدبير الشأن العام، وكذلك على

١ - أخرجه: الترمذي، السنن، كتاب الزهد، باب التوكل على الله، ح ٢٣٤٤، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، ح ٤١٦٤، أحمد، المسند ١ / ٣٠. قال الترمذي: "حسن صحيح".

٢ - الصحاح، الجوهري، مادة: رزق، ٤ / ١٤٨١.

تدبير شؤون المؤسسات الخاصة التي ترجع إلى ملكية الأفراد، وتساهم بدورها في تحقيق المتطلبات الأساسية للمجتمع وتوفيرها.

ومن هنا تبرز أهمية صنع القرار النبوي في مجال الأمن السياسي والدفاعي لتوطيد نظام الحكم بكل مقوماته وإقامه مؤسساته، وفي مجال الأمن الاجتماعي بنشر ثقافة التكافل والتضامن بين الناس، وفي مجال الأمن العلمي بضرورة التعلم ونشر العلم وتطوير مناهجه، وفي مجال الأمن الغذائي بالبحث عن طرق الكسب المختلفة والنهوض بالإنتاج، ومستند هذا كله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(١)، وفضل الله يشمل كل ما ينفع الناس ويمكث في الأرض. وقد حرصت السنة النبوية أن يكون المسلم المكلف هو الذي يبحث عن القرار ويصنعه بمبادرة منه، ويساهم في صناعته في مجال تخصصه ووظيفته، ويثق بقدراته بعيدا عن كل سلبية تجعله عنصرا غير فاعل في المجتمع، فعن حذيفة مرفوعا: «لَا تَكُونُوا إِمَعَّةً، تَقُولُونَ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلَمُوا»^(٢).

خامسا: مجالات صناعة القرار

إن مجالات صناعة القرار تتعدد بحسب الحاجة إلى التغيير والتجديد والإنتاج والمواجهة، والقرارات أنواع مختلفة حسب الاهتمامات والتوجهات العامة والفردية، أو بحسب اهتمامات المنظومة المجتمعية التي ينتمي إليها الأفراد وهم يصنعون قرارا، أو يساهمون في صناعته، بيد أن الذي يهم في هذا الموضوع هو تلك القرارات الحيوية والاستراتيجية والمصيرية التي صنعها الرسول

١- سورة الجمعة، الآية: ١٠.

٢- أخرجه: الترمذي، السنن، كتاب البر والصلة، باب الإحسان والتعفو، ح ٢٠٠٧. قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

عليه الصلاة والسلام بنفسه أو أشرف على صناعتها، ودرب صحابته على كيفية صنعها، فقد صَنَعَ قرارات غيرت مجرى التاريخ، وجددت العقول وأنماط الفكر التقليدي السلبي في التعامل مع الحياة والكون، ونَشَّطت تنمية الإنسان فكرا وسلوكا وإنتاجا وتواصلًا، وصَنَعَ قرارات المواجهة لحماية العقيدة والشريعة ونظم الإسلام، وحقوق الأنسان، وامتدت آثار مهارة صناعة القرار إلى صحابته وخلفائه من بعده .

سادسا: آثار مهارة صناعة القرار النبوي على الصحابة:

لقد دَرَّبَ الرسول ﷺ الصحابة رضوان الله عليهم على مهارة صناعة القرار، فسلكوا نفس الوجهة، ووصف لهم المنهاج، فقال: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لِيُنْهَى كَنْهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»^(١).

وأوصى بالعناية بالسنة والأخذ منها بقوة فقال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»^(٢)، وتنفيذاً لهذه الوصية النبوية جاء التأثير بالقرارات النبوية على سياسة الخلفاء الراشدين في إدارتهم للشأن العام واضحا.

فصنع أبو بكر الصديق رضي الله عنه قرارات حيوية واستراتيجية في خلافته، فواجه المرتدين المانعين لفريضة الزكاة بما يستحقون، فأعلن قراره الحاسم في الموضوع بعد صناعته فقال: «وَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا». قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ

١- أخرجه: أحمد، المسند ٤/ ١٢٦، وابن ماجه، السنن، المقدمة، باب اتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ، ح ٤٣. قال شعيب الأرنؤوط: "حديث صحيح بطرقه وشواهدة وهذا إسناد حسن".

٢- أخرجه: الترمذي، السنن، العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ح ٢٦٧٦، أبو داود، السنن، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ح ٤٦٠٧. قال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

صَدَرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»^(١). وفي هذا دليل على اجتهاد الأئمة في صنع القرارات وردها إلى أصولها وأسسها، ورجوع من ظهر له الحق إلى رأي صاحبه في صناعة القرار إذا كان وجيهاً.

وكانت حرب اليمامة ونتائجها السبب المباشر في ضرورة التفكير في صناعة قرار يقضي بجمع القرآن في صحائف موحدة، فجاء عمر بن الخطاب إلى الخليفة الصديق وقال له: إن أصحاب رسول الله ﷺ تهافتوا يوم اليمامة تهافت الفراش في النار، وإن القتل استحرّ بأهل اليمامة من قراء المسلمين، وإنني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القراء، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن^(٢). ولم تلق الفكرة في بدء الأمر موافقة الخليفة أبي بكر، الذي كان شديد الحرص ألا يعمل عملاً لم يعمله رسول الله ﷺ، لكن المراجعة التي حصلت بعد عرض الفكرة أدت إلى اقتناع الخليفة بها وتكليف زيد بن ثابت بالقيام بأعبائها.

وعلى نهجه سار عمر رضي الله عنه مقتفياً آثاره، فصنع مع مجلسه الاستشاري عدة قرارات تهم الشأن العام، وتهم المجال العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فقرر إنشاء الديوان، وأسقط سهم المؤلفه قلوبهم لعدم الحاجة إليهم، وقرر تعطيل حد السرقة بسبب المجاعة، ومن عاداته أن يستخير الله في كل قرار يصنعه حتى يطمئن قلبه قبل تنفيذه.

وكذلك كان يفعل خليفته من بعده عثمان رضي الله عنه، فبرزت آثار مهارة صناعة القرار على تصرفاته، حيث انتهت به القرارات التي صنعها إلى توسيع دائرة العالم الإسلامي بفتوحات امتدت إلى الآفاق، وفي قرار آخر عندما تكونت لديه قناعة بضرورة توحيد المصحف: «جمع كبار الصحابة W واستشارهم في الأمر،

١ - أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ح ١٣١٢، مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ح ٢٩.

٢ - جامع البيان، الطبري ١/ ٢٦، المعجم الكبير، الطبراني ٥/ ١٣٠.

فأجمعوا أمرهم على استنساخ عدد من المصاحف يرسل بها إلى الأمصار، وأن يؤمّر الناس بإحراق كل ما عداها، وألا يعتمدوا على سواها، ثم شرع في تنفيذ هذا القرار الذي توصل إليه مع كبار الصحابة، فألّف لجنة من خيرة الصحابة حفظا لكتاب الله تعالى، وإتقاناً له وضبطاً... وعهد إليهم بكتابة المصاحف»^(١).

ولم يكن علي رضي الله عنه بأقل نصيب في صناعة القرار وبلورته بفكره الثاقب ونظره السديد، وهو القائل في مشورة حد شارب الخمر: إنه إذا سكر هذى^(٢)، وإذا هذى افترى، وعلى المفترى ثمانين^(٣).

والسير على منهج الخلفاء كذلك في صناعة القرار مما وصّى به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «.. وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيَّهَا بِالنَّوْاجِدِ»^(٤)، خاصة وأنهم جزء من إرث النبوة علما وعملا وأخلاقا ومنهجيا.

ولم تكن صناعة القرارات النبوية مهلهلة بدون أسس وقواعد قوية، إذ تمّ بناؤها على أسس متينة ضمنت لها الثبات، وحفظتها من الانهيار، ومكنتها من بلوغ المقاصد والأهداف، وهذا هو موضوع المبحث الآتي:

- ١- الواضح في علوم القرآن، مصطفى البغا ٩١، مناهل العرفان، الزرقاني ٢٥٧ / ١.
- ٢- هذى: أي خلط وتكلم بما لا ينبغي. افترى: أي كذب وقذف. ينظر: شرح الزرقاني على الموطأ، الزرقاني ٢٠٥ / ٤.
- ٣- أخرجه: مالك، الموطأ ٢ / ٨٤٢ مرسلًا ووصله النسائي في السنن الكبرى، كتاب الحد في الخمر، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر قتادة عن أنس، ١٣٧ / ٥.
- وأخرجه: الحاكم، المستدرک ٤ / ٣٧٥ - ٣٧٦. من وجه آخر عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس. وأخرجه: الدارقطني، السنن ٤ / ١٩٦. من طريق أسامة بن زيد عن الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن عن ابن وبرة الكلبي به. قال الألباني: "وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال مسلم غير ابن وبرة الكلبي فلم أعرفه". ينظر: الإرواء ٧ / ١١١.
- ٤- تقدم تخريجه.

المبحث الأول: أسس صناعة القرار

الأساس هو ما يبنى عليه الفرع، وأُسُّ الشيء: أصله وقاعدته^(١)، فصناعة القرارات النبوية فيما لم يرد فيه نص من الوحي، فروع عملية تنفيذية لما يجب القيام به من متطلبات المجتمع وتندرج في باب الأخذ بالأسباب، غير أن الأخذ بالأسباب وتحقيق المتطلبات لا يكون إلا بصناعة قرار يرتكز على أسس، وهذه الأسس التي يرتكز عليها صناعة القرار النبوي ثلاثة:

١- الاعتقاد السليم وشرعية القرارات.

٢- إنجاز عمل كفائي يهتم الأمة.

٣- عناية ذوي الكفاءة بصناعة القرار.

الأساس الأول: الاعتقاد السليم وشرعية القرارات:

يعد هذا الأساس من أهم الأسس التي يبنى عليها قرار المسلم المكلف، إذ هو الموجه لتصرفاته القولية والفعلية، والحديث عنه في مسألتين: الاعتقاد السليم، وشرعية القرارات.

المسألة الأولى: الاعتقاد السليم:

تتكون مفردات هذه المسألة كأساس لصناعة قرار متوازن من: صفاء الاعتقاد، والتوكل، والاستعانة، والاستخارة.

١- صفاء الاعتقاد: هو خُلُوص العقيدة من كل شوائب الشرك، وهو أول شيء دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى فهمه وإدراكه؛ لأنه مصدر صناعة القرارات والموجه لها، سواء تهم المكلف في خاصة نفسه، أو تهم

١- قال المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف ص ٥٤: "الأساس: القاعدة التي يبنى عليها".

عمله ومسؤوليته في وظائف المنظومة الاجتماعية، وبدون صفاء الاعتقاد وإدراك أهميته، تسقط الأعمال وتصبح هباءً لا وزن لها من حيث إضاعة الأجر الآخروي، قال تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾.

ويلزم المسلم المكلف من الوجهة العقدية أن يصنع قراره بنفسه، فيكون هو المباشر له دون غيره ممن لا ينتمي إلى عقيدته، خاصة على مستوى صناعة القرارات الحيوية والاستراتيجية والمصيرية، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذَكِّرُ مِنْهُ جُرْأَةً وَنَجْدَةً، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ. قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تُوْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينُ بِمِشْرِكٍ»^(٢)، ثم لم يأذن له حتى اطمأن إلى عقيدته فأمره بالانطلاق.

والسبب في ضرورة إبعاد من ليس بمسلم عند صناعة القرار، أن القرارات الاستراتيجية للأمة قد تترتب عليها آثار تهم شأنها داخليا أو خارجيا، ومن شرط هذا النوع من القرارات أن يتسم بالسرية والكتمان والاحتياط، فمن هديه عليه الصلاة والسلام عند عزمه على صناعة قرار هام، التزام السرية والكتمان كما سيأتي.

٢- الاستعانة بالله وحفظ حدوده: إن صناعة القرار يسبقه أمر في غاية الأهمية، وهو الاستعانة بالله الذي يرجع إليه الأمر كله، ففي السنة: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا

١- سورة الزمر، الآيات: ٦٥-٦٦.

٢- أخرجه: مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو وكافر، ح ١٨١٧.

يُبدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ»^(١)، فصانع القرار يتخذ الأسباب ويستعين بالله ويسأله التوفيق والسداد في القول والعمل، ففي السنة: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(٢)، فمن أعانه فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، فحسن الصلة بالله صمام الأمان، ومنجاة من التيهان، ومن كان مع الله كان الله معه في السر والعلانية: فمما علمه عليه الصلاة والسلام لأُمَّته عن طريق ابن عباس: «أَحْفَظُ اللَّهَ يَحْفَظُكَ»، لأن حفظ الله لعبده متوقف على حفظ العبد لربه، وذلك بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، بمعنى أن من كان مفرطاً في علاقته مع الله، قد لا يجده عند الحاجة إليه: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ».

٣- الاستخارة: إن مفتاح الفلاح والسداد في أي قرار بعد العزم، هو الالتجاء إلى الله بالدعاء والاستخارة، والاستخارة تعني: أن يقذف الله في قلب من التجأ إليه نورا يبصر به الحق ليتبعه، وهو يقول في دعائه قبل صناعة القرار: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ»^(٣)، إنه استمداد للتوفيق من الله، وبراءة من الحول والقوة البشرية إلى حول الله وقوته، وفي سيرته عليه الصلاة والسلام ليلة بدر دليل على ضرورة الدعاء وطلب المدد الإلهي بعد اتخاذ كافة الأسباب، ومما كان يدعو به عليه الصلاة والسلام ليلة بدر: «...اللَّهُمَّ نَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ أَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ»^(٤).

-
- ١- أخرجه: أبو داود، كتاب الأدب، باب الهدى في الكلام، ح ٤٨٤٠، ابن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، ح ١٤٩٨ (واللفظ له)، أحمد، المسند ٢ / ٣٥٩.
- ٢- أخرجه: الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، ح ٢٥١٦، أحمد، المسند ١ / ٢٩٣. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
- ٣- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، ح ٦٣٨٢.
- ٤- المغازي، الواقدي ١ / ٥٩، عيون الاثر، ابن سيد الناس ١ / ٣٣٣.

٤- التوكل على الله: ورد في السنة الصحيحة: «اعقلها وتوكل»^(١)، والتوكل: هو الاعتماد على الله والأخذ بالأسباب التي يترجمها في الواقع صناعة القرار، وفي التنزيل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢)، والتوكل على الله أثناء صنع القرار واتخاذهُ يؤدي إلى الحصول على دعم معنوي مهم يساعد على نجاحه، وهو الذي يعطي القوة للمكلف ليواصل عمله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٣).

المسألة الثانية: شرعية القرارات

المقصود بشرعية القرارات: مطابقة صناعة القرار لأحكام الشريعة المنصوصة، ولغير المنصوصة في مقاصدها العامة، إذ لا يجوز لمسلم أن يقدم على أمر حتى يعرف حكم الله فيه، ومعرفة الحكم متفرع عن سلامة الاعتقاد، لأن الاعتقاد عندما يصح، تصح القرارات تبعاله، فتحصل الحصانة لصنّاع القرار من الانحراف عن جادة الصواب، فلا يسعون بقراراتهم إلى الاستحواذ على حقوق الآخرين، وإلى حرمانهم مما يستحقون، وإلى التسلط على رقابهم وثرواتهم، والتقليص من حرياتهم، فليس هذا من شمائله عليه الصلاة والسلام، فقراراته رحمة للعالمين، وفتح مبين للمسلمين، وحماية للمستضعفين من المسلمين وغير المسلمين.

فمن أخلاقيات الجهاد على سبيل المثال، والجهاد لا يكون إلا بناء على قرار يتم صنعه كما هو معلوم: أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان والمجانين والخنثى المشكل لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ"^(٤).

١- أخرجه: الحاكم، المستدرک ٣/٦٢٣، والقضاعي، مسند الشهاب، ح ٦٣٣. قال الذهبي في التلخيص: سنده جيد. وفي الباب عن أنس عند الترمذي، ح ٢٥١٧.

٢- سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٣- سورة الطلاق، الآية: ٣.

٤- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ح ٤٦٤٥.

وقد فتح الرسول عليه الصلاة والسلام خيبر، وأقر أهلها على معابدهم فيها ولم يهدمها، وفي فتح مكة: «حكم بأن من أغلق بابه، أو دخل دار أبي سفيان، أو دخل المسجد، أو وضع السلاح فهو آمن... وحكم بأنه لا يجهز على جريح، ولا يتبع مدبر، ولا يقتل أسير»^(١)، ولم يأخذ من متاعهم شيئاً^(٢)، فعفا عنهم، فقال لهم كما قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾^(٣)، فكان كريماً رحيماً، ولم يعاملهم بغلظة وفضاظة، وبنزع الحقوق كما ينتظر في مثل هذه الظروف، أخذاً بمبدأ مشروعية القرار الذي هو من مكونات أسس صناعته.

وفتح الصحابة ﷺ كثيراً من البلاد عنوة، فلم يهدموا شيئاً من الكنائس التي توجد بها اقتداءً بهديه عليه الصلاة والسلام في غزوة خيبر، فمن فعله هذا أخذ حكم الإبقاء على الكنائس والبيع في البلاد التي فتحت عنوة لوجودها قبل الفتح، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن: "لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار"^(٤).

ويستفاد من ذلك كله أن منطلق صناعة القرار واتخاذها هو العقيدة والقيم، ومدى انسجام القرار معهما، والالتزام بمبادئ العقيدة هو البوصلة الموجهة إلى الانضباط للمشروعية، فمالم ينسجم من القرار مع العقيدة والقيم، فهو في دائرة المحظور الذي يجب تركه، وعلى أساس ذلك يكون تشخيص الموضوع وتقويمه، ففي السنة: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ... وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»^(٥)، قال الغزالي: «واستفتاء القلب إنما هو حيث أباح الشيء، أما حيث حرم فيجب الامتناع، ثم لا

- ١- زاد المعاد، ابن القيم ٦٨/٥.
- ٢- أخرجه: عبدالرزاق، المصنف، ١٠/١٢٣-١٢٤.
- ٣- أخرجه: البيهقي، السنن الكبرى ٩/١١٨، وإسناده جيد، رجاله كلهم ما بين الثقة والصدوق، ما عدا القاسم بن سلام بن مسكين؛ فإنه قد ضعفه الساجي والأزدي، لكن قال أبو زرعة وأبو حاتم: صدوق، وقال ابن حبان: مستقيم الحديث. ينظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر ٨/٢٨٦.
- ٤- أخرجه: الأموال، ابن زنجويه، ٢٦٨.
- ٥- أخرجه: أحمد، المسند ٤/٢٢٨، الطبراني، المعجم الكبير ٢٢/١٤٨. حسنه النووي، انظر: رياض الصالحين ١/٣٥٢.

يعول على كل قلب... وإما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال، فهو المحك الذي تمتحن به حقائق الصور»^(١). وفي هذا الباب تُستبعد القرارات التي تهدد حياة الإنسان: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ»^(٢)، والتي لا تحترم ممتلكاته: ﴿وَمَالُهُ﴾، والتي تنتهك كرامته: ﴿وَعَرَضُهُ﴾، والتي تفقده أمنه: «وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَوَّعَ الْمُسْلِمُ»^(٣)، لأن ذلك كله يتنافى مع المشروعية.

الأساس الثاني: إنجاز عمل كفائي يهم الأمة

إن موضوع صنع القرار الحيوي والاستراتيجي في عهد النبوة يتجه إلى إنجاز عمل كفائي لا بد من القيام به، كما يستفاد ذلك من استقراء الأحداث والوقائع التي تستعرضها السيرة النبوية، حيث تم فيها صنع قرارات لمعالجة تلك الأحداث والوقائع بما يلزم من المعالجة والمواجهة.

والعمل الكفائي كما هو محدد عند الفقهاء: هو الفرض الذي إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٤)، قال الزمخشري: «...معناه: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن»^(٥)، خاصة إذا كان المجتمع الإسلامي بحاجة إلى القيام بأعمال كفائية أخرى لا يمكن الاستغناء عنها، فيلزم فيها صنع القرار، قال الزمخشري: «فحين لم يمكن نفير الكافة، ولم يكن مصلحة، فهلا: (نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ): أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير»، فالمجتمع الإسلامي إضافة إلى حاجته إلى صناعة

١- إحياء علوم الدين، الغزالي ١١٨/٢.

٢- أخرجه: مسلم، كتاب البر، تحريم ظلم المسلم، ح ٢٥٦٤.

٣- مغازي، الواقدي ٤٤٨/٢، السيرة الحلبية، الحلبي ٦٣٣/٢.

٤- سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

٥- الكشاف، الزمخشري ٣٠٩/٢.

القرار الذي يخص المجال العسكري، هو بحاجة بنفس المقدار، أو أكثر إلى صناعة قرارات أخرى حيوية واستراتيجية ومصيرية تهتم كافة الأعمال الكفائية التي لا يمكن الاستغناء عنها، قال الزمخشري: «وكان الرسول عليه الصلاة والسلام بعد غزوة تبوك إذا بعث بعثاً، وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمرُوا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفةٌ إلى الجهاد، ويبقى أعقابُهُم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأنَّ الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلالاد بالسيف»^(١)، فإلى جانب الجهاد العسكري، يوجد ما يمكن تسميته بالجهاد المدني، فعن أنس مرفوعاً: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ»^(٢)، والعلم أساس الجهاد المدني والتنمية المستدامة، فقد وزع الرسول ﷺ المسلمين على جوانب الحياة، فاقتضت المصلحة وجود متخصصين متبحرين في كل الجوانب، يرجع إليهم في كل علم وفن، ويكون حجم كل طائفة متخصصة بحسب عدد الأمة والحاجة والاتساع، يهتمون بكل المتطلبات الأساسية للمجتمع، يصنعون قرارات تهتم السياسة الشرعية، والتنمية في مجالاتها المتعددة، كمشروع النهوض بالتعليم والرقي بمناهجه وأهدافه ونتائجه، وقرارات تشمل التخطيط لبناء المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية والعسكرية وغيرها من المنظومات التي يمكن أن تشكل رافعة للنهوض والتنمية، خاصة في الميادين التي يلاحظ فيها نقص وخصاص، ويعكر إهمال تلك الميادين والتغافل عنها السير الصحيح للنهوض والتنمية، فهذا هو المفهوم الصحيح للعمل الكفائي الذي ينبغي أن يترسخ في الأذهان، فهو يشمل الواجبات الاجتماعية التي تتسع بسعة الحياة وتستغرق سائر مجالاتها.

١- السابق.

٢- أخرجه: الترمذي، السنن، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم، ح ٢٦٤٧. قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه".

وبناء عليه فإن من بين أسس صناعة القرار، اهتمامه بإنجاز عمل ينفع الناس ولا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال، وهذا لا يمكن القيام به بطرق عشوائية من غير قرار يتم صنعه بمهارة من مؤهلين أكفاء، يشتغلون بدوافع موضوعية، وهي الحاجة إلى سد الخصاص في مجال معين، في توازن مع الأعمال الكفائية الأخرى، يتفرغ لها آخرون من ذوي أهلية للقيام بأعمال كفائية لها نفس الأهمية والاعتبار، وهذا هو موضوع الأساس الموالي لصناعة القرار:

الأساس الثالث: عناية الخبراء والأكفاء بصناعة القرار

صناعة القرار لا يقوم به إلا المؤهلون من ذوي الخبرة والكفاءة والتخصص، وبدون ذلك يشوب القرار عيب من أساسه، فمن هم المتخصصون في صناعة القرار في عهد النبوة؟ لقد كان عليه الصلاة والسلام يتمتع بفراصة عظيمة في اختيار الرجال، ومعرفة كبيرة لذوي الكفاءات من أصحابه، فكان يختار لكل مهمة من يناسبها، فيختار للقيادة من يجمع بين سداد الرأي وحسن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودمائة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر^(١).

فالرسول ﷺ هو صاحب القرار وصانعه ومشارك في صناعته مع صحابته، لكن المعتبر في اختيار من يقوم بصناعة القرار الذي يُعدُّ عملاً كفائياً من الوجهة الشرعية هو الكفاءة والقدرة على القيام بالعمل على أكمل وجه وأجوده، وهو ما يعبر عنه في السياسة الشرعية النبوية بالقوة والأمانة، وقد كان هذا الاعتبار موضع التنفيذ في عهد النبوة وما بعدها في عصر الخلفاء، فلم تسند شؤون

١ - ينظر: التاريخ الاسلامي، الحميدي ٦ / ٢٧.

القرارات الكفائية إلا للمؤهلين قوة وأمانة من أجل صناعتها، فاختار الرسول عليه الصلاة والسلام معاذ بن جبل للولاية على اليمن لفقهه ورجاحة عقله وحسن خلقه للإشراف على ما هو متخصص فيه، وهو الذي أوكل إليه إدارة القرارات التي تهتم هذا البلد، واختار عمر بن الخطاب عاملاً على الزكاة لعدله وحزمه ليراعي القرارات الصادرة في هذا الشأن، واختار خالد بن الوليد لقيادة الجيش لمهارته الحربية وحنكته العسكرية لإدارة صناعة القرار الذي يهتم المجال العسكري، واختار بلالاً لبيت المال؛ لأمانته وحسن تدبيره، وقدرته على الإشراف على صناعة قرارات تهتم إدارة شؤون الأموال العامة والاقتصاد... وهكذا مع سائر القرارات التي تهتم العناية بكل الأعمال الكفائية، وفي الوقت نفسه يرد الأشعرين لضعفهم في مجال السياسة العامة^(١)، لعدم كفاءتهم في صنع قرارات هذا المجال.

ويستفاد من صنيعه عليه الصلاة والسلام أن التخصص هو الحد الفاصل بين القادر على صناعة القرار وعدم القادر عليه، فبقدر وجود التخصص في عمل كفائي من الأعمال التي يجب وجودها في المرافق العامة للمجتمع، تكون مهارة صناعة القرار من ذويه أكثر ملاءمة، وأنسب في التطبيق وتوفير الخدمات المطلوبة، أو الإنتاج الذي يجب توفره.

ومن الأهمية بمكان أن أشير إلى أن هذه الأسس الثلاثة التي تم التطرق إليها في هذا المبحث، هي المنطلق الذي لا بد منه لصناعة القرار على منهج الهدى النبوي وفق الخطوات التي هي موضوع المبحث الثاني الموالي:

١- فيه حديث عن أبي هريرة مرفوعاً: "أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةً وَالْيَمَنُ قُلُوبًا...". أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن، ح ٤١٢٩.

المبحث الثاني: خطوات صناعة القرار

خطوات صناعة القرار: هي تلك المراحل الإجرائية العملية التي نقف على وجودها في القرارات النبوية في سنته وسيرته، وتُبرزُ هذه الخطوات متانة صناعة القرار النبوي وتوفره على مقومات نجاحه، ويمكن أن تزود المسؤولين عن إدارة الشأن العام، والمشرفين على إدارة المؤسسات والمقاولات، ومواجهة الصعاب، والتعامل مع الأزمات والظروف الطارئة، بنموذج متكامل عن مهارة صناعة القرار لإنجاز المشاريع، أو لمواجهة التحديات والأزمات والطوارئ.

ويمكن إجمال هذه الخطوات في ثلاث مراحل: مرحلة ما قبل اتخاذ القرار، ومرحلة اتخاذ القرار، ومرحلة ما بعد اتخاذ القرار:

المرحلة الأولى: ما قبل اتخاذ القرار

من هديه عليه الصلاة والسلام في سنته وسيرته لمرحلة ما قبل اتخاذ القرار، أنه يحرص على الإحاطة بجوهر موضوع القرار، وبأسبابه وأهدافه الداعية إلى صناعته، ثم البحث عن البدائل المطروحة لاختيار المناسب منها والذي يحقق المصلحة ويبعد المفسدة، ثم استشارة ذوي العلم والخبرة في الموضوع من صحابته وأقرب الناس إليه دعماً للقرار المراد اتخاذه في وقته المناسب.

وبناء عليه فإن معالجة هذه المرحلة من صناعة القرار يتم النظر إليها ومعالجتها في مطلبين:

- المطلب الأول: الاهتمام النبوي بدراسة كل جوانب القرار قبل اتخاذه.
- المطلب الثاني: الاستشارة النبوية لأصحابه وللخبراء منهم.

المطلب الأول: الاهتمام النبوي بدراسة كل جوانب القرار قبل اتخاذه.

بالنظر إلى مرحلة ما قبل اتخاذ القرار النبوي، نقف على أربعة إجراءات عملية قائمة لصناعة القرار، وهي:

الإجراء الأول: تحديد الهدف:

الهدف: هو تحديد الغاية المقصودة من القرار، ومما يجسد ذلك من السنة النبوية بوجه عام، تلك الأحاديث التي تحدد الغاية من وراء كل عمل، فالهدف من قرار الجهاد: نصره الإسلام، ومن قرار تدبير موارد بيت المال: الإنفاق على المتطلبات الأساسية للمجتمع، ومن قرار تكوين هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حفظ الأمن العام الروحي والاجتماعي، ومن قرار إقامة نظام الشورى: إشراك من يهمه الأمر في صناعة القرارات المهمة والمصيرية.. إلى آخره.

وقد جسد النموذج العملي التطبيقي لتحديد الهدف من صناعة القرار ما ورد في غزوة بدر الكبرى، ففي البداية كان الهدف من خروج المسلمين من المدينة بقيادة الرسول ﷺ هو الاستيلاء على قافلة أبي سفيان بن حرب التجارية القادمة من الشام، واعتبر المسلمون ذلك بمثابة تعويض عن جزء مما خلفوه من أموالهم التي تعرضت للسلب والمنع وحرموا منها ظلماً وعدواناً، لكن عندما لم يتحقق هذا الهدف بسبب التغيرات الطارئة، اقتضت الحاجة تحديد هدف جديد لموقف جديد المتمثل في المواجهة المسلحة الحقيقية بنفس الموارد لجيش يفوقه عدداً وعتاداً. فالهدف الجديد إذن الذي سَيَّبِنِي عليه القرار، هو المعركة الحقيقية مع جيش قريش بقيادة زعمائها وصناديدها وفرسانها، وسيتم صناعة القرار الجديد بناء على هذا الهدف الجديد الذي تم تحديده، وقد كان التركيز على هدف تحقيق الانتصار من قبل المسلمين بقيادته عليه الصلاة والسلام هو الذي بَدَّدَ المخاوف والمصاعب، وقد زاد ذلك من قوتهم وشدة بأسهم على أعدائهم، فحققوا النصر

الذي وُعدوا به، وساندت العناية الإلهية خطواتهم، فكان النصر حليفهم لأنهم ركزوا على تحقيقه، وهو هدف واضح أثناء صناعة القرار إذ لم يخلطوا معه غيره.

وفي مقابل هذا النصر المكين في «بدر»، كانت الخسارة بعد النصر في «أحد» من آثار التشويش على الهدف الحقيقي والتركيز عليه، فتسببت معصية مخالفة الرماة أمر النبي ﷺ في خسارة غير متوقعة، وبسبب التنازع والاختلاف حول الغنائم، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه ولاحت بوادره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾^(١).

الإجراء الثاني: جمع المعلومات وتحليلها والحرص على سريتها:

١- جمع المعلومات: لقد مارس عليه الصلاة والسلام هذا الإجراء كاستراتيجية عملية قبل اتخاذ أي قرار مصيري، خاصة في الأمور التي تهتم ببناء الدولة الإسلامية الجديدة والحفاظ على مكتسباتها الداخلية والخارجية، فمن هديه عليه الصلاة والسلام الحرص على معرفة جيش العدو للوقوف على أهدافه ومقاصده؛ لأن ذلك يساعده على صناعة القرار المناسب لمجابهته ورد كيده، فكان أسلوبه في غزوة بدر أن يجمع المعلومات تارة بنفسه، وتارة أخرى يستعين بغيره، فعندما أراد الرسول ﷺ أن يجمع المعلومات في غزوة بدر الكبرى، استعان بعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، فبعثهم في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا راوية لقريش فيها غلامان لبعضهم، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله

١- سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

وهنا تبرز مهارة الرسول عليه الصلاة والسلام في استجلاء المعلومة الحقيقية التي لم يتوصل إليها من أوكل إليهم أمر استجلائها، وكان ذلك بعد عتاب خفيف على سوء تصرف صحابته مع الغلامين بعد أن اختصر نافلته ليتدارك الأمر في أوانه، فقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما»، واستنتج من الحوار الدائر صدق حديثهما، ومنهما سيعرف المكان الذي أناخ فيه جنود قريش ركابهم وعددهم بتحليل المعطيات التي توصل بها منهما، فقال: «صدقا والله، إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟ قالوا: هم والله وراء هذا الكئيب^(١) الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالوا: كثير غير أن جوابهم هذا لم يكن كافيا في موقف كهذا الذي يتطلب الدقة في المعلومة، ولذلك بادروهم الرسول ﷺ بالسؤال عن عدد المشاركين في الزحف والقتال فقال: «ما عدتهم؟ لكن تبين أن الغلامين يجهلان العدد الحقيقي للقوم، وهذا منطقي بالنظر إلى وظيفتهما في القوم، فكان جوابهم عن السؤال: «لاندرى»، فمن عادة قرنائهم أن لا يهتموا بمثل هذا الأمر، لكن الرسول ﷺ استعمل الذكاء والفتنة، وهو ما غاب استعماله عن الموكل إليهم أمر الاستطلاع من صحابته، فسألهم عليه الصلاة والسلام: «كم ينحرون كل يوم؟ قالوا: يوما تسعا، ويوما عشرا»، وكان هدفه أن يصل إلى هذه المعطيات بالضبط، لكنها تحتاج إلى تحليل، وهو ما قام به الرسول عليه الصلاة والسلام إذ استنتج من عدد الإبل التي ينحرونها عددهم الحقيقي فقال: «القوم فيما بين التسعمائة والألف».

١ - قال الفراء: الكئيب: الرَّمْلُ والمِهْيَلُ الذي تُحْرَكُ أَسْفَلُهُ فَيَنْهَالُ عَلَيْكَ من أعلاه. لسان العرب ١/ ٧٠٢.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام حرص أن يعرف منهما زعماء قريش المشاركين في الحرب فقال: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث ابن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل ابن عمرو، وعمرو بن عبد ود». وهنا استنتج آخر للرسول عليه الصلاة والسلام سيكشف به أصحابه، وهو من قبيل تحليل المعلومة بناء على المعطيات فقال: «هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها»^(١)، بمعنى أن أشرف قريش قد تجمعوا وتجمهروا في هذا المعسكر، وهم من خيرة من يمثل قريشا جاها وبأسا، وقد تم أخذ هذا المعطى بعين الاعتبار في القرار، فهياً لكل ذي بأس من العدو ما يناسبه ويعادله في صناعة القرار.

أما في غزوة «الأحزاب» فقد كان أسلوبه في جمع المعلومات أن يستطلع الأمر في أكثر من صعيد، وقد أثبتت هذه الاستراتيجية أهميتها في استقصاء الأخبار الدقيقة عن سائر الأطراف المشاركة في محاولة اقتحام المدينة المنورة فلم يفلحوا، فاستعمل سليطاً، وسُفَيَانَ بْنَ عَوْفٍ الْأَسْلَمِيَّ طَلِيعَةَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ لمعرفة تقدم الأحزاب نحو المدينة^(٢)، وبعث حذيفة بن اليمان فاجتاز الخندق ليأتيه بأخبار قريش، فقال: «يَا ابْنَ الْيَمَانِ، قُمْ فَانْطَلِقْ إِلَى عَسْكَرِ الْأَحْزَابِ فَانظُرْ إِلَى حَالِهِمْ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا قُمْتُ إِلَيْكَ إِلَّا حَيَاءً مِنَ الْبُرْدِ قَالَ: «انْطَلِقْ يَا ابْنَ الْيَمَانِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ مِنْ بَرْدٍ، وَلَا حَرٍّ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ» فَانْطَلَقْتُ حَتَّى آتَيْتِ عَسْكَرَهُمْ فَوَجَدْتُ أَبَا سُفْيَانَ يُوقِدُ النَّارَ فِي عَصَبَةِ حَوْلِهِ، وَقَدْ

١- ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦١٦، السيرة النبوية، لابن كثير ٢/ ٣٩٨.

٢- معرفة الصحابة، أبي نعيم ٥/ ٢٤٨٢.

تَفَرَّقَ الْأَحْزَابُ عَنْهُ»^(١)، وبعث خَوَاتَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ جُنَاحٌ^(٢)، وطلب من سيقوم بمهمة الكشف عن تحركاتهم فقال: «قَالَ مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟ فَانْطَلَقْتُ فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُوَيْهِ فَقَالَ: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»^(٣).

٢- سرية المعلومات: فبالإضافة إلى ضرورة تحليل المعلومات قبل اتخاذ القرار، فهي كذلك تحتاج إلى التعامل معها بسرية تامة، وبتعمية إذا لزم الأمر، فعن كعب بن مالك: «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا»^(٤). فمن هديه عليه الصلاة والسلام الحرص على تطبيق مبدأ الكتمان في القرارات المصيرية كالحروب، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥). وأسوق هنا مثالين عمليين:

- المثال الأول: عندما ارتحل رسول الله ﷺ من «ذافران»... ثم نزل قريبا من «بدر» ركب هو وأبوبكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا

- ١- أخرجه: البزار، المسند ١/ ٤٤٨، قال الهيثمي: "ورجاله ثقات، وفي الصحيح لحذيفة حديث بغير هذا السياق". ينظر: مجمع الزوائد ٦/ ١٣٦.
- ٢- أخرجه: ابن أبي شيبة، المصنف ٦/ ٥٣٦، والحاكم، المستدرک ٣/ ٤٦٦. قال الحاكم: "صحيح على شرط البخاري".
- ٣- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام، ح ٣٧٢٠.
- ٤- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، ح ٢٧٨٧. قال عياض: "أي سترها وأوهم بغيرها". المشارق ٢/ ٢٨٤.
- ٥- السيرة النبوية دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، الصلابي ٦/ ٩. سورة النساء، الآية: ٨٣.

وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش. فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء ثم انصرف عنه، ثم قال الشيخ: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟^(١).

- المثال الثاني: يجسده تعامل الرسول عليه الصلاة والسلام مع قضية بني قريظة عندما بلغه خبر نقضهم العهد، فكان لا بد من التحقق من ذلك: «حتى يستجلي موقف قريظة، فيواجهه بما يجب من الواجهة العسكرية»^(٢)، فاستعمل للتأكد من الخبر سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، وقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه». فلما دنوا منهم وجدوهم على أحبث ما يكون، فقد جاهر بهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ. وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له، وقالوا: عَضَل وقارة: أي إنهم على غدر كغدر عضل، وقارة بأصحاب الرجيع»^(٣). ولا شك أن هذه المرحلة من التثبت قبل اتخاذ القرار يجب أن تكون في غاية من السرية حتى لا يقع انكسار في معنويات الناس، وحتى لا يعرف العدو بأن أمره قد انفضح لما قد يترتب على ذلك من آثار، فكان لا بد من التأكيد على هذه السرية التامة حتى يأخذ القرار بعد اتخاذه مساره الصحيح، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ولا تفتوا في أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس».

١- ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٣/١٦٣، والسيرة النبوية، ابن كثير ٢/٣٩٦.

٢- الرحيق المختوم، المباركفوري ٢٧٧.

٣- السابق.

الإجراء الثالث: حصر الخيارات المتاحة واختيار الأنسب منها

اختيار الأنسب من البدائل بعد حصر الخيارات المتاحة مسألة دقيقة جدا عند صناعة القرار النبوي، فمنهج عليه الصلاة والسلام أن يستعرض أكثر من خيار قبل اتخاذ القرار، ثم اختيار أيسر الأمور في الأحوال العادية، فعن عائشة مرفوعا: «مَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الْآخَرِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبَعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»^(١)، لكنه عليه الصلاة والسلام حازم في اختيار البديل المناسب ولو كان أشد إذا انتهكت الحرمات، كما في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، حيث طُرِحَ بديل الإغفاء من عقوبة الحد، فقال: «وأيُّم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢).

فقوله عليه الصلاة والسلام في حديث عائشة المتقدم: «أيسرهما»، لا ينبغي أن يفهم دائما على أنه الأمر السهل الهين والبسيط، فالأيسر: فعل التفضيل من اليسر، ويقابله الأعسر وهو الأشد، ومنطق البناء والمواجهة عند صناعة القرار لا يقوم أبدا على اختيار الأيسر بمعنى الأسهل من حيث الأداء، وإلا فلا معنى للعزائم، والعزائم تؤدي بمشقة مصحوبة بنوع من الألم الناتج عن بذل جهد ومشقة، وهو ما لا يمكن تحمله إلا بالصبر الذي يعظم أجر صاحبه، وفي القرآن: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣)، قال ابن عاشور: «والعزم: عقدُ النية على العمل والثبات على ذلك، والوصف بالعزم مشعر بمدح الموصوف، لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس لأنها تعاكس الشهوات، ومن ثمَّ وصف أفضل الرسل بأولي العزم»^(٤)، فخير المواجهة (الحرب مثلا) عند صناعة قرار معركة بدر الكبرى على سبيل المثال، ليس بخيار سهل ومريح للنفس

١- أخرجه: مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب مبادئه ﷺ للآثار واختياره من المباح أسهله، ح ٢٣٢٧.

٢- أخرجه: مسلم، الصحيح، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، ح ٥٤٠٥.

٣- سورة الشورى، الآية: ٤٣.

٤- التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ١٢٢.

والجسد على أية حال، ولكنه الأصلح لمجتمع إسلامي ناشئ يحمل مشروعاً حضارياً جديداً يبني قواعده على الأحكام التي جاءت بها آخر رسالة سماوية.

ومن الأمثلة العملية في هذا الباب، اختياره عليه الصلاة والسلام للمكان الأنسب للتمركز في بدر بعد أن نزل أدنى ماء من مياه بدر، حيث توقف عند الرأي السديد لأحد المشاركين في هذه الواقعة، وهو الصحابي الجليل الحُباب ابن المنذر، وهو الخبير العسكري في الميدان، وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم - قريش - فننزله ونغور^(١) ما وراءه من القلب^(٢)، ثم نبني عليه حوضاً، فتملاًه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»، فنهض رسول الله ﷺ بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من القلب^(٣).

الإجراء الرابع: ضبط الموارد اللازمة

فقد كان عليه الصلاة والسلام يحصي موارده عند بناء أي قرار مصيري من الأفراد المستعدة للاشتغال، ومقدار المال المتوفر، والمدة الزمنية الكافية للإنجاز، فلا يقدم على قرار قبل معرفة المستعدين للمشاركة في إنجازه، ثم قدر المال الكافي للتمويل، ووسائل التنقل الكافية للركوب وحمل المؤن، وعناصر الاحتياط الضرورية.

- ١- أي: نُحَرَّبَ.
- ٢- القلب: جمع قليب: البئر قبل أن تُطَوَّى، فإذا طُوِيَتْ فهي الطَوِيَّة. انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ١٤٤/٩.
- ٣- مرويات غزوة بدر، أحمد محمد باوزير ١٦٤، قصة الحباب تتقوى وترتفع الى درجة الحسن.

ففي وقعة بدر الكبرى: تمت تعبئة الموارد المتوفرة حسب الظرفية الجديدة، فرغم أن موارد هذه المعركة في الأصل كانت على قياس مواجهة قافلة أبي سفيان القادمة من الشام، فقد وقع تطويرها وتعديلها بالكيفية المعنوية والمادية المناسبة للقرار الجديد القاضي بخوض المعركة المسلحة، وفي هذه المعركة يبرز ما يمكن أن نطلق عليه أسلوب تطوير الذات والرفع من المعنويات، فالمؤمن لا يذل نفسه ويتحمل من البلاء ما لا يطيق، ويقبل بما دون المطلوب منه شرعة ومنهاجا، فقد أثبتت هذه المعركة ذات الموارد المحدودة أن كثرة العدد كما هو الشأن لدى العدو، ليس مقياسا للكسب والفوز على الدوام، وأن قلة العدد ليس مظنة لوقوع الهزيمة في الغالب، ذلك أن قوة الإيمان وعدالة القضية لدى الصحابة، هو الذي فجر في نفوسهم تلك الطاقة القصوى أثناء الإنجاز، فكان النصر حليفهم بعناية من الله الذي يمد عباده المخلصين بمدد من عنده.

وفي غزوة «تبوك» حضَّ عليه الصلاة والسلام أهل الغنى على النفقة وتقديم ما يتوفر لديهم من الدواب للركوب، فجاء الكثيرون منهم بكل ما أمكنهم من المال والعدة، وجاء عثمان رضي الله عنه بثلاثمائة بغير بأحلاسها وأقتابها، وبألف دينار نشرها في حجره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»^(١)، وعندما تحققت الكفاية من الموارد اللازمة لصناعة القرار، رد الفائض عن الحاجة من ذوي الأعدار، وحكى القرآن الكريم كلامه على لسانه لمن اعتذر إليهم فقال: ﴿قُلْتَ لَا أَحْذَمُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾^(٢)، ويستفاد من ذلك أن حصر المعلومات المتوفرة وتقويمها على أساسها يتم به ضبط الموارد التي تمكن من بلوغ الهدف، فلكل قرار موارده الأساسية، بدءا بتحديد العنصر البشري الكافي، ورأس المال المطلوب، ومقدار الجهد المطلوب.

١ - أخرجه: أحمد، المسند ٥/ ٦٣، والحاكم، المستدرک ٣/ ١١٠، وقال الحاكم: "صحيح الإسناد".

٢ - سورة التوبة، الآية: ٩٢.

المطلب الثاني: استعانة النبي ﷺ بالخبراء من صحابته

تبرز مهارة صناعة القرار من هذه الواجهة في منهج الرسول ﷺ في أسلوب الاستعانة بالصحابة رضوان الله عليهم، باستكشاف خبراتهم واستثمارها، ويمكن تشخيص هذا المنهج واستجلاء أسلوبه في إجراءين مهمين: الأول: طلب الاستشارة والنصيحة، والثاني: إشراك من يهمل الأمر في صناعة القرار.

الإجراء الأول: طلب الاستشارة والنصيحة

بنى الإسلام العلاقات الإنسانية المنسجمة على النصيحة، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»^(١)، والنصيحة جزء من تطبيق مبدأ الشورى، والاستشارة، أو المشورة تقتضي استطلاع الرأي العام بين المتعاملين في صف واحد للوقوف على الاحتياجات الملحة والفعلية ليتسنى إشباعها على خير وجه وأفضله، وقد كان عليه الصلاة والسلام من المؤسسين لمبدأ الشورى وطلب النصيحة عند صناعة القرار مع الخبراء من صحابته الكرام فيما لم يرد فيه نص من الوحي، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

وعملًا بذلك فإنه يلزم اللجوء عند اتخاذ القرار وبنائه إلى من يحظون بالأمانة والثقة أكثر من غيرهم، فيستشارون بناء على سمعتهم وتجربتهم ومكانتهم المتميزة بين الناس، ففي حديث ابن عباس: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»^(٣)، فإذا كانت الثقة مقرونةً بالتجربة فالأمر أبهى وأحلى، والاستشارة مبدأ ومنهج قامت عليه

١- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان تعليقا، مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح ٥٥.

٢- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب من أشعر وقلد بذى الخليفة ثم أحرم، ح ١٦٩٤.

٣- أخرجه: أبو داود، السنن، أبواب النوم، باب في المشورة، ح ٥١٢٨، والترمذي، السنن، أبواب الأدب، باب أن المستشار مؤتمن، ح ٢٨٢٢. قال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ"، وفي الباب عن ابن عباس، وسمرة بن جندب، وابن عمر، والنعمان بن بشير، وابن مسعود وغيرهم.

الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام، فقد طبق عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ في القرارات التي يأخذ بها تنزيلاً عند الحكم الإلهي في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١)، جاءت هذه الآية بعد غزوة أحد، والسبب أن الرسول عليه الصلاة والسلام استشار أصحابه في الخروج إلى أحد وهو بصدد صناعة قرار جديد للجهاد، قال ابن كثير: «وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو، ولم يتناهاوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه، ولو رَضُوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرأً، قد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة»^(٢)، ومع أن النتيجة لم تكن في صالح مقترحهم بعد تنفيذ القرار، فإن هذه الواقعة يُستفاد منها درسٌ في غاية الأهمية في تنمية مهارة القرار، حيث يحتفظ المستشار في جماعة أهل الرأي إذا حسن قصده بمكانته رغم عدم صلاحية رأيه، وهذا ما يزيه القرآن الكريم كما في قوله تعالى بعد النتيجة غير المرغوبة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣)، وأسوق هنا تحليلاً جيداً للدكتور علي الصلابي وهو يوضح طبيعة علاقة الرسول ﷺ بمستشاريه أثناء صناعة القرار وبعده، يقول: «وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير، بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله»^(٤).

الإجراء الثاني: إشراك من يههم الأمر في صناعة القرار

من مقومات صنع القرار الناجح، أن يشرك القائد معه غيره ممن يهمهم

١- سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٢- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٤/ ١٤، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٢٢٣.

٣- سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٤- السيرة النبوية دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، الصلابي ٦/ ١١.

شأنه، ويتطلعون إلى وضع أحسن، ومكاشفتهم بكل الحقائق والمعلومات التي سيبنى عليها القرار، فمن شأن ذلك تحفيز المشتركين على صناعة قرار جيد، وهذا هو هديه عليه الصلاة والسلام مع أصحابه، ولطالما استعمل عبارة: «أشيروا علي...»^(١) في عدد من المواقف كما ورد في أحاديث كثيرة من سنته، وكان من نتيجة هذا الإشراك توليد أكثر من خيار لموضوع واحد لانتقاء أحسن الآراء.

فقد أشرك معه في بناء القرار في غزوة بدر الحُباب بن المنذر كخبير عسكري عندما قال له: إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

وأشرك معه في معركة الأحزاب في صناعة القرار سلمان الفارسي فأخذ بخطته في حفر الخندق إلى عمق عشرين ذراعاً حتى يتحصن المسلمون من غارات العدو، فنجحت الخطة.

وأشرك السعديين في قرار مصالحة عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما ويتفرغ المسلمون لقتال قريش وحلفائها ثم أخذ برأيهما، عن أبي هريرة قال: جاء الحارث الغطفاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة، قال: «حتى أستأمر السعود»، فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود، رحمهم الله، فقال: «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وإن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا، حتى تنظروا في أمركم بعد»، قالوا: يا رسول

١- كما ورد في شأن بناء الكعبة، وفي حديث الإفك، وفي درء الحدود بالشبهات، وفي مشاورة الإمام الناس إذا كثرت العدو وقل من معه، وفي الأخذ باليمين، وفي تزويج البكر والثيب. ويستعمل عبارة: أرايتم بمعنى: أخبروني.

الله، أَوْحِي مِنَ السَّمَاءِ، فَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، أَوْ عَنْ رَأْيِكَ، أَوْ هَوَاكَ، فَرَأَيْنَا تَبِعَ لَهَوَاكَ وَرَأْيِكَ، فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الْإِبْقَاءَ عَلَيْنَا، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مَنَّا تَمَرَّةً إِلَّا بَشْرِي، أَوْ قَرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»، قَالُوا: غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ»^(١).

وأشرك الرسول عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ -وهو من زعماء الأوس- في الحكم على ناقضي العهد من يهود بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إليه، ثم خاطبه بقوله: «إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَيَّ حُكْمَكَ قَالَ فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقَاتَلَ الْمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسَبَى الذُّرِّيَّةُ قَالَ لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ»^(٢). فكان هذا الحكم هو قرار الرسول عليه الصلاة والسلام منذ البداية، لكنه أحب أن يشرك معه فيه غيره من صحابته، خاصة ممن ينتمون إلى هذه الجهة التي يهملها أمره، فسعد بن معاذ من الأوس، وهم حلفاء بني قريظة في الأصل.

المرحلة الثانية: اتخاذ القرار

وهي مرحلة إدخال القرار حيز التنفيذ، وسأسوق هنا مثالين لمرحلة اتخاذ القرار النبوي ودخوله حيز التنفيذ في واقعتين هامتين من سيرته عليه الصلاة والسلام:

المثال الأول: عن غزوة بدر الكبرى:

فعندما وقع الاختيار في غزوة بدر الكبرى على الإقدام على المواجهة، استغنى الرسول عليه الصلاة والسلام عن جميع البدائل المطروحة للمناقشة قبل اتخاذ القرار، إذ لم يكن من الحكمة أن يقع التراجع عن القرار الذي وقع الإجماع

١ - أخرجه: الطبراني، المعجم الكبير ٦/ ٢٨. قال الهيثمي: "ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات". مجمع الزوائد ٧/ ٨٣.

٢ - أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، ح ٣٠٤٣.

عليه، أو المجادلة لإدخال البدائل التي تم الاستغناء عنها مرة أخرى، فتم تقسيم الأدوار التي تجسد عمليا هذا القرار، فأعطى لكل العناصر المشاركة ما يناسبها من الأدوار، فكانت خطط الاشتغال واضحة المعالم عند المسؤولين عن التنفيذ، فأصبح كل واحد يكمل الآخر في تناسق وانسجام، فحدد المهام التي تتولاها كل مجموعة في موقعها، والمسؤولية التي يتولاها كل فرد داخل مجموعته، وكل واحد من المشاركين يتطلع إما إلى نصر وهو الهدف القريب التي تم تحديده سلفا، أو إلى إحدى الحسينيين في هدف آخر أرقى وأسمى وهو الشهادة، فبادر كل مشارك من المسلمين إلى موقعه، وتجهز كل واحد بما يليق به وأخذ عدته وأهبطه.

وكان قراره عليه الصلاة والسلام خوض معركة بدر مع أصحابه - وهي هدف عسكري صارم - بعد أن استعرض الخيارات والموارد المتوفرة وتوجيهها رغم قلتها، وذلك بعد أن استمع إلى آخر متدخل مشارك في صناعة القرار، وهو الممثل الرسمي لفريق أهل المدينة سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(١). وقد كانت هذه العبارة بمثابة بيان عسكري عام ينتقل بالقرار من مرحلته التحضيرية إلى مرحلة دخوله حيز التنفيذ.

المثال الثاني: عن غزوة أحد:

اتخذ عليه الصلاة والسلام قرار الخروج إلى غزوة أحد بعد أن استشار أصحابه، وبعد أن خيره بين الخروج لملاقاة المشركين وقتالهم، أو البقاء في

١ - أورده ابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ٣١٩، وفي السيرة النبوية له ٢ / ٣٩٣ عن البخاري بإسناده، وهو جزء من حديث طويل، قال الزيلعي: "وهو كله في سيرة ابن هشام في غزوة بدر الكبرى من قول ابن إسحاق، وأخرج الطبري بعضه عن ابن عباس، وبعضه عن عروة بن الزبير، وبعضه عن السدي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص، وذكره الثعلبي ثم البغوي في تفسيريهما بتمامه عن ابن عباس وعروة بن الزبير وابن إسحاق، ورواه الواقدي في كتاب المغازي: حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد فذكر بعضه: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن أبان بن صالح عن سعيد بن المسيب فذكر بعضه مرسلًا". انظر: تخريج الكشاف ٢ / ١٢.

المدينة المنورة، ثم غلب رغبة الفريق الذي اختار الخروج ورغبوا في قتال المشركين خارج المدينة، وهم الذين قالوا: يارسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يروا أننا جنبنا عنهم وضعفنا... ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله ﷺ حتى وافقهم على ما أرادوا، فدخل بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه، وظن الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج أنهم قد استكروه على ما لا يريد، فندموا على ما كان منهم، ولما خرج عليهم قالوا: استكرهناك يارسول الله، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل﴾^(١)، وفي عمله عليه الصلاة والسلام هذا إيذان بدخول القرار مرحلة التطبيق بعد اتفاق الأغلبية عليه، وعزمهم على تنفيذه، فشرع في تقسيم الأدوار لتنفيذ القرار المتخذ، فأمسك بسيف فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فأقبل أبو دجانة قائلاً: أنا أخذه بحقه، فأعطاه إياه، فأخرج أبو دجانة عصا به حمراء فعصب بها رأسه ثم راح يتبختر بين الصفوف. فقال رسول الله ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الوطن. ثم أعطى رسول الله ﷺ اللواء لمصعب ابن عمير رضي الله عنه^(٢).

المرحلة الثالثة: بعد اتخاذ القرار

مرحلة ما بعد اتخاذ القرار جزء مهم من خطوات صناعة القرار، وتتطلب هذه المرحلة ثلاثة أمور مهمة جداً، وهي إصدار بيان لإعلام من يهمه الأمر، وتقويم أداء تنفيذ القرار، ثم إيجاد خطة بديلة عند الحاجة إليها.

١- هذا الحديث أورده البخاري في صحيحه في الاعتصام بغير إسناد في باب قول الله تعالى: وشاورهم في الأمر، ثم قال: " وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فأرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم. فلم يمل إليهم بعد العزم وقال: لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله"، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦٥/٧ من رواية أبي الأسود، عن عروة مرفوعاً في حديث طويل ذكره، ثم قال: هكذا رواه موسى بن عقبة عن الزهري، وكذلك محمد بن إسحاق صاحب المغازي عن شيوخه من أهل المغازي، وهو عام في أهل المغازي وإن كان منقطعاً، وكتبناه موصولاً بإسناد حسن^١. وأخرجه أحمد ٣/٣٥١ موصولاً من حديث جابر بن عبد الله.

٢- ينظر: ابن اسحاق، السيرة ٣٠١، الواقي، المغازي ٢٥٩.

أولاً: إعلان القرار: إن صناعة القرار النبوي يشارك فيه خبراء الصحابة بقيادته عليه الصلاة والسلام، وقد لا يشارك فيه الجميع ممن ينتمي إلى جماعة المسلمين، لكن رغم عدم مشاركة بعض أفراد الجماعة في صناعة القرار فشأنه يهمهم، لأن آثاره يسري عليهم لأنهم جزء من الجماعة، وقد تكفل رئيس صنّاع القرار - وهو الرسول عليه الصلاة والسلام - بإصدار بيان يوضح للناس القرار الذي تم اتخاذه، وقد كان عليه الصلاة والسلام يشرح القرار المتخذ بنفسه، أو يكلف من ينوب عنه في توضيحه، فبعد اتخاذ قرار غزو بني قريظة الذين نقضوا العهد، أمر رسول الله ﷺ أصحابه فقال معلناً ذلك: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»^(١)، وتتمه لهذا الإعلان لا بد من استكمال التدابير الضرورية، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية على بن أبي طالب وقدمه إلى بني قريظة كمؤشر بارز على إجراءات التنفيذ. ومن تقنيات إعلان القرار التذكير ببعض ما يمكن أن يعرقل مساره، فعن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه قال: «غَزَوْتُ مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ كَذَا وَكَذَا، فَضَيَّقَ النَّاسُ الْمَنَازِلَ، وَقَطَعُوا الطَّرِيقَ فَبَعَثَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَادِيًا يُنَادِي فِي النَّاسِ أَنَّ مَنْ ضَيَّقَ مَنْزِلًا، أَوْ قَطَعَ طَرِيقًا فَلَا جِهَادَ لَهُ»^(٢).

وأهم شيء يتكلف به الرسول عليه الصلاة والسلام بعد اتخاذ القرار إبراز أسبابه وفوائده، فسبب اتخاذ قرار التصدي لقافلة أبي سفيان القادمة من الشام، استرجاع المسلمين لجزء من أموالهم التي سلبت منهم، وسبب تغيير الهدف بعد فرار أبي سفيان بغيره، هو تحقيق الشطر الثاني من الإحراز على إحدى الطائفتين، وقد كان الصحابة يودون أن تكون لهم غير ذات الشوكة، لكن حكمة الله اقتضت

١- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب مَرَجِعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَحْزَابِ وَمَخْرَجِهِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَمَحَاصِرَتِهِ إِيَّاهُمْ، ح ٤١٦٩.

٢- أخرجه: أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب مَا يُؤْمَرُ مِنْ انْضِمَامِ الْعُسْكَرِ وَسَعَتِهِ، ح ٢٦٢٩، أحمد، المسند ٣/ ٤٤٠. قال الألباني: "وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات؛ على ضعف يسير في بعضهم".

صحيح أبي داود ٣٨٠ / ٧

أنه تعالى يريد: ﴿ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقَطَعَ دَائِرَ الْكُفْرَيْنِ ۗ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(١)، فبين السبب وهو تثبيت راية الإسلام ودحر المشركين. ثم إنه عليه الصلاة والسلام لا يرد، أو يعنف من يطرح سؤالاً يستوضح أمراً غير مفهوم يتعلق بالقرار الذي تم اتخاذه.

ومن مظاهر إعلان القرار، أنه عليه الصلاة والسلام يستعين بجميع الأفراد الذين هم بقربه، ومن يرى في الاستعانة بهم مصلحة ليؤازروه، وقد نوه القرآن الكريم بمؤازرة الصحابة ﷺ للرسول ﷺ في قراراته كما ورد في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۗ لِيُتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۗ ﴾^(٢). ومعنى تعزروه: أي تنصروه وتؤيدوه، وقد تحصل دعمهم الفعلي، فخرجوا إلى فتح مكة في نحو عشرة آلاف شخص معه فاتحين، وقبل الفتح آزره على قرار عقد صلح الحديبية بعد أن اطمأنوا إلى أهميته بعد نزول سورة الفتح، وندم بعضهم على ما بدر منه من التعرض على بعض مجريات المعاهدة أثناء زبر بنودها، وقد تكفل القرآن الكريم بسرد فوائد هذه المعاهدة التي ستحصل فوائدها فيما لا يزيد عن سنتين من تاريخ سريان مفعولها، وكانت هذه المعاهدة قراراً حاسماً ستنعكس آثارها الإيجابية على المسلمين.

ثانياً: تقويم أداء تنفيذ القرار: تقويم تنفيذ القرار جزء من الخطة العملية لما بعد اتخاذ القرار، ومن هديه عليه الصلاة والسلام معايشة القرار المتخذ أثناء التنفيذ حتى يواكب تقويمه، فالرائد لا يكذب أهله، ولا يخذلهم ولا يسلمهم، فهو يشاركونهم أهدافهم ويسعى إلى تحقيق مصالحهم.

فعندما تجمعت الأحزاب في غزوة الخندق وتحركت نحو المدينة لغزوها، أسرع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تنفيذ قرار تمخض عن مجلس استشاري

١- سورة الأنفال، الآيات: ٧-٨.

٢- سورة الفتح، الآيات: ٨-٩.

أعلى، وهو تنفيذ خطة للدفاع عن كيان المدينة كانت من اقتراح الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه المتمثلة في حفر الخندق حول المدينة. فأسرع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تنفيذ هذا القرار ومواكبته وتقويمه بنفسه، فقام المسلمون بجهد ونشاط يحفرون الخندق ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم ويقوم أعمالهم، ويساهم في الوقت نفسه معهم في العمل، فعن البراء بن عازب قال: رأيت صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى واري عني الغبار جلدة بطنه.

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أنس: «يُوتُونَ بِلَاءٍ كَفِيٍّ مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةِ سَنَخَةٍ تُوَضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشَعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنَةٌ»^(١). فهذا الحديث دليل على أن القرار شارك في تنفيذه وتقويمه صانعه وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، مع من يهتمهم أمره أثناء التنفيذ وهم الصحابة رضوان الله عليهم، وعندما رجع الأحزاب إلى ديارهم خائبين، قال عليه الصلاة والسلام لمن كان معه من المشتركين في صنع القرار: «الآن نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا»^(٢)، فكان هذا تقويم بعد اتخاذ القرار وتنفيذه؛ لأن الأمر صار كما قال، فإن قريشاً بعد ذلك لم يرجعوا إلى غزو المدينة، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إلى مكة عام الحديبية، فصالحوه وهادنوه، ثم دخل مكة من قابل مع أصحابه آمنين، ثم فتحها بعد ذلك.

ثالثاً: وضع خطة بديلة للاستعمال عند الحاجة: يتم اللجوء إلى الخطة البديلة عندما يُكْتَشَفُ خللٌ في الخطة الأولى أثناء تنفيذ القرار المتخذ، فالخطة البديلة عن خسارة «معركة أحد» بعد تقييم الموقف وما آلت إليه الأوضاع، هو عملية مطاردة الجيش المكي فيما يعرف بـ «غزوة حمراء الأسد»^(٣)، فقد بات

١- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ح ٤١٠٠.

٢- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ح ١٤٠٩.

٣- السيرة الحلبية، الحلبي ٥٥٠/٢.

الرسول عليه الصلاة والسلام يفكر في الموقف ويقومُ، ثم اتخذ قراراً جديداً بعد التقويم، يتجلى في الخطة البديلة للمواجهة المحتملة، تحسباً لما يمكن أن يفكر فيه المشركون من غزو المدينة مرة أخرى، فأمر الناس في صباح الغد من معركة «أحد» بالمسير إلى لقاء العدو، لكنه أمر أن لا يخرج إليها إلا من شهد القتال في «أحد»، حتى يستبعد المنافقين عن الاختلاط بالمسلمين، فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، فأقام عليه الصلاة والسلام بحمراء الأسد نحو ثلاثة أيام قبل أن يرجع إلى المدينة، وهذه الغزوة عبارة عن خطة بديلة و«ليست بغزوة مستقلة، إنما هي جزء من غزوة أحد وتتمه لها، وصفحة من صفحاتها»^(١).

وقد استعمل الرسول عليه الصلاة والسلام خِططاً بديلة عندما نقضت قريش عهدها لصالح الحديبية، فكان في خيار وحل من المعاهدة في استعمال جميع الخِطط البديلة الممكنة بدلا من التي وقع الالتزام بها.

هذا على مستوى النظام العام والفروض الكفائية العامة، أما على مستوى الأفراد، فجاء في السنة عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكْفِرْ عَنْ يَمِينِهِ»^(٢)، فاليمين قرار وعزم على سلوك معين، لكن وجود الخيرية والأفضلية في ترك الالتزام باليمين، يعطي للحالف فرصة تغيير الخطة بأخرى بديلة مقرونة بكفارة اليمين بدافع رجحان المصلحة، فهذا هو الذي ينسجم مع مرونة الإسلام ويسره في التعامل مع القرارات، خاصة عندما تتوفر دواعي التغيير.

لكن لمهارة صناعة القرار بعض المحاذير التي يجب الانتباه إليها حتى تكتمل خطواته، وهو موضوع البحث الثالث الموالي:

١- الرحيق المختوم، المباركفوي ٢٦١.

٢- أخرجه: مسلم، الصحيح، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، ح ١٦٥٠.

المبحث الثالث: محاذير صناعة القرار

المقصود بمحاذير صناعة القرار، تلك الأمور التي يُحتمل ويُتوقع أن تُثبِّط من عزائم صنَّاع القرار من الحالات الداخلية المؤثرة على النفوس، أو تلك المؤثرات الخارجية التي يمكن أن تعرقله، وسأتناول بحول الله عناصر هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: حالات نفسية تؤثر على صناعة القرار

إن صناعة القرار يحتاج إلى قوة نفسية فاعلة ومتوازنة، وقوة جسدية متحملة وقادرة، وجهد فكري منضبط، وهذا لا تستجيب له طبائع البشر إلا بمراعاة الوسطية في العمل، والتوازن النفسي، والجهد العقلي المناسب، ومراعاة طاقة الإنسان المحدودة، ولكي تكون مهارة صناعة القرار إيجابية لها أثر على إحداث تغيير، يلزم تغيير ما بالنفس من الحالات النفسية ذات الأثر السيء على التصرفات، ثم الشروع في علاجها والتخلص منها، وهذا يحتاج إلى مجاهدات عملية لإحداث تغيير ملموس وفق المعالجة النبوية لهذه الحالات، وبدون التخلص من ذلك يكون القرار متأثراً بتلك الحالة النفسية غير السوية، ويكون معيباً بسبب ذلك.

وقد اقتصرْتُ في السنة النبوية على حالات معينة لما يتوقع أن تحدثه من آثار على صنَّاع القرار إذا لم يتم التعامل معها بحكمة وروية، لأنها تحدث خللاً في النفس، وتقلص من فاعلية صانع القرار، وتحد من مهارته، ومن المفيد جداً أن السنة النبوية وضحت كيفية التعامل مع هذه الحالات المؤثرة في مهارة صناعة القرار، وهذه الحالات هي: الغضب، والإرهاق والتعب الشديد، والشك والتردد، واليأس والقنوط:

أولاً: حالة الغضب: الغضب عدو القرار السليم ومشوه له، وقاتل للمهارات

الإنسانية بصفة عامة، فقد ورد تحذير شديد ونهي صارم للحاكم والقاضي بأن لا يتخذ قرار إصدار الأحكام الفاصلة في قضايا الناس المتعلقة بحقوقهم وأعراضهم وأموالهم، جاء في البخاري فيما يتعلق بالقضاء «كَتَبَ أَبُو بَكْرَةَ إِلَى ابْنِهِ وَكَانَ بِسَجِسْتَانَ بِأَنْ لَا تَقْضِيَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَقْضِينَ حَكْمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانٌ»^(١)، فالحاكم أو القاضي يصنع قرارا يترجمه حكم نافذ على المتقاضين، قد يصنعه وحده، أو يستعين بغيره من أهل العلم والخبرة والشهود والقرائن، لكن حكمه قد يكون معيبا إذا أنشأه في حالة الغضب، لأن آثاره تشوش على مهارة صناعة القرار، ويقاس على قرار القاضي كل قرار هام ينعكس أثره على الغير أو إدارة المؤسسات، فيلزم استبعاد الاشتغال في صناعة القرار في حالة الغضب، لأنه يؤدي إلى الغيظ والتوتر وفقدان التوازن، إذ هو لهيب يشتعل في صدر الإنسان فيفقد توازنه وهدوئه وسجيته الطبيعية، عبرت عنه السنة بـ «الجمرة»، كما جاء في حديث عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوَقَّدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ»^(٢)، ولذلك وصفه الغزالي بأنه: «غليان دم القلب بطلب الانتقام»^(٣)، ووجوده يقلص من مكانة الشخصية السوية، ففي الحديث: «أَلَا إِنَّ خَيْرَ الرَّجَالِ مَنْ كَانَ بَطِيءَ الْغَضَبِ سَرِيعَ الرِّضَا وَشَرَّ الرَّجَالِ مَنْ كَانَ سَرِيعَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الرِّضَا»^(٤).

فالغضب على أية حال خصلة إنسانية قد تفضي إلى الشجاعة فتحمد، أو إلى الكراهية والمقت للآخرين، فيكون لها أثر عميق على صناعة القرار، فالغضب رسول الإيمان عندما تنتهك الحرمات، وهو شجاعة في هذه الحالة وما يشبهها،

- ١- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، باب هَلْ يَقْضَى الْحَاكِمُ أَوْ يُنْتَى وَهُوَ غَضْبَانٌ، ح ٧٢٤٦.
- ٢- أخرجه: الترمذي، كتاب الفتن، باب مَا جَاءَ مَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ح ٢٣٥٠، أحمد، المسند ١٧ / ٢٢٩. وقال الترمذي: "حديث حسن".
- ٣- إحياء علوم الدين، الغزالي ٣ / ١٦٧.
- ٤- جزء من حديث: "ألا وإن الغضب جمرة" المتقدم واللفظ لأحمد.

ودافع قوي لصناعة قرار قوي إذا كان له ما يبرره، فمن شمائله عليه الصلاة والسلام أنه ما كان يغضب لنفسه ولا لنديا، فعن عائشة قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). وقد يكون رسول إبليس إلى الإنسان ليتخذ قرار الانتقام، فما دام الإنسان في حالة الغضب فلا يمكن أن يرى الحقيقة كاملة، فهو لا يرى من العملية برمتها إلا وجهها واحدا، أما الوجه الآخر فلن يراه إلا بعد أن يستعيد توازنه النفسي والروحي والفكري، مستعيذا بالله من همزات الشيطان ونفخه ونفته^(٢). فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أَوْصِنِي. قَالَ: لَا تَغْضَبُ. فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبُ»^(٣).

ثانيا: حالة الإرهاق والتعب الشديد: يقال: أرهقه عُسْرًا: أي كلفه إياه^(٤)، والإرهاق: أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ مَا لَا يَطِيقُهُ^(٥)، أو أن تحمل الإنسان على ما لا يطيقه^(٦)، فهو بناء على هذا إما أن يلزم الإنسان نفسه ما لا يطيق، أو أن يلزمه غيره ما لا يطيق. وفي معناه التَّعَبُ، وهو شِدَّةُ الْعَنَاءِ ضِدُّ الرَّاحَةِ... يقال: اتَّعَبَ الرَّجُلُ رِكَابَهُ: إِذَا أَعْجَلَهَا فِي السَّوْقِ، أَوْ السَّيْرِ الْحَثِيثِ^(٧). والحكم التكليفي: أن يعمل

١- أخرجه: مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب مَبَاعَدَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمَبَاحِ أَسْهَلَهُ وَأَنْتَقَمَهُ اللَّهُ عِنْدَ انْتِهَاكِ حُرْمَاتِهِ، ح ٦١٩٥.

٢- أخرجه: أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب مَا يُسْتَفْتَحُ بِهِ الصَّلَاةُ مِنَ الدُّعَاءِ، ح ٧٦٤. وجاء في البخاري عن سليمان بن صرد قال: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَجُلَانِ يَسْتَبَانِ، فَأَحَدُهُمَا أَحْمَرٌ وَجْهُهُ وَأَنْتَفَخَتْ أُودَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ؛ لَوْ قَالَ: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ". انظر: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس، ح ٣٣١٨.

٣- أخرجه: البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ح ٥٧٦٥.

٤- تاج العروس، الزبيدي ٢٥ / ٣٨٢.

٥- تهذيب اللغة، الأزهرى ٥ / ٢٥٩.

٦- تاج العروس، الزبيدي ٢٥ / ٣٨١.

٧- ينظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ٢ / ١٦٧، لسان العرب، ابن منظور ١ / ٢٣١.

المكلف ما يسعه ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود^(١)، ومن آثار الإرهاق والتعب:

١- الفتور والكسل: ولا فرق بينهما، فالفتور والفترة: الانكسار والضعف، قال الراغب: الفتور: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة^(٢)، فبناء على هذا فإن الفتور: هو الكسل والتراخي والتباطؤ بعد الجد والنشاط والحوية. أما الكسل فيقول القاضي عياض: «فترة تقع بالنفس وتثبط عن العمل»^(٣). ولا شك أن الفتور والكسل بهذا المعنى من آثار الإرهاق، وهو حمل النفس ما لا يطاق من العمل المستمر، والمطلوب مواصلة العمل فترة النشاط لا غير، عملاً بحديث: «لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»^(٤)، خاصة ونحن بصدد الحديث عن صناعة القرار الاستراتيجي، الذي قد يتطلب إنجازه أياماً وربما أسابيع، أو شهوراً، ويصعب مع طبيعة القرار التي تتطلب جهداً ووقتها حرق المراحل وتقصير المدة اللازمة، فلكل قرار فترته التي يستغرقها حسب طبيعته وآفاقه، وقد اشتغل الرسول عليه الصلاة والسلام على صناعة بعض القرارات التي لم تستكمل كافة عناصرها إلا بعد فترة من الزمن كقرار فتح مكة على سبيل المثال، فسورة الفتح نزلت قبل فتح مكة بعامين^(٥)، قال الزمخشري: «وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدّة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب

١- الكشاف، الزمخشري ١ / ٣٥٩.

٢- مفردات القرآن، الأصفهاني ٦٢٢.

٣- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض ١ / ٣٤٧.

٤- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب التهجيد، باب ما يكره من التشدد في العبادة ١٠٩٩، مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعى في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك، ح ١٨٦٧. وبين الحديث سبب هذا القول، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دخّل النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حبل ممدود بين السارين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا حلوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد».

٥- ينظر: تفسير ابن كثير ٧ / ٣٢٥، والتحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ١٣٠.

العزة سبحانه في أخباره»^(١)، لكن قرار الفتح هذا مرتبط بالتخطيط له على المدى البعيد، على الأقل حتى يتوفر له ما يكفي من الموارد اللازمة، وهذا ما سيتم الاشتغال على توفيره طيلة الفترة الفاصلة بين البشرى والتنفيذ حتى يستكمل القرار خطواته.

٢- الملل والضجر: قال ابن حجر: «الملل استثقال الشيء، ونفور الناس عنه بعد محبته»^(٢)، وهو داء نفسي يصيب المنهك في عمل ما يضعفه عن المواصلة ويتراخى، وقد ينقطع بعد جد وهمة ونشاط، وهذه حالة نفسية غير متزنة قد يكون لها آثار سلبية على صناعة قرار سليم، لأنه لا يتأتى مع استثقال المتابعة، بل مع النشاط والجد واليقظ، والقدرة على الحركة وبذل الجهد الفكري، فعن عائشة مرفوعاً: «اَكْلَفُوا^(٣) من العمل ما تُطِيقُونَ، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا...»^(٤).

أما العلاج النبوي لهذه الحالات، فهي:

١- القعود حتى يتجدد النشاط والحيوية: ففي السنة عن أنس مرفوعاً: «لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»^(٥)، يعني فليسترح ويقعد حتى يذهب عنه الفتور^(٦)، فهذا الحديث ورد بسبب الإنهماك في نوافل العبادة بنوع من المغالاة إلى حد الإرهاق، لكن لا مانع من قياس الأعمال الدنيوية على ذلك، من قبيل الاشتغال على صناعة القرار الذي يتطلب جهداً متواصلاً، فهو أيضاً يحتاج إلى مراعاة ما يعتري الإنسان من الملل والفتور بسبب الإرهاق،

١- الكشاف ٤ / ٣٣٤.

٢- فتح الباري ١ / ١٠٢.

٣- المعنى: أحبوا والزموا ما تحبون من العمل.

٤- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصر ونحوه، ح ٥٨٦١، مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين ٢١٥.

٥- تقدم تخريجه.

٦- العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٧ / ٢٠٩.

فالأجر على صناعة قرار حيوي، محققٌ وحاصلٌ إذا حسنت النيات بمقدار أجر العبادة أو أكثر إذا كان يندرج ضمن الأعمال الكفائية. والذي يلزم بناءً على هذا، أن يقتصر المكلف على ما يقدر على إنجازه ويتقنه ولو كان قليلاً إذا كان جيداً ومفيداً، وهو ما يدل عليه حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمِلُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»^(١).

٢- الاستراحة بأخذ قسط من النوم^(٢): النوم علاج نفسي وراحة بدنية من الإرهاق والتعب، ولقد كان النعاس أمانة للمشاركين من الصحابة بقيادته عليه الصلاة والسلام في غزوة أُحُد، في الوقت الذي كانوا فيه بصدد تنفيذ قرار حاسم ومصيري، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾^(٣)، وفي آل عمران أمانة ونعاساً قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾^(٤)، لأن الحالتين مختلفتان، قال الشعراوي: «فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين في غزوة أُحُد بعد أن أصابهم الغم في هذه الغزوة، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله ﷺ، أما في سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله، حيث كان الجميع على قلب رجل واحد، والإيمان يملاً قلوبهم جميعاً، ولا يوجد بينهم منافق، أو مراتب فغشيتهم جميعاً هذه الأمانة بالنعاس»، ومن فوائده أنه: «يزيل الخوف، ومن دلائل الأمن والطمأنينة

- ١- أخرجه: البخاري، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصر ونحوه، ح ٥٨٦١.
- ٢- قال ابن القيم: "وأنتع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أحمد وأنتع من آخره، ونوم وسط النهار أنتع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه وكثر ضرره". مدارج السالكين ٤٥٩/١
- ٣- قال ابن عاشور: "والغشِّي والغشيان كون الشيء غاشياً: أي غاماً ومغطياً، فالنوم يغطي العقل، والنعاس النوم غير الثقيل، وهو مثل السَّنة". التحرير والتنوير ٢٧٨/٩
- ٤- سورة الأنفال، الآية: ١١.
- ٥- سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

والثقة بنصر الله»^(١)، فكان هذا من رحمة الله بصنّاع القرار من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم في أقوى المواقف حرجا وشدة. فأخذ الكفاية من النوم يتجدد به نشاط الإنسان الذهني والجسدي، لأنه بدون ذلك قد يولد القرار مشوبا بعيب لا يحقق أهدافه، بسبب فتور الهمة الناتج عن الإرهاق الجسدي والفكري، خاصة إذا كان من النوع الذي يحتاج إلى دراسة البدائل والمقارنة بين الخيارات بحضور فكري متكامل، وقوة جسدية متحملة، ففي السنة: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»^(٢)، وعكس القوي هو الفاتر الذي لا يستطيع تحمل المزيد، بسبب الانهك الفكري والنفسي والجسدي، ويبرز خير القوي في صناعة قرار قوي لأنه قادر على إظهاره بقوته الفكرية والنفسية والبدنية، أما الضعيف، فخيره آت فقط من باب رفع الحرج عنه، لأنه لا يكلف بما لا يطيق.

٣- مراعاة الوُسع الممكن: الوسع: هو الطاقة والقدرة على فعل الشيء، والمكلف لا يلام فوق طاقته، لكن يعاب عليه إن قصر في وسعه، قال تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣)، فقليل يتقنه المكلف خير من كثير لا يتقنه، فصناعة القرار الاستراتيجي قد لا يتيسر بناؤه بعمل مستمر لا يتوقف، أو بجهد فرد واحد متواصل وهو فوق طاقته وحده، فقد يؤدي الاشتغال على صناعة قرار بهذه الصيغة إلى ولادة قرار مشوه، وهذا هو الذي يعالجه حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»^(٤)، ويستفاد منه أن الإسراف في الشيء

١- تفسير الشعراوي ص ٣٢١٤.

٢- أخرجه: مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ح ٢٦٦٤.

٣- سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

٤- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، ح ٥٨٦١.

يؤثر على مهارة العمل الناجح كما في حديث أبي هريرة المرفوع: «فَسَدُّوا وَقَارِبُوا»^(١)، والشاهد فيه: أن يكون العمل بالسداد: وهو القصد والتوسط، وبالمقاربة: وهي التوسط بين التفريط والإفراط^(٢)، وهذا هو المنهج المتميز الذي سنه الرسول ﷺ لكسر حالة الملل والضجر أثناء الانهماك في أي عمل هام، من قبيل صناعة القرار الذي يحتاج إلى فترة من الزمن والجهد المناسبين لموضوعه.

٤- الترويح عن النفس: الترويح عن النفس هو ضرورة إنسانية يحتاج إليه كل فرد، فعن أنس مرفوعاً: «رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً فَسَاعَةً»^(٣)، ويلحق بالترويح عن النفس ما ورد من ملاطفة الرسول ﷺ لصحابته، فقد داعب زيد بن ثابت بعد ما رد عليه سلاحه فقال له: «يَا أَبَا رُقَادٍ، نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلَاحُكَ»^(٤)، كما يؤخذ بعين الاعتبار أثناء صناعة القرار مواساة المتضرر والرفع من معنوياته، فعندما وقع قتلى وجرحى بين دوريتين من المسلمين، وأرجعوا الأمر إلى رسول الله قال: «جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ»^(٥). وربما ينشد شعراً كنوع من الترويح عن النفس ودفع الملل والضجر كما فعل أثناء حفر الخندق، فقد كان يرتجز بكلمات ابن رواحة يمد صوته بأخرها، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

- ١- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ح ٣٩.
- ٢- ينظر: فتح الباري لابن رجب ١ / ١٣٨.
- ٣- أخرجه: القضاعي، مسند الشهاب ١ / ٣٩٣، ح ٦٧٢، والدليمي في الفردوس ٢ / ٢٥٣، ح ٣١٨١. وعزاه المزي في تحفة الأشراف ١٣ / ٣٧١ إلى أبي داود في مراسيله، لكن لم أجده في المراسيل المطبوعة، وكذا فعل السيوطي في الجامع الصغير ١ / ٤٣٨. قال المناوي: "ويشهد له ما في مسلم وغيره: "يا حنظلة ساعة وساعة". وقال شارح الشهاب: إنه حسن". انظر: فيض القدير ٤ / ٥٤. وضعفه الألباني، انظر: ضعيف الجامع، ٦٨٩، ح ٦٨٨٥.
- ٤- أخرجه: الحاكم، المستدرک ٣ / ٤٢١، الواقدي، المغازي ٢ / ٤٤٨، بإسناد ضعيف.
- ٥- ينظر: مغازي الواقدي ٢ / ٤٤٧.

فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وتطبيقاً لمنهج الترويح دفعا لكل ملل وضجر قال أبو الدرداء: «إني أستجم - في رواية: إني لأجم - ببعض الباطل، ليكون أنشط لي في الحق»^(١)، أي اللهو الجائز لأنشط للحق. وقال علي عليه السلام: «أجموا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان»^(٢).

ثالثا: حالة الشك والتردد:

الشك لغة: خلاف اليقين، وهو التردد بين شيئين، سواء استوى طرفاه، أو رجع أحدهما على الآخر^(٣)، ويلحق به الظن والوهم، والشك يؤدي إلى التردد، وهو حالة نفسية تعترى الإنسان، فتجعله يتردد في صناعة القرار واتخاذها، فلا يستطيع الجزم بشيء معين.

أما كيفية معالجة هذه الحالة المؤثرة على صناعة القرار في الهدي النبوي، فيتم بناء على معرفة أسبابها، فإذا كان سبب الشك والتردد يرجع إلى خلل في أسس بناء القرار المتقدمة، فإن المعالجة تكون بإصلاح ما يعترى هذه الأسس من الأمور التي تفسدها، ففساد الاعتقاد يؤدي إلى الشك والتردد، وعدم التكييف الشرعي المناسب لموضوع القرار يؤدي إلى نفس النتيجة، وإقحام المكلف نفسه فيما لا يعلم عنه شيئا ولا خبرة له به يؤدي إلى النتيجة نفسها^(٤).

أما إذا كان الشك والتردد سببه هو المبالغة في الأخذ بالاحتياط المفرط، فهذا يعطل مهارة صناعة القرار واتخاذها، وقد يكون الاستشهاد بحديث: «دَعْ مَا يَرِيكَ

١- أخرجه: البغوي، شرح السنة ١٣ / ١٨٤.

٢- فيض القدير، المناوي ٤ / ٥٤.

٣- المصباح المنير، الحموي ١ / ٣٢٠.

٤- يمكن الرجوع للوقوف على النصوص التي تدعم هذا في البحث الأول.

إلى ما لا يربُّكَ»^(١) في غير محله إذا لم يؤخذ معناه في بعده العام، فالحديث فيه الأمر بترك ما يرتاب المرء فيه ولا تطمئن إليه نفسه، لكن لا يعمل بذلك على إطلاقه قبل الموازنة بين المصالح والمفاسد، إذ هو مقيّدٌ بالنظر إلى فقه الموازنة والمقارنة، يقول ابن تيمية: «فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك من الورع...»^(٢)، فإذا تعارضت مصلحتان وازدحمتا بحيث لا يمكن الجمع بينهما، وكان لا بد من ترك واحدة منهما للإتيان بالأخرى؛ فالمتعين فعل ما مصلحته أرجح وترك ما مصلحته أقل، قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٣). وكذا إذا اجتمعت مفسدتان بحيث يتعذر دفعهما جميعاً، بل كان في دفع إحداهما ارتكاب للأخرى، فالمتعين ارتكاب أخفهما وأيسرهما لدفع أشدهما. أما إذا تعارضت المصلحة مع المفسدة بحيث لم يمكن فعل المصلحة وتحصيلها إلا بارتكاب المفسدة، ولم يمكن دفع المفسدة إلا بتفويت المصلحة، فإن المتعين الموازنة والترجيح بين المصلحة المفوتة، والمفسدة المرتكبة، والعمل بمقتضى الترجيح، وهذا هو المستفاد من المنهج النبوي المطبق في القرارات الحيوية كما فعل مع يهود بني قريظة حيث اقتضت المصلحة القضاء عليهم واستئصال شأفتهم حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة بسبب خيانتهم ونقضهم العهد، ولم يكن الشك يراوده في القرار لوجود المفسدة في الإبقاء على هذه الطائفة التي ظهر فسادها، وستزداد فساداً إذا بقيت.

١- أخرجه: الترمذي، السنن، كتاب صفة القيامة، باب، ح ٢٥١٨، والنسائي، السنن الصغرى، كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، ٢ / ٢٣٤. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

٢- مجموع الفتاوى ١٠ / ٥١٢ - ٥١٣.

٣- سورة الزمر، الآية: ٥٥.

رابعاً: حالة اليأس والقنوط^(١):

حالة اليأس والقنوط من مشبطات العزائم عند صناعة القرار، وللسول عليه الصلاة والسلام منهج فعّال في التعامل مع هذه الحالة، فعندما يرى اليأس يذب في النفوس، ويزداد البلاء، ويشتد الكُرب، يبشر باقتراب النصر والتمكين وانفراج الأزمة دفعاً لكل يأس وقنوط، فهو القائل في ذروة اشتداد أزمة الأحزاب وتكالبهم على مهاجمة المدينة: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُفَرِّجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرُونَ مِنَ الشُّدَّةِ وَالْبَلَاءِ، فَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ آمِنًا، وَأَنْ يَدْفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ، وَلِيُهْلِكَنَّ اللَّهُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَلِتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وقد نشط النبي عليه الصلاة والسلام وسرّه ما قاله سعد بن معاذ باسم الأنصار أثناء صناعة القرار يوم بدر فقال: «سِيرُوا وَأَبْشَرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»^(٣)، فبشّرهم بالنصر وأبعد اليأس والقنوط عن القلوب، لأنه حالة نفسية معيقة لاتخاذ القرار وصناعته، فاليأس لا يتوقّع منه مسaire صنع القرار وتنفيذه ما دام قلبه لا يحذوه الأمل، ولا يتوقع الخير، ولا ينتظر إلا الأسوأ، فإن له ما يتوقعه ما دام ينتظر ذلك، ومن هديه عليه الصلاة والسلام في أشد المواقف توتراً، أن يزرع الأمل في النفوس ويبعدهم عن القنوط، فعندما أتاه غدر بني قريظة: «اضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشراً يقول: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره»^(٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

١- في الفروق اللغوية للعسكري ص ٤٣٦: "اليأس: انقطاع الطمع من الشيء، والقنوط: أخص منه، فهو أشد اليأس".

٢- السنن الكبرى، للبيهقي ٥٥ / ٩.

٣- السيرة، ابن هشام، ١ / ٦١٥.

٤- الرحيق المختوم، المباركفوي ٢٨٥.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَضْحَكُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، ثُمَّ أَنْصَرَفَ وَأَبْكَى الْقَوْمَ، وَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: «يَا مُحَمَّدُ، لَمْ تَقْنَطْ عِبَادِي؟»، فَرَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا، وَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا»^(١).

بعد غزوة أحد نزل قرآن يتلى يرفع المعنويات، ويحد من تسرب اليأس والقنوط إلى النفوس حتى لا تستسلم، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢)، والمعنى: «إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا»^(٣)، ثم دعاهم إلى ترك الضعف ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن، لأنهم الأعلون بسبب إيمانهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

المطلب الثاني: مؤثرات إجرائية معيبة تعرقل صناعة القرار

ترشد السنة النبوية من أجل إتقان مهارة صناعة القرار إلى جملة من الأمور التي يجب الاحتياط منها حتى لا تعوق القرار عند صناعته، وهي عيوب إجرائية قد تصاحب صناعة القرار، وتؤدي إلى زعزعته والتعثر عند تنفيذه، وقد يوجد أكثر من تحذير يجب الاحتياط منه حسب طبيعة القرار، لكن سأقتصر على مثالين فقط لآثارهما البارز على القرار، ولوجودهما على طرفي نقيض، وهما:

١- الاستعجال والاندفاع أثناء صناعة القرار.

٢- إرجاء صناعة القرار، أو إرجاء تنفيذه بدون مسوغ.

١- أخرجه: البخاري، الأدب المفرد ٢٥٤. وصححه الألباني في الصحيحة ١٢ / ٢٧.

٢- سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

٣- الكشاف، الزمخشري ١ / ٤٤٦.

٤- سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

المثال الأول: الاستعجال والاندفاع عند صناعة القرار: فهل كان عليه الصلاة والسلام يستعجل تنفيذ القرار قبل بناء أجزائه واستكمال أطرافه ومراعاة أسسه؟ ذلك ما لم يرد من سيرته وسنته، فقد أظهرت الأحداث الكبرى التي ترأس صناعة قراراتها كبدر وأحد والخندق والحديبية والفتح، وغيرها أنه لم يكن ليستعجل نتائج قرار مصيري قبل استكمال خطوات صناعته، فمن هديه عليه الصلاة والسلام عند صناعة القرار، التريث وطلب السداد والتوفيق في القول والعمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَرَّةً، وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ»^(١). والشرة: هي النشاط الزائد في الموقف الذي يتطلب التريث، ومعنى: فلا تعدُّوه: «أي فلا تعتدوا به ولا تحسبوه من الصالحين...»^(٢)، لأن الاتزان علامة النضج والصلاح ووسيلة إلى قرار صحيح، والاندفاع عند صناعة القرار قبل اكتمال خطواته يعجل باضمحلاله وفشله، خاصة إذا كان من غير روية، وقد يؤدي إلى الاندفاع عند صناعة القرار استعجال الثمار قبل نضجها، أو فورة الشباب والحماس الزائد، فعن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الآنأة من الله والعجلة من الشيطان»^(٣)، ويتفق مع هذا الحديث المثل السائر: «في العجلة الندامة وفي التأني السلامة»، وعليه فإن مما يعيب القرارات الحيوية والاستراتيجية الاستعجال في اتخاذها، إذ يلزم فيها التأني والتروي تفاديا للعواقب السيئة. وفي هذا الباب يمكن الاستفادة من منهج بناء الفتوى، ففي بنائها ورد في السنة تحذير من الإفتاء بغير علم، - ويقاس عليه صناعة القرار - خاصة وأن الفتوى قرار تمت صناعته من متخصص، بدءا بتحرير موضوع الفتوى بعد

١- أخرجه: الترمذي، السنن، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع، باب منه، ٤ / ٦٣٥، ح ٢٤٥٣. وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

٢- ينظر: تحفة الأحوذى، الأحوذى ٧ / ١٢٦.

٣- أخرجه: الترمذي، السنن، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب مَا جَاءَ فِي التَّائِي وَالْعَجَلَةِ، ح ٢١٤٤. قال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ".

استيعابه، ثم البحث عن التكييف الفقهي المناسب قبل الإعلان عن التنفيذ، ففي السنة: أن رجلاً أصابته جنابة وبه جراح فاحتلم، واستفتى، فأمره أن يغتسل، فاعتسل فمات، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ؟»^(١)، وعلى سبيل المقارنة فإن صناعة القرار يسلك نفس خطوات إعداد الفتوى عند معالجة النوازل والمستجدات، إلا أن صناعة القرار أعم من بناء الفتوى، إذ الفتوى جزء من مراحل صناعة القرار، خاصة عند البحث عن مشروعيتها، فبينهما عموم وخصوص.

المثال الثاني: إرجاء صناعة القرار أو إرجاء تنفيذه بدون مسوغ: القرار النبوي الحيوي والاستراتيجي ذي منفعة مشتركة عامة تتم صناعته لإنجاز عمل كفائي، فالقرارات النبوية لصد العدوان المعتدين، والنهوض بالتنمية، لا تعرف التراخي والفتور، وقرارات تدبير الأزمات، وسد الخصاص في الأعمال الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية كان العزم على المضي في إنجازها هو الحاضر في جميع الأحوال، فعندما قرر المسلمون بقيادته عليه الصلاة والسلام مواجهة الطائفة ذات الشوكة في بدر، لم يكن هناك بد في التنفيذ، إذ لا مسوغ للتردد في مواصلة بناء القرار وتنفيذه.

ثم إن القرار النبوي أثناء صناعته وفق خطواته المحددة السابقة، لا يتردد في اختيار البديل المناسب من بين البدائل المطروحة إذا ظهرت فائدته، أو إرجاء العمل به إلى وقت لاحق. وهذا هو سر نجاح قرارات الإسلام الاستراتيجية في كل المجالات في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، سواء في المعارك التي تم خوضها في الجبهات، أو في السرايا التي يتم بعثها إلى مختلف الجهات، وأيضا

١ - أخرجه: أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، ح ٣٣٧، أحمد، المسند، ١ / ٣٣٠، ح ٣٠٥٧، قال الزبلي في نصب الراية ١ / ١٨٧: قال البيهقي في المعرفة: هذا الحديث أصح ما روي في هذا الباب، مع اختلاف في إسناده قد بيناه في كتاب السنن .

في قرارات بناء دولة الإسلام وإرساء هيكلها بإتقان وثبات، فهذه وغيرها إنجازات كبرى كان من ورائها قرارات صنعت بمهارة نبوية صارمة، ثم جاء تنفيذها بدون تردد وإرجاء.

فعندما تجمعت الأحزاب على مهاجمة المسلمين في عقر دارهم بالمدينة، تم اتخاذ قرار صارم لا رجعة فيه، ولا يسمح بالإرجاء والتأخير على أية حال، فالموقف حرج لا بد من معالجته بما يلزم، فتم حفر الخندق حول المدينة لتحصينها، فبدأ عليه الصلاة والسلام بتنفيذ القرار بنفسه بدون تردد، ف«أسرع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تنفيذ الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعا»^(١)، فإرجاء تنفيذ القرار ليس في مصلحة المسلمين، لأن العدو عازم على المداهمة إذا لم يجد من يقاومه، قال الواقدي: «وَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ مُسْتَعْجِلِينَ يُبَادِرُونَ قُدُومَ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ مَعَهُمْ فِي الْخَنْدَقِ لِيُنَشِطَ الْمُسْلِمِينَ»^(٢).

ونتيجة لهذه المبادرة إلى الإنجاز في الوقت المناسب، لم يتمكن المشركون من اقتحام المدينة، إذ وجدوا خندقا عريضا يحول بينهم وبينها، ولم يكونوا مستعدين له، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتھا العرب، فلم يكونوا قد أدخلوها في حسابهم رأسا^(٣).

ورغم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يميل إلى عدم الخروج في معركة أحد خارج المدينة، فإنه نزل عند حكم الأغلبية التي تقترح الخروج لملاقاة العدو خارج أسوار المدينة، وكان هذا هو القرار النهائي الذي وقع الإجماع عليه، لكن تراجع بعض الصحابة عن مواصلة تنفيذ القرار ممن لم يوافق الرسول عليه الصلاة

١- الرحيق المختوم، المباركفوي ٢٧٧.

٢- المغازي، الواقدي ١/٤٤٦.

٣- الرحيق المختوم، المباركفوي ٢٧٧.

والسلام في رأيه، وساد نوع من التردد والارتباك في التنفيذ بعد ذلك، لكنه عليه الصلاة والسلام ما ترك لهم الخيرة من أمرهم، فقال وهم يحسم مادة الخلاف: «إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ^(١) أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»^(٢)، فجاء قراره عليه الصلاة والسلام نافذا ماضيا لا إرجاء فيه ولا تردد، وكأنه عليه الصلاة والسلام بهذا الموقف الحازم يعلم أصحابه: «درسا آخر من صفات القيادة الناجحة، وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها، ويغرس الفوضى بين الأتباع»^(٣).

ومن مواقف الحزم أيضا وعدم التردد في تنفيذ القرار أنه عندما استنفر الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة إلى الخروج إلى بني قريظة وحصارهم، كان الهدف هو الإسراع إلى تنفيذ عملية الحصار ربحا للوقت قبل فوات الأوان، فقال: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرْيَظَةَ»^(٤).

-
- ١- جاء في لسان العرب ١٢ / ٥٣٠: "اللأمة: مهموزة الدرع، وقيل: السلاح ولأمة الحرب: أداتها، وقد يترك الهمز تخفيفا، ويقال للسيوف: لأمة، وللرمح لأمة، وإنما سمي لأمة، لأنها تلائم الجسد وتلازمه، وقال بعضهم: اللأمة: الدرع الحصينة، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها".
 - ٢- أخرجه: أحمد، المسند ٣ / ٣٥١، وإسناده صحيح وهو على شرط مسلم.
 - ٣- السيرة النبوية الصحيحة ص ٣٨٠.
 - ٤- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب مَرَجَعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَخْزَابِ وَمَخْرَجِهِ إِلَى بَنِي قَرْيَظَةَ وَمَحَاصِرَتِهِ إِيَّاهُمْ، ح ٤١٦٩.

خاتمة

أهم المجالات التي تم التطرق إليها في هذا البحث أربعة: مهارة صناعة القرار النبوي - أسس صناعة القرار النبوي - خطوات صناعة القرار النبوي - ثم الاحتياطات عند صناعة القرار.

أما أهم النتائج في مجال صناعة القرار النبوي وأسسها، فهي:

- ١- أن صناعة القرارات النبوية الحيوية والاستراتيجية والمصيرية فيما لم يرد فيه نص من الوحي، تخضع للاجتهاد الذي يراعي جلب المصالح ودفع المفاسد، لكن مع ملاحظة أن هذا الاجتهاد يكون جماعيا ويرأسه قائد يديره ويسيره.
- ٢- أن مجالات القرار في العهد النبوي متعددة ومختلفة، تتم صناعتها حسب الحاجة لمعالجة قضايا متنوعة، أو مواجهتها، سواء تلك التي تهم الشؤون الداخلية أو الخارجية.
- ٣- أن كيفية صناعة القرار النبوي، هو مرجع صياغة القرارات عند الخلفاء من بعده، ومن سار على نهجهم ممن جاء بعدهم، وقد أدركوا أهمية الاستمداد من مهارة صناعة القرار النبوي، فعملوا بها في قراراتهم الحيوية والاستراتيجية، فكان لذلك أثر إيجابي على إدارتهم للشؤون العامة والخاصة. لكن لا ينبغي أن يتوقف هذا الاستمداد من السنة النبوية عند الرعيل الأول، ولا يستفيد منه من جاء بعدهم خاصة في هذا العصر الذي كثر فيه التقليد لما عند الغرب في كثير من القرارات التي تمت صناعتها.
- ٤- أن اعتماد صناعة القرار بناء على سلامة الاعتقاد، يحد من غلواء القرارات الجائرة، والتي من شأنها الإضرار بحقوق الإنسان، إذا لم يكن الوعي الإسلامي الناشئ عن عقيدة سليمة يصاحب صناعة القرار في كافة خطواته.

٥- أن صناعة القرار ينبغي أن يتجه رأساً إلى إنجاز عمل كفائي، يسد الحاجيات الاجتماعية في كل مجال حيوي واستراتيجي ومصيري، والتي لا يمكن الاستغناء عنها، ويترتب عن إهمال هذه الحاجيات الإضرار بمصالح الخلق والبلاد.

٦- أن إسناد صنع القرارات الحيوية والاستراتيجية لا بد أن يوكل أمره إلى ذوي الكفاءة العلمية، وذوي الخبرة الميدانية، والذين يُقدِّرون ما يُقدِّمون عليه حق قدره، ويتحملون نتائجه كاملة في جميع الأحوال.

وأما أهم النتائج في مجال خطوات صناعة القرار النبوي، فهي:

١- أن صناعة القرارات النبوية تعتمد على خطوات عملية مضبوطة ومدروسة، تساعد على خلق فرص النجاح والنصر، وتطرح في نفس الوقت سبل معالجة الإخفاق عند وقوعه، كما هو الشأن في القيام بغزوة حمراء الأسد، كمبادرة استعجالية احتياطية لتدارك ما وقع في غزوة أحد.

٢- أن صناعة القرارات النبوية تحرص على تحديد الأهداف في إطار الوعي الجمعي التوافقي بمختلف مظاهره وتوجهاته، فيساهم كل مكلف في صياغتها وتحديد بطريقتهم مباشرة في نطاق مسؤولياتهم، أو بطريقة غير مباشرة عن طريق من يمثلونه في مسؤوليات التدبير المجتمعي التكاملي التشاركي، على أساس تقاسم الأدوار الحيوية والوظائف الكفائية.

٣- أن القرارات النبوية تعتمد على المشاركة التفاعلية في صناعة القرار، فيؤخذ بكافة آراء ذوي الخبرة، فتخضع للتمحيص لاختيار المناسب منها وإبعاد غير المناسب، مع استحضار الفرق بين صانع القرار وصاحب القرار.

أما النتائج التي تم التوصل إليها أثناء معالجة محاذير واحتياطات صناعة القرار، فهي:

١- أن صناعة القرار النبوي مرتبط بضبط النفس أثناء بنائه، وبالاستعداد الجيد نفسياً وفكرياً واقتداراً عند الاشتغال على إنجازهِ، وقد تجلّى ذلك في تصرفات المتدخلين والمساهمين والمنفذين على حد سواء، ولم يكن ذلك سوى من آثار التربية النبوية التي تعلم كيف يتم الالتزام بحسن التصرف عند تحمل المسؤوليات، وقد زكى القرآن الكريم هذه التربية النبوية فقال: (وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) كان هذا بعد صلح الحديبية بعد أن اهتزت بعض النفوس بسبب قرار الحديبية، وفي ذلك دليل على أن صناعة القرارات المهمة لا ينبغي أن يوكل أمرها لمن لا قدرة له على ضبط طباعه الغير المتوازنة، لأنها من مسببات تعثر القرارات بفقدان المهارة عند صنعائها.

٢- أنه يجب الانتباه إلى كل المحاذير التي يمكن أن تعرقل مسار صناعة القرار، على سبيل المثال بالاحتياط من استعجال صناعة القرار قبل استكمال خطواته اللازمة، أو إرجاء التنفيذ عن وقته المحدد، لأن ذلك يفقده المصدقية والجدوى، والمأمول هو أن يتحقق به المبتغى والمراد، فنسأل الله الكريم الهدى والرشاد.

فله الحمد والمنة على ما أنعم به وتكرم، وله الحمد والشكر والثناء الجميل أولاً وآخراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربا العلمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحابه أجمعين.

التوصيات:

يضع البحث هذه التوصيات للتأمل ورهن إشارة:

أولاً: العمل على نشر ثقافة بناء المهارات المستخلصة من السنة النبوية الشريفة، ومن السيرة العطرة لما تتميز به من خصائص الربانية والحكمة والواقعية والمشروعية وتحقيق أهداف ومقاصد نبيلة.

ثانياً: استخلاص مجزوءة مختصرة من مهارة صناعة القرار وتنميتها في السنة النبوية الشريفة، ودمجها وإقرارها ضمن عُدّة التكوين والتدريب في مؤسسات تكوين الأطر، علماً أن الحاجة ماسّة إلى تنمية مهارة صناعة القرار لدى كل خريج يلج سوق العمل والإنتاج.

ثالثاً: العناية بتربية الناشئة على التفكير الإيجابي أولاً، وعلى الاعتماد على النفس ثانياً، وعلى ضرورة تحمل المسؤوليات ثالثاً، وعلى تشجيع أخذ زمام المبادرة رابعاً، لأن هذه العناصر الأربعة هي السبل المؤدية إلى صناعة القرارات في المستقبل، والميسرة لسلوك خطوات بنائه، فناشئة اليوم هم من سيصنع قرارات المستقبل، فإعدادهم على هذا الأساس واجب وهو جزء من التربية اللازمة، والله ولي التوفيق.

مراجع البحث ومصادره

- إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، نشر: دار المعرفة - بيروت.
- الأدب المفرد، للحافظ محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، نشر: دار البشائر الإسلامية-بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، نشر: المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).
- إسفار الفصيح، صنعة أبي سهل محمد بن علي بن محمد الهروي النحوي، دراسة وتحقيق: د. أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.
- إصلاح المنطق لابن السكيت، لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، نشر: دار المعارف-القاهرة، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.
- الأموال، حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني المعروف بابن زنجويه، تحقيق: د. شاكر ذيب فياض، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- البداية والنهاية، للامام الحافظ ابي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الاولى (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

- التاريخ الإسلامي / مواقف وعبر، للدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، نشر: دار الدعوة للطبع والنشر، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، القاهرة.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي لفيض المرتضى، الزبيدي محمد ابن محمد بن عبد الرزاق، تحقيق مجموعة من المحققين، نشر: دار الهداية.
- تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، نشر: دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ).
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، نشر: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة (١٩٨٤هـ).
- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، لجمال الدين عبد الله الزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار النشر - دار ابن خزيمة-الرياض (١٤١٤هـ)، الطبعة الأولى.
- تفسير محمد متولي الشعراوي، ليس على الكتاب الأصل -المطبوع- أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام (١٩٩٧م).
- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت (٢٠٠١م).
- التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، نشر: دار الفكر المعاصر، دار الفكر-بيروت، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).

- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، نشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٥هـ).
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، نشر: السعادة - بجوار محافظة مصر (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م).
- دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى (١٩٨٥م).
- الرحيق المختوم، لصفي الدين عبد الرحمن المباركفوري، دار الوفاء.
- السلسلة الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، ناشر: مكتبة المعارف - الرياض.
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السُّجِسْتَانِي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ بن موسى بن الضحاك، الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).

- سنن الدارقطني، لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، نشر: دار المعرفة-بيروت (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م).
- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت - لبنان (١٣٢٤هـ / ٢٠٠٣م).
- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق وتخريج: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر: مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، لعلي بن برهان الدين الحلبي، نشر: دار المعرفة (١٤٠٠هـ)، بيروت.
- السيرة النبوية / دروس وعبر، لـ مصطفى بن حسني السباعي، نشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).
- السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، نشر دار الجيل (١٤١١هـ) بيروت، لبنان.
- السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مكتبة الحلبي، القاهرة (٣٢٠).
- شرح صحيح البخاري، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، نشر: مكتبة الرشد-السعودية، الرياض - الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م).
- شرح معاني الآثار، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن

- سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق وتقديم: محمد زهري النجار، محمد سيد جاد الحق، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي، نشر: عالم الكتب، ط ١ (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردى الخراساني البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م).
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني الحنفي، بعناية جماعة من العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، طبعة دار الفكر، بدون تاريخ.
- عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لمحمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس، تحقيق: محمد الخطراوي، ومحي الدين مستو، نشر: مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ودار ابن كثير، دمشق، بدون تاريخ.
- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، نشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى (١٣٩٦هـ).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو

- الفضل العسقلاني الشافعي، نشر: دار المعرفة-بيروت (١٣٧٩هـ).
- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير- لمحمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، نشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م).
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، نشر: دار صادر-بيروت، الطبعة الأولى.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ناشر: مكتبة الرشد-الرياض، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ).
- كتاب المغازي للواقدي، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق: مارسدن جونس، نشر: بيروت-عالم الكتب.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المجتبى من السنن [السنن الصغرى للنسائي] لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، نشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين الهيثمي، تحقق: حسام الدين القدسي، نشر: مكتبة القدسي، القاهرة، (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- مجموع الفتاوى، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية

الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزائر، نشر: دار الوفاء، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م).

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).

- مرويات غزوة بدر، أحمد محمد باوزير، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٠هـ.

- المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى (١٤١١هـ / ١٩٩٠م).

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).

- مسند الشهاب، لمحمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، نشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م).

- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى ابن عياض اليحصبي السبتي المالكي، نشر: المكتبة العتيقة ودار التراث، بدون تاريخ.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي

- المقري الفيومي، نشر: المكتبة العلمية - بيروت.
- المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، نشر: المجلس العلمي - الهند، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، نشر: مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م).
- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، نشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر، طبعة (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهان، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ناشر: دار العلم الدار الشامية، طبعة دمشق - بيروت، سنة (١٤١٢هـ).
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، نشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.
- موطأ الإمام مالك، لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبغي المدني، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان (١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م)، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت. تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

- الواضح في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، نشر:
دار الكلم الطيب، دار العلوم الانسانية- دمشق، ط ٢ (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).

صناعة التَمَيُّز العسكري للجُند
في السُّنة النَّبَوِيَّة

د. عبد الحكيم محمد ثابت العراشي
جامعة عدن - اليمن

من أبرز فقرات البحث

«إن علو الهمة وسمو الطموح ورفعة الهدف لدى الجند لا تتحقق إلا متى ما عمل قائد الجيش على تحفيزها بحيث تجعل الجندي ينسلخ من أغلال العجز والكسل لينطلق في الحياة العسكرية فاعلاً إيجابياً؛ لأن تشجيع المتميزين يعني إعطاءهم رعاية خاصة، وتهيئة الظروف التي تساعدهم على تنمية طاقاتهم الإبداعية كل في مجال نبوغه. وهذه المعاملة التي عامل بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جنده، فكان - صلى الله عليه وسلم - لا يدع ميزة في كل جندي إلا استفاد منها، فاستقطب تلك المميزات في بناء الجيش، ولا يضع الجندي إلا في المكان المناسب، فكان لذلك فضل عظيم في نضوج مواهب الجند ونمو مقدراتهم، وفتح الآفاق لتألقهم، ومن ثمَّ يعلو البناء العسكري للجنود في الدولة الناشئة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي له ما في السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي بعثه بشيراً ونذيراً، فأرشد ونصح، وسلك بأمرته سبيل الرشاد، فكانت خير أمة أخرجت للناس، وبعد:

مثل العصر النبوي قمة العصر الإسلامي وحضارته، ففيه تبلورت هوية الأمة، وتشكلت سلوكياتها، ووضحت معالمها، وتحددت أهدافها؛ إذ كان معلم الأمة - صلى الله عليه وسلم - على صلة مباشرة مع الوحي؛ فطفق يعلم الأمة ويوجهها، فكانت فترة تربوية تم فيها بناء المجتمع في كافة الأصعدة والمجالات العقائدية والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية.

وبناءً على ذلك فإن كل ما صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأقوال والأفعال والقوانين والمفاهيم والمصطلحات والأحكام والضوابط تُعد أصلاً من أصول الدين الإسلامي، ومصدراً من مصادره، كما يشكل هذا العصر مقياساً ومرجعياً لكل عصور الدول الإسلامية به تقاس، وإليه يُرجع، لهذا يُشار إلى هذا العصر بالبنان، تهوي إليه الأفتدة، وتتطلع إليه الأنفس للوصول إليه أو على الأقل للاقتراب منه.

يرجع السبب في اختيار موضوع صناعة التميز العسكري للجنود في السنة النبوية هو إيمان من الباحث بخدمة الإسلام والمسلمين في هذا الجانب، نتيجة لما أصاب الأمة من تدهور وانحطاط في المجال العسكري، الناتج عن ركودها

في هذا الجانب، والانقسامات في صفوف جيشها، ولعل السبب - من بين عدة أسباب - وهو فشلها الذريع في إعداد الجندية.

فرغم محاولاتها المتعددة والمتكررة والخجولة لإعداد الجندية إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل، فبدلاً من أن تفتش الأمة في ماضيها القشيب، لكي تستلهم منه الدروس والعبر وتنسج منه حاضرها، ذهبت تفتش في النظريات العسكرية المعاصرة في إعداد الجندية.

إننا لا نعني بهذا إهمال التطور العسكري المعاصر، بل يجب على الأمة أن تُعد عدتها في هذا المجال بما يشمل من التعليم والتدريب، وإقامة المصانع الحربية، وأن تكون في وضع الاستعداد الحربي، فهذا أمر دل عليه القرآن، وأكدته السنة النبوية؛ لكننا نعني بذلك إيجاد القاعدة الصلبة التي نبني عليها صرح المؤسسة العسكرية؛ أي إعداد القوى البشرية، حيث إنها هي من ستتدرب وتتعلم وستقف وراء السلاح وتحركه، لذا من الأخرى والأجدي أن يتم إعداد الجندية (القوى البشرية) إعداداً روحياً وتربوياً ونفسياً، وإعطاء المتميزين فرصهم؛ ليظهروا مقدراتهم.

تعالج هذه الدراسة صناعة التميز العسكري للجند في السنة النبوية، وذلك من خلال السؤال الآتي: ما أهمية تميز الجند في المؤسسة العسكرية؟

فالمتتبع للدراسات العسكرية المعاصرة يشعر بوجود فجوة بين العلوم العسكرية المعاصرة، وعلوم القرآن والسنة لأسباب عدة، ومن هنا تحاول هذه الدراسة أن تجيب عن تساؤل كبير؛ وهو ما مدى الانسجام والتوافق بين العلوم العسكرية وعلوم القرآن والسنة؟.

إن دراسة الهدي النبوي للتمييز في الجانب العسكري له أهميته لكل مسلم؛

فهو يحقق عدة أهداف من أهمها:

١- الاقتداء برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، من خلال معرفة شخصيته -صلى الله عليه وسلم- وأعماله، وأقواله، وأساليبه، وطرائقه في إعداد الجنديّة، واكتشاف المتميزين وتشجيعهم.

٢- التعرف على حياة الصحابة المتميزين، الذين جاهدوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فتدعو لمحبتهم والسير على نهجهم وأتباع سبيلهم.

٣- يعد موضوع التميز في الجيش من المواضيع المهمة في العلوم العسكرية؛ لأنه يتعلق بتطوير الجيش.

وتهدف الدراسة إلى بيان أن السنة النبوية مصدر أساسي في كل مجالات الحياة؛ ومنها المجال العسكري. وبيان اهتمام السنة النبوية بفئة المتميزين، ودورها في اكتشافهم، وتشجيعهم، وتوجيههم، وتنمية مواهبهم.

لقد حاول الباحث البحث عن بعض الدراسات، التي تطرقت إلى هذا النوع من المواضيع؛ إلا أننا عجزنا عن إيجاد دراسة متخصصة في هذا الجانب، وكل ما وجدناه هو عبارة عن دراسات شاملة تناول الجوانب العسكرية بشكل عام من غير أن يتناول فيها الباحثون مسائل التميز العسكري؛ لهذا فقد جاءت هذه الدراسة لتقدم إضافة معرفية جديدة في الجانب العسكري.

المبحث الأول: العقيدة العسكرية للسنة النبوية في إعداد الجنديّة.

مما لا شك فيه أن الجيش الإسلامي في العصر النبوي تميز بالقيم والمبادئ الإنسانية، وبالمقدّرات والمهارات القتالية، والمعرفة والإلمام بفنون الحروب وأساليبها.

ومن المجزوم به أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- بذل جهداً لا يستهان به في سبيل إعداده إعداداً تربوياً، وعسكرياً؛ لهذا فقد عمل على تربيته بما يتلاءم مع النهج الذي يخدم العقيدة ويحرر البشرية من الظلم؛ فيكون بذلك قد أرسى القواعد، والمبادئ، والنظم الرئيسة للجيش الإسلامي، وهو ما يسمى اليوم بالعقيدة العسكرية. وتعرف العقيدة العسكرية بأنها: مجموعة من القيم والمبادئ الفكرية التي تهدف إلى إرساء نظريات العلم العسكري وعلوم فن الحرب، لتحديد بناء القوات واستخدامها في زمن السلم والحرب بما يحقق الأهداف والمصالح الوطنية، هذا التعريف يغطي جميع مستويات العقيدة، ويركز على المستوى الاستراتيجي ويعطيه اهتماماً خاصاً باعتباره أساساً لبقية مستويات العقيدة^(١).

١- الأبعاد التربوية للعقيدة العسكرية:

إن الدارس للعصر النبوي وتاريخه العسكري يستطيع أن يلاحظ انهماك الرسول -صلى الله عليه وسلم- في توجيه العديد من النصائح والوصايا والتوجيهات الحربية، المستمدة من المنهج القرآني والتي يمكن فهمها على أنها خلاصة العقيدة العسكرية التربوية في السلك العسكري، ومحور الارتكاز في بنية المؤسسة العسكرية.

فقد سعى -صلى الله عليه وسلم- إلى تأصيل البنية التربوية على النهج الذي يخدم أهداف التوحيد والعقيدة والدين الإسلامي والأمة الإسلامية، وبما يضمن

١- العقيدة العسكرية والمفاهيم الاستراتيجية، لحسين بن محمد موسى الحكمي، ١٧.

قيام الجُند بواجبهم على أتم وجه، وترسيخ عُرى المحبة والاحترام بينهم وبين قادتهم، وكذا بينهم وبين المجتمع .

ولتحقيق هذا الغرض اهتم - صلى الله عليه وسلم - بتربية الجند وفق الأسس التربوية بجميع أبعادها الروحية والأخلاقية والنفسية، وقد انطلق - صلى الله عليه وسلم - في تربية جيش الإسلام على القاعدة الأساس وهي قاعدة الإيمان بالله سبحانه، فعندما يكون الجندي مؤمناً بالقاعدة الأساس، سيكون مؤمناً بالفروع المتفرعة عنها.

أ- البعد الإيماني:

إن من أهم المبادئ التربوية التي حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على غرسها في قاداته وجنده هي تقوى الله، والتوكل عليه، والفرع إليه، ومسألته التأييد والنصر والظفر والتعظيم في وجوه العدو، وكذا التسليم المطلق لأوامر الله، واستخارته في كل الأمور والعمل على مرضاته، والالتزام بأوامره - صلى الله عليه وسلم - .

فمن الشواهد على ذلك ما كان عليه الاعتقاد السائد في ذلك الوقت المتمثل بأن النصر بالعدد والعدة، فصحح الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم هذا الاعتقاد؛ ففي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ أعجب الجيش بكثرتهم حينما صاروا اثني عشر ألفاً، فقالوا: «لن نغلب اليوم من قلة»^(١)، فكره - صلى الله عليه وسلم - ما قالوا، ما أعجبهم من كثرتهم^(٢)، لكن هذه الجموع التي أعجبوا بها لم تغن عنهم من الله شيئاً، فكان درساً جعلهم يدركون حقيقة أن النصر بيد الله وليس مرهوناً بالقوة المادية وكثرة العدد قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ

١- تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦٨.

٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، ٢/ ٢٤٦.

أَعَجَبْتُكُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿ [التوبة: ٢٥] .

وهكذا تتجلى لنا الصورة مما سبق أن نصر الجيش يكمن بمدى الالتزام
بشرع الله واتباع سنة النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - فمن نهج هذه الطريق
فله النصر والتمكين، ومن سار على عكس ذلك فله الذل والهوان، فسرَّ نصر
الجيش يكمن في طاعتها لربها واقتدائها بسنة نبيها - صلى الله عليه وسلم - .

ب- البعد المعنوي (التوجيه المعنوي):

لقد تميزت العقيدة النبوية بأنها احتوت اختلاف طبيعة الجند، من ميول،
واهتمام، وأنشطة مختلفة؛ فمنهم الناضجون انفعالياً؛ وهم الذين لا يجزعون،
ولا يهلعون في مواقف الإحباط والهزيمة، ولديهم قدرة على التحمل والصبر،
وضبط النفس تجاه الإغراءات والمصالح، ومنهم غير ناضجين من ليس لديهم الثقة
بالنفس، ولا أدنى درجات احترام الذات، وبين الفريقين أصناف وأصناف .

لذا سعت السنة النبوية إلى غرس الخصال العسكرية في خلق الجندي المسلم
وسلوكه غرساً يجعل منه مقاتلاً من الطراز الأول، فالجندي لا بد أن يتمتع بالطاعة
والصبر والشجاعة والثبات، وأن يضحى بماله ونفسه في سبيل تحقيق أهداف أمته
ومصلحتها العليا، فمن أهم مبادئ هذا البعد:

- حماية الجبهة الداخلية من الإرجاف والوهن:

حرصاً على ترسيخ عقيدة الثقة بالنفس، وحماية الجبهة الداخلية، عمل - صلى
الله عليه وسلم - على رد كل ما يوقع في نفوس جنده من الوهن والخوف والعمل
على حمايتهم من طعون الأراجيف، فكان لا يكل ولا يمل من تقديم المواساة للجنود
المهزومين لإخراجهم من مستنقع الإحباط.

واستخدم - صلى الله عليه وسلم - أسلوب التشجيع وإشاعة الروح المعنوية وقت الضعف، والإشعار بالأمن وقت الحرج أو الخوف، وبيان ذلك من السنة ما حدث في معركة الخندق نجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبعث التفاؤل في اللحظات الصعبة فأمامه عشرة آلاف مشرك، فيساعد جنده ويشجعهم، فعن البراء رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعْرَ صَدْرِهِ، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعْرِ، وَهُوَ يَرْجُو بَرَجَزَ عَبْدِ اللَّهِ: «اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا... فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِينَا... إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ آبِينَا» يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ»^(١).

- الشجاعة والإقدام:

في الوقت الذي تنزلت فيه آيات القرآن لعرض جوانب العقيدة في الله والكون والإنسان والحياة، نزلت آيات تحث على الثبات والشجاعة والإقدام على اعتبار ذلك سمة لا بد منها في شخصية وعقيدة المقاتل، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَكَاءٍ يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

كما أكدت السنة النبوية على هذه السمات، بل إنها اعتبرت الجبن والتخاذل والتولي يوم الزحف من الكبائر، كما نص على ذلك حديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام^(٢).

لذا فقد كان - صلى الله عليه وسلم - القدوة في الشجاعة والإقدام وعدم

١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الرَّجْزِ فِي الْحَرْبِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، ١١٠٣/٣، ح ٢٨٧٠.

٢- ينظر: نص حديث السبع الموبقات. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى إن الذين يأكلون، ١٠١٧/٣.

الفرار من المعركة؛ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَىٰ إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ»^(١).

- الصبر:

ومن الأمور التربوية التي حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يزرعها في قواده وجنده الصبر؛ لأن الصبر هو مفتاح النصر، وهو الصبر على مرارة الجهاد، وما تثيره النفس من انفعالات مختلفة، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله؛ لذا فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يحثهم على قتال الأعداء، وينصحهم على التحلي بالصبر في ميادين القتال؛ لكي تتقوى روحهم المعنوية، ويصمدوا عند ملاقات أعدائهم.

ومن الدلالات تراجع المسلمين في غزوة حنين، ولم يتراجع الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وهو بموقفه هذا استطاع أن يجمع المسلمين مرة أخرى ويحقق بهم النصر^(٢)، فتعلم جنده من ذلك درساً في الصبر والثبات؛ ومن الشواهد التي تدل على الصبر قوله - صلى الله عليه وسلم - : «لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»^(٣).

(ج) البعد الانتمائي: من أبعاد هذا البعد الآتي:

- توحيد أفراد الجيش ووحداته تحت راية الأمة:

عمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نبذ كل عنصرية وهوى وإقليمية، فلو تأملنا في الثلة التي حملت لواء الرسالة لوجدنا هذا البعد، فسلمان فارسي، وبلال حبشي، وصهيب رومي، وعلي قرشي...، فكلهم جند في الجيش.

١- المستدرك، للحاكم، كتاب قسم الفيء، ٢/ ١٥٥.

٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ٥/ ١٦٦.

٣- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، ٥/ ١٤٣.

واقطلع - صلى الله عليه وسلم - جذور الجاهلية وجراثيمها، ولعل ما يؤكد ذلك حديث جابر بن عبد الله قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ^(١) رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ»^(٢).

- تحقيق مبدأ الأخوة والتناصح:

حرم الرسول - صلى الله عليه وسلم - حمية الجاهلية، وقيد ذلك التناصر الذي جرت الجاهلية العربية على إطلاقه وهو: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ونجد ذلك في قول عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رُدِّيَ فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنبِهِ»^(٣)، وتغيرت بذلك نفسية الجندي المسلم وعقليته حتى أصبح المسلم لا يورد ذلك المثل العربي السائر، ولعل ما يؤكد تغير نفسية الجندي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟» قَالَ: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(٤).

ومن هذا المنطلق فإن الهدف من نبذ العصبية وتوطيد الإخوة بين أفراد الجيش هو إيجاد قاعدة صلبة تقوم عليها الحياة العسكرية منطلقة في ذلك من الولاء العقيدي لأفرادها لا من ولاء الدم والنسب والقرباة.

- ١- كَسَعَ: ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه. تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزبيدي، مادة كسع، ١٢٢/٢٢، المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون، باب الكاف، ٧٨٧/٢.
- ٢- صحيح مسلم، المسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً، ١٩/٨.
- ٣- سنن أبو داود، لأبي داود، كتاب الأدب، باب في العصبية، ٤/٤٩٣. وقد صححه الألباني. ينظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني، ١١٥٣.
- ٤- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل، ٦/٢٥٥٠.

د) البعد الأخلاقي:

- النظافة الخلقية:

اهتم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمعالجة النفس من شحها، وتخليصها من مطامعها؛ لأن النفس البشرية تحب المال حباً جَمّاً، فعمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تربية الجند على النظافة الخلقية، والسمو بالنفس فوق كل الاعتبارات المادية؛ لأن الجوانب المادية أكبر مفسدة للنفس.

فقد عرف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأخذ بأيدي جنده، ورفعهم إلى المستوى السامق، حيث عمل على شحذ النفوس، وتجريدها من علائق الدنيا، فقبل غزوة خيبر أعلن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن لا مكان بينهم لمن يرغب في الغنيمة، وأن لا يخرج معه إلا الراغب في الجهاد^(١). كما كان عليه الصلاة والسلام يُعلم جنده بالعاقبة لمن يأخذ أي شيء من الغنائم مهما صغر دون وجه حق^(٢)، لذا كان النهي عن الغلول^(٣) تتصدر توجيهاته التربوية لقاداته وجنده قبل توجيههم إلى ساحات القتال^(٤)، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على وجود فئة لم ترسخ لديها أهداف الجهاد وتعاليم الدين الجديد؛ لهذا حرصت السنة على توضيح ذلك، فكان في ذلك دروس تربوية لتهديب النفوس وإصلاحها.

- القيم الأخلاقية:

لم يقف منهجه - صلى الله عليه وسلم - عن هذا الحد بل شمل آداب الحرب

- ١- كتاب المغازي، للواقدي، ٢ / ٦٣٤، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلى، ٤ / ٤٤.
- ٢- الموطأ، للإمام مالك، ٢ / ٤٥٨.
- ٣- الغلول: وهو أخذ شيء من الغنيمة قبل قسمته بين أهل الجيش الذين غنموها. ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للأزدي، ٢٩.
- ٤- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ٥ / ١٣٩.

والتعامل مع العدو، فنجد ذلك من توجيهاته - صلى الله عليه وسلم - عندما يؤمر أميراً على الجند قوله: «اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا»^(١) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا.. الحديث»^(٢).

ومن هنا ندرك الغايات العظيمة، التي من أجلها شرع الحرب، فلم يكن الجيش الإسلامي جيشاً يتشفى بقتل خصومه، وإذلالهم، ولا رغبة في الاستعلاء والاستعباد، ولا الاستكبار في الأرض، ولا ترضى له عدالة الإسلام أن يأخذ العدو على غرة، ولا يفجع أما بوليدها.

كما حرمت السنة قتل النساء والأطفال الذين لم يشتركوا في الحرب؛ فقد ذكر ابن عمر - رضي الله عنه - أنه وجدت امرأة مقتولة في بعض المغازي فنهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن قتل النساء والصبيان^(٣).

لقد أرست السنة القاعدة الأساسية في التفرقة بين المقاتلين من الأعداء الذين تُوجَّه إليهم الأعمال الحربية فيحل قتلهم، وغير المقاتلين الذين لا تُوجَّه إليهم الحرب فلا يحل قتلهم، فقصر القتال على الذين يقاتلون حقيقة أو حكماً، وهم العسكريون ومن في حكمهم، ومنع من قُصد قتل المدنيين الذين لا يشتركون في القتال؛ وإن كانوا جميعاً أعداءً.

كما يذكر ابن عمر - رضي الله عنه - ما كان يصيب من طعام بقوله: «كُنَّا نُصِيبُ فِي مَغَازِينَا الْعَسَلَ وَالْعَنْبَ فَنَأْكُلُهُ وَلَا نَرْفَعُهُ»^(٤). وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عدم التبذير والتبديد.

وعلى هذا الأساس فإن الجيش الإسلامي تربي ألا يبدد الثروة، بل يحافظ

- ١- التمثيل: هو العبث بالقتلى بقطع الأطراف، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، للزرقاني، ٣ / ١٨.
- ٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ٥ / ١٣٩.
- ٣- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ٥ / ١٤٤.
- ٤- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الخمس، باب ما يصيب من الطعام في أرض الحرب، ٣ / ١١٤٩.

عليها، لذا نراه يحافظ على الثروة الزراعية، ويحافظ على البنية التحتية، وهذه أساليب يجب أن تتحلى بها الجيوش لأنها مفتاح النصر؛ وإن رأى البعض عكس ذلك.

فهذه هي سماحة الإسلام وعدالته، وهذا هو منهجه التربوي وأخلاقه، فلا يستبيح القرى والمدن ولا يشهر سلاحه في وجه العزّل والمستضعفين، فهو جيش تربي أن لا يستبيح أعراض الناس، بل يصونها، ويفي بالعهود، ولا يسطو على ممتلكات الناس، بل يحميها.

وبناءً على ما سلف فإنه من الضروري -بل من اللازم- أن يستفيد قادة الأمة الإسلامية والمدارس العسكرية الحديثة من المنهج التربوي للجيش الإسلامي في العهد النبوي، وهذه الاستفادة يمكن أن نوجزها بالآتي:

١- على صناع القرار وقادة الجيوش في الديار الإسلامية أن يعوا أن الإعداد الروحي والجسمي والنفسي للجند أهم من دعمه بالعتاد والأسلحة الحربية؛ لأن الجند هم الذين سيديرون هذه الأسلحة.

٢- يجب إعداد القادة والجند إعداداً دينياً من خلال الالتزام بكتاب الله وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، والاقتران بالسلف الصالح، عن طريق إنشاء المعاهد العسكرية، وإلحاق المعسكرات بالعلماء والفقهاء والوعاظ، ونشر الثقافة العسكرية الإسلامية، وتجنيد معسكراتنا وجيوشنا بما يسمى وسائل الترويح المتمثلة بالملاهي الليلية ودور المسارح.

٣- لابد من إعداد الجندي المؤمن الذي يذكر الله كثيراً، والذي يحافظ على طاعة ربه، ويجتنب ما نهاه الله عنه، والذي يضع نصب عينيه خدمة دينه ووطنه.

٤- أن قوة الجيش الحقيقية ليست بالعدد والعدة، ولكن هي بقوة الإيمان بالله

والعمل على مرضاته، ولم يحصل يوم من الأيام أن كانت قوة المسلمين أقوى من قوة الكافرين؛ فالكافرون دائماً هم الأكثر والأقوى من ناحية العدة والعتاد، ولكن جانب الإيمان يرجح كفة المسلمين على عدوهم.

إن المتأمل للجيش في العصر النبوي يدرك أنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بسبب تربية خلقية وتزكية النفس، حيث إنه مكث زمناً طويلاً تحت تربية محمد -صلى الله عليه وسلم- وإشرافه الدقيق يزيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد، والورع، والعفاف، والأمانة، والإيثار على النفس وخشية الله، فنتج عن ذلك تكوين جندي راسخة الإيمان، قلوبها معلقة بالسماء.

٢- مبادئ العقيدة العسكرية في السنة النبوية لرفع الجاهزية القتالية في:

(أ) التدريب:

اهتم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بتدريب جنده تدريباً عسكرياً بجوانبه المختلفة، انطلاقاً من إيمانه الشديد بأن التدريب يعد من العوامل المؤدية لرفع كفاءة الجيش وقدراته وجاهزيته القتالية.

لذا فقد حرص -صلى الله عليه وسلم- على إكساب جنده البنية الجسمية والمهارات في التدريب على الأسلحة والثقافة بها والحذق في استعمالها، بل كانت نظرتة أبعد من ذلك، حيث رأى ضرورة أن تُبين كل أمور الحرب فيتعلمها الأصاغر، فضلاً عن الأكابر من طلاب معرفة الحرب، وكذا الأجناد وكل راكب وحامل سلاح فارساً كان أم راجلاً؛ والهدف من تدريب وتعليم الأكابر والرجال والأطفال هو خلق أمة قادرة على البذل والعطاء في هذا المجال بهدف الوصول إلى الهدف النهائي وهو بناء القوة العسكرية، فمن مبادئ هذا المبدأ الآتي:

- البناء الجسمي:

لقد حثت السنة النبوية على المحافظة على سلامة الجسم وتقويته ومن ثم تدريبيه، فقد بينت الأحاديث النبوية كل ما من شأنه أن يضر الجسم ويؤثر في بنيته، فمثلاً نجدتها تحث على تناول الأطعمة والأشربة التي تساعد على بناء الجسم وتقويته، وتحذر من الأطعمة والأشربة الضارة.

فقد ثبت عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «... فَإِنَّ لَجَسَدَكَ عَلَيْكَ حَقًّا.. الحديث»^(١)، وقال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ.. الحديث»^(٢).

والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق^(٣).

- تنمية المهارات القتالية:

حثت السنة على تعلم الرماية وركوب الخيل، والسباق في الجري، والسباق بين الفرسان على الخيل والإبل والمصارعة وغيرها من ألوان التربية البدنية والرياضية التي تبني الجسم وتقويه، لما لها من أهمية في إعداد الجندي.

ويعد التدريب على الرماية من المواضيع التدريبية المهمة؛ حيث كان يتم تدريب الجنود عليها، ومما هو جدير الإشارة إليه بهذا الصدد ما ذكر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حديث سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قال: «مَرَّ

١- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر، ٦٩٧ / ٢.

٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، ٥٦ / ٨.

٣- شرح صحيح مسلم، للنووي، ٢١٥ / ١٦.

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَّضِلُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فَلَانَ». قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟» قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ! قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْمُوا فَإِنَّا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ»^(١)، ومن الشواهد أيضاً ما ذكر من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا الْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِرَابِهِمْ، دَخَلَ عُمَرُ فَأَهْوَى إِلَى الْحَصَى فَحَصَبَهُمْ بِهَا، فَقَالَ: «دَعُهُمْ يَا عُمَرُ»^(٢).

إن أهمية الرمي في الحروب جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يبحث عليها لما لها من تأثير في الحروب؛ فقد ذكر عنه -صلى الله عليه وسلم- من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ يَقُولُ: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ»^(٣).

لقد بين الحديث ما للرمي من أهمية في الحروب فإذا كان الرمي في الماضي هو السهام؛ فاليوم هو الرمي بالصواريخ والمدفعية وغيرها من آلات الرمي، فعلى ولاية أمرنا وقادة جيشنا أن يعدوا العدة في هذا الجانب.

ومن مواضع التدريب، التدريب على فروسية الخيول، والتدريب على فنون الحرب بها، ومن صور تشجيعه -صلى الله عليه وسلم- على الفروسية وإجراء المسابقات والتدريب عليها ما رواه ابنُ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابَقَ بِالْخَيْلِ الَّتِي قَدْ أَضْمَرْتِ مِنَ الْحَفِيَاءِ، وَكَانَ أَمْدُهَا ثِنْتَةَ الْوَدَاعِ، وَسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تَضْمَرْ مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ فِيمَنْ سَابَقَ

١- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، ٣/١٠٦٢.

٢- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اللهو بالحراب، ٣/١٠٦٣.

٣- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، ٦/٥٢.

بها»^(١).

- المحافظة على الكفاءة القتالية:

كما كان - صلى الله عليه وسلم - يحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية فقد ذكر عنه - صلى الله عليه وسلم - من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى»^(٢)، ومعنى ليس منا؛ أي ليس على سيرتنا؛ لأن الرمي من آلة الجهاد فإذا تركه من علمه نسيه^(٣).

ومن حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْخُلُ الثَّلَاثَةَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ؛ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالْمُدَّةُ بِهِ»^(٤) وَالرَّامِيَ بِهِ. وَقَالَ: «ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، وَكُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيْبُهُ فَرَسَهُ، وَمَلَاعَبَتُهُ أُمَّرَاتَهُ، فَإِنَّهِنَّ مِنَ الْحَقِّ. وَمَنْ نَسِيَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ فَقَدْ كَفَرَ الَّذِي عَلَّمَهُ»^(٥). وهذا الحديث إن دل على شيء فإنما يدل على حثه - صلى الله عليه وسلم - لأُمَّته على القوة^(٦).

يقول النووي: «هذا تشديد عظيم في نسيان الرمي بعد علمه، وهو مكروه كراهة شديدة لمن تركه بلا عذر، والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب

- ١- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل، ٦ / ٣٠.
- ٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، ٦ / ٥٢.
- ٣- كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، ١ / ١١١١.
- ٤- المدد به: هو الشخص الذي يقوم عند الرامي فيناوله سهماً بعد سهم، أو يردّ عليه النبل من الهدف. لسان العرب، لابن منظور، مادة مدد، ٣ / ٣٩٦.
- ٥- المسند، لأحمد بن حنبل، مسند الشاميين، وقد علق شعيب الأرنؤوط على الحديث بقوله: حديث حسن بمجموع طرقه وشواهد، ٤ / ١٤٤. وأشار الترمذي إليه، انظر: سنن الترمذي، للترمذي، فضائل الجهاد، باب فضل الرمي في سبيل الله، ٤ / ١٧٤، وقال الترمذي: "حسن"، سنن ابن ماجه، للقزويني، كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، ٢ / ٩٤٠.
- ٦- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية، للسعدي، ٢٩٩.

والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك»^(١)، وعلى هذا الأساس فإن التدريب ضروري حتى لذوي الخبرات، فلا يكتفِ المقاتل بخبراته السابقة بل ينبغي تطويرها عن طريق التدريب.

فالحديث السابق حث على استمرارية التدريب، وعدم تركه، وأهمية ذلك:

١- أن يكون الجندي دائماً تحت الجاهزية القتالية.

٢- أن يحافظ الجندي على مستوى كفاءته.

٣- الارتفاع بمستواه إلى الأفضل، ولعل ما يوضح الاستمرارية في التدريب؛ لرفع الكفاءة والمستوى المهاري ما ورد من حديث عقبة بن عامر الجهني -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ، وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ، فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ»^(٢).

صفوة القول؛ إن التدريب العسكري يهدف بالدرجة الأولى إلى إتقان الجند الأشياء الأساسية في القتال (فردية وجماعية)، وهذا يدل على أن الجيش كان جيشاً نظامياً بما تعنيه الكلمة من معنى.

(ب) الصناعة الحربية:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وعلى هذا فإن الآية قد أكدت على الاستعداد بالأسلحة والمعدات الحربية كما دلت على ذلك كتب التفسير^(٣)، ولتحقيق هذا الغرض اقتضت العقيدة العسكرية إعداد العدة الحربية؛ والمتبع

١- شرح صحيح مسلم، للنووي، ١٣٥٧.

٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، ٥٢ / ٦.

٣- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ٣١ / ١٤؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٥ / ٨؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨٠ / ٤.

للجيش الإسلامي يستطيع أن يلحظ أن الجيش مر في عملية التسليح بأربع مراحل؛ وهي كالآتي:

- مرحلة الإعارة: لقد استعار -صلى الله عليه وسلم- من صفوان بن أمية مئة درع بما يكفيها من السلاح^(١).

- مرحلة الشراء: حرص -صلى الله عليه وسلم- على شراء الأسلحة؛ فقد أرسل قسماً من خمس ماسباه في إحدى المعارك واشترى به خيلاً وسلاحاً^(٢).

- مرحلة التصنيع: عمل -عليه الصلاة والسلام- على تشجيع الصناعة الحربية، فمن الأمثلة على ذلك التشجيع على صناعة الأسهم، ما أوضحه -صلى الله عليه وسلم- من أن الأجر الذي غايته الجنة ينسب إلى صانعها والمتنبل بها، والرامي بها، فمن حديث حديث عُبَيْدِ بْنِ عَامِرِ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْخُلُ الثَّلَاثَةَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ؛ صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالْمُدَّبُّ بِهِ...» الحديث^(٣).

- مرحلة الاكتفاء الذاتي في الصناعة الحربية:

حرص الرسول -صلى الله عليه وسلم- على بناء قوة عسكرية مسلحة تسليحاً جيداً؛ ولعل ما يؤكد التسليح الجيد للجيش هو أن الكتيبة التي كان بها الرسول -صلى الله عليه وسلم- التي تحركت لدخول مكة كانت مدججة بالسلاح لا يرى الناظر إليها إلا الحديد والسلاح، ولقد ذُهِلَ أَبُو سَفِيَانَ عِنْدَمَا رَأَاهَا^(٤).

يتضح مما سبق أن إعداد الجيش إعداداً عسكرياً، ووضعه تحت الجاهزية، واليقظة التامة أمر مهم لمتطلبات الدولة الإسلامية، فقد كان الجيش في العصر

١- الطبقات الكبرى المعروف بطبقات ابن سعد، ابن سعد، ٢ / ١٥٠.

٢- السيرة النبوية، لأبن كثير، ٣ / ٦١٣.

٣- سبق تخريجه.

٤- عيون الأثر، ابن سيد الناس، ١ / ٣؛ السيرة النبوية، لابن كثير، ٣ / ٥٥٠.

النبوي يقوم بنشاطات تدريبية مركزة تتمثل في ركوب الخيل، والسبق، والرماية، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحثهم على فعل ذلك، بل ويشاركهم فيه، معطياً من نفسه القدوة، وكان - صلى الله عليه وسلم - يركز على تعلم الرماية كثيراً موضحاً أنها خير ما يعدُّ من قوة .

٣- عقيدة الاستراتيجية العسكرية في السنة النبوية:

تتفرع عن العقيدة العسكرية ما يُسمَّى بـ: «الاستراتيجية العسكرية»^(١)، أوبـ: «سياسة الحرب» وهي الاستراتيجية، أو السياسة التي توجّه الحروب، وتتحكم بأهدافها، وتضع المخططات اللازمة لتحقيق النصر العسكري^(٢)، ويتفرع تحت هذا العنوان الآتي:

أ) هدف الاستراتيجية العسكرية:

إن استراتيجية العقيدة العسكرية في الإسلام تبنى على هدف نبيل وغاية سامية؛ فإذا تأملنا في نصوص مصادر العقيدة العسكرية الإسلامية - القرآن والسنة - يمكن أن نستنتج أنها تهدف إلى حماية حرية نشر الدعوة الإسلامية، وإلى نشر السلام، وإلى الدفاع عن دار الإسلام، وحماية المستضعفين؛ فتعاليم القتال في القرآن الكريم، تنص على الوفاء بالعهود، واحترام المواثيق، والترفع عن الظلم والعدوان، وإقرار السلام.

ومن هذا المنطلق فإن فلسفة الحرب في عقيدة الإسلام أنها حربٌ لا مطامع فيها، ولا مصالح مادية، ولا نفوذ أو زعامات؛ بل هي حرب العدالة والدفاع عن الحق، ورد العدوان، وإطفاء نار الفتن، وحماية المستضعفين، فهذا هو الهدف الذي غرسه النبي - صلى الله عليه وسلم - في جنده، فطبّقه خير تطبيق.

١ - الاستراتيجية: تعني فن القيادة العامة في الحرب بأجمعها. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وأبرز المعارك التي خاضها. لمحسن محمد حسين، ٢٠٧.

٢ - الجيش في اليمن في عصر الدولة الرسولية، لعبد الحكيم محمد العراشي، ١٧٦١٧.

ب) الاستراتيجية التنظيمية:

- التخطيط العسكري:

غني عن القول إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- اهتم اهتماماً بالغاً بأمر التخطيط العسكري، سواء أكان الهدف من هذا التخطيط تحقيق الاستقرار واستتباب الأمن أم إنجاح الحملات العسكرية، وفي استراتيجيته -صلى الله عليه وسلم- في وضع الخطط لم يكن من حق القائد وحده؛ بل يتم وضعها بعد المشاورة، وهو ما يعرف اليوم بالمجالس الحربية وهيئة الأركان العامة؛ ولدينا من الشواهد على ذلك طلبه -صلى الله عليه وسلم- المشورة من أصحابه قبل معركة بدر^(١).

إذن على قادة الجيوش الإسلامية أن يحذوا حذوه، ويسيروا على نهجه، فقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم الوصول برأيه إلى قائد جيشه، بل ربما يتجاوزه.

لقد أراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تعليم القادة والأمة سنة التشاور والأخذ بالرأي؛ فالرسول -صلى الله عليه وسلم- معصوم من الخطأ ولكن في ذلك درساً من دروس فنون التعلم والاستفادة من أهل الخبرات، فإذا كان هذا القائد هو نبينا يستقبل النصح والإرشاد فكيف يكون الأمر بالنسبة لولاة أمرنا وقادات جيوشنا.

وبناءً على ذلك يمكن القول إن المبدأ الذي أقره الرسول -صلى الله عليه وسلم- في التخطيط العسكري مسؤولية مشتركة تقع على عاتق جميع الجند، وضرورة استشارة أصحاب الرأي، وضرورة تنفيذ الخطة بعد المشورة.

١- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٢/ ١٩.

١ - استراتيجية التنظيم العسكري:

الإبداع بالتنظيمات المبتكرة، وعدم تقليد القديم من خصائص القيادة النبوية؛ فكان -صلى الله عليه وسلم- يُقسم الجيش بنظام الصفوف في بدر وهذا لم يكن معروفاً من قبل، وكذلك حفر الخندق في غزوة الأحزاب؛ لم يكن من الأمور المعروفة عند العرب في حروبهم^(١).

كما أوضحت كتب السيرة أن الجيش الإسلامي كان يطبق التكتيكات^(٢) العسكرية في ساحة القتال بما فيه من تقدم، ومشاورة (المصادمة بالسهم)، ومناوشة، ومناجزة (التصادم المباشر)، والكر، والفر، والانحياز (ترك مكان القتال)، والازدوار (التحول جانباً)، والاستطراد (المطاردة)، والإنابة، وكل هذه التحركات تحدث بشكل منظم من أفراد الجيش؛ لأن أي خطأ سيؤدي إلى اختلال تنظيم الجيش، وتعطيل الخطط؛ لهذا فمن المؤكد أن قادة الجيش يقومون بتدريب جندهم على هذه الحركات مسبقاً، وإلا كيف يستطيع مئات الجنود التحرك حركة واحدة عندما يعطى لهم الأمر بذلك. وعلاوة على ذلك كان الجنود يتدربون على الإشارات والمصطلحات التي تعطى لهم من قبل القادة المتعلقة بتحركاتهم في أثناء القتال.

ولما كانت مسألة إصدار الأوامر من أهم الصعوبات التي تواجه القادة بحكم كثافة الجيوش، لجؤوا إلى تدريب الجنود على نداءات وشعارات، وضربات طبول، وهزات رايات، وكل شيء يدل على عمل يقوم به الجنود^(٣).

١- تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، لمحمد بن جرير الطبري، ٣٢/٢.
٢- التكتيك: يعني فن القيادة في ميدان المعركة. الجيش الأيوبي، لمحسن محمد، ٢٠٧.
٣- ينظر: الجيش والقتال في صدر الإسلام، لمحمود أحمد محمد سليمان عواد، ٢٠٠٢، ٢٥٢٢٦١.

المبحث الثاني: أساليب السنة في اكتشاف المتميزين من الجُند.

لقد استخدم النبي -صلى الله عليه وسلم- عدداً من الأساليب لاكتشاف المتميزين؛ فمن تلك الأساليب:

١- الخبرة النبوية في اكتشاف الخبرات العسكرية:

إذا أردنا أن نكتشف الخبرات بشكل عام والخبرات العسكرية بشكل خاص؛ فلا بد أن ندرس خبرة أفضل شخصية عرفتھا البشرية الذي فضلھا رب العالمين؛ وهي شخصية سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، التي تجسدت فيها الريادة والتوجيه والإرشاد؛ وهي صالحة لكل الأزمان والأحوال، ويلزم كل من جاء بعده -صلى الله عليه وسلم- أن يتبعه في منهجه.

لقد امتلك -صلى الله عليه وسلم- من المهارات والخبرات التي من خلالها يستطيع أن يكشف عن الخبرات العسكرية لجنده؛ فالدارس للسيرة النبوية يلحظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد صنع قادة كثيرين ممن كانت لديهم قدرات قيادية، ومنهم من وجهته المدرسة النبوية إلى ما يحسن القيادة.. وأما الذين رباهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد كانوا قادة بارزين في معظمهم^(١).

والمهارات التي امتلكها -صلى الله عليه وسلم- بالكشف عن الخبرات العسكرية كثيرة، ونكتفي بالإشارة إلى قدرته -صلى الله عليه وسلم- على توقع ما يدور في النفوس؛ وعلى التعامل مع كل شخص بما يناسبه؛ والمقدرة الفائقة على عمل تقرير سريع للموقف، والوصول إلى القرارات السليمة تجاه كل شخصية.

١- صناعة القائد، طارق السويدان، ويفصل باسراويل، ٨٢ وما بعدها.

ومن الشواهد التي تؤكد لنا ذلك حديث أبي ذر الغفاري قال: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَلَا تَسْتَعْمَلُنِي (أي توليني عملاً عاماً)؟ قَالَ: فَضْرَبَ يَدَهُ عَلَى مَنْكَبِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»^(١).

وإذا تأملنا وأحسننا التأمل في سيرة أبي ذر سنجدُه شخصية زاهدة في الحياة، معرضة عن الدنيا، وهي شخصية لا تصلح للإمارة.

٢- الاستشارة:

تعد طلب الاستشارة من الأساليب التي يستطع بها القائد اكتشاف المتميزين؛ لأنها تعطيهم فرصة للظهور وتسمح بإظهار أفكارهم ونبوغهم بحيث يستفاد منها في المجال الذي تم الاستشارة فيه. ولذلك استخدم النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الأسلوب كثيراً، مما كان له كبير الأثر في العديد من الجوانب العسكرية.

فمن الشواهد على ذلك استشارته - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه في غزوة بدر، فعندما خرج - صلى الله عليه وسلم - إلى بدر نزل أدنى من ماء بدر فأراد أن يتخذَه ساحة للقتال؛ فطلب المشورة فقال الحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ - رضي الله عنه -: «يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزَلًا أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلُهُ ثُمَّ نَغُورُ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقَلْبِ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلُؤُهُ مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ أَشْرَتَ بِالرَّأْيِ»^(٢).

١ - صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٦/٦.
٢ - السيرة النبوية، لابن هشام، ٢/١٩٢. ينظر أيضاً: فقه السيرة، للغزالي، ٢٢٤.

إن طلب الرسول -صلى الله عليه وسلم- المشورة من جنده، يعني التعرف على الجند المتميزين من خلال طرح آرائهم وأفكارهم حول الخطة، فما كان لخطة الحباب التي سُرَّ بها الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن تُطرح لولا أسلوب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الاستشارة. فأتت بخطة واستراتيجية جديدة وكاملة.

إن أسلوب الاستشارة التي رَّبَّى عليها الرسول -صلى الله عليه وسلم- أصحابه مكنته الاستفادة من عقولهم، فالجندي في منهجه -صلى الله عليه وسلم- ينجح نجاحًا باهرًا، وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يفكر برأيه المجرد، أو يعتمد على آراء عصبية، وإنما كان يفكر بآراء جميع أفراد جنده ويتيح الفرص لهم لإظهار تميزهم.

وأيضًا يتجلي التميز في المشورة الحربية بمشورة سلمان الفارسي -رضي الله عنه- بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، فكان حفر الخندق عملاً عسكرياً لم تعرفه العرب من قبل، وهذا أحد الأسباب الرئيسة في صد جيش المشركين، بتوفيق من الله تعالى.

فهذه الشواهد تؤكد حقيقة لا مرأى فيها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يعطي لذوي العقول المتميزة حقها في المشاركة في صنع القرارات، ومن ثم الاستفادة مما يتولد من أفكار تخطيطية تسهم في أسباب النصر، بما يؤكد أن السنة النبوية تعطي في مضامينها التربوية فرصاً للمتميزين للكشف عن تميزهم وتقوم برعايتهم وتوجيههم.

٣- توجيه السؤال للجنود للقيام بمهمة محددة:

من المؤكد أن أي جماعة من الجماعات يوجد بين أفرادها فروق فردية، فمن

هذه الفروق وجود أفراد متميزين، ويختلف جانب التميز من شخص لآخر، وهذا التنوع سيؤدي إلى خدمة الجماعة، لأنه سيؤدي إلى إسناد المهام إلى المتميزين، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف نكتشف هؤلاء المتميزين؟ إن الإجابة المنطقية على هذا السؤال هو أنه يتم اكتشاف المتميزين بطرق عدة منها: الاستشارة وإجراء المسابقات، والملاحظة، والزيارة الميدانية، والمقابلة، والطلب للقيام بمهمة ما.

ومن الطبيعي أن يوجه سؤال لأي شخص للاستفهام، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يطرح الأسئلة أحياناً، ليحرك ذكاءهم ويثير فطنتهم، ويختبر ما عندهم من جوانب مميزة، فمن الشواهد التاريخية ما حدث في إحدى المعارك فقد أشهر الرسول -صلى الله عليه وسلم- السيف وقال: «مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا، فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا. قَالَ: فَمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ، قَالَ: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرِشَةَ أَبُو دُجَانَةَ -رضي الله عنه-: أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ. قَالَ فَأَخْذَهُ»^(١).

وهذا الزبير بن العوام -رضي الله عنه- يصف لنا ما فعله أبو دجاجة -رضي الله عنه- يوم أحد قال: «وَجَدْتُ فِي نَفْسِي حِينَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّيْفَ فَمَنْعَنِي وَأَعْطَاهُ أَبَا دُجَانَةَ، وَقُلْتُ: أَنَا ابْنُ صَفِيَّةَ عَمَّتِهِ، وَمَنْ قُرَيْشٍ، وَقَدْ قُتُّ إِلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ قَبْلَهُ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَتَرَكَنِي، وَاللَّهُ لَأَنْظُرَنَّ مَا يَصْنَعُ، فَاتَّبَعْتُهُ، فَأَخْرَجَ عَصَابَةً لَهُ حَمْرَاءَ، فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: أَخْرَجَ أَبُو دُجَانَةَ عَصَابَةَ الْمَوْتِ، وَهَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ لَهُ إِذَا تَعَصَّبَ بِهَا. فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي... وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي دجاجة سماك بن خريشة، ٧ / ١٥١.

أَلَا أَقْوَمَ الدَّهْرَ فِي الكَيْوَلِ^(١)... أَضْرِبُ بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ^(٢)

فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ. وَكَانَ فِي المُشْرِكِينَ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَنَا جَرِيحًا إِلَّا ذَفَفَ^(٣) عَلَيْهِ، فَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْنُو مِنْ صَاحِبِهِ. فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فَالتَقِيَا، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَضْرَبَ المُشْرِكُ أَبَا دُجَانَةَ، فَاتَّقَاهُ بِدِرْقَتِهِ، فَعَضَّتْ بِسَيْفِهِ، وَضْرَبَهُ أَبُو دُجَانَةَ فَقَتَلَهُ^(٤).

مما سبق يتضح الآتي:

- ١- هناك أفراد متميزون يحتاج إلى البحث عنهم واستقلال مواهبهم.
- ٢- أن توجيه السؤال لمجموعة لتكليف أحدهم القيام بمهمة سيقود إلى ظهور عدد منهم يريدون القيام بها، وهنا يظهر الحاجة إلى عامل المفاضلة الذي يعتمد على الخلفية السابقة للقائد عن الأفراد.
- ٣- يجب أن يكون معيار الاختيار في الشخص الذي تسند إليه المهمة هو معيار الكفاءة والقدرة؛ لا الصحبة والقربة.

ولكن ليس في كل الحالات يبرز الشخص المتميز عندما يطلب القائد من جنده تكليف أحدهم القيام بمهمة، وفي هذه الحالة يعتمد القائد على معلوماته السابقة عن المتميزين من جنده، ولعل ما يؤكد ذلك حديث حذيفة قال: «لَقَدْ رَأَيْتَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذْتَنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ». فَسَكْتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ

- ١- الكَيْوَلُ: مؤخرة الصفوف. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة كيل، ٦٠٤/١١، مختار الصحاح، للرازي، باب الكاف، ٥٨٦/١.
- ٢- السِّنُّ الكَبْرَى، للنسائي، باب الرخصة في الجز عند الحرب، ١٥٥/٩.
- ٣- ذَفَفَ: أجهز عليه. ينظر: المخصص، لابن سيده، ٢١٥/٤، الاتباع، للبغدادي، ٧٣/١.
- ٤- السيرة النبوية، لابن هشام، ٦٨-٦٩.

الْقَوْمَ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مَنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مَنَّا أَحَدٌ فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةَ فَاتْنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ». فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ قَالَ: «اذْهَبْ فَاتْنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَعْتُ قُرْرُتُ فَالْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ فَضْلِ عِبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانٌ»^(١).

إن عدم استعداد أحد الجند القيام بالمهمة جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يختار أحد الجند معتمداً في ذلك على معلوماته السابقة عن هذا الجندي، ولعل أهم المعلومات هو تميز هذا الجندي بالانضباط وتنفيذ الأوامر الذي يعد من الشروط الرئيسة في العمل الاستخباري.

إن الدروس المستخلصة مما ذكر هو أن على قادة الجيوش الإسلامية الاهتمام بجانب جمع المعلومات عن الجند مثل نقاط ضعفهم وجوانب قوتهم، وإدراج هذه المعلومات في أنظمة خاصة، والعمل على متابعة ما يطرأ من تغير في السلوكيات، وهذا العمل يسهل على قادة الجيوش مهمة معالجة جوانب الضعف في جوانب الشخصية العسكرية، وتعزيز الجوانب الإيجابية، وسينتج عن ذلك بناء شخصية متميزة.

١- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، ٥ / ١٧٧.

٤- الزيارة الميدانية:

تعد الزيارات الميدانية من أهم الأساليب التي يمكن من خلالها اكتشاف المتميزين؛ لأنها تعتمد على المعاينة في الواقع، وتزداد أهميتها في المؤسسة العسكرية؛ لأن التميز في المؤسسة العسكرية دائماً يكون في الميدان.

وقد كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يعتمد هذا الأسلوب في اكتشاف المتميزين في مختلف المجالات، فقد عرف عنه أنه شديد الصلة بالواقع، لذا كان يكثر من هذا الأسلوب.

ومما تجدر الإشارة إليه بالمجال العسكري حديث عن أبي موسى قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا [نفذ زادهم] فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»^(١).

فمن خلال الحديث يتضح الآتي:

- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم بالزيارات الميدانية لتفقد الجيش واكتشاف المتميزين.
- من خلال الزيارات الميدانية لاحظ تميز الأشاعرة عن غيرهم بالتعاون والتآزر، وهي ميزة ضرورية في المؤسسة العسكرية.
- أن التميز لا يعني تميز أفراد، فقد يكون التميز جماعياً.

٥- المسابقات:

اهتم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالمسابقات؛ لأن المسابقات وسيلة من

١- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الشركة باب الشركة في الطعام، ٢/ ٨٨٠، صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الأشعريين، ٧/ ١٧١.

الوسائل التي يمكن من خلالها الكشف عن المتميزين من الرماة والرجالة والمبارزة والفرسان.

وقد مر معنا في المنهج العسكري كيف كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشجع على الرماية والفروسية وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على أن القائد العسكري تقع على عاتقه مهمة إجراء المسابقات للتدريب، والكشف عن المتميزين.

ولعل ما يؤكد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يستخدم المسابقات للكشف عن المتميزين حديث سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قوله: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَالِنَا سَلْمَةَ، قَالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمَيْنِ، سَهْمُ الْفَارِسِ، وَسَهْمُ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا، ثُمَّ أَرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَاءَهُ عَلَى الْعُضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ، قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يُسَبِّقُ شِدًّا، قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ: أَلَا مُسَابِقٌ إِلَى الْمَدِينَةِ! هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ! فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ. قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهُ قُلْتُ: أَمَا تَكْرُمُ كَرِيمًا، وَلَا تَهَابُ شَرِيفًا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبِي وَأُمِّي ذَرْنِي فَلَأَسَابِقَ الرَّجُلَ، قَالَ: إِنْ شِئْتَ. قَالَ: قُلْتُ أَذْهَبُ إِلَيْكَ، وَثَنَيْتُ رَجُلِي فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، قَالَ: فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ، أَسْتَبْقِي نَفْسِي، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ، قَالَ: فَأَصْكُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ سَبِقْتَ وَاللَّهِ! قَالَ: أَنَا أَظُنُّ. قَالَ: فَسَبَقْتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ»^(١).

لا عجب أن يفوز سلمة في السباق وتميزه على أقرانه في المضمار؛ لأنه قد تميز في ميدان المعركة، فقد قال عنه الرسول بعد انتهاء المعركة «... وَخَيْرَ رَجَالِنَا

١ - صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي غرد، ٥ / ١٨٩.

سَلَمَةٌ... الحديث».

٦- الملاحظة المباشرة:

تعتبر الملاحظة مورداً خصباً للحصول على معلومات، وبيانات عن الجند؛ فهي تساهم إلى حد كبير في تشخيص جوانب التميز.

إذن الملاحظة من الأساليب التي تساهم في الكشف عن المتميزين، وهذا الأسلوب يعتمد على ملاحظة تأدية الجند لواجباتهم، والقيام بالمهام الموكلة إليهم على أتم وجه، ففي معركة أُحُد لاحظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- تميز أبي طلحة -رضي الله عنه- بالرمي وفي استبساله برد المهاجمين من المشركين، وكان كلما مر رجل من المسلمين ومعه الجعبة من النبل، يقول له الرسول -صلى الله عليه وسلم-: «انْثَرَهَا لِأَبِي طَلْحَةَ»^(١)، ومن الشواهد أيضاً في المعركة نفسها ملاحظته -صلى الله عليه وسلم- لتمييز سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- بالرمي، وكان في المشركين رجلٌ أحرق المسلمين بنبله، فقال الرسول -صلى الله عليه وسلم- لسعد: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»، قال سعد: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جنبه فسقط^(٢).

٧- المقابلة:

تعد المقابلة من المقاييس الممتازة لقياس المتميزين، فالفرد لا يصبح متميزاً إلا إذا تميز من أقرانه المناظرين له في المقابلة وأظهر فيها تميزه.

وما هو جدير الإشارة إليه بهذا الصدد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رد جماعة من الفتيان لصغر أعمارهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشر أو دون ذلك، بلغ عددهم أربعة عشر صبياً، وأجاز -صلى الله عليه وسلم- رافع بن خديج

١- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء، ١٩٦/٥.

٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب فضل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، ١٢٥/٧.

وسمرة بن جندب^(١) - رضي الله عنهما - لما اظهراه من مهارة أمامه في المبارزة، وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه^(٢)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة ملاحظته لاكتشاف المتميزين.

مما سبق يتضح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أجاز رافعاً وسمرة - رضي الله عنهما - لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهم، وردوا صغار السن خشية ألا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمي السهام والرماح، فيفروا من المعركة، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين.

المبحث الثالث: وسائل السنة في تشجيع المتميزين من الجند.

حرصت السنة النبوية على تنوع الأساليب في تشجيع المتميزين، فتستخدم التشجيع بالدعاء، وبالعطف والحنان، والمدح والثناء، ومنح الألقاب، والمكافأة المادية:

١ - المكافأة بالدعاء:

إن الدعاء من الوسائل الحسنة التي تبعث الارتياح في نفس الشخص المتميز وتشجعه على تقديم أفضل ما لديه من مهارات، كما تعكس طبيعة العلاقة الجيدة بين القائد وجنده، وتبين مدى حرص القائد على تعزيز الأعمال الإيجابية لدى الجند، وهذه العلاقة تظهر جلياً في علاقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بجنده.

فمن صور ذلك دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في معركة أحد؛ فقد قاتل سعد بن أبي وقاص قتالاً شديداً بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى شجاعته، وثباته، وفتكه، وشدة

١ - الثقات، ابن حبان، ١ / ٢٢٤.

٢ - محمد رسول الله، للرجون، ٣ / ٥٧١.

نكاية سهامه بالعدو، وتميزه عن غيره، قال له: «أرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»^(١)، ففرح سعد بهذا الدعاء، وحق لسعد أن يفتخر بذلك، فما جمع النبي صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد سواه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: «مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُوَيْهِ لِأَحَدٍ غَيْرَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنَّهُ جَعَلَ يَقُولُ لَهُ يَوْمَ أَحَدٍ: أَرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»^(٢).

ومن الأمثلة ما ذكر من حديث سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى خيبر فتسيرنا ليلاً فقال رجلٌ من القوم لعامر بن الأكوع أَلَا تَسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم ويقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا... فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا
اقتَفَيْنَا... وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَأَلْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا... إِنْ أَدَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا... وَبِالصَّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا. فقال رسول اله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟» قَالُوا: عَامِرٌ. قَالَ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ^(٣).

لقد لاحظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- تميز عامر باستنهاض الهمم والمعنويات، وبث الروح العسكرية في صفوف الجند، فأعجب بذلك، لهذا جاء التعزيز بالدعاء له بالرحمة.

كما نجد ذلك في حديث أبي قتادة -رضي الله عنه- قال: خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: «إِنَّكُمْ تَسِيرُونَ عَشِيَّتِكُمْ وَلَيْلَتِكُمْ وَتَأْتُونَ الْمَاءَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَدًا»، فَانْطَلَقَ النَّاسُ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ. قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فَبَيْنَمَا رَسُولُ

١- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب الأدب، باب قول الرجل فداك أبي وأمي، ٥ / ٢٢٨٧.

٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الفضائل، باب فضل سعد بن أبي وقاص، ٧ / ١٢٥.

٣- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، ٥ / ١٨٥.

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ حَتَّى ابْهَارَ اللَّيْلِ وَأَنَا إِلَى جَنْبِهِ، قَالَ: فَنَعَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَاتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَيَّ رَاحِلَتُهُ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى تَهَوَّرَ اللَّيْلُ مَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ قَالَ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَيَّ رَاحِلَتُهُ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ مَالَ مَيْلَةً هِيَ أَشَدُّ مِنَ الْمَيْلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ حَتَّى كَادَ يَنْجَفِلُ فَاتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: أَبُو قَتَادَةَ، قَالَ: مَتَى كَانَ هَذَا مَسِيرِكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: مَا زَالَ هَذَا مَسِيرِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ. قَالَ: «حَفِظَكَ اللَّهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ»^(٤).

٢- العطف والحنان:

لقد عامل النبي -صلى الله عليه وسلم- جنده برحمة بالغة، فقد كان يخاطبهم بعبارة التودد والحب إلى غير ذلك من عبارات الحنو، التي أثرت تأثيراً إيجابياً في جنده.

إن هذه المعاملة التي عامل بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جنده كان لها فضل عظيم في نُضْج مواهب الجند ومقدراتهم، وفتح الآفاق لتألقهم، ففي غزوة الأحزاب نجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- يكلف حذيفة -رضي الله عنه- القيام بالتجسس على العدو، وقد استطاع حذيفة أن يقوم بالواجب على أتم وجهه، ولما رجع إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- دفاه بعباءته -صلى الله عليه وسلم- وصرفه للراحة فنام حتى الصباح فأتى الرسول -صلى الله عليه وسلم- يوقظه بكل عطف وحنان إذ قال له: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»^(٥).

وفي السيرة النبوية نجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتألف القلوب، ويجذبها بحسن معاملته وعفوه، ومن ذلك تبسمه -صلى الله عليه وسلم- فقد

٤- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، ٢ / ١٣٨.

٥- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، ٥ / ١٧٧.

كان من أكثر الناس بشراً.. ؛ يقول جرير بن عبد الله: «مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- منذ أسلمت وَلَا رَأَيْ إِلَّا تَبَسَّمْ فِي وَجْهِهِ»^(١).

٣- المكافأة المادية:

تعد المكافأة المادية من الوسائل التشجيعية التي استخدمتها السنة النبوية في تشجيع المتميزين وتحفيزهم، هذا من جهة، وتحفيز الآخرين ليحذوا حذوهم من جهة أخرى.

فمن الدلائل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ وَخَيْرَ رَجَالِنَا سَلْمَةَ، قَالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- سَهْمَيْنِ سَهُمِ الْفَارِسِ وَسَهُمِ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا ثُمَّ أَرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَرَاءَهُ عَلَى الْعُضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ»^(٢).

إن تميز سلمة بن الأكوع في المعركة جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يثني عليه، بل أعطاه سهم الفارس والراجل، وهذا محمول على أن الزائد على سهم الراجل كان نفلاً^(٣).

٤- منح الألقاب:

تعد الألقاب من الوسائل التشجيعية التي استخدمها النبي -صلى الله عليه وسلم- لتشجيع المتميزين، فكان -صلى الله عليه وسلم- يطلق الألقاب من خلال معرفته بالقدرات والمهارات لأصحابه، ويستخدم «الألقاب» في التحفيز الفعال؛ فهي بمثابة أوسمة ورتب عسكرية يتميز بها أصحابها، فمن صور ذلك منحه لخالد

١- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل جرير بن عبد الله، ٧ / ١٥٧.

٢- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد، ٥ / ١٨٩.

٣- شرح صحيح مسلم، للنووي، ١٢ / ١٨٢.

ابن الوليد - رضي الله عنه - لقب سيف، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعِيَ زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّأْيَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، حَتَّى أَخَذَ الرَّأْيَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيْوْفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^(١).
 وإذا ما عدنا إلى أحداث المعركة بعد تولي خالد القيادة، سنجد أن خالدًا أبلى بلاءً حسنًا، حيث استطاع أن يغير الخطط بما لم يكن في حساب أحد، وبما لا يخطر على فكر أعظم القادة؛ وبعد قتالٍ قويٍّ ومرير، أحجم الروم عن مهاجمة المسلمين بعد خطته الإيهامية الذكية بتغييره مراكز الجيش، ومن ثمَّ انسحاب كلِّ طرف عن الآخر دون قتال^(٢)، ولتميزه هذا جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمقدراته الحربية، لذا فقد كان له شأن كبير في الإسلام؛ وأصبح بالفعل في عداد القادة العظماء في التاريخ.

ومن الشواهد منحه - صلى الله عليه وسلم - لقب حوارِي^(٣) رسول الله للزبير بن العوام - رضي الله عنه، فعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ؟ قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟ قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ»^(٤).

١- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، ٤ / ١٥٥٤.

٢- غزوة مؤتة، للعمري، ٢٣٣.

٣- الحواري: يعني وزيراً أو ناصراً أو خالصاً أو خليلاً أو خاصة من أصحابه وحواري الرجل صفوته وخالصته أي صاحب سره سمي به لخلوص نيته وصفاء سريرته من الحور بفتحيتين شدة البياض وقيل الحواري: المستخلف نفسه في نصرة من تحق نصرته بما كان من إثاره على نفسه. فيض التقدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ٢ / ٦٥٣.

٤- صحيح بخاري، للبخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الطليعة، ٣ / ١٠٤٦.

٥- تقليد الإمارة:

استخدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - تقليد الإمارة كوسيلة من الوسائل التحفيزية للمتميزين، فمن أبرز صورها تقليده - صلى الله عليه وسلم - الأمرة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يوم خيبر فقد ورد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّأْيَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(١).

فكان هذا الشخص هو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ؛ لقد أعطى الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأمرة لعلي دون غيره، لتميزه من غيره بميزة حبه لله ورسوله، فقد ذكر ابن حجر^(٢) أن عليا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، أراد بذلك وجود حقيقة المحبة وإلا فكل مسلم يشترك مع علي في مطلق هذه الصفة وفي الحديث تلميح بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] فكانه أشار إلى أن عليا تام الاتباع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى اتصف بصفة محبة الله له ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق.

إن النتيجة المستخلصة من ذلك أنه على قادتنا وولاة أمرنا أن ينتهجوا نهجه - صلى الله عليه وسلم - في اختيار المتميزين للقيادة.

٦- المدح والثناء:

من روائع السنة النبوية هي استخدام المدح والثناء كوسيلة تحفيزية، فرغم أنها مجرد كلمات لكن لها وقعة حسنة في نفوس الأشخاص المتميزين، لما تحمل في طياتها من الإشادة والتقدير، فمن الدلائل على ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -

١- صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل علي بن أبي طالب، ٧ / ١٢١.

٢- فتح الباري، لابن حجر، باب مناقب علي بن أبي طالب، ٧ / ٧٢.

وسلم - : «كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَالِنَا سَلَمَةُ»^(١).

إن الدعاء والعبارات التشجيعية والعطف والود تعمل على حث الأفراد على بذل أقصى الجهد فيما يقومون به من مهام، ولا يختص ذلك بشخص دون آخر. كما أن تشجيع المتميزين يعني إعطاء رعاية خاصة بمن تميزوا بين زملائهم، وتهيئة الظروف التي تساعدهم على تنمية طاقاتهم الإبداعية في مجال تخصصاتهم.

إن علو الهمة وسمو الطموح ورفعة الهدف لدى الجند لا تتحقق إلا متى ما عمل قائد الجيش على تحفيزها بحيث تجعل الجندي ينسلخ من أغلال العجز والكسل لينطلق في الحياة العسكرية فاعلاً إيجابياً.

المبحث الرابع: طرق رعاية السنة للمتميزين من الجند.

١ - إتاحة الفرص للمتميزين لإظهار قدراتهم:

إن من أهم العوامل التي تساعد الأفراد على إظهار تميزهم هو مبدأ إتاحة الفرص، ولا يمكن لهذا العامل أن يتحقق إلا إذا وجدت البيئة المحفزة على ذلك، أما إذا كان المبدأ السائد هو نفذ ثم ناقش، - وهو قول مأثور في أكثر الجيوش الإسلامية الحديثة -، فلا يمكن أن تظهر قدرات المتميزين، بل إن قدرات المتميزين تُكَبَّت وتتحجر في هذه البيئة التسلطية.

لكن البيئة النبوية كانت البيئة الصالحة والحاضنة لكل أبنائها، فقد أخذت على عاتقها إصلاح الفرد المسيء وغير السوي، وتحفيز المتميز منهم وتشجيعه، حيث نجدها تتيح الفرصة لابن الجموح لإبداء رأيه بخطة عسكرية جديدة ومختلفة عن خطة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيعتمدها... والأمثلة كثيرة.

١ - صحيح مسلم، لمسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي غرد وغيرها، ٥ / ١٨٩.

وفي وسط هذه البيئة الخصبة، شمر الجند سواعدهم، وطفقوا يتنافسون في مختلف المجالات العسكرية، فكانت النتيجة بناء جيش متميز، حمل على عاتقه راية الإسلام.

إن قادة الفتح الإسلامي الذي بلغ عددهم ٢٥٦ قائداً، كان منهم ٢١٦ قائداً^(١) من صحابة الرسول القائد -صلى الله عليه وسلم-، ومن الجند المنطوين تحت أمرتهم لا نعلمهم كانوا من صحابته، وهؤلاء هم الذين حملوا رايات المسلمين شرقاً وغرباً، امتدت من حدود الصين شرقاً إلى شاطئ الأطلسي غرباً، فقد كانوا بذوراً متميزة نبتت وفتحت في تربة السنة النبوية، وأثمرت في تربتها، وارتوت من عذب هديها، فكانت بعد ذلك الأشجار التي انتفع بثمرها الناس، واستظلوا بظلها؛ فقد حررتهم من الظلم والاضطهاد، ووفرت لهم الأمان وكانت النجوم التي استنار بها الناس، بل مازلنا نفتدي ونستنير بطولاتهم وتضحياتهم وأعمالهم العسكرية، فما زالوا متوهجين لم يخب نورهم بعد.

وسنأخذ مثلاً واحداً على مبدأ إتاحة الفرصة في السنة النبوية للمتميزين، وهذا المثل هو إتاحة الفرصة لأسامة -رضي الله عنه-؛ فقد بعثه -صلى الله عليه وسلم- في إحدى البعثات القتالية، وهذا ما نلمسه من حديثه؛ إذ يقول: «عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَّةِ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتَهُ، فَلَمَّا قَدَمْنَا بَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؟! قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»^(٢).

بعد هذه الواقعة أمره -صلى الله عليه وسلم- على جيش أكبر من ذلك، ألا

١- الرسالة العسكرية للمسجد الثكنة الأولى، لمحمود شيت، ٢/ ٤٦٥.

٢- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة، ٤/ ١٥٥٥.

وهو الجيش الذي سيغزو الروم، وشعر بعض الصحابة أن هذه المهمة ربما ينوء بها أسامة - رضي الله عنه -، وأنه لو ولي غيره كان أولى، فبين النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك لهم؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إِنْ تَطَعْنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَإِيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(١)، وقد كان عمر أسامة بن زيد - رضي الله عنه - حين توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - ثماني عشرة سنة^(٢)، فخرج هذا الجيش في بداية خلافة الصديق - رضي الله عنه -، فاستطاع أن يحقق انتصارات كبيرة، وعاد إلى المدينة من غير أن يفقد أحد جنده^(٣)، ومما سبق يتضح الآتي:

١- لقد استخدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبدأ إتاحة الفرص، فرغم أخطاء أسامة في البعثة الأولى إلا أنه نجح في المرة الثانية، وما كان له أن يظهر تميزه لولا هذا المبدأ.

٢- أعطانا هذا الموقف درساً بأن الإنسان يمكن أن يخطئ، ولكنه يمكن له أن يتجاوز الخطأ، وليس بالضرورة يبقى علماً عليه لا يفارقه، بل ويصبح متميزاً. إن المتأمل في الجيوش الإسلامية سيجدها جيوشاً متخلفة، فما هي إلا أسواق تستقبل المعدات الحربية من الخارج، وسبب ذلك سيطرة غير الكفوئين من المتنفذين على أجهزتها فوقفت أمام كل تقدم.

٣- إن القيادة لا تنحصر على كبار السن، أو ما يسمى مبدأ الأقدمية، بل لا بد من إعطاء الطاقات الشابة مكانها في القيادة.

١- صحيح البخاري، للبخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم، ٤ / ١٦٢٠.

٢- شرح صحيح مسلم، للنووي، ١٥ / ٢٠٥.

٣- ينظر: تاريخ الأمم والملوك المعروف ب: تاريخ الطبري، للطبري، ٢ / ٢٤٤ ومابعداها.

ومن هذا المنطلق فإن الرجوع إلى السنة النبوية للاقتباس من هديها في تعاملها مع الجند المتميزين ورعايتهم ضرورة ملحة، وذلك من خلال إعطائهم الفرصة لإظهار مواهبهم والعمل على تزكيتها، ولا يقفوا حجراً عثرة في طريق إظهار إبداعاتهم، حتى لا يكونوا عائقاً لإبراز قدراتهم.

٢- تنمية ميول المتميز:

مما لا شك فيه أن إدراك ميول المتميز هي اللبنة الأساسية نحو رعايته والاهتمام به، فعندما يتم التعرف على ميوله في أي جانب يتم دفعه إليه، وتشجيعه عليه، وتكليفه به.

وهذا الأسلوب ينمي مهاراته، وكذا يشبع رغباته؛ لأن تميز الفرد في أي جانب هي رغبة ذاتية لديه، لذا فهو يحاول إشباعها، ومتى ما حدث العكس يصاب الفرد المتميز بالإحباط، وربما تموت مهارة التميز فيه.

ومهما يكن من أمر فإن السنة النبوية كانت تعتمد هذه الطريقة في تنمية ميول المتميزين، فمما سبق من شواهد في هذا البحث تؤكد لنا هذه الطريقة، حيث نجده -صلى الله عليه وسلم- يتعرف على ميول جنده كقوله: من يأخذ هذا السيف بحقه، فلا يبرز هنا إلا المتميز، ثم يدفعه إلى هذا المجال.

ولكن في بعض الأحيان يحاول الرسول -صلى الله عليه وسلم- التعرف على ميزة الجندي وإن لم يفصح عنها، فمثلاً نجده -صلى الله عليه وسلم- يخاطب جنده بقوله: «من يأتيني بخبر القوم...» الحديث، وعندما لم يبرز أحد بعد تكرارها، اختار أحد جنده القيام بالمهمة، وكان اختياره -صلى الله عليه وسلم- للجندي مبنياً على معرفة سابقة لتميزه في هذا الجانب، فكان ذلك بمثابة دفعه إلى هذا الجانب، وتنمية مهارته.

٣- تحقيق الذات:

من المؤكد أن الفرد المتميز يسعى دائماً لتأكيد ذاته، وإثبات قدراته، وفي أكثر من حادثة يظهر إشباع النبي - صلى الله عليه وسلم - لحاجة المتميزين بتحقيق الذات.

نجد الرسول يشاور جنده المتميزين في وضع الخطط العسكرية، فكل جندي يجتهد أن يعطي أفضل ما لديه، فمثلاً في غزوة بدر تميز ابن الجموح في خطته^(١) وأثبت ذاته... وهكذا.

كما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقُد كل المعارك بنفسه، بل يسند قيادتها إلى المتميزين من أصحابه، كما أنه - صلى الله عليه وسلم -، لم يحتكر القيادة على مجموعة معينة، لهذا نجده يسند القيادة مثلاً لعمر بن العاص - رضي الله عنه - وأبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - جند تحت أمرته^(٢)، ويسند قيادة الجيش لأسامة، وفيه كبار المهاجرين والأنصار^(٣)، لهذا كان القائد يحاول أن يثبت ذاته.

١- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ١٩ / ٢.

٢- تاريخ الأمم والملوك، للطبري، ١٤٦ / ٢.

٣- المستدرک، للحاکم، کتاب المغازی، صحیح الإسناد، ٤٥ / ٣، تاریخ الأمم والملوک، للطبري، ٢٥٣ / ٢.

الخاتمة

أحمد الله تعالى العلي القدير أن منَّ عليَّ ويسَّر لي سُبُل إنهاء هذا البحث بهذه الصورة المتواضعة، التي حرصنا على أن تكون الرصانة العلمية أساس قوامه، والذي تتبَّعنا فيه صناعة التميز العسكري للجند في السنة النبوية. وبعد الرصد الدقيق، برزت أمام الباحث جملة من الحقائق والاستنتاجات والتوصيات نرصدها بالآتي:

١- الاستنتاجات:

- أن سيرة النبي-صلى الله عليه وسلم- هي الركيزة الأساسية في العقيدة العسكرية، لما لها من دور أساسي في تكوين شخصية الأمة وبناء حضارتها.
- لقد اهتمت السنة النبوية بالمتميزين، وطرق رعايتهم، ووسائل توجيههم، لتسخير طاقتهم، وقدراتهم في تحقيق ذاتهم أولاً وخدمة أمتهم ودينهم ثانياً.
- السير على نهجه-صلى الله عليه وسلم- في الاستفادة من الجند المتميزين، فقد كان-صلى الله عليه وسلم- لا يدع ميزة في كل جندي إلا استفاد منها، فاستقطب تلك المميزات في بناء الجيش، فقد كان لا يضع جندياً إلا في المكان المناسب، فجعل هذا البناء العسكري يرتفع.
- كشفت السنة النبوية أنه من أجل تكوين جيش متميز؛ لا بد أن نعد له العدة من السلاح وندربه تدريباً متكاملًا، ونهذبه، ونجهزه التجهيز المتميز، وننظمه التنظيم الدقيق.
- ارتبطت توجيهات السنة النبوية بكشف المتميزين ومكافأتهم بالأحداث، والظروف الحاجية التي تُهيئ إبرازهم وتشجيعهم.

- كشفت السنة أن قيادة الجيش يتولاها النخبة المتميزة من أفرادها، فهم أصحاب القابليات المتميزة.

٢- التوصيات:

- تَبَنِّي الكليات والمعاهد العسكرية تدريس مساقات متخصصة في التشريعات العسكرية الإسلامية والتربية العسكرية الإسلامية.
- التواصل بين كليات وأقسام ومراكز السنة النبوية ومؤسساتها، والكليات والأقسام والمراكز العسكرية؛ متابعة تطور البحوث العلمية في المجال العسكري؛ وإفادتها بالوصايا النبوية لبناء الشخصية العسكرية.
- العمل على نشر ثقافة التميز في المجتمع، من خلال التوعية الإعلامية، وطرحها في الجامعات، حتى يدرك المجتمع أهميتها.
- تتولى المؤسسات والجامعات والمدارس رصد الجوائز المالية الكافية لإقامة مسابقات علمية وتكريم المتميزين.

المصادر والمراجع

- الاتباع، لأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت: ٣٥٦هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر والبصري الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، حققه ودقق أصوله وعلق على حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي أبو الفيض (ت: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، لمحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، لجمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت: ٧٤٢هـ)، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي والدار القيّمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م.
- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥ م.
- تفسير القرآن العظيم، لعلماد الدين الإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير، (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م.

- الثقات، لمحمد بن حَبَّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دمشق - دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب - الرياض، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الجامع الصحيح المختصر المعروف ب: صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- الجامع الصحيح المسمى: صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، دار الجيل - بيروت / دار الأفاق الجديدة - بيروت.
- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبه. تنظيمه. أسلحته. بحريته. وأبرز المعارك التي خاضها، لمحسن محمد حسين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الجيش في اليمن في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ) / ١٢٢٨

- (١٤٥٤م): دراسة تاريخية، لعبد الحكيم محمد ثابت العراشي، رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة صنعاء، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- الجيش والقتال في صدر الإسلام، لمحمود أحمد محمد سليمان عواد، مكتبة المنار - الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- الرسالة العسكرية للمسجد الثكنة الأولى، محمود شيت خطاب، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المجلد الثاني.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لعبد الرحمن بن عبد الله ابن أحمد الخثعمي السهيلي (ت: ٥٨١هـ)، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- سنن البيهقي الكبرى، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو، الأزدي (ت: ٢٧٥هـ)، دار الكتاب العربي بيروت.
- السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.

- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان
الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣
هـ / ١٩٩٣ م.
- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب بن هشام (ت: ٢١٨هـ)، تحقيق:
طه عبد الرؤوف، دار الجيل - بيروت، ١٤١١هـ.
- السيرة النبوية، لعماد الدين الإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي
الدمشقي المعروف بابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد،
دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧١ م.
- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف
الزرقاني (ت: ١١٢٢هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١١هـ.
- شرح النووي على صحيح مسلم، لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري
النووي (ت: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية،
١٣٩٢هـ.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي
البستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت،
الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م.
- صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني
(ت: ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي.
- صناعة القائد، طارق السويدان، وفيصل باسراحيل، الطبعة الثانية،
١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م.

- الطبقات الكبرى المعروف بطبقات ابن سعد، لمحمد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، دار بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- العقيدة العسكرية والمفاهيم الاستراتيجية، لحسين بن محمد موسى الحكيمي، ١٤٣٢هـ.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لمحمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس (ت: ٧٣٤هـ)، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر.
- غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، بريك بن محمد بريك أبو مائلة العمري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- فقه السيرة، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، تحقيق: العلامة محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم - دمشق، الطبعة السابعة، ١٩٩٨م.
- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية، لعبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي (ت: ١٠٣١هـ)، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

- الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٥هـ.
- كتاب المغازي، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت: ٢٠٧هـ)، تحقيق: ماردسن جوسن، عالم الكتب-بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت: ٥٣٨هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- كشف المشكل من حديث الصحيحين، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.
- محمد رسول الله، الصادق عرجون، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت بعد: ٦٦٦هـ)، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- المخصص، لعلي بن إسماعيل المعروف بابن سيده (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

- المستدرک علی الصحیحین، لمحمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، (الأحاديث مزيلة بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها)، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- مسند أبي عوانة، للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الاسفرائني (ت: ٣١٦هـ)، دار المعرفة - بيروت.
- مسند أبي يعلى، لأحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي (ت: ٣٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- مُصنّف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة.
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
- الموطأ، للإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك (ت: ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الشعب - مصر.

الجلسة الختامية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الأمانة: أ.د. رفعت فوزي - عضو الأمانة العامة

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه، سبحانه لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام.

لك الحمد الدائم السرمد، حمداً لا يحصيه العدد، ولا يقطعه الأبد، كما ينبغي لك أن تحمد، وكما أنت له أهل، وكما هو لك علينا حق، يا رب العالمين.

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،،،،

أيها الأخوة الكرام، والأخوات الكريمات، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كلمتي هذه كلمة شكر، وتعبير عما طاب لي، وأظن أن هذا يشاركني فيه الإخوة أعضاء الأمانة العامة للندوة المباركة.

أما الشكر ينبغي أن يكون خالصاً موصولاً إلى الرجل الأول الذي جعله الله عز وجل سبباً في هذا الجمع العلمي الكريم، ألا وهو صاحب المعالي السيد جمعة الماجد، الذي كثرت أمجاده، وطال عطاؤه، وتباركت مسيرته على درب الخير، وما هذه الندوة إلا غيض من فيضه، ونفحة من نفحاته الكثيرة.

طما أوجه الشكر إلى د. محمد عبد الرحمن مدير كلية الدراسات الإسلامية والعربية على رعايته لهذه الندوة الكريمة من بدايتها إلى نهايتها في هذه الدورة. ولا نملك إلا أن نقول لهم: جزاك الله تعالى خيراً، وقد قال الرسول ﷺ: «من قال لأخيه جزاك الله خيراً فقد أبلغ».

و يطيب لي إخواني الكرام أن أشرف بإلقاء هذه الكلمة في هذه المناسبة

الطيبة المباركة، تلك التي فجرت الطاقات الكامنة في سُنَّة رسول الله ﷺ وما أكثرها، والتي أوضحت جوانب عدَّة من التميز والتقدم والرقي.

كما يطيب لي باسم الأمانة العامة للندوة أن أنوه بتلك البحوث المتميزة المستنيرة بالهدي النبوي الشريف، وان أنوه بأصحابها الذين قدموا بذكاء، وموضوعية، واقتدار ما تذخر به سُنَّة نبيهم الكريم ﷺ، فيقال: هاؤم اقرءوا وتميزوا بما قدموا السنة النبوية الشريفة لكم من كنوز.

إن هذه الكنوز في حاجة إلى من يستخرجها ويُجليها؛ لتنهض بالمسلمين من كبوتهم، وتحقق قول الله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ».

فلسنا أقل ممن تقدموا وسبقوا، ومعنا ما إن تمسكنا به سبقنا وتميزنا، كتاب الله تعالى، وسُنَّة نبيه ﷺ، بل ويكون في تقدمنا الخير، وفي سَبِقنا الفضل بما نحمل من هذين النورين اللذين يَشِعَّان بعطاء الروح والأخلاق، مع تقدم المادة التي تقدم هؤلاء بها فقط.

وليس تأخرنا أيها الإخوة الكرام، والأخوات الكريمات هو نهاية المطاف، فلقد بشرنا نبينا محمد ﷺ بأنه لا تزال طائفة من الأمة ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله.

فالله تعالى مولانا وناصرنا إذا تمسكنا بكتابه الكريم، وسنة نبيه الشريفة. وما ظنكم بمن يكون الله عز وجل مولاه وناصره، وقد جمع بين يديه في مسيرته هذين الأمرين اللذين يمدانه باليقين والتَّسَدِيد والاستقامة والخير! جزا الله القائمين على الندوة خير الجزاء وأحسنه، فقد حَفَظُوا واستثَارُوا الباحثين، فقدموا الأعمال العلمية الرائعة.

ووقفنا الله جميعاً لخدمة أمتنا بإنارة الطريق لها بشموس السنة وأقمارها،
واستخراج كنوزها ودفائها التي غطتها الفتن والتخلف. وذلك بجهود فتيّة،
وعقول مستنيرة.

و الله عز وجل الموفق والهادي إلى صراطه المستقيم، وادعوا الله تعالى أن
يبارك في هذه الندوة، وفي أعمالها وآمالها، وفي طموحاتها بما يحقق للمسلمين
خاصة والبشرية عامة الخير والتقدم على هدى من الله عز وجل وبصيرة.

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ التوبة: ١٠٥

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ يوسف: ١٠٨

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب
العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

توصيات الندوة العلمية الدولية السادسة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه
الغر الميامين، وبعد:

بتاريخ السادس عشر من جمادى الأولى لعام أربعة وثلاثين وأربعمائة وألف
من الهجرة، الموافق الثالث والعشرين من شهر نيسان أبريل لعام ثلاثة عشر وألفين
من الميلاد، انعقدت بحمد الله وتوفيقه الندوة الدولية السادسة بعنوان: ” صناعة
التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية“ في رحاب كلية الدراسات الإسلامية
والعربية بدبي، واستمرت أعمالها على مدار ثلاثة أيام، شارك فيها نخبة من
العلماء والباحثين والضيوف، وبحضور من طلبة الكلية، وقدمت فيها بحوث
علمية رصينة متنوعة، كانت مجالاً واسعاً للمناقشات والمداخلات والتعقيبات
والردود.

ومن خلال الأبحاث المقدمة والمناقشات التي أعقبتها، وبعد اجتماع الأمانة
العامة للندوة، تم التوصل إلى التوصيات الآتية:

- أولاً: دعوة المؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية لتبني استراتيجية
متكاملة لتهيئة البيئة المناسبة للتميز والإبداع، واكتشاف المواهب، ورعايتها
الرعاية التامة.
- ثانياً: إنشاء مراكز تدريبية للتأهيل الأسري، للنهوض بالأسرة المسلمة،
والعمل على تنمية مواهبها، ومعالجة الظواهر السلبية فيها.
- ثالثاً: العمل على نشر ثقافة التميز وبناء المهارات المستخلصة من السنة
النبوية والسيرة العطرة في المجتمع من خلال التوعية الدعوية والإعلامية.

○ رابعاً: وضع مقررات دراسية تُعنى بصناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية.

○ خامساً: تطوير مقررات السنة النبوية وعلومها في المؤسسات التعليمية بما يحقق تنمية المهارات المتنوعة لدى الطلبة.

○ سادساً: العمل على إخراج موسوعة أحاديث التميز وتنمية المهارات يُسهم فيها الباحثون من مختلف التخصصات.

○ سابعاً: تخصيص جائزة عالمية تُعنى بالإبداع والتميز في خدمة السنة النبوية، وإنشاء وقفية لهذا الغرض.

وتوصي الأمانة العامة للندوة الباحثين بتطوير أبحاثهم وإثرائها والوصول بها إلى مشاريع علمية متكاملة.

كما تحث الجهات الرسمية وغيرها على تبني تمويل هذه المشاريع ونشرها. وختاماً...

فإن الأمانة العامة تتقدم بالشكر الوافر والامتنان العطر لمعالي جمعة الماجد، رئيس مجلس أمناء الكلية ومؤسسها وراعي الندوة المباركة على جهوده المبذولة في خدمة السنة النبوية ونشرها والذب عنها.

كما تتقدم بشكرها الجزيل إلى سعادة مدير الكلية الدكتور محمد عبدالرحمن على اهتمامه ومتابعته الدؤوبة لسير أعمال الندوة، وتذليل الصعاب التي واجهتها في كل مراحل الإعداد لها.

والشكر موصول إلى جميع اللجان العاملة، أساتذة، إداريين وإداريات، طلابٍ وطالبات، على جهودهم العظيمة في التنظيم والإعداد لهذه الندوة.

كما لا يفوت الأمانة العامة أن تنوه وتشيد بحكومة دبي الراشدة الرائدة على التسهيلات المقدمة وكرم الضيافة، وإلى الرعاية الذين أسهموا في رعاية الندوة وإنجاحها بدعمهم المادي والمعنوي.

وفي هذا المقام وبعد إذن سعادة مدير الكلية نعلن عن رفع أعمال الندوة العلمية الدولية السادسة، وبدء العمل في فعاليات الندوة العلمية الدولية السابعة وعلى بركة الله وبسمه.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

د. عبدالسلام أبو سمحة

مساعد الأمين العام

